استراتيجية الفتوحات الإسلامية

(١)

الطريق إلى المدائن

أحمد عادل كمال

الكتاب : الطريق إلى المدائن
استراتيجية الفتوحات الإسلامية

الكاتب : أحمد عادل كمال

طبعة القاهرة ٢٠٠٤
عدة طبعات سابقة ببيروت

الغلاف : صالح وحيد

الجمع والصف الالكترونى والإخراج :
وحدة الكمبيوتر بمركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين-عمارات الأوقاف ميدان الكيت كات-القاهرة
تليفاكس : 3448368 (00202)
alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

الطريق إلى المدائن

رقم الإيداع : ٢٨٢٢/٢٠٠٤

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

تقديم هذه الطبعة

جاءت رسالة الإسلام برداً وسلاماً تدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد الخالق، ولكنها قوبلت بالكفر والجحود والبطش والتعذيب لوأدها وكتم أنفاسها. فلما أخلص لها المؤمنون بها وصبروا وأسلموا وجوههم لله نصرهم الله، فأقاموا أول دولة تجمع جزيرة العرب بعد أن كانت بدواً أشتاتاً وقبائل شتى.

ولما كان دين الإسلام رسالة إلى جميع البشر وهو خاتم الرسالات فكان على المؤمنين به أن يبلغوه إلى الناس كافة، ولكن طواغيت فارس والروم أبت أن يحدث ذلك.

لم يكن من أهداف المسلمين أبداً إكراه أحد على الدخول فى دينهم، إنما كان هدفهم الأوحد هو أداء الأمانة بتبليغ الرسالة، ومن أجل ذلك فرض الجهاد فى سبيل الله، وكانت له فى الشريعة الإسلامية فقه وأحكام، وخرجت من بيداء العرب جيوش تحمل تلك الرسالة، دعوة المخلوقين إلى عبادة الذى خلقهم، مجرد دعوة دون إكراه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ثم مرجعهم جميعاً إلى الله.

وقوبلت تلك الجيوش بجيوش أكثر عدداً وأكبر عدة، حتى ذهب بعض الكتاب إلى أن انتصار المسلمين كان معجزة من معجزات الله، ولكن إرادة الله وسنته فى خلقه قضت أن تكون لهذا الكون قوانين وقواعد تحكمه، وأن كل نتائج لها مقدمات تؤدى إليها خلافاً لمنطق المعجزات.

كانت الفتوح حروباً لم تكن لقادتها سوابق فى تجييش الجيوش وتخطيط معاركها، ولا درسوا علوم الحرب فى مدارس وكليات حربية، وإنما كانوا من الأساتذة الذين كان ما قاموا به أسساً لهذا العلم يتعلمه اللاحقون عنهم، وصار معرفته وتسجيله دعماً للتاريخ الحربى ولعلم الحرب الذى ينهل منه من يبغى التفوق فيه، كما وأنه إيضاح لازم لجانب من جوانب التاريخ الإسلامى لم يسبق استيفاؤه.

ومن قصور النظر ومحدودية الفهم أن يظن أحد أن علم التاريخ هو مجرد النظر إلى الماضى، إنما التاريخ هو دراسة الماضى وفهم عبره للإستفادة به فى حاضر الحياة وفى مستقبلها.

ولقد تولت دار النفائس ببيروت - مشكورة - نشر ذلك منذ ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م ولطبعات عديدة، ومن الكتب ما يبقى سنوات وسنوات وعقوداً بل وقروناً. من أجل ذلك نقوم بإصدار

هذه الطبعة من مصر لتظل تحت يد القراء، فإن الفتوح الإسلامية كما تقول هذه الكتب كانت حدثاً فرداً في تاريخ كوكبنا لم تكن له سابقة أو لاحقة في رسوخ قدمه واتساع رقعته وثبات آثاره أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وهي دراسة استراتيجية وتكتيكية لمعارك الفتوح وتوقيعها على خرائط تعود إلى واقعها في عصر حدوثها. وقد حدث في هذه الطبعة التي تصدر من مصر تعديل في بعض الخرائط لزيادة الإيضاح، وحتى تكون تحت يد القارئ في مصر والعالم العربي عامة.

و«الطريق إلى المدائن» هو الكتاب الأول من هذه المجموعة، وهو عن بدء الفتوح في اتجاه العراق في أعقاب حروب الردة، يشمل في قسمه الأول المقدمات اللازمة عن طبيعة المنطقة وسكانها ودولها وأحوالها وأدوات الحرب وأساليبها، ثم ينتقل إلى تناول تلك المعارك لا مجرد نقل أو تجميع من المصادر القديمة وإنما شرحاً وتحقيقاً وتعليقاً يأخذ القارئ إلى معايشتها والسير مع جيوشها والتعرف على أعلامها يحس بأحاسيسهم ويكابد معهم العناء ويفرح معهم بالنصر.

ومن بعد «الطريق إلى المدائن» يجيء كتاب «القادسية» عن تلك المعركة الحاسمة الواحدة التي انكسر فيها الجيش الكبير لفارس فانفتحت بعدها أرض العراق.

ثم كتاب «سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية»، يتناول عبور المسلمين نهر دجلة ودخول المدائن كما يشرح معركة نهاوند التي توصف بأنها فتح الفتوح التي انفتحت بعدها فارس، وما كان خلال ذلك من معارك بينية، ومصير يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان.

ويجيء الكتاب الرابع «الطريق إلى دمشق» عن فتح الشام، الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان بكافة معاركه وعلى رأسها معركة اليرموك درة معارك الفتوح الإسلامية.

ومن بعد فتح الشام يجيء الكتاب الخامس عن «الفتح الإسلامي لمصر»، وهو لم يصدر من قبل.

نسأل الله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه مفيداً لقارئه ولأمتنا.

والله المستعان،

أحمد عادل كمال

القاهرة ٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول

الباب الأول : **المقدمة ومنهج البحث**

الباب الثانى : **العرب وشبه جزيرة العرب**

الباب الثالث : **عدة الحرب**

الباب الرابع : **الدولة الساسانية**

الباب الخامس: **المقاييس**

الباب الأول

المقدمة ومنهج البحث



مقدمة

الحروب في التاريخ

تتعاقب على العالم فى كل دوله وعصوره أحداث شتى.. أحداث سياسية وأحداث حربية وأحداث اقتصادية، وتطورات فكرية وتغيرات اجتماعية. كل ذلك يصنع التاريخ ويشكل مادته. ولقد قسم علم التاريخ تبعاً لذلك إلى تاريخ سياسى وتاريخ حربى - أو عسكرى - وتاريخ اقتصادى وتاريخ فكرى وتاريخ اجتماعى.... الخ.

وتاريخ الحروب (التاريخ العسكرى) فرع من فروع علم التاريخ، تناوله العلماء بالبحث والدراسة قديماً وحديثاً. فنجد فى المكتبة شروحاً للمعارك الشهيرة التى رسمت خريطة العالم فى مختلف العصور، معارك تحتمس الثالث، ورمسيس الثانى، وهانيبال ويوليوس قيصر، ومعارك الروم والفرس، وحروب جانكيزخان والتتار، وحروب الإسبان والسكسون، والحروب الاستعمارية، وحروب نابليون، والحرب الأهلية الأمريكية، وحروب محمد على الكبير وابنه إبراهيم، وحرب السبعين وجميع معارك الحرب العالمية الأولى.. والثانية، واستراتيجية هتلر، والعمليات العسكرية لاغتصاب فلسطين، وحرب كوريا، والغزو الثلاثى لأرض مصر عام ١٩٥٦ و٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧.. إلخ. كل ذلك وغيره فاضت به مؤلفات التاريخ الحربى الغربية. وما ترجم منها أو نقل عنها أو ألف ابتداء بالعربية، جعل هذه المواضيع فى متناول يد قارئ العربية، ومن وجهات نظر مختلفة.

أما التحرك الإسلامى، فمظلوم عند الكتّاب، مهضوم عند الباحثين! دولتان كبيرتان تقتسمان العالم المعروف فى القرن السابع الميلادى بالقوة الحربية، لكل منهما خبرة قرون فى الحروب، وبدون مقدمات.. فجأة.. تقوم من العدم دولة - لم تكن من قبل دولة ولا شبه دولة - فتمحو من خريطة الوجود دولة الفرس من المشرق، وتزيح حدود دولة الروم إلى الغرب عشرات الآلاف من الأميال، بأعداد قليلة من الجند وفى سنوات تعد على أصابع اليدين!! حدث لا نظير له فى تاريخ العالم، ثم لا نجد فى المكتبة ما يشرح لنا من وجهة نظر علم الحرب

- والحرب علم - كيف حدث هذا. كيف أزالت جيوش المسلمين من سجل الدول العظمى التى تقتسم العالم دولتى الفرس والروم فى أقل بكثير مما تزول به الأفراد فضلاً عن الدول، لا سيما الكبرى منها.

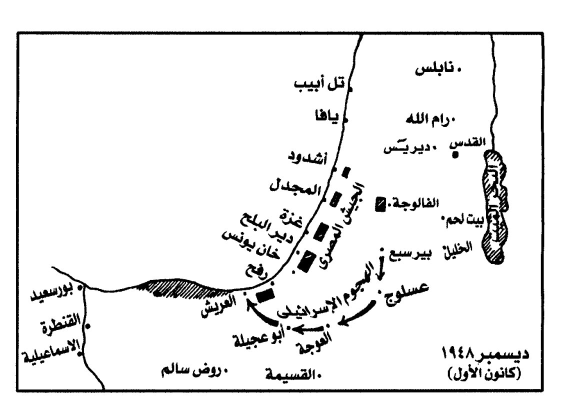
ودراسة تاريخ الحروب ضرورة لا بد منها لقادة الجيوش وضباطها ولساسة الدول، ولكل من يريد أن يتابع أحداث الدنيا القديمة والمعاصرة عن بصيرة، فإن التاريخ الحربى دائماً وأبداً يعيد نفسه.. ربما على نفس الأرض، أو على أرض غيرها.. طبق الأصل، أو بتعديل طفيف أو كبير. ولا يخلو الأمر دائماً من عبرة وعظة ودرس يكتسبه الدارس لكل معركة، فضلاً عن المعارك القياسية التى تعتبر نموذجاً يحتذى وينسج على منواله، ولقد كان نابليون بونابرت ينصح ضباطه بأن يقرؤوا سير الحملات التى قام بها كبار القادة وأن يعيدوا قراءتها مراراً وتكراراً لأن فيها الأمثلة العملية على تطبيق مبادئ الحرب. ومما أثر عنه قوله: «اقرأ ثم اقرأ حملات كبار القادة».

وليس المقصود بدراسة التاريخ الحربى قصره على الاستراتيجية والتكتيك، بل إن هذه الدراسة تتعدى ذلك إلى العوامل السياسية والإدارية والنفسية والعقيدية وأثر البيئة ونظام القيادة، وأثر ذلك كله على سير الحملات ونتائجها. يقول الجنرال ويفل «إذا علمت أن نابليون قد أحرز النصر فى حملته سنة ١٧٩٦ بطريقة المناورة على الخطوط الداخلية، أو بعبارة أخرى مماثلة، فليس لهذه المعرفة قيمة تذكر، أما إذا أمكنك أن تدرك كيف استطاع شاب صغير مغمور أن يبث روح الحماس فى جيش نصف جائع، رث الثياب، متمرد، حتى جعله يقاتل، وكيف بعث فيه النشاط والقوة الدافعة حتى سار وحارب مثلما فعل، وكيف استطاع أن يمد سلطانه وسيطرته على قواد أكبر منه سناً وأوفر تجارباً.. إذن تكون قد تعلمت[١] شيئاً». ويقول المارشال فوش: «ليس من الممكن القيام بالدراسة فى ميادين القتال، فإن المرء فى الميدان يبذل ما يستطيع لكى يطبق ما يعرف. فابتغاء القيام ولو بقسط يسير من العمل يتطلب أن يعرف المرء الشىء الكثير وأن تكون معرفته به[٢] وثيقة». ونقدم هذه الأمثلة لقادة سجلوا استفادتهم من دراستهم لتاريخ الحروب وما أكثرهم.

كتب الجنرال يادين، رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى فى فلسطين عام ١٩٤٨، فى مجلة الجيش الإسرائيلى، فتحدث عن تقدم الجيش المصرى بحذاء الساحل على محور العريش

(١) معارك الشرق الأوسط - المقدمة.
(٢) معارك الشرق الأوسط - المقدمة.

تل أبيب، ثم قال إنه كان يعلم من دراسته لتاريخ الحروب السابقة على هذه الأرض أن فلسطين دار لها بوابة ذات مصراعين : أحدهما غزة والثانى بير سبع، وأنه من الخطورة بمكان لأى جيش يتقدم من الجنوب إلى الشمال أو بالعكس أن يجتاز هذه البوابة ما لم يكن فى يديه كلا المصراعين. فلما وجد أن الجيش المصرى اجتاز غزة بهدف الوصول إلى تل أبيب دون أن يعنى بالاحتفاظ فى يده ببير سبع، وجد أن فرصته قد سنحت. فجمع القوات الإسرائيلية المتوفرة تحت يده فى بير سبع، ليقطع على الجيش المصرى المتقدم خط رجعته.



خريطة رقم (١) - حرب ١٩٤٨

ثم يقول إنه قرأ فى دراسة للحروب الصليبية، أن صلاح الدين الأيوبى عبر من العريش إلى بير سبع على طريق لم يكن جزء كبير منه معروفاً عام ١٩٤٨، فذهبوا يبحثون عنه حتى وجدوه مطموراً فى الرمال. ولما كان من غير المستطاع فى ظروف الحرب إزاحة الرمال عن الطريق فى وقت مناسب، فضلاً عن أن ذلك العمل سوف يلفت نظر المصريين، الأمر الذى يفسد عنصر المفاجأة، لذلك لجأ إلى الطريقة التقليدية الأكثر سرعة فى الحروب، بمد الشباك فوق تلك الرمال التى تكسو الطريق. وعبر عليه بعرباته من بير سبع إلى عسلوج إلى العوجة إلى أبو عجيلة، فطلعت على مؤخرة الجيش المصرى بالعريش فى حركة تطويق سريعة، وبها مركز الإشارة لجميع القوات المصرية المتقدمة.

فكانت مفاجأة مكنت الإسرائيليين من تدمير سلاح الإشارة، وبذلك فقدت قوات الجيش المصرى المتقدمة الاتصال بين وحداتها ومع قيادتها على مدى ذلك الامتداد الذى انتشرت عليه. وصار من الميسور على الإسرائيليين أن يوجهوا ضرباتهم إلى كل وحدة على حدة وهى منقطعة الصلة عما سواها. وحينما أرادت بعض الوحدات التراجع على عجل أدى التراجع غير المنتظم إلى انعزال قوة الفالوجا التى حوصرت... إلخ.

مثال ثان: حين تولى الجنرال اللنبى قيادة الجيوش الإنجليزية بمصر فى الحرب العالمية الأولى وكلف بفتح فلسطين، توقف شهوراً فى العريش يعد العدة لذلك الغزو، ويقرأ تاريخ المعارك السابقة التى دارت على أرض فلسطين، ثم بدأ بعدها زحفه الذى استغرق بضعة أشهر. ولقد درس اللنبى معركة تحتمس الثالث دراسة وثيقة، ونسج على منواله فى إحراز النصر على الأتراك فى اختراق ممر عرونا، الذى سلكه من قبل تحتمس، وكان يقول منذ البداية «إن المعركة الحاسمة فى هذه الحملة ستدور رحاها فى ممر[1] مجدو». ومع ذلك فاته أمر: لقد بدأ ذلك الزحف من صحراء سيناء الحارة فى الصيف، فبلغ القدس على الجبال المرتفعة فى الشمال شتاء، وكان جنوده مازالوا فى ملابسهم الصيفية والسراويل القصيرة، فأصيب جيشه بالانفلونزا. فسأل اللنبى الدكتور سير هبرت إيسن Sir Hobart Easen عما يعلمه عن الأمراض التى أصابت الجنود فى تاريخ الحروب فى مصر وفلسطين، فأخبره بأنه ترجم مذكرات لارى Larry ، كبير أطباء الحملة الفرنسية على مصر، التى تناولت أمراض الرمد، الذى أدى إلى إصابة كثير من جنود الحملة بالعمى ١٧٩٨ - ١٨٠١، وذكر له أنه أرسل تقريراً ضافيا فى هذا الموضوع إلى وزارة الحرب، فطلب اللنبى[2] صورة عن التقرير..

مثال ثالث: كان لخالد بن الوليد طريقته فى قيادة معاركه. فهو كأى قائد يرسم للمعركة خطتها، ولكنه يدرك أنه ليس إلا طرفاً فيها وأن أمامه طرف ثان يشاركه التصرف، وربما أفسد عليه خطته وتدبيره. لا يهم!.. المهم أنه فى اللحظة التى يبدأ فيها رجحان كفة على أخرى، حتى لو كان هو صاحب الكفة المرجوحة، حتى فى هذه الحالة فهو يدرك أن نوعاً من الخلل فى الصفوف يحدث فى كلا الطرفين. فلا ينخلع قلبه ولا يجزع، وإنما يرمق الميدان بعين الخبير الفاحصة بحثاً عن ذلك الخلل فى صفوف عدوه، وكان لا يخطئه أبداً، فما أن تسنح الفرصة، حتى يبادر إلى انتهازها، ويسدد ضربته فى سرعة وقوة. انهزم المشركون يوم أحد وهو معهم

---

(١) معارك الشرق الأوسط - المقدمة.

(٢) معارك الشرق الأوسط - المقدمة.

أمام المسلمين الذين كانوا يعتصمون بالجبل، ورأى خالد حماة الجبل يطمئنون إلى هزيمته فيتركون جبلهم وينزلون إلى السهل للمشاركة فى المطاردة. وجدها خالد.. لقد انكشف ظهر المسلمين، فدار بفرسانه من ورائهم وارتقى الجبل وطلع بخيله وراء المسلمين، وأمسك بيده ميزان المعركة. وكان خالد قائد المسلمين أمام الروم فى موقعة اليرموك عام ١٣هـ/ ٦٣٤م، وتفوق الروم وأزاحت فرسانهم قلب جيش المسلمين حتى اقتحموا فسطاطه وهتكوه بسيوفهم.. ونظر خالد إلى الميدان بكل رباطة جأش وثقة يبحث عنها، فوجدها.. وجد أن فرسان الروم سبقت سبقاً كبيراً ومازالت مشاتهم بعيداً فى الخلف. إنها لحظات من لم ينتهزها ويختطفها فاتته إلى الأبد.. وكانت لا تفوته. ما أن لمحها حتى حرك قواته إلى الفجوة التى حدثت بين فرسان الروم ومشاتهم، وأخلى لفرسان الروم حتى طلعت خلف جيوش المسلمين ووقف يدافعها، فى حين استدار إلى مشاة الروم، التى صارت بلا فرسان، فشد عليهم شدة ألقت بهم من شاهق إلى وادى نهر اليرموك. وانتهت المعركة. أكان من قبيل المصادفة البحتة أن نجد رومل، القائد الألمانى الشهير، يحاول أن يسير على نفس النهج؟ كان يقود معاركه من إحدى دباباته المتقدمة فى خط القتال بحثاً عن فرصة يقتنصها، وكثيراً ما فعل ذلك. وكان منطقه أنه إذا جلس فى مكتبه فإن الدقائق الثمينة تكون قد ضاعت إلى أن تصله الأخبار ليتخذ حيالها قراراً على الخرائط.

التاريخ والفتوح

ومع ذلك - مع هذه القيمة للتاريخ الحربى - فإن الفتوحات الإسلامية من وجهة النظر الحربية، ومن حيث هى تاريخ حربى لم تنل ما تستحق من عناية. ظهرت كتابات كثيرة قديمة وحديثة فى التاريخ السياسى، فضلاً عن دراسات مستفيضة فى التاريخ الفكرى والثقافى والاجتماعى والمالى والإدارى وتاريخ الأدب.. إلخ، قد تكون تعرضت جانبياً للمعارك الحربية ولكن ليس من وجهة نظر الاستراتيجية والتكتيك. كما ظهرت أشياء صغيرة الحجم هزيلة القدر عن تلك المعارك الكبرى، لم يكلف كاتبوها أنفسهم حتى مؤونة أن يعرضوا تلك المعارك على خرائط منضبطة تشرحها وتبين مراحلها كخطة وعمل، إنما نقلوا عن كتب التاريخ السياسى، أو عن أمهات كتب التاريخ ما سطره مؤلفوها وفى أكثر الأحيان بنفس عباراتهم دون ما إضافة أو شرح. وأكثر من اهتم بذلك لم يتعد جهده أن قام بجمع ما أثبتته بعض المصادر التاريخية ولصقه ببعضه. أضاف بعضهم تعليقاً على بعض المعارك ولكن دون أن

يتمكن من وصفها وشرحها، كما نجد مثلاً وصف معركة العلمين أو دنكرك أو أى معركة شهيرة. ولا يفوتنا فى هذا المجال أن ننوه بالمحاولات المشكورة التى يقوم بها اللواء محمود شيت خطاب ومحمد فرج والفريق طه الهاشمى، ولكنها للأسف جهود فردية، ولابد لنا من الإقرار بأن التاريخ الإسلامى لم يبحث بعد بحثاً علمياً صحيحاً وفق طرق البحث العلمى الحديث يغطى جميع مجالاته مع ما فيه من مادة ودسم. ومازال أمامنا مجال كبير لهذا. هذا النقص فى البحث والتأليف جعل مدرساً بكلية الآداب فى إحدى جامعاتنا يقول: «... ولكن معلوماتنا عن خطة هجوم العرب فى العراق غير واضحة، وإن كان من الجائز أن خالداً سار أولاً فى بعض أجزاء البادية حيث سهل فتحها وجود قبائل عربية[1] فيها».

إذ ذاك، وانى وقد عزّ على ما رأيت، فقد اتجهت إلى استكشاف الأمر بنفسى، مبتدئاً بالفتح الإسلامى للعراق فى عهد الخليفتين الأولين أبى بكر وعمر. فما راعنى بعد أن بدأت أضع قدمى على الطريق، إلا أن أحسست بوعورته ومشقته. فهذه المجموعة من أمهات كتب التاريخ الإسلامى - التى تعتبر مصادره - دونت فى عهد متأخر كثيراً عن تواريخ دوران تلك المعارك، وقد فاتها الكثير مما يتطلبه البحث الحربى: مثل تاريخ الموقعة وأعداد القوات وتشكيلها وتحركاتها وصفة أرض الموقعة وطبوغرافيتها وأنواع أسلحتها والشئون الإدارية.. إلخ. لذلك فصعوبة القيام بهذا البحث، وإخراجه سهلاً ميسوراً لمن أراد الإفادة منه أمر مقرر لا يختلف عليه اثنان. وقد سبقنا إلى الإشارة إلى هذه الصعوبة الفريق طه الهاشمى[2] ونعى على التاريخ الإسلامى «أنه بينما نجد أن المعارك التى خاضها جيش الإسكندر الأكبر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، ومعارك الرومان مع جيوش الأقوام المهاجرة، وما دار من معارك بين قياصرة الرومان والمنافسين لهم على العرش، مفصلة بشكل لا يجهد الباحث، وأنه قد تم تدوينها بشكل أقرب إلى الصحة مما نحن بسبيله من التاريخ الإسلامى الذى دونه القصاص ومدونو السير والمغازى ومن أرّخوا لهذه الفترة بالسماع أو نقلاً عن طريق الرواية والإسناد، فلربما وجدناهم يختلفون على نقاط هامة كالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة وكذلك فى مقدار قوات الفريقين المشتركين فيها». ومع موافقتنا على ذلك فإن لنا عليه تحفظاً فى مجال المقارنة بين تناقض المصادر الإسلامية وعدم وجود مثل هذا التناقض فى التواريخ الأخرى، ذلك أن تعدد مصادر التاريخ الإسلامى وعدم تعددها فى سواه مدعاة إلى مزيد من

---

(١) التاريخ السياسى للدولة العربية ١٧٠.

(٢) خالد بن الوليد ٣٥.

الثقة فيه، والشك وعدم الثقة في غيره. وعلى سبيل المثال فقد اكتشف أن فرعون مصر رمسيس الثانى زور تاريخه وسرق مسلات تحتمس الثالث فمحا اسم تحتمس عنها ووضع اسمه هو، لينسب أعمال تحتمس إلى نفسه. هل أقرب إلينا فى مجال الأحداث الكبرى من الحرب العالمية الثانية؟ لقد اختلف تأريخها بين وجهات نظر الكتاب الغربيين والكتاب الشرقيين من الروس!.. فهم يختلفون حول هذه الحرب ليس فقط من حيث وجهات نظرهم تجاهها، بل ومن حيث وقائعها أيضاً، ولا شك أن الهوى والتعصب للجنس أو للمذهب أو للشخص يقف وراء ذلك الاختلاف. مثل هذه العوامل وجدت قديماً، فإذا انفرد ملك بتسجيل تاريخه نقشاً على حجر فى مقبرة أو مسلة أو غيرها، فمن يضمن لنا أن ذلك الملك كان صادقاً ذا أخلاق؟ فإذا ما تعددت المصادر اختلفت.. رمسيس الثانى انتصر على الحيثيين فى الشام، هذا فى آثار رمسيس... ولكنه انهزم أمام الحيثيين فى الشام، فى آثار الحيثيين!!.

منهجنا

تاريخ الطبرى

هذا وقد وجدنا فيما رجعنا إليه من مراجع أن «تاريخ الأمم والملوك» لابن جرير الطبرى هو أوفى هذه المصادر التاريخية وأقربها إلى الصحة والثقة، حتى لقد صار مرجعاً لكثير غيره. وبذلك نجد أن تلك المراجع على كثرتها تعيدنا فى الغالب إلى ذلك المرجع الأول، ثم إن لم تكن أقل منه فهى لا تضيف إلى ما جاء به إلا القليل، فكان هذا المصدر القيم هو مرجعنا الأول الذى أخذنا عنه كثيراً من مادة هذا البحث بل أكثرها، ثم يليه سائر المصادر. غير أنها جميعاً - مع ذلك - لا تفى لنا بالمطلوب كله، ولا تضع أصابعنا على ما نبتغى الوقوف عليه من تفاصيل تلك المعارك. ومع ذلك فكنا دائماً ندرك ما هو النقص الذى نبحث عنه حتى نصل إليه.

وقد اعتمد الطبرى فيما يختص بتاريخ الفرس على ترجمات عربية لكتب[1] فارسية وخاصة كتب ابن المقفع، كما استمد من كتب هشام الكلبى الذى كان يعتمد فى تاريخ ملوك الفرس والحيرة على وثائق ومدونات. وعوّل فى تاريخ الروم على نقله من كتب نصارى الشام الذين كانوا يعرفون تاريخ الدولة الرومانية والامبراطورية البيزنطية من وثائق صحيحة. وأخذ ما كتب عن حروب الردة والفتوح عن سيف بن عمر، وعن المدائنى. وقد اعتمد فيما ذكر فى كتابه على الروايات، حتى إذا اختلفت الروايات فإنه كان يثبتها مسندة موصولة إلى صاحبها على طريقة علماء الحديث. فإذا نقل من كتاب آخر ذكر ذلك بقوله: قال الواقدى، أو قال ابن الكلبى، أو قال ابن اسحق. وكان أحياناً يعتمد على المراسلة فيقول مثلاً: كتب إلى السرى عن شعيب عن سيف... إلخ. وهذا كثير جداً فيما نقل الطبرى عن سيف، فاخترنا أن نرمز له فى الهامش بالأحرف «س ش س» بدلاً من «كتب إلى السرى عن شعيب عن سيف...» ولقد درج علم التاريخ الإسلامى فيما يمكن أن يوثق به من روايات على طريقة علم الحديث (حديث رسول الله ﷺ) فاعتمد على الرواية والإسناد فى نقل المرويات، وهى طريقة من

---

(١) الطبرى للحوفى.

خصائص هذه الأمة. قال ابن حزم: «نقل الثقة عن الثقة يبلغ النبى ﷺ خص الله به المسلمين دون سائر الملل» وأخرج الإمام مسلم عن ابن المبارك قوله: «الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء[1] ما يشاء».

ويسوق الطبرى روايته مسندة إلى رواتها، فلربما وجدنا الرواية الواحدة تتناول أكثر من واقعة ولربما وجدنا أحداث الواقعة الواحدة موزعة على أكثر من سند. فدرجنا على استكمال ما ورد عن الواقعة الواحدة من رواياتها المتعددة، واقتضى منا هذا تقطيع الرواية إذا تناولت أكثر من واقعة فنضع فى كل واقعة منها ما يتصل بها دون ما عداه.

مصادر أخرى

وإذ كان لا بد لنا لاستكمال الصورة من الحصول على مزيد من المصادر فقد التمسنا ذلك - بعد كتب التاريخ - فى كتب التراجم والرجال. حرصنا على أن نتتبع فى كتب الرجال سيرة كل فرد ورد ذكره فى كتب التاريخ من أعلام الفتح، فأضاف لنا هذا أشياء فضلاً عن أنه أمدنا بمادة قيمة عن أبطال الفتوح وأعلامها، لفتت نظرنا إلى وجوب تجلية هذه الأسماء وتقديمها إلى القراء. ذلك أننا نجد فى المكتبة العربية الكثير مما كتب عن أبى بكر وعمر وخالد وسعد وعمرو.. ولكننا لا نكاد نجد شيئاً عن القعقاع بن عمرو وأعبد ابن فدكى والأقرع بن حابس وكثير غيرهم[2] لهم وزنهم ويمثلون ثقلاً دافعاً فى الحركة الإسلامية. لقد كان من أهم هذه المعلومات وأكبرها قيمة لبحثنا تحديد نسب كل منهم لإلحاقه فى القتال بقبيلته. وأكثر ما كتب فى هذا الشأن انصب على الصحابة. رجعنا إلى أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، وإلى الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى، وإلى الاستيعاب فى أسماء الأصحاب، فكان اهتمامهم - ولا سيما الأخيرين - فى المرتبة الأولى إثبات صحبة صاحب الترجمة لرسول الله ﷺ ورؤيته له أو انتفاء هذه الصحبة. يقول صاحب الإصابة فى خطبة الكتاب[3]: «أما بعد فإن من أشرف العلوم الدينية علم الحديث النبوى، ومن أجل معارفه معرفة تمييز أصحاب رسول الله ﷺ ممن خلف بعدهم» وقال الآخرون مثل ذلك. ثم اهتما فى المرتبة الثانية برواية صاحب الترجمة عن الرسول أو عدم الرواية عنه، وأحياناً

---

(١) قواعد التحديث ١٨٥.
(٢) اللواء الركن محمود شيت خطاب، «قادة فتح العراق والجزيرة».
(٣) الإصابة ص٣.

يذكران شيئاً عن حياة صاحب الترجمة ونسبه، وهذا فى المقام الثالث. الاعتبار الأول محدود الأثر جداً فى بحثنا هذا، بينما الاعتبار الثانى لا يدخل فى موضوعه، أما الاعتبار الثالث وهو الأكثر أهمية لنا فقد كان قليلاً. ولكننا أخذناه فى موضوعنا وأفدنا منه. ومن أهم ما أفدناه إلحاق كل شخص بقبيلته ومتابعة تحركاتها عن طريق متابعة أفرادها. وقد أورد ابن شيبة في[1] مصنفه من طريق لا بأس به أنهم كانوا فى الفتوح لا يؤمّرون إلا الصحابة.

كذلك رجعنا إلى القرآن الكريم وكتب السنة المطهرة وكتب التفسير، فأخذنا عنها شيئاً من تشريعات الحرب والقتال عند المسلمين وبعض الأوصاف والعرض لأساليب القتال. كما رجعنا إلى كتب الأدب العربى حيث وجدنا فيما قيل من خطب وما نظم من شعر وأغان ما يلقى أضواء ويضيف أشياء لا سيما فى أساليب القتال والأسلحة المستخدمة وصفاتها وقدراتها. فضلاً عن البيئة، وملامح المعيشة، والتحركات، كأنواع الأطعمة والمساكن والمنازل والركائب... إلخ.

القبائل وحدات مقاتلة

هذا ومن أهم ما وصلنا إليه، أنه قد تأكد لدينا أن قبائل المسلمين العرب كانت تتحرك كوحدات حربية فى الميدان، خلافاً لما ذهب إليه كثير من الكتاب المحدثين من أن الإسلام قضى على النزعة القبلية، وصهر القبائل كلها فى بوتقة واحدة لا تدين بالولاء للقبيلة.. كلا. ان ما أذابه الإسلام وقاومه هو العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب، ولكنه لم يحارب القبيلة فى حد ذاتها كوحدة لها وجود عميق فى البيئة العربية. لقد ظلت القبيلة هى الوحدة الاجتماعية والوحدة الحربية المعترف بها فى الفتوح الأولى، واستفاد الكيان الإسلامى من هذا ا لوجود إلى أقصى حد كما سيتبين فى مواضعه من بحثنا هذا.

لقد وجدنا جرير بن عبدالله البجلى يسعى لدى الخليفة أبى بكر، ثم لدى أمير المؤمنين عمر، ليجمع قبيلته بجيلة - وكانت قد تشتت فى القبائل على أثر اشتباكها مع بعض القبائل فى الجاهلية - فما أن تم ذلك حتى رأيناها تأخذ مكانها البارز كوحدة مقاتلة فى جيش المسلمين بالعراق. ولقد ساهمت كوحدة قائمة بذاتها بألفين من أبنائها فى البويب ثم فى المطاردة بعدها. وقبل ذلك فى معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب اختلطت صفوف المسلمين، فصاح بهم خالد بن الوليد: «أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى» فتميزت

(١) الإصابة ص١٣.

كل قبيلة فى صفوفها، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة، وراية الانصار مع ثابت بن شماس. ولقد وجدنا المثنى بن حارثة يغير على أسواق شمال العراق بعد البويب فى قوة كبيرة علمنا منها النعمان بن عوف الشيبانى ومطر الشيبانى والمضارب بن يزيد العجلى، وفرات بن حيان العجلى وعتيبة بن النهاس العجلى والنسير بن ديسم العجلى، وأسماؤهم تدل أنهم من بنى شيبان أو من بنى عجل وكلاهما من بكر بن وائل. وفى هذا يقول شاعرهم:

وللمثنى فى العال معركة شـاهدها من قبيله بشـر

فنص فى وضوح لا يحتاج إلى تدليل آخر على أنهم كانوا من قبيله.

هذا الطابع القبلى الذى اصطبغت به الوحدات كان أكثر ظهوراً فى القادسية نظراً لوفرة الروايات والأخبار عنها ونظراً لكثرة عدد جيش المسلمين بها وتعدد قبائلهم. بل لقد وجدنا أن سعد بن أبى وقاص قد صفهم فى الميدان على هيئة تقارب توزيعهم وسكناهم جزيرة العرب! هذه المعلومات كادت أن تندثر بأذهاننا ولم نجد أحداً من الكتاب المحدثين التفت إليها أو ذكرها رغم أهميتها البالغة فى تصوير أى معركة. وقد أشار إليها ابن خلدون حيث قال: «إنهم كانوا يقسمون الجند جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعى فى الجهات الأربع، فيجعلون بين يدى القائد عسكراً ويسمونه المقدمة، ثم عسكراً آخر من ناحية اليمين ويسمونه الميمنة، ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال ويسمونه الميسرة ثم عسكراً من ورائه ويسمونه الساقة (المؤخرة) ويقف الملك (أو القائد) وأصحابه فى الوسط بين هذه الأربعة ويسمون موقفه القلب». فكيف يجتمع المتعارفون فى الميدان عند المسلمين العرب إلا أن يكون اجتماعهم قبائل، وفى القرآن الكريم[1] ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا..﴾ لقد وجدنا مصداق ذلك فى معارك الفتوح. انظر إلى منازل القبائل فى الخريطة تجدها مطابقة لتعبئة خالد بن الوليد فى زحفه من النباج إلى الحيرة، إذ جعل بكر بن وائل عليها المثنى بن حارثة مقدمة، وجعل تميماً عليها عاصم بن عمرو ميمنة، وجعل طيئاً عليها عدى بن حاتم ميسرة. ونجد ذلك أيضاً فى تعبئة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فى انتقاله من الشام إلى العراق بجيش عدته ستة آلاف. إذ جعل القعقاع بن عمرو التميمى على المقدمة، وقيس بن هبيرة المرادى على الميمنة، والهزهاز بن عمرو العجلى على الميسرة، وأنس بن عباس السلمى على المؤخرة. بعبارة أخرى جعل تميماً فى المقدمة، والقحطانيين من أهل اليمن فى الميمنة، وبكر بن وائل فى الميسرة، وقيس عيلان فى المؤخرة. فإذا طبقنا ذلك على مواطن

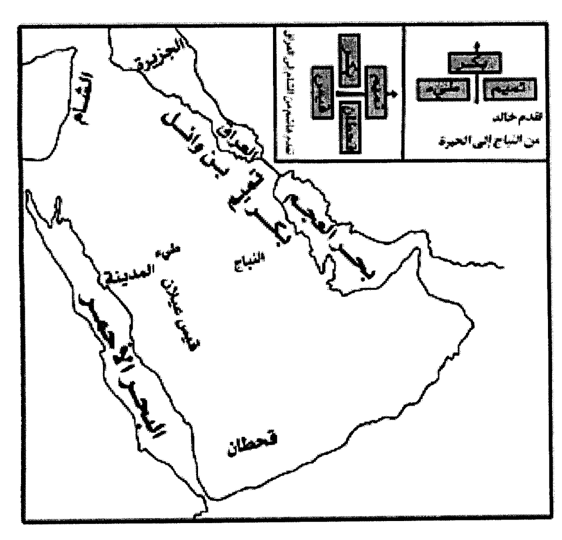
(١) الحجرات ١٣.

سكناهم فى شبه الجزيرة وجدناه مصداقًا لما قال به ابن خلدون.

وقد روى البلاذرى[1] عن الواقدى فى فتح الشام أن أبا بكر أمر الأمراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء يكون فيهم.

ولقد رأينا عمر بن الخطاب فى حشده للمسلمين يأتونه قبائل ويبعثهم إلى الفتوح قبائل وقد استعمل على كل قبيلة قائداً منها.

وجدير بالإشارة أننا لاحظنا للصحابة من المهاجرين والأنصار وضعاً خاصاً، فلم تكن لهم دائماً فى الفتوح وحدات خاصة بهم من قبائلهم، ولم يكن عددهم بالنسبة لتعداد الجيش كبيراً، إنما كنا نجدهم فى القيادات غالباً. فلم يكن وجود خالد بن الوليد المخزومى مثلاً يعنى أنه كان فى وحدة من بنى مخزوم أو من قريش، لكنه كان قائداً عاماً ومثل ذلك غيره من المهاجرين والأنصار الذين تولوا القيادات العامة أو أركانها من أمثال النعمان بن مقرن وإخوته وغيرهم.



خريطة رقم (٢) - مثال عن تعبئة القبائل

---

(١) فتوح البلدان ٣٠٤.

هذا الأصل من أصول منهجنا لدراسة معارك الفتوح ساعدنا كثيراً على فهم مجرياتها وعلى سد ثغرات لم توفها المصادر فى كثير من الأحيان حقها، فقد كان مكان القبيلة - غالباً - يدل على مكان أفرادها. كما كان مكان الفرد - غالباً - يشير إلى موضع قبيلته. وقد اقتضى هذا منا دراسة القبائل العربية ومساكنها وأنسابها ونسبة كل من ورد ذكره إلى قبيلته حتى نضعه فى مكانه من ميدان المعركة، وكذلك وحدته القتالية.

التعبئة عند الرواة

وإذا روى رواة الطبرى عن تعبئة الجيوش أنه كان فلان وفلان على المجنبتين فقد درجوا على ذكر الميمنة أولاً، ثم الميسرة، دون إيضاح لذلك، وكأنه قاعدة فى الرواية مسلم بها. وقد رأينا أن الوقائع تستطرد مع هذا فى أكثر من موضع، ولم نجد بتاتاً ما يعارضه أو يناقضه. ويبدو أن الطبرى وقد كان فقيهاً ومفسراً - كان مستناً بسنة الرسول ﷺ فى التيامن فى أموره، يبدأ دائماً باليمين فى كل أمر مستحب، ويبدأ بالشمال فى دخول الخلاء والخروج من المسجد وما شاكل ذلك. مثال ذلك ما ذكره الطبرى فى موقعة المذار أنه كان على مجنبتى المسلمين عاصم بن عمرو وعدى بن حاتم، وعلى مجنبتى الفرس قُباذ وأنو شجان، وأن عدياً هو الذى قتل قباذ، وأن عاصماً هو الذى قتل أنو شجان، كل قتل من يواجهه. فقد كان عاصم على ميمنة المسلمين وعدياً على ميسرتهم كما كان قباذ على ميمنة الفرس وأنو شجان على ميسرتهم. مثل هذا يستطرد فى كل موضع حتى لنستطيع أن نبنى عليه فى تصور مراحل المعركة. هذا مع ما سبق على سبيل المثال يفيدنا أن عاصم بن عمرو التميمى كان على الميمنة وأيضاً أن تميماً كانت فى الميمنة. وأن عدى بن حاتم الطائى كان على الميسرة، وأيضاً أن طيء كانت فى الميسرة. وهى علامات تضيف إلى تصور المعارك وتصويرها ملامح وعلامات كثيرة وهامة.

كذلك وجدنا أن الطبرى إذا لم يذكر فى معركة تعبئتها فإنه يبنى على ما سبقها ومعناها لديه أن التعبئة السابقة لم تتغير، فإذا تغيرت أو تغير شيء منها ذكر ذلك.

هذه معالم هامة جداً نستطيع بعد تفهمها أن نقرأها بين سطور المصادر دون أن نجدها مسطورة فيها صراحة.

ثم كان لابد لنا من تطبيق تلك الأحداث التى وقعت فى ميادين القتال على خرائط منضبطة للمواقع التى وقعت فيها. وهنا طالعتنا عقبة أخرى، وهى أن الخرائط التى بين أيدينا حديثة تختلف عما كانت عليه منذ ألف وأربعمائة عاماً اختلافاً كبيراً، ونعنى هنا أرض العراق بالذات. فكم من موقع لا نجد له على الخريطة أثراً، وكم من نهر تغير مجراه أو تغير اسمه أو لم يعد له اليوم وجود، وكم من مسالك مائية قد استحدثت وأراض شاسعة جفت، وكانت تغمرها من قبل برك ومستنقعات من فيضان النهرين، وكم من قرى أو مدن قد تلاشت أو عاد غيرها فى غير مكانها يحمل اسمها.. وهكذا. أمور كثيرة تجهد الباحث وقد تضلله فيتوه فيها. ومن هنا كان رسم مواقع القتال على ما كانت عليه فى حينها مهمة صعبة حقاً، وفقنا توفيقاً كبيراً - فيما نعتقد - باستجلائها مستعينين بالخرائط الحديثة والقديمة مضافاً إليها ما ورد فى الموضوع عن صفات المواقع وأماكنها، وكذلك بالاستعانة بما كتب الرحالة والجغرافيون المسلمون فى القرنين الثالث والرابع الهجريين وما بعدهما مثل: ابن بطوطة وابن حوقل وابن خرداذبه وابن جبير والإصطخرى وياقوت الحموى، استعنا بمعلومات هذه المصادر فى إدخال تعديلات أو إضافات على ما بين أيدينا من خرائط. وقد اعتمدنا أساساً على خريطة العراق الأثرية بمقياس واحد إلى مليون إصدار مديرية الآثار العراقية ببغداد، ثم راسلنا المديرية المذكورة عدة مرات وراجعناها فأمدتنا مشكورة شكراً لا نوفيه حقه بخرائط أفدنا منها ما لم نجده فى أى مصدر آخر، لا سيما منطقة الحيرة فيما بين القادسية إلى النجف والكوفة. كذلك أخذنا أشياء عن بعض «الأطالس» ولا سيما «أطلس أوكسفورد».

خلفية لابد منها

بعد ذلك كان لابد من تغليف هذا كله بأرضيته الخلفية وإحاطته بإطاره الذى يحده. دراسة جغرافية العراق الذى دارت على أرضه المعارك، وجغرافية جزيرة العرب التى هب المسلمون منها وأسندوا إليها ظهورهم أو ميسرتهم.. دراسة المجتمع الفارسى وسلطاته وطبقاته وجهاز الحرب فيه.. جيشه وتكوينه وتسليحه وأنواع تلك الأسلحة ومقدرتها، ثقافته الحربية وتدريبه وأساليبه فى القتال، ملامحه وشخصيته ومعنوياته... دراسة مثل ذلك فى مجتمع المسلمين العرب، قبائلهم وأنسابها ومساكنها وصفاتها وأثر ذلك كله على تحركاتهم

كوحدات مقاتلة.. تسليحهم وتدريبهم وأساليبهم فى القتال وتنظيم جيوشهم وتحريكها والشئون الإدارية للحملات والطرق والمواصلات والنقل... أبرز شخصياتهم فى الحرب.. الحافز لهم على التحرك نحو الفتح، دستورهم الذي يحكمهم ويحتكمون إليه فى ذلك كله، شؤون الغنائم والأسرى وما إلى ذلك... الرجوع بالوحدات التى تقيس بها المصادر القديمة: مثل الميل العربى والفرسخ والدينار والدرهم إلى ما يعادلها من وحدات عصرنا. كذلك وضعنا تقويماً للتاريخ القمرى والميلادى لتلك السنوات التى نبحث تاريخها ساعدنا كثيراً على إدراك الفصول وحالة الجو والفيضانات والمحاصيل، وعلى مطابقة الروايات على ذلك لتأكيدها أو نقدها أو نقضها أو الترجيح فيما بينها، ذلك أن مصادرنا درجت فيما ذكرت تاريخه على التقويم الهجرى القمرى فقط فكان مطابقته على التقويم الميلادى مفيداً. مثال ذلك، فتح الأنبار، لم يذكر الرواة تاريخه ولكنهم ذكروا أن إبل المسلمين ولدت فى أثنائه، فإذا علمنا أن الإبل تلد فى شهر سبتمبر (أيلول) أستطعنا أن نحدد زمن فتح الأنبار وأن نطابق ذلك بما قبله وما بعده.

وهكذا سار البحث بين شتى مراجع التاريخ والرجال والجغرافيا والحرب والعقيدة والأدب يستكمل من كل جوانبه. وإذ كان الشعر العربى مصدراً له اعتباره فقد أثبتنا منه بعضاً من الشعر الجاهلى وشعر صدر الإسلام، منه ما تناول الفتوح ومنه ما تناول خليفتها، على ما فى هذا الشعر من صعوبة الفهم لقراء جيلنا الذى ابتعد كثيراً عن استعمال لغته الأصيلة، الأمر الذى كان يحتاج معه إلى كثير من الشرح. ولما كان موضوعنا فى التاريخ الحربى مما قد يجعل التوسع والاستطراد فى سرد أبيات الشعر القديم وشرحها غير مستعذب لغير هواته أو أهل الاختصاص فيه، فقد وجدنا سؤالاً يفرض نفسه وهو ... لمن أكتب؟ إن كنت أكتب إلى محبى الأدب العربى وقرائه فقد يطيب لهم هذا ولكن البحث ليس موضوعه أدب الفتوح - وبودى لو قام بذلك باحث موفق - وإنما نبحث فى «تكتيكها» «واستراتيجيتها». ولذلك فإن اللجوء إلى الأدب أو إلى غيره إنما يكون لخدمة ذلك الغرض. فإنا إذا أثبتنا النتائج التى نصل إليها فى أمر ما، وليكن صفة النبال والقسى التى كان يستخدمها المسلمون الأوائل، فلرب سائل يتساءل - محقاً فى تساؤله - عن مصدر هذه المعلومات، فإذا سقنا لذلك قول الشاعر:

له من خوافى النسر حُمٌّ نظائرٌ	ونصلٌ كنصل الزاعبىّ فتيقُ
على نَبْعَةٍ زَوْرَاءَ أيْما خُطامُها	فَمَتْنٌ وأيما عودها فعتيقُ

كان لنا أن نتوقع ضجر القارئ، وهو أمر جعلنى أوزع الشرح بين السياق وبين الهامش وفق الحالة فى محاولة لعلاج ما قد ينشأ عن ذلك من ملل. واستميح القارئ عذراً فى ذلك، وحسبى أن وضعت ما استطعت جمعه من مادة مشروحة بين يديه. فإنى أكتب هذا لسد ثغرة كبيرة فى التاريخ الحربى الإسلامى خاصة بل والتاريخ الحربى عامة.

فإن كنا قد أصبنا فذلك غاية قصدنا. وإن كنا قد أخطأنا فى أصول المنهج الذى ذكرنا أو فى تطبيق شيء منه، أو غفلنا عن شيء يمكن إضافته إليه فنحسب ذلك يسيراً إلى جوار ما فيه من صواب وفائدة وإلى ما فيه من جديد كثير. ورجاؤنا ممن يقف على شيء من ذلك أن يرشدنا إليه مشكوراً مأجوراً، وأستعير قول ابن الأثير فى تقديمه أسد الغابة «فرحم الله امرأ أصلح فاسده ودعا لى بالمغفرة والعفو عن السيئات». فإن غاية المرام الوصول بهذا البحث إلى أقصى ما يمكننا من كمال، ولا كمال لكتاب غير كتاب الله.

ولابد إبراء للذمة وأداء للأمانة أن نقر أنه منهج مجهد كل الإجهاد اضطررنا معه على غير إرادة منا أحياناً لظروف قاهرة، وخضوعاً لضعف جهدنا أحياناً أخرى أن نترك أشياء كنا نرى استيفاءها أو الرجوع إلى مراجع لم نرجع إليها. ونحن إذ نترك هذا فى هذه الجولة فعلى أمل أن نعود إلى استيفائها فى جولة أخرى قريبة إن شاء الله إن كان فى العمر بقية وفى الجهد عافية. وقد التزمنا بأن نثبت فى الهامش مصدر كل حادثة أوردناها. كذلك أثبتنا مع كل رواية حلقات السند التى روتها على أمل أن نعود إلى تحقيق ذلك على الأقل كأسلوب من أساليب الترجيح بين ما تعارض منها. وللحق والتاريخ لم نجد فيمن كتب أو ألف حديثاً فى التاريخ الإسلامى من عنى بهذا النهج. وإنه لحرى أن ننعى على الأجيال المتأخرة قصور همتها عن ملاحقة أسلافها من الأجيال القديمة، ولنضرب لذلك مثلاً آخر هو فى الوقت ذاته دعوة لكافة الجغرافيين المحدثين أن يتقدم منهم من يقوم بهذا العمل الجليل.. معجم البلدان، هذا المرجع القيم الذى لا غنى عنه لأى باحث يتعرض لبحث جغرافى أو تاريخى على الرقعة الإسلامية، توفى مؤلفه ياقوت الحموى عام ٦٢٧هـ - ١٢٢٩م فهو مرجع قديم يحتاج إلى تجديد، كأن يزود بالخرائط اللازمة لبيان مواقع البلدان والأنهار والوديان وكافة المواقع التى ورد ذكرها به، ومكانها من خطوط الطول والعرض وما طرأ عليها من خراب أو زوال أو عمران أو تغيير لاسمه، وأن يحول ما فيه من مسافات من القياسات القديمة إلى وحدات القياس الحديثة... إلخ بحيث يكون نعم المرجع المعين تحت يد الباحث الحديث.

ونحن بهذا البحث نحاول المساهمة فى تكوين ثقافة إسلامية وعربية فى فرع بكر من فروع التاريخ الإسلامى. ليس من قبيل التواضع أن لا نزعم أننا بلغنا به ما أردنا. ولكننا بلا ريب وبدون تواضع ابتعدنا به قدر الطاقة عن السطحية، حتى يتعلم جيلنا من ذلك الجيل أنه لا مستحيل. سوف نجد فى هذه الصفحات نموذجاً مشرفاً لأمة آمنت برسالة واستوثقت من أنها خير أمة أخرجت للناس، لا عن عصبية كعصبية الشعب الآرى التى رفع شعارها هتلر ولا كخرافة «شعب الله المختار» التى يعتنقها يهود، ولكن لأنها تحمل تلك الرسالة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، فلم تقصر همتها ولم يحط من معنويتها أن رأت العالم يقتسمه عملاقان، عملاق فى الشرق وآخر فى الشمال والغرب، فقامت تنازعهما معاً ما بين أيديهما من بقاع حتى انتزعتها قسراً وغلبتهما على أمرهما وحررت الناس من عبادة الناس، فدانوا لدين الله الواحد القهار، وفتحت للغزاة الفاتحين أبواب الأرض وأبواب السماء.

قال اللورد أكتون[1] «إن تاريخ العالم ليس عبئاً على الذاكرة، وإنما هو نور يضىء الروح». وما أجمل من وصف التاريخ بأنه ذاكرة الجنس[2] البشرى.. فنسيان تاريخنا فقدان لذاكرتنا، نجلوه لندرسه ولنستفيد منه. ولو لم يكن لنا من دراسته إلا الاستمتاع المجرد والتسلية والقصص لكفى. وليس هو كذلك. فكله نفع ودرس وعبرة وعلم ومفخرة ونور.

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط.

(٢) أضواء على التاريخ الإسلامى.

الباب الثانى

شبه الجزيرة

آثارها على الفتح

فى رأينا أنه كان لجغرافية شبه جزيرة العرب أثرها فى العمليات الحربية التى حققت الفتوحات الإسلامية فى مطلع القرن الأول الهجرى، والسابع الميلادى، وذلك من وجهين:

الأول: أثر هذه الجغرافية على البيئة العربية التى حملت رسالة الإسلام فانطلقت به شرقاً وغرباً. بعبارة أخرى أن الجغرافية الطبيعية للجزيرة العربية كان لها أثرها على الجغرافية البشرية لسكانها الذين كانت منهم جيوش المسلمين الأولى. هذه الطبيعة هى التى رسمت للسكان ماذا يسكنون وماذا يأكلون وماذا يلبسون وماذا يركبون وبأى شىء يحاربون، وتشكيل حياة أهلها من بداوة وبأس وشدة وفروسية لها سماتها المتميزة. كل ذلك كان له بالتالى انعكاساته وأثاره على جيوشهم المحاربة.

والثانى: الأثر المباشر لتلك الطبيعة على استراتيجية العمليات الحربية نفسها، فلقد كانت جزيرة العرب باعتبارها صحراء قاحلة شاسعة ممتدة لا يطرقها أحد من خارجها ولا يدرى شيئاً عن مسالكها ودروبها ومساربها ومواطن الماء فيها، ولو درى ما استطاع ولا ألف العيش والحياة فيها. بهذه الصفة كانت جزيرة العرب أشبه بسور له باب عليه صمام يسمح بالمرور الحربى فى اتجاه واحد، يسمح بخروج الحملات الحربية منها إلى جيرانها ولا يسمح بالعكس، فانبنت خطط المسلمين أساساً على أنهم فى حالة انتصارهم تنفتح لهم أرض عدوهم، أما فى حالة انكسارهم فإنهم يتراجعون إلى صحرائهم ليلوذوا بها، حيث يعيدون تجميع قواتهم وتنظيمها فى حين يستحيل على عدوهم أن يتعقبهم فيها.

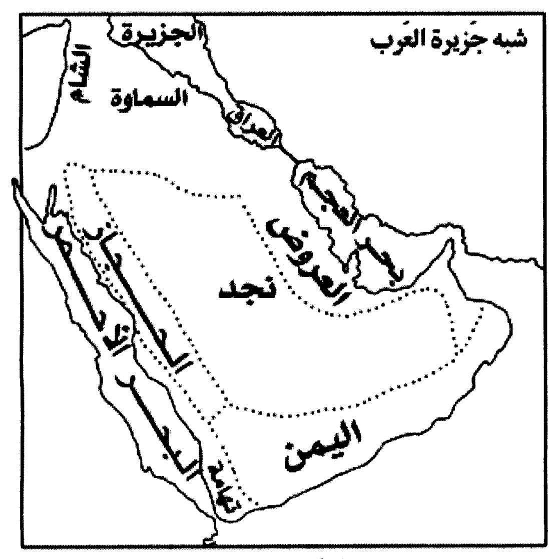
جغرافيتها

وتمتد جزيرة العرب نحواً من ألفى كيلو متر طولاً (هو طول ساحل البحر الأحمر من العقبة إلى باب المندب)، وذلك بخلاف امتدادها الطبيعى بين العراق والشام المعروف بصحراء السماوة. كما تمتد مثل ذلك عرضاً (طول الساحل الجنوبى من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسى) وتضيق إلى النصف من ذلك فى أقصر خط مستقيم بين البحر والخليج. ويمس خط عرض ١٣° ركنها الجنوبى الغربى، بينما يمر خط عرض ٣٠° شمالاً بدومة الجندل

فى الشمال، وهو خط العرض الذى يمر بالقاهرة وبالبصرة. وينحصر امتدادها بين خطى طول ٣٥° و ٦٠° شرقاً.

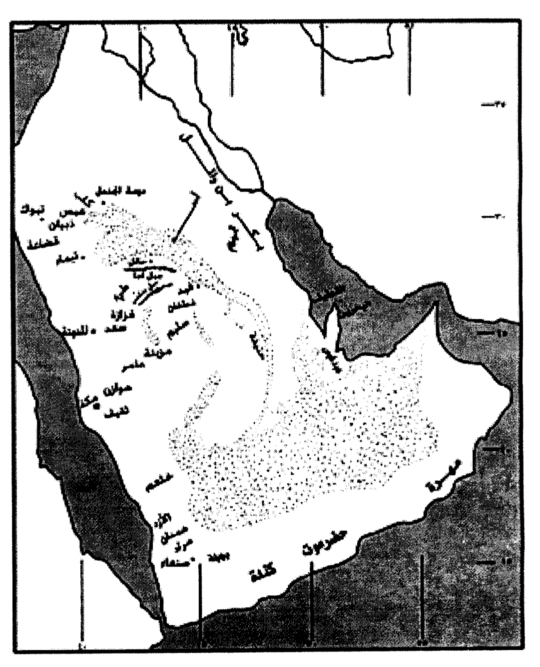
ويميز الجغرافيون فى جزيرة العرب خمسة أقسام طبيعية:

الأول: تهامة وهو السهل الساحلى المحاذى للبحر الأحمر. وهو محصور بين البحر وبين سلسلة جبال السراة الممتدة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. هذا السهل يضيق شمالاً حتى يتصل الجبل بالبحر الأحمر بينما يتسع نوعاً فى الجنوب. وقد سمى تهامة من التَّهَم وهو فى لغة العرب شدة الحر مع ركود الريح فذلك مناخه. وتنتشر بطول هذا الساحل الشعاب المرجانية الغاطسة التى تشكل خطراً جسيماً على الملاحة، ولذلك فالموانىء نادرة. ولذلك أيضاً لم يعرف العرب القدماء المتاخمون لهذا الساحل ركوب البحر، خلافاً لعرب البحرين الذين تاخموا الخليج العربى أو بحر العجم كما كانوا يسمونه.



خريطة رقم ٣- شبه جزيرة العرب

والثاني: الحجاز وهو سلسلة جبال السراة التي تمتد بين اليمن والشام في عرض أربعة أيام (وهي تساوى حوالى ١٧٥ كيلو متراً) يزيد قليلاً في بعض المواضع وينقص قليلاً في مواضع أخرى. وقد سمى هذا القسم حجازاً لأنه يحجز بين تهامة وبين نجد. في هذاالقسم تقع المدينة ومكة والطائف.



خريطة رقم ٤

والثالث : نجد. والنجد في اللغة هوالمرتفع، وقد سمى بذلك لارتفاع أرضه. ويبدأ جنوباً من حدود اليمن وينتهى شمالاً عند صحراء السماوة وشرقاً إلى العروض.

والرابع : اليمن وهو كقسم طبيعى أوسع كثيراً شمالاً وشرقاً من الحدود السياسية لليمن

اليوم. وهو جنوب نجد حتى الساحل الجنوبى ويمتد شرقاً إلى حضرموت والشحر وعمان.

والخامس : العروض وسمى عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق ويشمل اليمامة والبحرين. وفيه ارتفاع وانخفاض وجبال وأودية.

وجزيرة العرب بوجه عام صحراء تكثر بها الجبال الجرداء. ومنها الحِرَار (جمع حَرَّة) وهى الجبال السوداء. ويتخللها كثير من الوديان التى يجرى فيها ماء السيول فينبت به المرعى والكلأ فى الأراضى القريبة منها ويقيم حولها الناس، وأعظم هذه الأودية الدهناء الذى سكنته قبيلة تميم ببادية البصرة، ويمر على ديار بنى أسد ثم ديار غطفان حيث يسمى وادى الرمة، ويستمر حيث مساكن بنى طيء فيسمونه حائل، ثم يتجه إلى ديار بنى كلب فيسمونه قُراقِر ثم يتجه نحو صحراء السماوة فيسميه بنو تغلب سمودى[1] ثم يعرج إلى الكوفة. هذا الوادى هو الطريق بين المدينة والعراق وهو الوحيد الذى يشق الحجاز ونجد وهو طريق الجيوش الإسلامية إلى الخليج والعراق.

وفى اليمن كثير من الوديان منها ما ينحدر إلى البحر ومنها ما ينحدر إلى الداخل. فمن النوع الأول وادى مور - وهو أعظمها - ووادى زبيد، وهناك واد يتجه شرقاً ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى إلى موضع سد مأرب.

ويوجد فى جزيرة العرب رياض (جمع روضة) وهى المكان الذى يستنقع فيه الماء. فإذا جاء الماء نبتت البقول والأعشاب الصحراوية ورعت الأنعام، وربما وصلت سعة الروضة إلى ميل مربع، وأصغر الرياض مائة ذراع، فإذا عرضت جداً فهى قيعان (جمع قيعة) وهى المقصودة بقوله تعالى: «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء» وقد ذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان ١٣٦ روضة كانت فى بلاد العرب.

والمنطقة الواقعة إلى الغرب من الخليج العربى (بحر فارس) إلى نجد تسمى الأحساء (جمع حسى) وهو رمل تحته صلابة فإذا أمطرت نزل الماء فحفظته الصلابة أن يغيض ومنعه الرمل أن يجف، فإذا بحث فى ذلك الرمل أصيب الماء.

وأكثر ما ينزل على بلاد العرب من مياه يغيض فى باطن الأرض، إلا ما كان يمكن حجزه قديماً بسد مأرب والتحكم فيه لزراعة مزروعات دورية. أما شمال الحجاز فتقل به الوديان ويعتمد أهله على العيون الضئيلة التى لا تكفى إلا الشارب وقلما يجودهم الغيث. وأما نجد

---

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١ / ١٨٧.

والعروض ففيهما وادى الدهناء بما يصب فيه من وديان وكثير من مائه يذهب فى الأرض. وربما تأخر المطر فاشتد الحال على من يقيم عليه من القبائل. ولذلك درج العرب على الترحال من مكان إلى آخر وراء الماء والمرعى، وقد أضفى عليهم هذا خفة ونشاطاً وطبعهم على عدم الارتباط بالأرض. وتبعاً لهذا اعتمد العرب على الأنعام ولاسيما الإبل، تحملهم وتحمل أثقالهم ويأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بأوبارها.

أما تهامة فهى شديدة الحرارة مع رطوبة عالية. ويشتد الحر بالجبال صيفاً كما يشتد البرد شتاء. وأما نجد فحار إلا ما اقترب من مياه الأودية فيعتدل نوعاً ما.

وتجتاز جزيرة العرب طرق إلى مكة وإلى غيرها، كل طريق يسمى محَجَّة أو جَادَّة، ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد إلى مكة مارة بالمدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً = ١٥٣٤ كيلو متراً فيكون متوسط المسافة بين كل منزلتين نحواً من ٤٥ كيلو متراً، وهى مسيرة يوم بالإبل المحملة بالأثقال.

وقد أحاطت الطبيعة بلاد العرب بسور جد متين لا يسهل على غير أهلها التسلل خلاله إلى قلبها، فإذا أراد أجنبى دخولها من الشمال اعترضته صحراء النفود المترامية وفيها كثبان الرمل المتنقلة الخالية من النبات. بينما بقيتها ينبت عشبها فى الشتاء والربيع فى مواطن مختلفة ومبعثرة ومتباعدة أحياناً بحيث لا يهتدى إليها إلا أهلها الذين نشؤوا فيها وعرفوا مسالكها. وهم على قلة عددهم يتنقلون فى جنباتها بمعزهم وشائهم وإبلهم، يقاسون شظف العيش[1].

ولقد حاول خلفاء الإسكندر الأكبر غزو بلاد العرب فباءوا بالفشل لقلة الماء والجهل بالمسالك.

---

(١) الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٥-٦.

قبائل العرب

كافة العرب ينحدرون من أصلين كبيرين، قحطان وعدنان. والأول أقدم من الثانى وسابق له، فبينما نجد بين عدنان وبين رسول الله ﷺ اثنين وعشرين جيلاً نجد أن القحطانيين الذين عاصروا رسول الله كان بينهم وبين قحطان ثمان وعشرين جيلاً فى الغالب الأكثر، وكثير منهم بلغ نسبه إلى قحطان إلى ثلاث وثلاثين جيلاً فى حين وقف بعضهم عند خمس وعشرين. فإذا أخذنا باعتبار الجيل خمساً وثلاثين عاماً كان عدنان قبل النبوة بنيف وسبعة قرون فى حين كان قحطان قبلها بنحو من عشرة قرون.

ويرجع اهتمامنا بإلقاء الضوء على هذه القبائل وأنسابها ومنازلها ومواطن سكناها إلى أنها كانت هى البيئة الأولى التى تلقت رسالة الإسلام فانتشر بينها، ومنها انبثق فى أنحاء الأرض، وفى هذه القبائل حدثت الردة، كما أن جيوش المسلمين الفاتحين إنما منها تكونت، فهى مادتها وخامتها ووحداتها بعد أن تسربلت بالإسلام. ولن نفهم السيرة ولا الردة ولا الفتوح ما لم نهضم هذه البيئة ونُحِط بأبعادها وملامحها.

قحطان

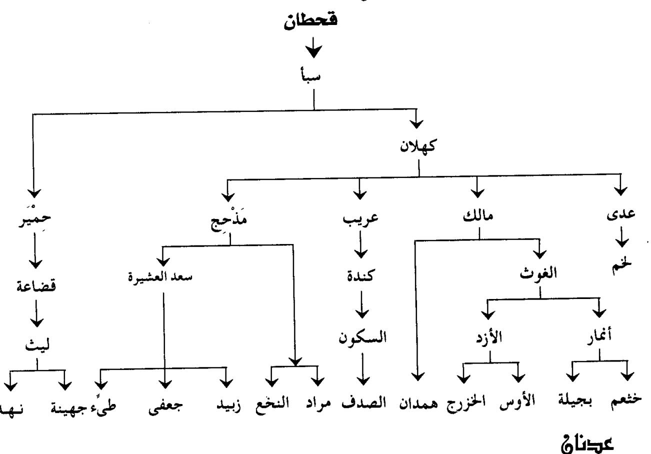
ولقد كان موطن قحطان باليمن، ثم تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

فكان منهم حِمْيَر، وأشهر حِمْيَر قضاعة والسكاسك.

وكان منهم كهلان، وأشهرهم همدان وأنمار ومَذْحِج وطىء وكِندة ولخم وجذام والأزد وأولاد جفنة ملوك صحراء الشام.

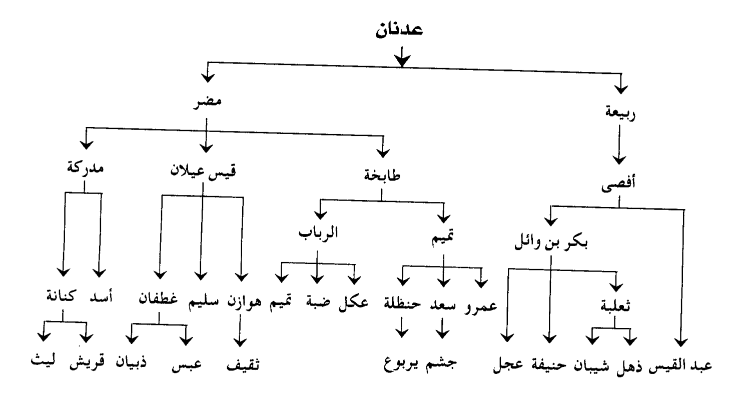
فلما انهار سد مأرب عام ١٢٠ قبل الميلاد خرج أبناء مأرب يرتادون شبه الجزيرة بحثاً عن منازل جديدة تصلح لسكناهم، فمنهم الأزد نزلوا على المدينة فاستوطنوها فكانت منهم الأوس والخزرج ومنهم من افتتح الحرم وأجلوا ساكنيه من جرهم، ومنهم من اتجه شرقاً إلى

عمان أو غرباً إلى تهامة، ومنهم من أوغل في سيره شمالاً حتى بلغ الشام فنزل على ماء غسان وأقاموا ملك الغساسنة الموالي للروم. ومنهم من اتجه إلى الحيرة بتخوم العراق وهم لخم بن عدى من أدد بن زيد بن كهلان ومعهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة، فكان ملكهم تابعاً لبني ساسان ملوك فارس الذين حكموا العراق. ونزلت قبيلة طيء بالجبلين أجأ وسلمي. ونزلت كلب بن وبرة من قضاعة ببادية السماوة حتى اتصلت بأطراف العراق. كذلك بقى باليمن كثير من قبائل حِمْيَر وكِندة ومَذْحِج وغيرهم. وإلى جوار هذا تخطيط مختصر يبين أشهر تلك القبائل من نسل قحطان.



عدنان

أما عدنان فكان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ومن نسله كان رسول الله ﷺ. كان موطنه مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة. وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن مَعدْ بن عدنان. ثم هاجر بعض من هذه البطون إلى مواطن أخرى تبعاً لمواقع القَطْر ومنابت العُشْب فاتجهت ربيعة شرقاً، فأقامت عبدالقيس بالبحرين، وأقامت حنيفة باليمامة، وأقامت سائر بكر بن وائل فيما بين البحرين واليمامة وإلى ساحل كاظمة بشمال الخليج الفارسي ثم إلى تخوم سواد العراق بين الأُبُـلَّة (على شط العرب) إلى هيث (على الفرات جنوبي خط عرض ٣٤ شمالاً) وعبرت تغلب الفرات فأقامت بأرض الجزيرة بين دجلة والفرات



وسكنت تميم ببادية البصرة مجاورة لمنازل بكر بن وائل. أما عن فرع[1] مضر بن معد بن عدنان، فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة من وادى القرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة حتى حدود الجبلين أجأ وسلمى. وأقامت ثقيف بالطائف واستوطنت سائر هوازن شرقى مكة على طريق البصرة، وسكنت أسد شمالى وادى الرمة شرقى تيماء إلى غربى الكوفة، وكان بينهم وبين تيماء ديار بحتر من قبيلة طيء، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال (حوالى ٢٢٥ كيلو متراً)، وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران.

وقد رتبوا أنساب العرب فجعلوها ست طبقات، وهى الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة.

فالشعب: النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، سمى شعباً لأن القبائل منه تشعبت.

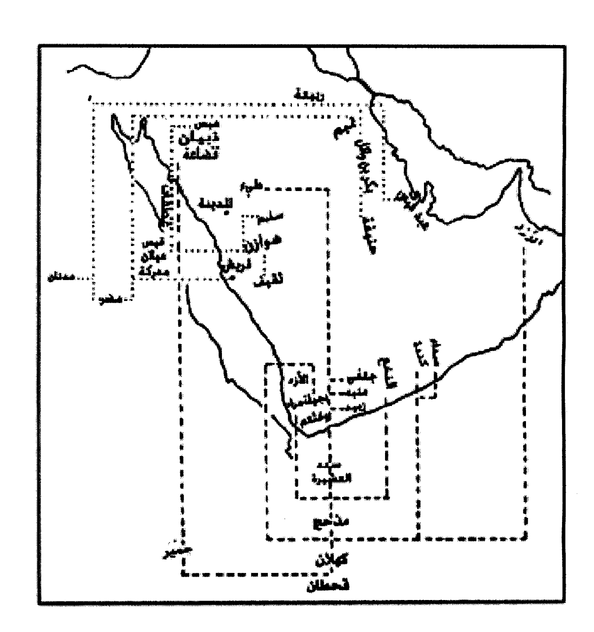
والقبيلة: هى ما انقسم فيه أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر، سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها.

والعمارة: ما انقسم فيه أنساب القبائل مثل قريش وكنانة.

والبطن: ما انقسم فيه أنساب العمارة مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم.

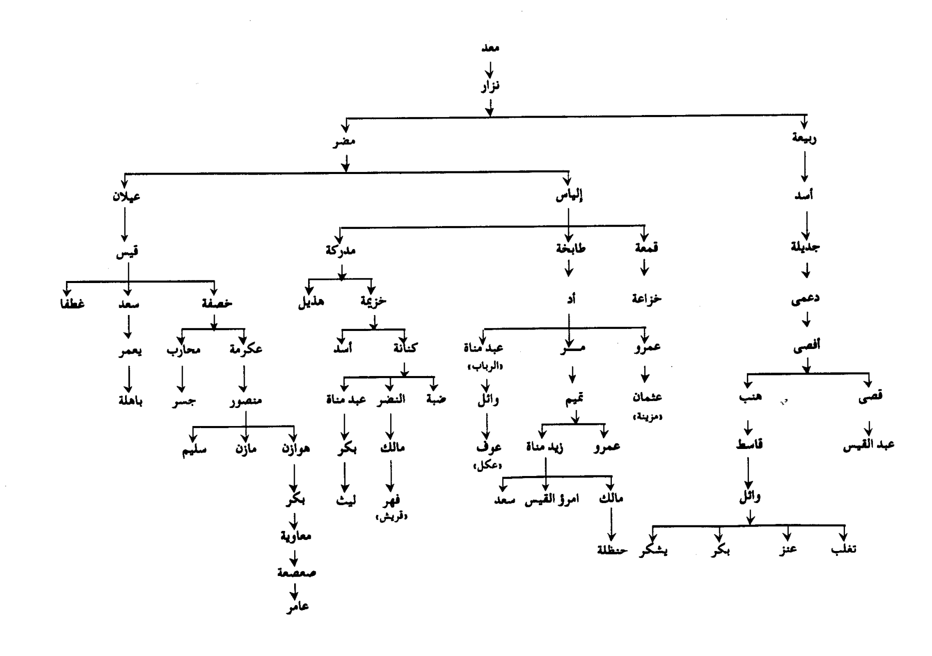
والفخذ: ما انقسم فيه أنساب البطن مثل بنى أبى طالب وبنى العباس.

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ١٤.

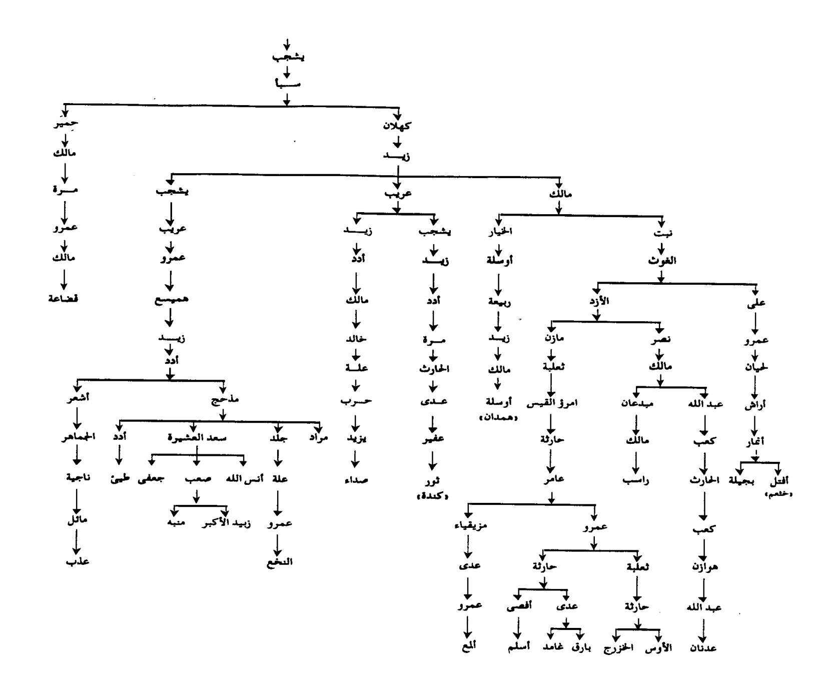


خريطة رقم ٥ - تشعب القبائل ومساكنها من جزيرة العرب.
(١) - - - فروع قحطان.
(٢) ...... فروع عدنان.

فإذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً والعمائر قبائل وهكذا. ومن حيث كانت تلك القبائل والعمائر والبطون.. إلخ وحدات حربية، فقد أنشأنا جدولين بيانيين تفصيليين أحدهما لشعب عدنان والآخر لشعب قحطان وضعنا فيهما أشهر الأعلام التى برزت فى الحروب، مما أفادنا بتتبع وحدة (قبيلة) كل علم فى ميادين القتال وتحركاتها.



معد
نزار
ربيعة
مضر
إلياس
عيلان
أسد
جديلة
قمعة
طابخة
مدركة
قيس
دعمى
خزاعة
أد
خزيمة
هذيل
خصفة
سعد
غطفا
أفصى
عمرو
مـــر
عبد مناة
(الرباب)
كنانة
أسد
عكرمة
محارب
يعمر
قصى
هنب
عثمان
(مزينة)
تميم
وائل
ضبة
النضر
عبد مناة
منصور
جسر
باهلة
عبد القيس
قاسط
عمرو
زيد مناة
عوف
(عكل)
مالك
بكر
هوازن
مازن
سليم
وائل
مالك
امرؤ القيس
سعد
فهر
(قريش)
ليث
بكر
تغلب
عنز
بكر
يشكر
حنظلة
معاوية
صعصعة
عامر



البيئة العربية

القبيلة

نشأ عن طبيعة الجزيرة العربية وحتمية انتقال العرب وراء الماء وطلباً للكلأ، نشأ النظام القبلى كضرورة اجتماعية وحيوية حتى يتنقلوا فى جماعات وعشائر توفر لأفرادها الحماية والأمن. وقد بلغ من تأصل هذه القبيلة وعمقها ان لم يقتصر وجودها على البادية بل تعداها إلى الحواضر على قلتها وتناثرها فى الصحراء المترامية، فنجد أن كل مدينة كانت تنقسم فى داخلها إلى أحياء سكنية يسكن كل حى قبيلة. واستمر ذلك حتى بعد ظهور الإسلام فكان للأوس منازل فى المدينة كما كان للخزرج منازل. وحين اختطت الكوفة بعد فتح العراق على عهد عمر بن الخطاب أقيمت على هذا الأساس، فكان لكل حى من أحياء العرب الذين فتحوا العراق حى من أحياء الكوفة، وحدث نفس الشيء فى الفسطاط التى أقامها عمرو بن العاص بمصر .

وكان[1] مما انطبع به الفرد العربى اهتمامه ببطولته وإظهار فروسيته. كان لا يخضع لتنظيم ولا يرضى بقيادة، وقد اتصف بجفاف العود وصلابة التكوين والسمرة الشديدة فى اللون بفعل حرارة الشمس وشظف العيش. وهو سريع العدو خفيف الحركة حاد البصر.

وأصبح انتصار القبيلة - إلى أن ظهر الإسلام - لا يتوقف على تنظيمها عسكرياً، وإنما يتوقف على تصرف أفرادها ومهارتهم وقدرتهم على القتال. وربما كان هذا هو السبب فى ظهور عادة المبارزة بين مبارزين من طرفى النزاع قبل أن ينشب القتال. وغالباً ما كان ينتظر الفريقان نتيجة هذا الصراع الفردى ثم يلتحما بعد ذلك. ولذلك كانت كل قبيلة تدفع بأشهر فرسانها للمبارزة فى أول القتال، وكان ذلك نوعاً من استعراض الفروسية والقوة. فلما ظهر الإسلام وفرض الجهاد ظهر معه التنظيم والتكتيك الحربى الإسلامى. وقد كان قتال العرب فى الجاهلية على طريقة الكر والفر. ولم تكن هذه تفجعهم بكثير من القتلى، بل كانت معظم حروب الجاهليين تتجه نحو هجوم خاطف ثم الفرار بالغنيمة.

---

(١) الفروسية العربية ٣٥.

وكان للعرب تجارات وأسواق شهيرة. كذلك كانت قوافل التجارة تقطع بلاد العرب ما بين اليمن والشام والعراق. وكانت لكسرى وللنعمان ابن المنذر ملك الحيرة قوافل تجارية (تسمى لطائم • جمع لطيمة) يرسلها إلى نواحي الجزيرة العربية لتباع فيها تحت حماية كبير من العرب، تحمل الثياب وما يحتاجه العرب. كما كان لقريش رحلتان في الشتاء والصيف. ولم يكن العرب أهل صناعة بل كانوا يحتقرونها، ولكن كافة نساء العرب كن يحترفن الغزل[1]. ولم تكن الطرق آمنة ولذلك ظهرت طائفة من الأدلاء تعرف الطرق والسبل.

وفي هذا المقام يذكر لنا التاريخ هذه[2] الواقعة. بعث كسرى أنو شروان قافلة إلى عامله على اليمن تحمل نبْعاً (وهو الشجر الذي كانت تصنع منه القسي والسهام). وكان الفرس يخفرون القوافل بجنودهم من المدائن إلى الحيرة حيث يتسلمها النعمان بن المنذر فيحرسها فرسان من ربيعة حتى بني حنيفة باليمامة، فيتسلمها هوذه بن علي الحنفي ليحرسها حتى يخرج بها من أرضه فيسلمها إلى فرسان من بني تميم يخفرونها مقابل أجر ليبلغوا بها اليمن. فلما وصلت القافلة إلى اليمامة، عرض هوذه بن علي على حراسها أن يعطوه الأجر الذي كانوا يعطونه لبني تميم مقابل أن يصل هو بها إلى اليمن. وعلمت تميم بما فعل هوذه، فسارت فرسانهم ودهمت القافلة وقتلت حماتها واقتسمتها فيما بينها وأسرت هوذه، فافتدى نفسه منهم بثلاثمائة بعير. وقد انتقم كسرى من بني تميم بعد ذلك.

طبيعة البيئة فرضت على العرب أن يكونوا قبائل بكل ما في كلمة «قبيلة» من معنى. وضرورة الحياة وحراسة القوافل فرضت عليهم أن يكونوا فرساناً مقاتلين.

وكان العرب لعهد[3] الخلفاء الأولين من بني أمية يسكنون بيوتهم التي كانت من الوبر والصوف أو من الجلد، ولم تزل العرب إلى ذلك العهد أهل بادية إلا قليلاً منهم. فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بنسائهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد واستمر هذا شأنهم لقرون بعدها. ولذلك كانت عسكرهم كثيرة المواضع بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى.

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية.
(٢) الفروسية العربية ١٩.
(٣) ابن خلدون ٤٨٠.

وكان طعام العرب فى غالب الأزمان لا يخرج فى تكوينه عن التمر واللبن واللحم، وخاصة لحم الإبل وبعض الحبوب. وفي الحديث عن مالك بن أوس بن الحدثان عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا زكاة الفطر صاعاً من طعام - وطعامنا يومئذ البُر والتمر والزبيب[1] والأَقِط». وكانوا يأكلون لحوم الصيد والسويق والألبان وربما ابتلع أحدهم الريح أو مضغ القيصوم (نبات) والشيح أو حرش اليربوع، وكانوا يصيدون الضب والظبى والأرنب. وكان الغالب من أهل باديتهم لا يعاف شيئاً من المآكل لقلتها عندهم، وكان أحسن اللحوم عندهم لحوم الإبل، ولا يفضلون شيئاً عليها. وكان الاصطياد سيرة فاشية حتى كان أحد المكاسب التى عليها معاشهم. أما ما كان يتعاطاه غيرهم من التأنق فى الأطعمة المتنوعة والألوان الشهية، فلم تكن العرب تعرفها ولا كانت تمر على أذهانهم. حكى أن عبدالله بن جدعان وكان سيداً شريفاً من سادات قريش، وفد على كسرى مرة وأكل عنده الفالوذج فتعجب منه وسأل عن حقيقته، فقيل هى لباب البُر (القمح) يُلبك مع العسل. فابتاع غلاماً يصنعه وقدم به مكة، فصنع بها الفالوذج ووضع موائده بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى: «من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر». فكان ممن حضر إليه أمية بن أبى الصلت فأكل منه ثم مدحه بشعر[2].

وكان للعرب أطعمة شهيرة يتخذونها من الأصناف المذكورة. فمنها السخينة وهى تتخذ من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الحساء، وإنما يأكلونها فى شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال. ومنها الحريقة وهى أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب فيُحْسَى، وهى أغلظ من السخينة يُبقِى بها صاحب العيال على عياله إذا عضه الدهر. ومنها الصحيرة وهى اللبن يُغلى ثم يذر عليه الدقيق. ومنها العذيرة وهى دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضيف. ومنها العكيسة وهى لبن يصب عليه الشحم المذاب. ومنها الغريقة وهى حلبة تضم إلى اللبن والتمر وتقدم إلى المريض والنفساء. ومنها الأصية وهى دقيق يعجن بلبن وتمر. ومنها الرهية وهى بُرَ يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن. ومنها الحيس وهو الأقط مع السمن والتمر. والصناب وهو الخردل مع الزبيب. والبريك وهو الزبد مع الرطب[3]. وغير ذلك كثير مما لا

(1) أسد الغابة ٢٩٧ - والأقط لبن مجفف يطبخ به.

(2) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨٠.

(3) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨١ - ٣٨٥.

يخرج عن هذه الدائرة، فهي تباديل وتوافيق لخلط أصناف محدودة.

أما اللحم فكانوا يطبخونه شواء على النار أو سلقاً خفيفاً لا ينضجه في مراجيل، وكان ذلك مستحباً عندهم. قال عبدة[1] بن الطبيب التميمي، وكان من جند المثنى بن حارثة في معركة بابل.

لما نزلنا نصبنا ظِلَّ أَخْبِيَةٍ	وفار للقوم باللحم المراجيل
وَرْدٌ وأشْقَرُ ما يُؤْنيه طابخه	ما غَيَّرَ الغَلْيُ منه فهو مأكول
ثُمَّتَ قمنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ	أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان العرب يبكرون في الغذاء ويؤخرون العشاء في انتظار حضور[2] الضيف. وكانوا يذمون الشبع، وكثرة الأكل عندهم معيب. وفي لغتهم كثير من ألفاظ الذم في هذه المادة. فإذا كان الرجل حريصاً على الأكل فهو نَهِمٌ وَشَرِهٌ، فإذا زاد حرصه وجودة أكله فهو جَشِع، فإذا كان لايزال قرماً إلى اللحم (القرم شدة الشهوة إلى اللحم خاصة) وهو مع ذلك أكول فهو جعم، فإذا كان يتتبع الأطعمة بحرص ونهم فهو لعوس ولحوس، فإذا كان رغيب البطن كثير الأكل فهو عيصوم، فإذا كان أكولاً عظيم اللقم واسع الحنجور فهو هبلع... وذكر صاحب بلوغ الأرب[3] غير هذه ثمان عشرة صفة قبيحة كلها حول هذا المعنى.

ومن أوانيهم للطعام: الفيخة، وهي إناء صغير لا يشبع الرجل، والصحفة تشبع الرجل، والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة، والقصعة تشبع الأربعة والخمسة، والجفنة تشبع السبعة إلى العشرة، والدسيعة أكبرها[4].

وكانوا يورون النار بقدح الزند والزندة. وأفضل ما اتخذت منه الزناد شجرتا المرخ والعفار، فتكون الأنثى وهي الزندة السفلى مرخاً ويكون الذكر وهو الزند الأعلى عفاراً. والعفار شجر صغير (يشبه الغبيراء) وأما المرخ فنبات ينبت قضباناً سمحة طوالاً لا ورق لها. وليس في الشجر كله أورى زناداً من المرخ، وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً وهبت الريح فحك

(١) الكامل - للمبرد ١ / ٢٦٥، والمراجيل جمع مرجل وهو الإناء الكبير للطبخ. ورد: أحمر. وأشقر: أبيض، وهما صفتا اللحم. ما يؤنيه: لا ينضجه. والجرد المسومة هي الخيل. يقول: إنهم بعد أن أكلوا مسحوا أيديهم في أعراف الخيل.

(٢) بلوغ الأرب ١ / ٣٧١.

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٧٩.

(٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٨٧.

بعضه بعضاً فأورى فاحترق الوادى كله . والزندة عود مربع فى طول الشبر أو أكثر وفى عرض إصبع أو أشف وفى صفحاتها فرض (واحدتها فرضة وهى النقرة) ، والزند الأعلى نحوها غير أنه مستدير وطرفه أرق من سائره ، فإذا أراد المقتدح أن يقتدح بالزناد وضع الزندة ذات الفراض بالأرض ووضع رجليه على طرفيها ، ثم وضع طرف الزند الأعلى فى نقرة من نقر الزندة فهيأ فى الفرضة مجرى للنار إلى جهة الأرض بحز قد حزه بالسكين فى جانب الفرضة ثم فتل الزند بكفه ، ويلقى فى الفرضة تراباً يسيراً لتخشينها ، ويجعل إلى جانب الفرضة عند مفضى الحز ريَّة تأخذ فيها النار ، فإذا فتل الزند لم يلبث الدخان أن يظهر ، ثم يتبعه النار فتنحدر فى الحز وتأخذ فى الرية ، وتلك النار هى السقط[1] .

وقد عرف العرب تقطير ماء البحر ، «وكان لهم طرق[2] من العلاج لدفع مضرة ماء البحر إذا اضطر أحد منهم إلى شربه ، منهاأن يجعل فى قدر ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ويوقد القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف فإذا كثر عَصَرَه ، ولايزال على هذا الفعل حتى يجتمع له ما يريد فيكون فى الصوف ما عذب ويبقى فى القدر الزعاق» .

ملابس العرب

كانت كسوة العرب الرحل المخيط فى الغالب ولبس العمائم ، وربما ألقوا رداء على ظهورهم وأتزروا بإزار . وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم فكانوا يتفننون فى لباسهم . وكانت عمائم العرب لفافة على رؤوسهم وكانت مُحَنَّكَة ، أى طرف منها تحت الحنك . ومن أسمائها العصابة والمِعْجَر والمِشْوَذْ . وكانت السادة تلبس العمائم المهراة وهى الصفراء ، وكان الزبرقان بن بدر يصبغ عمامته بصفرة . وقال أبو الأسود الدؤلى عن العمامة أنها جُنَّة فى الحرب (يعنى وقاية) .

وكان من عادة فرسان العرب فى المواسم والجموع والأسواق وما أشبه التقنُّع ، وكانوا يكرهون أن يُعرفوا فلا يكون لفرسان عدوِّهم همٌّ غيرهم . وربما مع ذلك أعلم الفارس منهم بنفسه زيادة فى ثقته بنفسه ، فكان حمزة بن عبدالمطلب يوم بدر معلماً بريشة نعامة حمراء . وكانوا ربما جعلوا العمامة لواء أو شدوا بها أوساطهم عند الإحساس بالجهد . وكانوا يديرونها على رؤوسهم ويرسلون منها على الظهر وهو الذؤابة . وكان يقال عن العمامة تَلَحَّاها الرجل إذا أدار منها تحت ذقنه وهو المأمور به ، فإذا لم يدرها فهو المنهى عنه ، فإذا أدارها على بعض

(١) بلوغ الأرب ٣ .
(٢) بلوغ الأرب ١ / ٣٩٦ .

فمه فذلك اللثام وإذا أدارها على فمه فهو اللفام، فإن بلغ بها أصل فمه فذلك النقاب، فإذا لم يظهر منه إلا العينان فهو الاحتجار والتوصيص. ولم تزل العرب تلهج بذكر النعال والفرس تلهج بذكر الخفاف، وبنو الحارث بن سدوس لا تلبس نعلاً قط إذا نقبت.

الإبل والبيوت

وكان الجمل عند العرب ذا قيمة، فكان يركب للتنقل ويستخدم في حمل الأثقال، ويشرب لبنه ويؤكل لحمه وتتخذ الثياب والفرش والبيوت من وبره[1]. ويقرر القرآن الكريم ذلك الواقع فيقول: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[3]. وقد اختلفت أسماء البيوت عند العرب باختلاف أنواعها. فالخباء ما كان من صوف الغنم وهو على عمودين أو ثلاثة، والبجاد ما كان من وبر الإبل، والفسطاط ما كان من شعر الماعز، والسرادق ما كان من قطن، والقَشْع ما كان من الجلد اليابس، والطراف ما كان يتخذه الأغنياء من الأديم وهو الجلد المدبوغ، والحظيرة: بيت كانوا يتخذونه مما يقطع مما تفرق من أغصان الشجر، وكانت تعمل للإبل لتقيها الريح والبرد، والخيمة بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر، والأقنة بيت يبنى من حجر، والكُنَّة بيت يبنى من لبن. وهذه البيوت أحب لأهل البوادى من القصور المشيدة[4].

وقد أدت الإبل للمسلمين أجل الخدمات في فتوحهم، فكانت أداة المواصلات والنقل من أرباض شبه الجزيرة، وكان عليها المعول في قطع القفار واجتياز المفاوز الجافة. وليس سوى الجمل حيوان يحتمل هذا مع الصبر على العطش، فإذا حضر الماء شربت وروت. وكانوا إذا أوردوها الماء كل يوم قالوا سقيناها رفهاً، وإذا أوردوها يوماً وتركوها في المرعى يوماً قالوا سقيناها غِبًّا، وإذا أقاموا في المرعى بعد يوم الشرب يومين، ثم أوردوها في الثالث قالوا

---

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية.

(٢) سورة النحل ٥-٧.

(٣) النحل ٨٠.

(٤) بلوغ الأرب ٣ / ٣٩٤.

سقيناها ربعاً، لأنهم يحسبون يوم المقام مع يوم الشرب . . . وتمام ظمأ الإبل فى الغالب ثمانية أيام فإذا أوردوها الماء فى التاسع منه وهو العاشر من الشرب الأول قالوا سقيناها عشراً، وإذا زادوا على العشرة يوماً، قالوا أوردناها رفهاً بعد عشر .

تدل هذه المفردات من لغة العرب على أن الإبل كانت ترد الماء فى اليوم أو اليومين أو أكثر حتى عشرة أيام تصبر على ذلك، وأن الغالب فى تمام ظمئها تسعة أيام، فأى حيوان سوى الجمل حباه الله بهذه الخاصية، بل ولا المركبات الميكانيكية الحديثة تستطيع ذلك، فإن مشاكل إمدادها بالماء والوقود فى الحملات تعد من أعقد مشاكل الحملة وتضع لها القيادات خطتها كاملة لضمان ذلك وإلا فشلت التحركات .

الإتصالات الخارجية

ولم يكن العرب رغم سكناهم شبه الجزيرة بمعزل عن العالم الخارجى كما قد يتوهم، ولم يكونوا أقواماً تعيش فى مجاهل من الأرض . ولكنهم كانوا يتابعون العالم الخارجى ويتصلون به اتصالاً ربما لم يكن يقل عن اتصال أى دولة أو شعب حينذاك بالدول والشعوب الأخرى إن لم يكن يزيد . فنراهم ينزحون ويرحلون إلى حدود جيرانهم من الدول، ويتصلون بغيرهم اتصالاً تجارياً فى رحلة الشتاء والصيف . وكانوا يعرفون عن غيرهم الكثير، ولقد رأينا اهتمام المسلمين والمشركين بما كان بين فارس والروم حتى نزل فيه الوحى بقرآن (أول سورة الروم) . قال الهمدانى[1] فى : «الوشى المرقوم» « . . وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس . . » إذن فقد كان العرب يتابعون أحداث العالم المعروف، فى حين لم يكن ذلك العالم يكاد يعرف شيئاً عن بلاد العرب ومن فيها قبل أن ينساب المسلمون منها كما يخرج المارد من القمقم .

حروب العرب

كان[2] للحروب أيام العرب قبل الإسلام عندهم وعند غيرهم صفة من اثنتين عرض لهما المؤرخ ابن خلدون . ننقل عنه ما قال مع بعض الإضافات والتصرف .

الحرب أمر طبيعى فى البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل، وهو إما غيرة ومنافسة، وإما

---

(١) بلوغ الأرب ٣ / ٢١٣ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٨٥ - ٥٠١، وبلوغ الأرب ٢ / ٥٦ - ٦٨ .

عدوان، وإما غضب لله ودينه، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده.

فالأول: أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة.

والثاني: وهو العدوان، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنة بالقفر، كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم، لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما فى أيديهم.

والثالث: وهو المسمى فى الشريعة بالجهاد.

والرابع: هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها.

فهذه أربعة أصناف من الحروب، الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل.

وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين، نوع بالزحف صفوفاً، ونوع بالكر والفر. أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب. وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى صفوف الصلاة، القدم مع القدم والكتف مع الكتف، بل وجرت عادة الفرس والروم أحياناً على أن يربطوا هذه الصفوف بالسلاسل، ثم يمشون بصفوفهم إلى عدوهم قدماً فتكون أثبت عند الصراع وأصدق فى القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع فى إزالته. وفى التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1] أى يشد بعضهم بعضاً بالثبات. وفى الحديث «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

ومن هنا تظهر حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف، فإن المقصود من الصف فى القتال حفظ النظام، فمن ولى العدو ظهره فقد أخلّ بالصف وباء بإثم الهزيمة إن وقعت، وصار كأنه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم، فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها إلى الدين بخرق سياجه فعد من الكبائر. وفى الصحيحين[2] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل يا رسول الله وما هن؟ قال الشرك

---

(١) سورة الصف ٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٩٤.

بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع. أما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف، إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف.

التعبئة

أما الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك، فكانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس، ويسوون في كل كردوس صفوفه. وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة، وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب وتداولوا مع عدوهم الطعن والضرب، فيخشى من اختلاطهم وتدافعهم فيما بينهم لجهل بعضهم ببعض. لذلك كانوا يقسمون الجند جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع. ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب، ويسمون هذا الترتيب «التعبئة» وهو مذكور في أخبار الفرس والروم في صدر الإسلام، فيجعلون بين يدى القائد العام عسكراً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة. ثم عسكراً آخر ناحية اليمين عن موقف الملك أو القائد وعلى سَمْته يسمونه الميمنة. ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة. ثم عسكراً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة (وهو المؤخرة) كأنه يسوق الجيش من خلفه ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربعة ويسمون موقفه القلب. فإذا تم لهم هذا الترتيب سواء في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها أو كيفما أعطاها حال العساكر في القلة والكثرة، فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة.

هذه الصفوف في الجيوش القديمة هي التي يمثلها سلاح المشاة في الجيوش المعاصرة الحديثة حتى الحرب العالمية الثانية. فسلاح المشاة كان هو المسؤول عن تغطية الجبهة والاحتفاظ بالأرض. ولئن اختلف سلاح المشاة بين القديم والحديث فإنه مجرد اختلاف في الشكل وإن كان اتفاقاً في الجوهر والهدف. لقد زال التراص بمعنى أن يكون القدم مع القدم والكتف مع الكتف، ولكن بقيت الوظيفة كما هي، ولم تكن تعتبر سائر الأسلحة إلا معاونة له. كانت

تغطية الجبهة فى حالتى الهجوم والدفاع حتى لا يكون فيها ثغرة ينفذ العدو من خلالها، واجب المشاة. وقد استعيض عن تراص الصفوف فى تحقيق هذه الوظيفة باستعمال البنادق والرشاشات الخفيفة وأسلحة المشاة الأكثر ثقلاً والمضادة للدبابات. فأصبح فى الإمكان أن تبتعد الأقدام وأن ينفرج ما بين الأكتاف، ولكن بشرط أن تكون المسافات الفاصلة بين الجنود فى الجبهة مستورة بنيران أسلحتهم التى فى أيديهم.

الكر والفر

ومما يذهب إليه أهل الكر والفر ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات، فيتخذونها ملجأ للفرسان فى كَرِّهم وفَرِّهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أقرب إلى الأخذ بأسباب النصر، وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة. فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة فى الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح ورماة النبل والرايات، يصفونها وراءهم فى حومة الحرب كأنها حصون، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم. وقد رأيناهم فى القادسية قدموها أمام صفوفهم وجعلوها نواة لفرقهم يلتف حول كل فيل فرقة منهم.

أما الروم وملوك القوط بالأندلس فكانوا يتخذون الأسِرَّة، فينصبون للملك سريره فى حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته، وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه. وترفع الرايات فى أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والمشاة فيعظم هيكل السرير ويصير ملجأ للكر والفر، وقد اتخذ رستم مثل ذلك فى القادسية.

أما أهل الكر والفر من العرب وأكثرهم الأمم البدوية الرحالة، فيصفّون إبلهم والظهر الذى يحمل نساءهم، فيكون فئة ومرجعاً لهم ويسمونها المجبوذة (أو الفدائية) وليس أمة من الأمم إلا وهى تفعل ذلك فى حروبها وتراه أوثق فى الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد.

وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران، أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم. والثانى أنهم كانوا مستميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان وطلب الشهادة، والزحف إلى الاستماتة أقرب.

وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس[1] مروان ابن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده. فتنوسي قتال الزحف بإبطال الصف، ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف، وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء، فلما حصلوا على الترف وسكنى البيوت والقصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر، نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها، فخلفوا النساء في الأسفار وحملهم الترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية واقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والخيام وكان لا يغني كل الغناء، لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال، فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيعات (الهيعة صوت العدو المخيف) وتُخَرِّم صفوفهم.

ويتأكد حق القائد في ضرب المصاف في الخلف ليكون عوناً للمقاتلة في الأمام، ولابد أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف، وإلا مضوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزموا وانهزم السلطان بإجفالهم.

أما قتال الترك فكان رمياً بالسهام وتعبئة الحرب عندهم بالصفوف. فكانوا يصفون ثلاثة صفوف صفاً وراء صف، ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتراشقون بالسهام وهم جلوس. وكل صف عون للذي أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتهيأ النصر لإحدى الطائفتين. وهي تعبئة غريبة.

الخنادق

كان من مذاهب الأوائل في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذراً من التبييت - الهجوم الليلي - لما في ظلمته ووحشته من الأثر النفسي ومضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلام ستراً من عاره، فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا خيامهم كنوع من الدفاع، ويديرون الحفائر عليهم من جميع جهاتها، وكانت للدولة عليه قوة واقتداراً بجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم.

(انتهى ما نقلناه عن ابن خلدون بتصرف).

---

(١) عبأ خالد بن الوليد جيش المسلمين في اليرموك كراديس ثمانية وثلاثين كردوساً عام ١٣هـ قبل مروان. غير أننا نرى أن التعبئة بالكراديس نوع من الزحف بالصفوف. فهو ليس إبطالاً للصف وإنما تطوير له.

معارك الإسلام الأولى

مما سبق نفهم أن العرب قبل الإسلام كانوا يقاتلون على طريقة الكر والفر. ولكننا نستطيع أن نقرر أن ذلك كان غالباً، وذلك لاعتمادهم فى حروبهم على الفرسان أكثر من اعتمادهم على المشاة (الرجالة). أما معارك الإسلام الأولى فى حياة الرسول ﷺ فنلاحظ أنها لم تكن كذلك. فقد بدأ ظهور الإسلام والمسلمون ضعفاء فقراء قليل عددهم، قليل المال فى أيديهم، قليلة الخيل عندهم. ففى غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة كان جيش المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً راجلاً لم يكن بينهم سوى فارسين. وفى معركة أحد فى السنة الثالثة للهجرة كان المسلمون سبعمائة فيهم مائة دارع وفرسين، لم تزد فرساً عن غزوة بدر. ثم فى العام الخامس من الهجرة وقعت غزوة الخندق وكان المسلمون ثلاثة الاف ولم تتجاوز خيلهم ستاً وثلاثين فرساً، هى التى شهدت بنى قريظة فى أعقاب الخندق. وبعث رسول الله ﷺ ببعض سبايا بنى قريظة فبيعت فى نجد واشترى بثمنها خيلاً وسلاحاً. أما فى مؤتة فى العام الثامن من الهجرة فقد بلغ المسلمون ثلاثة آلاف مقاتل، ارتفعوا فى غزوة تبوك فى العام التاسع للهجرة إلى ثلاثين ألفاً، فيهم عشرة آلاف فارس. ولا شك أن هذا الرقم يعد طفرة بالنسبة لما سبق. وغنى عن الذكر أنه فى الفترة موضوع بحثنا كان كل من دخل الإسلام هو فى صفوف جنود المسلمين، فعدد جيش المسلمين يومئذ هو عدد المسلمين من الرجال البالغين الصالحين للقتال جميعاً. هذا وقد بلغ جيش المسلمين على عهد عمر بن الخطاب أكثر من مائة وخمسين ألفاً، أنشأ لهم ديوان الجند فى العام الخامس عشر من الهجرة ليقوم بتسجيل أسمائهم وأعطياتهم وتموينهم وعائلاتهم.

وقبل ذلك كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول من اتخذ بيت المال فكان يشترى من موارد ذلك البيت الإبل والخيل والسلاح فيجعله فى سبيل الله.

ولما كان الإسلام ديناً يتناول جميع شئون الحياة فليس شاذاً أن نجده يتعرض للقتال وأساليبه. فقد حفظ قدر القتال بطريقة الزحف بالصفوف المتراصة وهى التى اتبعها الرسول ﷺ فى مواجهاته مع قريش، ونجد فى كتاب الله سورة اسمها: «سورة الصف» وهو

الصف للقتال، نقرأ فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.
وبذلك أقر الإسلام طريقة القتال بالصفوف وحث المسلمين عليها ورغبهم فيها. وروى عن أحمد وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال». وعن سعيد بن جبير قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم. وهذا تعليم من الله للمؤمنين. وقال: وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أى ملتصق بعضه ببعض من الصف فى القتال. وقال ابن عباس: مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض[1].

هذا وقد كانوا ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على أقدامهم. ولا يستطيع أن ينزل فى ذلك الموضع إلا أهل البأس والشدة، ولذلك قال المهلهل[2]:

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من أطاق النزولا

ولقد فعل ذلك أبو عبيد بن مسعود الثقفى والمسلمون فى معركة الجسر بالمروحة، كذلك سنرى شيئاً من ذلك فى معركة القادسية.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٥٨.
(٢) بلوغ الأرب ٢ / ٧٦.

الباب الثالث

عدة الحرب

مجد الإسلام الخيل، وهى عماد طريقة الكر والفر فى الحرب. قال ﷺ [1]: «الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة». واختصها القرآن الكريم بالذكر من كافة عدة القتال فقال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[2]. وعن أبى بحرية قال: كانوايكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقوله: «إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص»[3]. وفى الكتاب الكريم سورة اسمها العاديات (من العدو وهو الجرى) والعاديات هى الخيل التى تعدو فى الحرب، وقد وصفها القرآن الكريم ورفع شأنها حيث أقسم بها إذا جرت فى سبيله فعدت وضبحت (والضبح هو الصوت الذى يسمع من الفرس حين تعدو[4]) فقال: ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾.

ومن عجيب الأمور أن هذه الآيات قد جمعت خواص سلاح الفرسان التى تميز بها حتى عصرنا هذا إذ تقرر الآيات أن العاديات تتميز بخفة الحركة والسرعة (والعاديات)، وبالضجيج والصوت الذى تحدثه (ضبحاً)، (فالموريات قدحاً) يعنى اصطكاك حوافرها بالصخر فتقدح منه الشرر. وتقرر صلاحيتها للعمل النهارى، (فالمغيرات صبحا) يعنى الإغارة أول النهار وقت الصباح، وإثارتها للغبار الذى يماثل اليوم قذائف الدخان (فأثرن به نقعاً)، واستخدامها فى فتح الثغرات فى صفوف العدو ودق الإسفين فى دفاعاته (فوسطن به جمعا). وإيراد القرآن لهذه الصفات والمعانى كأنما يقصد به الإشارة إلى جوهر السلاح وصفاته وواجباته لا الوقوف عند شكله. فما كانت تقوم به الخيل قديماً وحتى مطلع القرن العشرين تقوم به اليوم الدبابات والمدرعات ذات العجل وذات الجنزير ونصف الجنزير، وقد تقوم به غداً مركبات أخرى يبتكرها الإنسان. وكلها عاديات.

---

(١) البخارى ١٢ / ١٣٦ كتاب الجهاد والسير - عن مالك عن نافع عن ابن عمر.
(٢) الانفال ٦٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٤ /٣٥٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٤١.

هذا وقد جعل الإسلام نفل الراجل سهماً ونفل الفارس ثلاثة أسهم، ففى الوقت الذى كان المسلمون يتفانون فيه فى الثبات والقتال بالصفوف الزاحفة المتراصة، طعّموا ذلك بالفرسان لتزيدهم قوة إلى قوتهم وثباتاً على ثباتهم، وتوسعوا فى ذلك حتى صارت قوتهم الضاربة كلها من الفرسان فى فتح المدائن وغيرها من معاركهم، والفرسان هى التى مكنت لهم، بما لها من سرعة وخفة حركة، وبحسن استخدامهم لها ومرانهم عليها، مكنت لهم من النصر ومن كسب معركة إثر أخرى حتى مال توازن القوى فى العالم إلى صالحهم. وتأرجحت ميادين القتال بين المشاة والفرسان. وقد كاد شارل مارتل - من قياصرة الروم، توفى ٧٤١م بعد قرن من بدء الفتح الإسلامى - أن يحول جنود مشاته من الفرنجة إلى فرسان لكى يناهض فرسان المسلمين. وفى ٨٥٥م أخّر بيبان نداء الجندية شهرين عن موعده المحدد له، من شهر مارس (آذار) - إله الحرب عندهم - إلى شهر مايو (أيار)، وأصبحت ساحة مارس (آذار) ساحة مايو (أيار)، وذلك حتى يتسنى له إعداد العلف اللازم لجيش كله من الفرسان[1]. هذا التطور الكبير يقف على قدم المساواة فى تطور الحروب مع اختراع البارود والدبابة والغواصة.. إلخ.

ولقد جهل العالم القديم حدوة الحصان التى تهبه قدماً راسخة، والسرج والركاب التى تهب الفارس ثباتاً أعظم. ولكن هذه الأدوات عرفها شرق البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الرابع الميلادى[2]. وكان الرِّكاب قديماً يصنع من الخشب، فكان الرجل يُضرب ركابه فينقطع، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد، فكان المهلب بن أبى صفرة (حوالى ٦٠هـ) أول من أمر بصنع الرُّكب[3] من الحديد.

غير أن استعمال الخيل عند غير العرب له مشاكله الجسيمة. فإن امتلاك دواب الحرب ودوام تجهيزها الكامل شىء كثير الكلفة، وليس أمام الرئيس الذى يعنيه أن يكون له جيش من الفرسان إلا إحدى اثنتين: إما أن يدعو الاقطاعيين الأغنياء القادرين على تمويل فرسانهم، وإما أن يهب هو الآخرين الوسائل التى يواجهون بها هذه النفقات، وموارده بطبيعة الحال ليست بالتى لا تنفد! ومن هنا فلن يكون جيش الفرسان كبير العدد قط. فضلاً عن ذلك فإن زمن الحملات الحربية لابد وأن ينحصر فى نطاق ثلاثة أشهر على الأكثر هى شهور العلف،

---

(١) تاريخ الجيوش ٣٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الكامل للمبرد ٢ / ٢١٩.

وهى من مايو (أيار) إلى أوائل أغسطس (آب)، تلك هى فترة الحصاد وجنى الكروم. ولذلك لم يكن يدعى إلى القتال فى الدولة الرومانية إلا من كان يمتلك أربع وحدات من الأرض (١٠-١٥ هكتار) وفوق هذا، لم يكن الرجال يجندون إلا من المناطق المجاورة لميدان[1] القتال.

ولذلك لم يكن غريباً أن نجد أن الحصان لم يستعمل فى فرنسا مثلاً إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، للتنقل أولاً ثم للقتال بعد[2] ذلك.

أما عن الخيل عند المسلمين الأوائل فلم يكن لها مشكلة. كان الفرس ملكاً خاصاً لصاحبه ولم يكن ملكاً للدولة ولا للقبيلة. فكان المسلم يتطوع بنفسه وبفرسه، لا يكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئاً، إنما كانوا ينزحون بنسائهم وأثقالهم على إبلهم يجَنِّبون الخيل ويسحبونها من ورائهم، كما كانوا يتنقلون فى ديارهم من شبه الجزيرة ويقنعون بما يصيبون من الغنائم، إذ كان لهم أربعة أخماس الغنيمة.

فإذا كان الفارس قد نشأ على شظف من العيش ودرج على الكفاف من الحياة... فكذلك كان فرسه، لم يكن يشترى له علفاً أو ينتظر له موسم الحصاد أو الكروم، إنما كان يتنقل به فى شبه الجزيرة وراء الماء والكلأ الذى ينبت مع سقوط المطر هنا وهناك... لا تكلفة ولا مشاكل. الحياة عند العربى تنقل وراء الماء، وحيثما وجد الماء فهناك الكلأ. نعم لقد اقتضت عناية بعضهم بخيله أن يطعمها الحبوب كالشعير وغيره. وبلغت ببعضهم أن كان يسقى خيله لبناً حتى بعد الفطام، إلا أن عامة خيلهم لم يكن ثمة عناء فى إطعامها، فقد كانت الخيل وكل دوابهم تأكل ورق السَّمُر (النبق) وورق الشجر عامة، كما كان بعضها يأكل العذرة (وهى القمامة والفضلات). يروى البخارى فى حديث الهجرة: «... وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخَبْط أربعة أشهر»[3]. ويروى أيضاً عن زيد بن خالد الجهنى أن النبى ﷺ سأله رجل عن اللقطة فقال: «اعرف وكاءها - أو قال وعاءها - ثم عرفها سنة ثم استمتع بها فإن جاء ربها فأدها إليه. قال فضالة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه - أو قال احمر وجهه - فقال مالك ومالها! معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وترعى الشجر

(١) تاريخ الجيوش ٣٧ - ٤٠.
(٢) تاريخ الجيوش ٥٠.
(٣) البخارى ٢ / ٢١٢ - والخبط الذى يسقط من الشجر بخبطه بالعصا.

فذرها حتى يلقاها ربها. قال فضالة الغنم؟ قال: هى لك أو لأخيك أو للذئب[1]. وجاء فى تاريخ الطبرى[2] رواية عن أبى سفيان أنه قال فى العام الرابع للهجرة «إن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام ترعى فيه الإبل الشجر ونشرب فيه اللبن».

ولقد كانت الخيل أول الإسلام قليلة نادرة فى المدينة ومكة، لأنهما كانتا حاضرتين ولم تكونا باديتين ولم يكن أهلهما بدواً، كذلك قلّت الخيل فى اليمن حيث كثرت الإبل، فى حين كثرت الخيل فى نجد من الخليج إلى البحر الأحمر. فإذا خرج المسلمون من شبه جزيرتهم إلى العراق أو الشام فالكلأ أكثر والمرعى أرتع.

وخيل العرب أجود خيول الدنيا، وكانت عند العرب أعظم عددهم للحرب وعليها مدار أمرهم، وبها يجولون فى كرهم وفرّهم. وكانوا إذا ساروا لحرب ركبوا الإبل وقادوا الخيل ليريحوها - كما يحدث الآن بالنسبة للدبابات، فإنها تحمل على عربات حتى ميدان القتال حيث تنزل لتقاتل - فإذا اقترب العرب من عدوهم أو أرادوا الغارة نزلوا عن إبلهم وركبوا[3] الخيل. ونستطيع أن ندرك حمولة الإبل من هذه القصة التى رواها ابن عبدالحكم فى سيرة عمر بن عبدالعزيز أنه كتب إلى حيان بمصر: إنه بلغنى أن بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابى هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.

وبتتبع تحركات ذلك العصر التى علمت مسافاتها وجاءت مقترنة بذكر أزمانها، نجد أنها كانت تتم على ظهور الإبل بمعدل يتراوح حوالى خمسة وأربعين كيلو متراً فى اليوم. ولقد اعتبر اليوم الذى هو وحدة لقياس المسافات ٤٤٫٣٥٢ كيلو متراً، ويبدو أن هذا المعدل كان لتحركات قوافل التجارة المحملة بالأثقال وما شاكل ذلك، أما تحركات الحملات الحربية فكانت تصل إلى خمسين، وربما ستين كيلو[4] متراً. أما التحرك السريع بالخيل كنقل الأخبار وحمل الرسائل والغارات الخاطفة فيمكن اعتماد الروايات التى تصل بسرعتها إلى مائة أو مائة وعشرة كيلو مترات فى اليوم[5].

وكان للعرب فى تربية خيولهم مزيداً من العناية فى الجاهلية والإسلام، وكان الرجل يؤثر

---

(١) البخارى ١/ ١٨.

(٢) الطبرى ٣/ ٤٢.

(٣) بلوغ الأرب ٢/ ٧٦.

(٤) قطع خالد بن الوليد ما بين الانبار وعين التمر (حوالى ١٣٠ كيلو متراً) فى ثلاثة أيام.

(٥) عاد المثنى من المدينة إلى الحيرة (حوالى ١١٠٠ كيلو متراً) فى عشرة أيام. وقطع خالد ما بين الفراض بشمالى العراق إلى مكة (حوالى ١٥٥٠ كيلو متراً) فى أسبوعين.

فرسه على نفسه وأهله وولده فيبيت طاوياً ويشبع فرسه[1]. ولذلك وقفوا على أحوالها وأوصافها المحمودة والمذمومة ما لم يقف عليه غيرهم، وعلموا من عللها وأمراضها وأدوائها وعلاجها ما لم يعلمه سواهم. ووصفوا مشيها وعدوها وألوانها، وسموها بأسماء ناسبت أحوالها، وامتدحوها وبالغوا فى رعايتها وحفظوا أنسابها. وقد كتب ابن هشام الكلبى كتاباً فى نسب الخيل وأخبارها فى الجاهلية والإسلام مما يشعرنا بقيمة الفرس عند العربى وحرصه على تسجيل نسبه لتقدير أصالته، فداحس مثلاً هو الفرس المشهور أيام عبس وذبيان، أبوه ذو العقال وأمه جلوى، والغبراء خالته وأخته لأبيه.. وهكذا. ومن أشهر الشعر العربى وصف امرىء القيس لجواده:

مِكَرٍّ مفر مقبل مدبر معاً كَجُلْمُود صخر حطه السيل من علِ

ولكى تتخلص الخيل العربية المقاتلة من الترهل كانوا يعمدون إلى الفرس فيجيعونها أياماً لا تعيش إلا على السوائل الخفيفة، حتى إذا خمص بطنها جَلَّلُوه بالجلال (وهو ما يشد على وسط الدابة) وشدوه على بطنه ثم أخذوا يقدمون له الغذاء يزيدونه قليلاً قليلاً حتى يظل خصره دقيقاً ولا يتفلطح كرشه. وكانوا يسمون ذلك تضمير الخيل. وقد ساعد هذا التخفف من اللحم والشحم خيل العرب على أن تكون أسرع عدواً من غيرها وأخف حركة من سواها. ولقد عقد رسول الله ﷺ مسابقة بين الخيل المُضَمَّرة لمسافة طويلة كما عقد سباقاً للخيل التى لم تضمر لمسافة أقل. وفى هذا تقرير للآثار التى تنشأ عن التضمير. وفى مختار الصحاح: تضمير الفرس أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت (وهو ما يقوم به البدن - الكفاف) وذلك فى أربعين يوماً وهذه المدة تسمى المضمار. والموضع الذى تُضمر فيه الخيل أيضاً مضمار. وفى القرآن الكريم[2] ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾.

قال ابن القيم: «الفروسية أربعة أنواع أحدها ركوب الخيل والكر والفر بها. والثانى الرمى بالقوس. والثالث المطاعنة بالرماح. والرابع المداورة بالسيوف، فمن استكملها استكمل الفروسية».

وقال الشاعر:

---

(١) بلوغ الأرب ٢ / ٨٢.
(٢) سورة الحج ٢٧.

وما أدرك الأوطار مثلُ محَقَّقٍ بأجْرَدَ طاوٍ كالعسيب المُشَذَّب[1]
وأسمر خَطِّي وأبيض باترٍ وَزَغفٍ دلاصٍ كالغدير المثوّب

وكانت الفرس وسيلة العربى فى مطاردة صيده لإشباع جوعه أولاً وللرياضة ثانياً. ولم تكن العرب تعد المال فى الجاهلية إلا الخيل والإبل. وقال الجاحظ: «الفرس من طبعه الزهو فى المشى[2] ويحب سائسه ويعجبه راكبه، ولا يحب الأولاد، وهو غيور ويعرف المصيبة». وكان العربى يتعلم ركوب الخيل منذ صباه.

التدريب على الخيل

قال ابن الهذيل: «أعلم – أرشدك الله – أن أصل الفروسية الثبات، وأن مبتدأها إنما هو الركوب على العرى من الخيل (بدون سرج ولا ركاب). ومن لم يتدرب أولاً على العرى لم يستحكم ثبوته فى الغالب، بل يكون أبداً قلقاً فى سرجه، لا سيما عند خَبَبه وركضه، فلا يؤمن سقوطه إن اضطرب فرسه أو أصابته هنة... فمن أراد التفرس على العربى فليلبس ثياباً خفافاً مشهرة ويلجم فرسه ويشد عليه جُلَّ صوف أو شعر وثيق الحزام واللبب[3]، فإن الراكب على الجُل[4] أثبت منه على المجرد. ويقف عن يسار فرسه عند منكبه ويمسك عنان لجامه بيده اليسرى، وإن أخذ العرف مع العنان فلا بأس به. ويثب بسرعة وخفة، فإذا استوى على ظهره جمع يديه فى العنان عند كاهل الفرس (ما بين كتفيه) ونصب ظهره وضغط بفخذيه موضع دفتى السرج من ظهر الفرس، ويتقدم قليلاً، فالتقدم أحسن على العرى من التأخر، ويمد ركبتيه وساقيه وقدميه إلى كتفى الفرس حتى يمكنه أن ينظر إلى إبهامى قدميه، وليكن اعتماده على الضغط بفخذيه، فبذلك يحوز الثبات. وكل من لزم ركوبه غير ذلك فلا ركوب له ولا ثبات»[5].

ولا شك أن هذا التدريب يحتاج إلى قوة عضلية ولياقة بدنية عالية، كانت دائماً هى سمة الفرسان المسلمين.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً، وروُّوهم ما يجمل من الشعر[6]».

---

(١) أجرد طاو: فرس يطوى المسافات. العسيب: هو سعف النخل شبهه به لرفع قوامه ونحافته. أسمر خطى هو الرمح. وأبيض باتر هو السيف. وفى المنجد الزعف: الدرع الواسعة الطويلة. ودلاص: لين براق فهو سهل الحركة يتموج مثل سطح الغدير لا يعوق حركة لابسه.
(٢) قيل إنه سمى خيلا لاختياله فى مشيه.
(٣) موضع القلادة من الصدر. واللبب ما يشد من سيور السرج فى صدر الدابة ليمنع استئخار السرج (المنجد).
(٤) ما يشد على جسم البعير من قماش.
(٥) الفروسية العربية ٤٧.
(٦) الكامل للمبرد ١ / ١٢٦.

وهى متعددة. أهمها السيف والرمح والقوس والسهم والدرع، أماالخيل فقد تقدم ذكرها.

السيف[١]

هو أحسن آلاتهم وأشهرها ذكراً وأقربها إلى نفوسهم، ولذلك كثرت أسماؤه عندهم ولهجوا به فى أشعارهم. وأول من عمل الحديد من العرب هو الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة. ولذلك قيل لبنى أسد القيون (جمع قين وهو الحدّاد)، كما قيل لكل حداد هالكى. والأبيض من أسماء السيوف[٢] عند العرب.

وكان من أحسن السيوف عند العرب السيوف المَشْرَفية. والمشرفى هو السيف المنسوب إلى مشارف، وهى على الأرجح مشارف الشام، وقيل كانت موضعاً باليمن. ومن أحسنها أيضاً السُّرَيْجيَّة نسبة إلى سريج وهو رجل من بنى أسد أيضاً كان حداداً يصنع السيوف. والمهند هو السيف صناعة الهند.

وكان أحسن سيوفهم المصقول الحاد القاطع الرقيق الذى لا ينثنى. وكانوا يكرهون السيف الضعيف الذى علاه الصدأ، وإذا ضرب به لم يقطع. وقد بلغ من اهتمام العرب بالسيف أن وضعوا أسماء لأجزائه المختلفة مثل الذبابة[٣] وهى طرفه الذى يضرب به والذؤابة وهى علاقته، والظُّبَة وهى أيضاً الحد والطرف الذى يضرب[٤] به، والغرار وهو حد السيف، والعمود، والجوهر وهو الفرند يعنى الوشى، وكذلك فعلوا بغمده.

وكانوا لتمكنهم من استخدامه وإلفهم له يقولون عن السيف: إنه يغنى عن غيره ولا يغنى عنه غيره ويعمل به عمل السلاح كله. فكانوا يطعنون به كالرمح ويضربون به كالعمود ويقطعون به كالسكين ويجعلونه سوطاً ومقرعة ويتخذونه جمالاً ووجاهة فى الملأ وأنيساً فى

---

(١) بلوغ الأرب ٢ / ٦٢ و٣ / ٣٥٤.

(٢) مختار الصحاح.

(٣) المنجد.

(٤) يقال أصابته ظبة السيف وظبة النصل والمراد به موضع الضرب من السيف – الكامل للمبرد ١ / ٥٦.

الوحدة ورفيقاً للسائر . قال ﷺ مشيداً بفضله ومحبباً فيه : «لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» .

ولقد بلغ من اعتداد العرب بالسيف أن حفظوا تاريخ المشهور من سيوفهم. مثال ذلك صمصامة عمرو بن معدى كرب الزبيدى . يروى هشام بن محمد الكلبى أن رسول الله ﷺ وجّه خالد بن سعيد إلى اليمن فمر برهط عمرو بن معدى كرب الزبيدى من مذحج ، فأغار عليهم ، فسبا امرأة عمرو وعدة من قومه ، فعرض عليه عمرو أن يمن عليهم ويسلموا ففعل فوهب له عمرو الصمصامة وقال :

خليل لم أهَبْه من قِلاهُ ... ولكن المواهب للكرام
خليل لم أخُنه ولم يخني ... كذلك ما خِلالىَ أو ندَامى
حبوت به كريماً من قريش ... فسر به وصين عن اللِّئام

واستشهد خالد بن سعيد يوم مرج الصفر وفى عنقه الصمصامة فأخذه معاوية فكان عنده ، ثم نازعه فيه سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن أمية فقضى له به عثمان فلم يزل عنده . فلما كان يوم الدار (دار عثمان بن عفان) وضرب مروان على قفاه وضرب سعيد ، أخذ الصمصامة منه رجل من جهينة فكان عنده حتى دفعه إلى صيقل ليجلوه ، فأنكر الصيقل أن يكون للجهنى مثله ، فأتى به مروان بن الحكم وهو والى المدينة ، فسأل الجهنى عنه فحدثه حديثه ، فقال أما والله لقد سلبت سيفى يوم الدار وسلب سعيد بن العاصى سيفه . فجاء سعيد فعرف السيف فأخذه وختم عليه وبعث به إلى عمرو بن سعيد الأشدق وهو على مكة . ومات سعيد فبقى السيف عند عمرو بن سعيد ، ثم أصيب عمرو بدمشق وانتُهب متاعه فأخذ السيف محمد بن سعيد أخو عمرو لأبيه ، ثم صار إلى يحيى بن سعيد . ثم مات فصار إلى عنبسة بن سعيد بن العاصى ، ثم إلى سعيد بن عمرو بن سعيد ، ثم مات فصار إلى محمد بن عبدالله بن سعيد . ثم صار إلى أبان بن يحيى بن سعيد فحلاه بحلية ذهب ، فكان عند أم ولد له . ثم إن أيوب بن أبى أيوب بن سعيد بن عمرو بن سعيد باعه من الخليفة المهدى بنيف وثمانين ألفاً فرد المهدى حليته عليه . ولما صار الصمصامة إلى موسى الهادى أميرالمؤمنين أعجب به وأمر الشاعر أبا الهول أن ينعته ففعل ، ثم دعى الواثق بصيقل وأمره أن يُسْقِنَه فلما فعل ذلك تغير[1] . هذا تاريخ سيف أثبتناه كمثال .

---

(١) الطبرى ٣ / ٢٦٤ - فتوح البلدان ١٤٢ .

وكان العرب يعتقدون أن السيف إذا سل من غمده دون أن يضرب به أورث الجبن. وهم يعرفون لهذا السلاح خطره فمن عمل به دون دراية ودربة ربما أصاب أذنه أورجله أو أذن فرسه أو عضده. ولذلك كان للتدريب على استعماله أصول وقواعد. يقول ابن الهذيل فى ذلك:

«ومن أراد التعلم به والتمرن فى الضرب فليعمد إلى قصبة رطبة، أو قضيب رطب، ويثبت أصله فى الأرض ويتوثق منه، ثم يتباعد عنه ويجعله على يمينه، ويجرى فرسه ملء فروجه (بأقصى سرعته)، فإذا دنا منه سل سيفه بسرعة وحذر وخفة، ونفح به ما يحاذى رأسه من ذلك القضيب أو القصبة (النفح الضرب إلى خارج اليمين)، أو يضرب شزراً بلباقة وخفة (الشزر الضرب عن يمين وشمال)، يفعل ذلك مراراً يقص فى كل طلق منه ما أمكنه إلى أن يبقى قدر ذراع ويدمن العمل حتى يصير له عادة ويخف عليه العمل به». أ. هـ.

كذلك قال القدماء، إذا أراد الفارس العمل بالسيف طَرَّفَ رجله فى ركابه بحسب مايمكنه اعتماده عليه (يعنى لا يدخل رجله كلها فى الركاب) ويضرب بالسيف نفحاً وشزراً إلا ما كان قبالة وجهه فيكون حينئذ أشد حذراً على نفسه وفرسه، ويعتلى يده عند الضرب به إلى الخارج ليكون آمناً ويجعل مقابله عن يمينه أبداً فى كل حال.

والسيف كان سلاح الفارس والراجل على السواء، وهو فى الراجلين (المشاة - أو الرجالة) أكثر. وكان العرب يجيدون المبارزة بالسيوف ركباناً ومشاة وقعوداً وجثياً على الركب - وقد ورد ذكر ذلك فى قتال القادسية - وهو أسلوب دفاعى فى المبارزة، غير أنه مربك جداً لمن لم يألفه ويعجز عن مواجهته، فهو يمكّن صاحبه من إصابة خصمه من أسفل بينما يعجز المبارز الواقف أن يصيب المبارز الجاثى. مثل هذا الأسلوب فى المبارزة نلحظه فى يومنا هذا بين المتبارزين بالعصى فى لعب التحطيب المشهور فى صعيد مصر وريفها.

الرمح

وأجود الرماح عند العرب الآزنيّة - أو اليزنية - نسبة إلى ذى يزن الملك. كذلك الرماح الخطية نسبة إلى الخط، وهى جزيرة بالبحرين كانت مرفأ لسفن الرماح الواردة من الهند أو من جنوب فارس. وقيل كانت قد وقعت إليها سفينة فيها رماح وأرفئت بها فى السنين المتقدمة فقيل لتلك الرماح الخطية ثم عم كل رمح هذا النسب[1]. وكذلك الرماح الرُدينية

(١) الكامل للمبرد ١ / ٧٨.

نسبة إلى امرأة اسمها رُدينة كانت تعمل الرماح.

والرمح عبارة عن قناة من الخشب ركب فيها سنان من الحديد. قال المتنبى:

كلمـــا أنبـت الزمـــان قناة ركـب المـرء فـى القـنـاة سـنـانـاً

ويختلف اسم الرمح باختلاف صفته، فيسمى صَعْدَة إذا كانت قناته نبتت مستوية دون تشذيب. والعنزة ما كان أطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زُج كزج الرمح (الزج الحديدة فى أسفل الرمح)، فإذا طالت العنزة شيئاً وفيها سنان دقيق فهى نيزك ومطرد. فإذا زاد طولها وفيها سنان عريض فهى أَلَةٌ وحربة. ويقال للرمح سمهرى إذا كان شديداً، وصدق إذا كان صلباً. فإذا اجتمع فيه الطول والسنان فهو القناة والرمح. ومن الأسنة نوع يقال له القعضبية نسبة إلى قعضب، وهو رجل قشيرى كان يعملها. ومن أحسن الرماح الصلب (المتين) اللدن (المرن) المستقيم الذى إذا هزه صاحبه لم ينثن وإذا طعن به لم ينقصف.

قال ساعدة يصف رمحاً:

لَدْنٌ بِهَــزِّ الكف، يَعْــسِل مَــتْنَهُ فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ [1]

وأردؤها الرمح الملتوى المعوج المتلم السنان الصلب الخشبة الذى لا لين فيه. قال النبى ﷺ «عليكم بالقنا والقسى فبها نصر نبيكم وفتح لكم فى البلاد». كما قال «جُعِل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى[2]».

والرمح من سلاح الفرسان والمشاة على السواء. وهو فى الفرسان أكثر وأنسب من السيف. وشأن كل أدوات الحرب يحتاج استعمال الرمح إلى تعليم ومران ودربة. قال ابن الهذيل فيمن أراد أن يركب جواده ورمحه معه.

«... أنه يأخذ رمحه بيمينه وعنانه بشماله مع قربوس[3] سرجه، ويضع زج رمحه بالأرض ويبعد منها قليلاً، ويضع صدر قدمه اليسرى فى ركابه الأيسر، ثم يعتمد على الرمح ويرفع نفسه على فرسه وينهض وهو يدير الرمح على كساء الفرس إلى الجانب الأيمن حتى يستقل بسرعة، ثم يضع الرمح فى يساره مع العنان ويسوى ثيابه وآلته بيمينه، ثم ينقل رمحه إلى يمينه. ولا ينبغى أن يتعرض الرجل لأخذ رمحه من الأرض وهو راكب فربما وطئه الفرس

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٧٦. وقال: يقال مر الذئب وهو يعسل إذا مشى خفيفاً كالهرولة.
(٢) البخارى.
(٣) قربوس السرج: هو حنوه أى قسمه القوس من قدام المقعد ومن مؤخره فهما قربوسان – المنجد.

فكسره أو ضربه فأبعده عنه . وحين ينزل بالرمح يأخذه بيساره ويضع زجه بالأرض عند يد فرسه اليسرى ويأخذ القربوس بيده اليمنى ثم ينزل . وحين يصير إلى الأرض يأخذ رمحه بيمينه بسرعة لئلا يدور عليه الفرس فيحطمه أو يصيب الأرض بسنانه أو يصيب أحداً .

وللتدريب على العمل بالرمح يغرز الفارس عوداً أو شبهه قائماً بالأرض قدر ارتفاع الفارس ويتوثق من أسفله ويشد فى أعلاه حلقة أو حبلاً ملتوياً يشبه الحلقة ، ثم يتباعد عنه ويجرى فرسه بأقصى سرعته فإذا قرب من ذلك العود تأبط رمحه وأخرج منه عن إبطه بقدر ما يخف عليه حمله وتحتمله قوته (لأن للرمح مع طوله ثقل) ثم يأخذ سنانه تلك الحلقة ثم يلوى رمحه بسرعة ليخلص السنان من الحلقة[١]» .

وقد وردت روايات تفيد استخدام المشاة للرمح وقوفاً وجثياً على الركب ، شأن استعمال السيف . خطب عمرو بن العاص[٢] جنوده يوم اليرموك فقال : «غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد . . .»

القوس

وأجودها القسى العصفورية نسبة إلى رجل اسمه عصفور . والقسى الماسخية نسبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة . وكان لهم علم بالرمى بالنبال أخذوه بالمزاولة والممارسة . وقد وردت روايات كثيرة تفيد أن من المسلمين من حذق الرمى بالسهام إلى درجة تفوق مهارة القناصة بالبنادق اليوم . وكان سعد بن أبى وقاص يستطيع أن يصيب حمامة بعينها من سرب حمام برى يطير فى سماء مكة . وفى فتح الأنبار حاصر المسلمون حصنها وكان أهلها يرمون المسلمين من أعلى الحصن فأمر خالد رماته أن يرشقوهم بالسهام وأن يتوخوا العيون ، فأصابوا يومها ألف عين حتى سميت تلك الموقعة ذات العيون . وقد كتب أقوام فى علم الرمى بالقوس رسائل كثيرة بينوا فيها كيف يقف الرامى وكيف يمسك القوس وحال الرامى قرباً وبعداً وارتفاعاً وانخفاضاً وبيان أحوال السهام وبرى النبال وغير ذلك . قال ﷺ : «ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا ان القوة الرمى» . وروى بكر بن عبدالله الانصارى عن النبى ﷺ

---

(١) الفروسية العربية ٤٣ .

(٢) عبقرية خالد ١٦٧ .

أنه قال : «علموا أبناءكم السباحة والرماية . ونعم لهو المؤمنة فى بيتها المغزل ، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك[1]» .

وكانت[2] العرب يتخذ القسيّ من شجر الضّال والنبع والشَّوْحَط والسِّدر والشِّرْيان والسراء والتين والأشكل والحماط والتالب والنشم .

وقد وضعوا للقوس ولأجزائها أسماء كثيرة فقالوا : القوس ، وكبدها ما بين طرفى العلاقة (وهو وسطها) ، والكُلْيَة تلى ذلك ، ثم الأبهر يلى الكلية ، ثم الطائف وهما طائفان الأعلى والأسفل ، والسِّيَة وهى ما عُطف (إلتوى) من طرفيها ، ويدها أعلاها ورجلها أسفلها ، والعَجْس (أو المعجس) مقبضها ، وإنسيها ما أقبل على الرامى (الوجه المقعر منها) ، ووحشيها ما كان جهة الهدف (الوجه المحدب منها) ، والفرض والفرضة الحزة التى يقع فيها طرف الوتر المعقود ، وما فوق الفرضة الظفر . والكُظْرَة والنعل العقبة التى تلبس فى ظهر السية ، والجلائز العقب[3] على طائفيها وأصول سئتيها ، والخَلَل الجلود التى على ظهر السئتين ، والمذروان ما عن يمين المقبض وشماله ، والرصائع السيور المضفورة تشد إليها العلاقة ، وهى التى علقت به ، والغِفَارة رقعة على الفرضة والسية ليلف فوقها إطنابة الوتر ، وهى سير يوصل بطرف الوتر . والشِّرعة الوتر . والدِّرْكة حلقة الوتر التى تقع فى الفرضة[4] .

والعَتْل القسى الفارسية . وقوس فلْق وشريجة إذا كانت من شقة لا من غصن صحيح . والقضيب التى من غصن صحيح . وقوس فجّاء وفجواء وفارج إذا بعد وترها عن كبدها وتكون بالتى للقتال لا للصيد (شكل ١ - أ) . والكتوم التى ليس بها شق . ويقال نزعت فى القوس أى رميت بها ، والنزع هو الرمى ، يقال رجل شديد النزع يعنى بعيد مدى الرمى . وعروتا الوتر عقداه . وكلما كانت القوس لينة مرنة كلما كانت أشد نزعاً . وتلين القوس كلما زادت كمية الرطوبة فيها وتيبس بقلتها . ولذلك كانوا يتركونها بعد قطعها من شجرها فى الظل لتتشرب ماء اللحاء . قال الشماخ بن ضرار[5] :

فَمَظَّعَها حولين ماء لحائها ويَنْظُرُ منها أيها هو غامِزُ

---

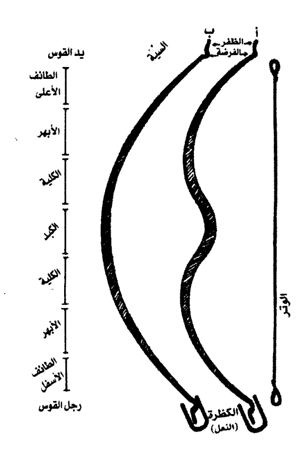
(١) أسد الغابة ٤٨٨ - اخرجه ابن منده وأبو موسى .

(٢) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٣ / ٣٥٥ .

(٣) العقب هو العصب الذى تصنع منه الأوتار - المنجد .

(٤) بلوغ الارب ٣ / ٣٥٦ .

(٥) الكامل للمبرد ١ / ٣٥ - وقال : يقال : تمظع الرجل الظل ، إذا تحول من مكان إلى مكان (فيه) .



شكل ١ – القوس

الكظرة تلف بشرائط من الجلد على طرفى القوس حتى لا يخرج الوتر عن الفرضة

مظعها أى شَرَّبها، فقوله مظعها حولين أى تركها حولين حتى تشرب ماء اللحاء، وقالت الخنساء تشكو شيخوختها[١] :

لقد قُصمت منى قناة صليبة   ويُقصمُ عود النبع وهو صليب

والإصابة[٢] بالسهام على سبع درجات من حيث شدتها وقوتها. ذكر الإمام الشافعى رضى الله عنه أربعاً منها – وقد كان الإمام الشافعى رامياً يرمى عشرة أسهم فى عشرة أهداف فما يخطئ – وهى:

١- الخاصل وهو الذى يقرع القربة ولا يخدشها.

٢- الخازق وهو الذى يخدشها ولا يثقبها.

٣- الخاسق وهو الذى يثقبها ويثبت فيها.

---

(١) الخنساء ١١٠.

(٢) بلوغ الارب ٣ / ٣٥٤.

٤- الحابى وهو أن يدنى الرامى يده من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض كأنه يحبو فيصيب الهدف.

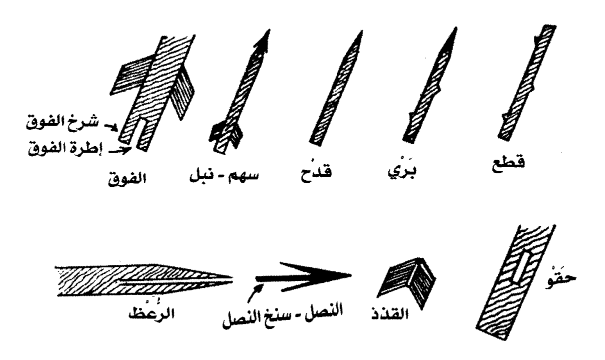
وأضاف أصحاب الشافعى ثلاثاً أخر وهى:

٥- المارق وهو الذى يمرق فى القربة ويثقبها وينفذ فيها.

٦- الخارم وهو الذى يخرم طرف القربة أى يقطعها.

٧- المزدلف وهو الذى يسقط بقرب الهدف ثم يشتَن (يزدلف) فيصيب الهدف. ويحدث مثل هذا اليوم فى ضرب النار ويقال له «اكسترما».

والسهم هو الذى يرمى به القوس. وأول ما يقطع العود ويقتضب يسمى قطعاً. ثم يبرى فيسمى برياً وذلك قبل أن يقوَّم. فإذا قوم وصار صالحاً أن يُراش (يوضع فى مؤخره الريش) وأن ينصل (يوضع فى مقدمه النصل) فهو القدح. فإذا ركب له الريش والنصل صار سهماً ونبلاً[1].



(شكل ٢- السهام)

وأجود السهام كانت سهام بلاد، وسهام يثرب وهما قريتان من قرى اليمامة. ويقال للسهم أيضاً النبل والنشّاب، أما المريخ فسهم طويل له أربعة آذان يُغالى به. وكان نوع من السهام عريض النصل اسمه المعبلة والمشقص. وقيل المِعْبَلَة[2] واحدة المعابل وهى سهم خفيف. وخشب السهم قبل أن يعمل اسمه نَضِيّ (وجمعه أنضاء)، فإذا خرق موضع نصله

(١) بلوغ الارب ٣/ ٣٥٧.
(٢) الكامل للمبرد ١/ ١٦٥.

فهو قِدْح. ويقال فُوق السهم إذا جعل له فوق وهو برد طرفه من موضع الوتر، وشرخا الفوق جانباه، والأطْرَة العَقَب الذى على الفوق، والحَقْو موضع الريش ومستدقه، والزافرة مستغلظه، والمتن وسطه، والرُّعْظ هو الخرق الذى يدخل فيه سنخ النصل، ويقال ارتدع السهم إذا رجع النصل متأخراً فى[1] السِّنخ. والقذذ ريش السهم، والأقذ السهم الذى لا ريش له، والمُرَيَّش الذى له ريش، ونصل السهم حديدته، والكليتان عن يمينه وشماله. وكان الهدف يسمى قرطاساً.

روى البلاذرى[2] عن أبى رجاء الفارسى عن أبيه عن جده قال: «حضرت وقعة القادسية وأنا مجوسى، فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول دُوك دُوك، نعنى مغازل، فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالت أمرنا. لقد كان الرجل منا يرمى عن القوس «الناو كيَّة» فما يزيد سهمها على أن يتعلق بثوب أحدهم، ولقد كانت النبلة من نبالهم تهتك الدرع الحصينة والجوشن المضاعف مما علينا».

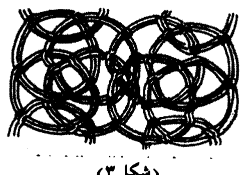
وكان للسهام سوق فى المسجد حيث يجتمع الناس. عن جابر[3] أنه قال: «مر رجل فى المسجد ومعه سهام فقال له رسول الله ﷺ أمسك بنصالها».

والكنانة، والجعبة، والوفضة، محفظة النبال. ومنها الكنائن الزُّغَرية نسبة إلى زُغَر موضع بالشام كانت تصنع به كنائن حمر مذهبة لامعة. والقرن والجفير جعبة مشقوقة فى جنبها لتهوية السهام حتى لا يتآكل ريشها.

الدرع

هو القميص المتخذ من الزَّرَد - أو السرد - وتنسب إلى فرعون مصر فيقال فرعونية. كما تنسب إلى داود وسليمان عليهما السلام. كذلك تنسب إلى الحطم بن محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن عبد قيس بن أفصى، أو إلى حُطم أحد بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة فيقال: «الحُطمية». والدرع السلوقية نسبة إلى سلوق، قرية باليمن. وقد لبس رسول الله ﷺ الدرع فى الحروب، وكان له درع اسمها البتراء كانت على الحسين يوم قتل، وكان على سعد بن معاذ يوم الأحزاب درع من حديد مقلصة خرجت منها ذراعه كلها.

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٩.
(٢) فتوح البلدان ٣١٨.
(٣) البخارى ١ / ٥٩.



(شكل ٣)

نموذج الحلق متضافر

والدروع نوعان: نوع عبارة عن صفائح صلبة من حديد تثبت بالقميص فتبدو كفلوس السمك. ومن دروع الصفائح نوع صفائحه كبيرة وتتحرك مع المفاصل بمفصلات. ونوع من الحلق المتضافر المتداخل بعضه في بعض بحيث يصد السيف والسهم والرمح فلا تنفذ منه. وكلما كان الدرع أقوى واستعصى خرقه أو النفوذ فيه، وكلما خف وزنه مع هذا كلما كان أفضل وأجود. ولذلك يعتبر الدرع المزرود من الحلق المتضافر أفضل من درع الصفائح. ومن دروع الحلق ما كان حلقه مزدوجاً زيادة في قوته، يقال له التؤام جمع توأم. قال أوس[١] بن علفاء الهجيمي:

أعان على مراس الحرب زَغْفٌ	مُضاعَفةٌ لها حَلَقٌ تُؤَامُ
ومُطَّرِد الكعوب ومَشْرَفيٌّ	من الأولى مضاربُه حُسامُ
ومُركضةٌ صَريحيٌّ أبوها	يُهانُ لها الغلامةُ والغلامُ

وقد كان داود عليه السلام أول من صنع الدرع من الحلق المتضافر، وفي القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٢].

قيل[٣] كان داود لا يحتاج أن يدخل الحديد النار، ولا أن يضربه بمطرقة بل كان يفتله بيده

---

(١) دولة النساء لعبدالرحمن البرقوقي، زغف: درع محكمة، مطرد الكعوب: يعني الرمح، والمشرفي: السيف، ومركضة: الفرس تركض.

(٢) سورة سبأ ١٠ - ١٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٢٧.

مثل الخيوط، ومثل هذاالقول لا يتأتى عن فهم واستنتاج وإنما يلزمه الرواية والنقل وهو ما لم يقدمه من قال به فضلاً عن أن الآيات لا تفيده. وقيل كان داود يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم. وقوله: «وقدّر فى السرد» أى احسب ما يلزم فلا ترقق الحلق فينكسر ولا تغلظه فيثقل دون داع، وإنما اجعله بقدر. والسرد هو حلق الحديد، فيقال درع مسرودة إذا كانت من الحلق. ومن الواضح أن عصر داود وسليمان قد صاحبته نهضة صناعية خارقة سخرت فيها الجن فأقامت لسليمان المحاريب، وهى البناء الحسن، وقيل هى بنيان دون القصور. وأقاموا له جفاناً (جمع جفنة) كالجواب (جمع جابية) وهو الحوض الذى يجبى فيه الماء. والقدور الراسيات: الثابتات فى أماكنها لا تتحرك ولا تتحول لعظمها، وهذا وذاك مما يلزم الصناعة وصهر المعادن والمسبوكات، كما أسيلت له عين القِطْر، والقطر هو النحاس المنصهر. وأى صناعة لا تقوم على حديد لان فى يد الصانع يشكله كيف شاء، ونحاس منصهر يصنع به ما يريد.

والدروع هى المقصود الثانى فى الآية ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[1].

أدوات أخرى

ومن آلة الحرب أيضاً البيضة، وهى ما يلبس فى الرأس مثل الخوذة من الحديد. والمِغْفَر وهو: زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة. ومنها المِجَن[2]، والترس، والدرقة، وهى ثلاثة أسماء لمسمى واحد، وهو ما يعمل من بعض الجلود بلا خشب ولا ظهر يتقون به وقع السيوف على أبدانهم، ويحملونها على أذرعهم.

ومنها المنجنيق وهى آلة لرمى الحجارة، والعرادات أصغر من المنجنيق. وهما من آلات حصار الحصون. وقد نصب رسول الله ﷺ منجنيقاً على أهل الطائف، ونصب سعد بن أبى وقاص عشرين منجنيقاً على أسوار بهرسير.

ومنها الدبابات وهى عربة كانت تصنع من الخشب المكسو بالجلد يدخلها الرجال ويقتربون بها من جدران الحصون حتى تلتصق بها لينقبوها، وهى تحميهم من سهام عدوهم

(١) سورة النحل ٨١.

(٢) مختار الصحاح – وفى حديث مرسل أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقطع إلا فى ثمن المجن. وكان ثمن المجن يومئذ ديناراً – أسد الغابة ٣٥٣.

وحجارتهم وزيتهم المغلى ونيرانهم، وكانت أحياناً لا تفى بتوفير الدفاع ضد جميع هذه الأنواع من المقاومة والأساليب المضادة. ولم يكن العرب يصنعونها ولكن حدث أن اشتروها من الشام. يروى[١] المقريزى فى حصار الطائف أن النبى ﷺ أرسل إلى جَرَش[٢] وهى مدينة كانت فى أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق، فى عمل الدبابات والمنجنيق وكانت تصنعها. وسميت كذلك لأنها كانت تدب دبيباً. ويروى أيضاً أن المسلمين دخلوا تحت دبابتين وزحفوا بهما إلى جدار حصن الطائف ليحفروه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فحرقت الدبابتين وكانتا من جلود البقر، فأصيب من المسلمين جماعة وخرج من بقى تحتها فقتلوا بالنبل.

الرايات والأعلام

كان اللواء – وهو العَلَم – فى الأصل يمسكه رئيس الجيش. ثم صار يحمل على رأسه[٣]، يحمله عنه غيره حتى يتفرغ هو للنظر إلى المعركة. واللواء غير الراية، فاللواء ما يعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه، أما الراية فهى ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح. فاللواء دون الراية وهو علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار، وقد يكون لأمراء وحدات أصغر من القائد العام. والراية يتولاها صاحب الحرب. وكان من عادة العرب اتخاذ اللواء فى حروبهم. وفى فتح خيبر فرّق رسول الله ﷺ الرايات. ولم تكن راية قبل خيبر إنما كانت ألوية. فكانت راية النبى ﷺ سوداء تدعى العُقاب (النسر) من بُرد (رداء) للسيدة عائشة رضى الله عنها، وكان لواؤه أبيض. ودفع راية إلى على بن أبى طالب، وراية إلى الحباب بن المنذر وراية إلى سعد بن عبادة[٤]. ولما رحل رسول الله ﷺ من ثَنيَّة الوداع فى غزوة تبوك عام ٩هـ عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر رضى الله عنه ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام، وراية الأوس إلى أسيد بن الحضير ولواء الخزرج إلى أبى دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء أو راية[٥]. كما عقد فى يوم حنين ويوم الفتح لعمه العباس راية سوداء[٦].

---

(١) امتاع الأسماع وهامشه ٣٦٦ و٤١٧.
(٢) هى الآن من أعمال شرقى الأردن إلى الشمال من عمان بحوالى ٣٥ كيلو متراً.
(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٢ / ٦٧.
(٤) امتاع الاسماع ٣١٣.
(٥) امتاع الاسماع ٤٥٠.
(٦) صبح الأعشى ٣ / ٢٧٠.

وكانت عناية الفرس بالرايات والأعلام أعظم بكثير جداً من عناية العرب بها فى الجاهلية أو فى الإسلام. ففى حين لم تكن عند المسلمين سوى شيء - أى شيء - يرفع كعلامة تدل على مكان الأمير واتجاهه إذا تحرك ليتجمع حوله قومه، كانت عند الفرس مظهراً من المظاهر، انعكست عليها كل أبهة المُلك وفخفخة الدولة. فكانوا يصنعونها من الحرير الزاهى الألوان الكثير الرسم والشعارات.

كان من راياتهم وشاراتهم الحربية راية من النسيج شريطية الشكل، طويلة ورفيعة، تشبه الرباط تخفق على عصا. وفى بعض[1] النقوش الخاصة ببهرام الثانى ظهر حامل الراية ممسكاً بقناة ثبت بها عارض من الخشب يعلوه ثلاث كرات، واحدة على كل من طرفيه والثالثة فوق القناة مباشرة. وكانوا عندما يبدءون الهجوم يلوحون بعلم نارى اللون. وكان من أعلامهم ما عليه صورة أسد أمسك فى مخالبه دبوساً وسيفاً، وهو قريب الشبه بشعار إيران ، وعلم آخر أسود اللون عليه صورة ذئب، وعلم عليه صورة نمر وأعلام أخرى عليها غزال أو خنزير برى أو نسر ملكى أو تنين له سبعة رؤوس متقابلة، وعلم عليه صورة حمار وحشى وآخر عليه صورة ثور، وعلم له أهداب عليه صورة قمر بلون أرجوانى.

أما علم الدولة وراية فارس الكبرى، فهى العلم الملكى الساسانى المشهور فى التاريخ، المعروف[2] بـ«درَفْش كابيان» أو «درفش كاو يان». وتقول بعض الأساطير القديمة أنه كان من فوطة حداد يدعى كاوه، كان قد بدأ يثير الناس على الملك الظالم الغاصب الضحاك الذى حكم الدنيا ألف عام، فرفع كاوه الجلد الذى يأتزر به على رمح ودعا الناس لعزل الضحاك وانتهت الثورة بسقوط الجبار واعتلاء أفريدون عرش الدولة القديمة. فدرفش كابيان معناه علم كاوه، وقيل بل معناه العلم الملكى. وما وصلنا من أوصافها يرجع إلى آخر العهد الساسانى - عهد الفتح الإسلامى. وقد وصف هذا العلم كثير من الكتاب الفرس والرواة العرب، كما رآه الفاتحون فى القادسية، قال الطبرى: «إنه راية كسرى وكانت من جلود النمر عرض ثمانية أذرع فى طول اثنى عشر ذراعاً (حوالى ٤×٦متر)». ويقول البلعمى: «إن الفرس وقد ظفروا فى جميع المعارك التى رفرف عليها هذا العلم أضافوا إلى زينته بعض الجواهر عقب كل انتصار. وكان مُوَشَّى بقطع الذهب والفضة والجواهر واللآلئ». وأضاف المسعودى إلى وصف الطبرى: «انه على خُشب طوال موصَلة، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر».

(١) إيران تحت حكم الساسانيين ٢٠٠.
(٢) إيران تحت حكم الساسانيين ٤٨٣.

وقال الخوارزمي: «إنه كان من جلد دب وقيل من جلد أسد. وكان يتيمن به ملوك الفرس، فغشَّوْه بالذهب ورصعوه بالجواهر الثمينة». وقال الثعالبي: «إنهم كانوا يتبركون بها ويتنازعون الزيادة فيها والمغالاة بجواهرها ويتنافسون في محاسنها، حتى صارت على امتداد الأيام يتيمة الدهر وكريمة العمر وبكر الفلك ونكتة الحقب، فكانوا يقدمونها بين أيديهم في الحروب ولا يؤثرون بها إلا السالار (الرئيس) المقدم والرئيس المعظم من قوادهم وأصحاب جيوشهم. ثم إذا قضوا منها أوطارهم ردوها إلى خازنها المحتاط عليها».

ويقول مطهر بن طاهر المقدّسي: إنه كان أولاً من جلد الماعز أو الأسد فجعله الفرس من الذهب والديباج. إن درفش كابيان والتاج كانا من شعائر الملك، وكان يوضع حين الحرب بجانب تخت الملك، وكان هذا يعين خمسة من الموابذة (كبار رجال الدين) ليحملوه أمام الجيش وهو يسير للقتال. وكان يعطى أثناء المعركة لأكفأ أبطال الملك. ويقول ابن خلدون: «إن هذه الراية قد طرز عليها طلسم أعد على حساب النجوم». ويقول الفردوسي: «إن علم الملك كان عليه صورة الشمس بلون بنفسجي ومن فوقها قمر مذهب». ويقول المسعودي: «إنها وقعت يوم القادسية في يد ضرار بن الخطاب فعوض عنها بثلاثين ألف درهم وكانت قيمتها ألفي ألف ومائتي ألف (٢٫٢٠٠٫٠٠٠)، وفي موضع آخر قال ألفي ألف دينار ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار)». أما الثعالبي فيقول: «إنها وقعت بيد رجل من النخع فضمها سعد بن أبي وقاص إلى جملة ما أفاء الله على المسلمين من روائع يزدجرد ونفائس جواهره وحملها مع التيجان والمناطق والأطواق المرصعة وغيرها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر بحلها وفتقها وقسمها بين المسلمين».

وهذا الخلاف في الرواية عن من سقطت في يده درفش كابيان بالإضافة إلى هذا المصير الذي صارت إليه أشهر راية في التاريخ، ينم عن مدى اهتمام المسلمين الأوائل بهذه المظاهر. كان الفرس في واد وكان المسلمون في واد جد بعيد.

ركوب البحر عند العرب

تحيط البحار بالجزيرة العربية من شرقها وجنوبها وغربها، وقد يتبادر إلى الذهن أن يتيح هذا للعرب أن يكونوا أمة بحرية. ولكننا إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن الشاطئ الغربى لجزيرة العرب الواقع على البحر الأحمر تحرسه من الشمال إلى الجنوب شعاب مرجانية غاطسة تشكل أكبر الخطر على الملاحة، فضلاً عن أن سكان تلك الجهات لم يتصلوا بجيرانهم من الروم والأحباش اتصال صناعة، ولم نقف قط على أنه كانت هناك صلات بحرية بين العرب والروم، وإنما كانت تجارة قريش تسلك المسالك البرية فحسب، حتى أنه حين هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة - إبان الاضطهاد الوثنى فى بدء ظهور الإسلام وعبروا البحر فى هجرتهم تلك - كان ذلك حدثاً فى تلك البيئة، حتى عرفوا بأصحاب السفينة. غير أن الاتصالات بين اليمن والحبشة تَقْطَع بوجود الملاحة فى تلك الجهات الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة. أما إذا سرحنا بأبصارنا تجاه الشرق وجدنا الخليج العربى «بحر فارس» وكان للفرس فيه ملاحة، ولسفن الهند والسند (هى اليوم باكستان الغربية) والصين غدو ورواح نحو الأُبُلّة، بل وكانت تدخل فى دجلة وفى الفرات حتى الحيرة، فكان من الطبيعى أن نجد عرب تلك التخوم قد عرفوا ركوب البحر وذكروه فى شعرهم وقصيدهم. وفى معلقة عمرو بن كلثوم - وكان من ربيعة - قوله فى الفخر:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... ونحن البحر نملؤه سفينا

وفى القرآن الكريم ترداد لذكر ركوب البحر من مثل قوله: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[1]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2]. وقد عرفوا السفن الشراعية والسفن بالمجاديف[3]، ولم يعرف الملاحة النهرية منهم إلا الذين نزلوا العراق.

(١) سورة الإسراء ٦٦.

(٢) سورة الإسراء ٧٠.

(٣) بلوغ الارب ٣ / ٣٦٦.

مصادر السلاح للعرب

من أين للعرب بهذا السلاح المتنوع، ولم يكونوا أمة صناعية بل لقد كانوا يحتقرونها على ما ذكر ابن خلدون؟ فمن أين لهم بهذه الأنواع المتعددة؟

ذكرنا فيما سبق أن بعض العرب كان يصنع سلاحاً مثل الرماح الردينية والقسى الماسخية ومثل السيوف الهالكية، غير أنه وبدون شك كان ذلك قليلاً جداً لا يفى بحاجة قبائل العرب فى شبه الجزيرة. ومن المعلوم أن العرب كانت لهم تجاراتهم مع جيرانهم، مع اليمن والحبشة ومع الحيرة وفارس ومع الشام. وكانت لقريش[1] بصفة خاصة رحلتان تألفهما وترجع آمنة فى أسفارها لتعظيم سائر العرب لها، ذكرهما القرآن الكريم فى سورة قريش فقال: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾. كانت رحلة الشتاء إلى اليمن فتعود بمصنوعات اليمن وحاصلاتها وما انتقل إلى اليمن من الحبشة أو الهند أو فارس. وكانت رحلة الصيف إلى الشام وإلى الحيرة بالعراق فتأتى بمنتجات الشام ودولة الروم، كما تأتى بمنتجات الحيرة وما انتقل إليها من فارس والهند والصين. كذلك كانت تنقل بضائع هذه الأسواق إلى بعض.

وبطبيعة الحال كان السلاح مما ينتقل إلى شبه الجزيرة فيما ينتقل إليها من جميع هذه الأسواق مما يحتاج إليه العرب. يعنى السلاح الرومى والسلاح الفارسى والهندى والحبشى. وهذا مصدر ثان.

كذلك كان اليهود الذين سكنوا شبه الجزيرة فى المدينة وفى خيبر أهل صناعة يجيدون الصياغة والسبك بصفة خاصة. كانوا صاغة يسبكون الحلى من الذهب فينتقل إليهم عرب شبه الجزيرة يشترون الحلى لنسائهم.. كما كانوا يسبكون السلاح ولاسيما السيوف والدروع يبيعونها لمختلف القبائل العربية ليتقاتلوا ويقتل بعضهم بعضاً حتى يتسنى لهم هم العيش الآمن خلف حصونهم، شأن تجار الحروب فى كل زمان ومكان. وما زال ذلك دأبهم إلى يومنا هذا، وقد برع اليهود فى هذه الصناعة التى ظلت تنتقل إليهم جيلاً بعد جيل منذ كان

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٥٣.

داود وسليمان عليهما السلام.

نستطيع إذن أن نقرر أن السلاح الذى كان فى أيدى العرب قبل الإسلام وصدره حتى بدأت حركة الفتوح عام ١٢هـ قد انتقل إليهم من كافة هذه المصادر. كان لديهم سلاح قليل صنعوه، وكان لديهم سلاح من الحبشة ومن الهند وسلاح من فارس ومن الشام. ونستطيع أن ندرك أن السلاح الفارسى أو الرومى لم يكن هو السلاح الرسمى - الميرى - الذى كان يتسلح به جيش الفرس أو جيش الروم، وإنما هى أنواع أخرى من الصناعة الشعبية - كذلك كان لدى العرب سلاح يهودى صنعه يهود شبه الجزيرة وباعوه إلى العرب أو وقع فى أيدى المسلمين كغنيمة حرب. فقد نتج عن غزوة بنى النضير فى العام الرابع الهجرى أن جلوا عن المدينة ولهم ما حملت الإبل إلا الحلْقة (يعنى السلاح) فغنم المسلمون منهم خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً[١]. كما غنم المسلمون من بنى قينقاع ٥٣٠٠ قطعة سلاح، منها ٢٥٠٠ سيف و٣٠٠ درع و٢٠٠٠ رمح و١٥٠٠ ترس وحجفة، وبعث رسول الله ﷺ بطائفة من سباياهم إلى الشام لبيعهم وشراء سلاح[٢] وخيل بثمنهم. وفى فتح خيبر فى العام السابع الهجرى غنم المسلمون من حصن الصعب آلة الحرب ومنجنيقاً ودبابات كما وجدوا فى أرض خيبر ٥٠٠ قوس عربية و١٠٠ درع و٤٠٠ سيف و١٠٠٠[٣] رمح. وفى العام التاسع للهجرة فتح خالد بن الوليد دومة الجندل بأمر رسول الله ﷺ - وهذه لم يكن أهلها يهوداً - وصالح أكيدر بن عبدالملك صاحب حصنها على أشياء منها: ٤٠٠ درع و٤٠٠ رمح و٢٠٠٠ بعير و٨٠٠ رأس[٤]. أما بعد الانتصارات الأولى للمسلمين فى فتوحهم فمما لا ريب فيه أنهم غنموا سلاحاً فارسياً ورومياً.

كان سلاح المسلمين إذن متعدد الماركات، متنوع الشكل والجودة وجهة الصنع. كان فى يد كل منهم ما تسنى له الحصول عليه شراء أو مغنماً أو صنعاً. وهذا يفسر لنا إطلاق أسماء على قطع السلاح، فمثلاً كان الرسول ﷺ سيفه العَضْب[٥] الذى شهد به بدراً. وغنم فى بدر سيفه[٦] ذا الفقار. وأصاب من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أسياف، القَلَعى والبتار والحتف، وكان

(١) إمتاع الأسماع ١٨٠ - ١٨٣.
(٢) إمتاع الأسماع ٢٤٥ - ٢٥٢.
(٣) إمتاع الأسماع ٣١٣.
(٤) إمتاع الأسماع ٤٦٥.
(٥) العضب فى اللغة هو القاطع - الكامل للمبرد ١ / ٢٦.
(٦) إمتاع الأسماع ٩٥.

عنده بعد ذلك المِخْزَم ورسوب أصابهما من القلس[1] . كما أصاب من بنى قينقاع ثلاثة رماح وثلاثة قسى هى : الروحاء وقوسا شَوْحط (من شجر الشوحط) تدعى البيضاء، وقوساً صفراء تدعى الصفراء من شجر النبع، وأصاب منهم أيضاً درعين : السعدية وفضة . وكان عليه يوم أحد درعه ذات الفضول ودرعه فضة، وكان عليه يوم خيبر درعه ذات الفضول ودرعة السعدية، وكان له ترس فيه تمثال رأس كبش[2] . كما غنم سعد بن أبى وقاص يوم بدر سيفه ذا الكتيفة . وغنم مالك بن أسيد سيفاً اسمه المرزبان[3] . نقول : لو لم تختلف هذه الأسلحة فى أشكالها وصفاتها لما تعددت أسماؤها .

(١) الطبرى ٣ / ١٨٥ .
(٢) الطبرى ٣ / ١٨٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٨٣ .

الباب الرابع

الدولة الساسانية



بنو ساسان

كانت العراق قطعة من سلطان فارس تحت حكم بنى ساسان حين غزاها المسلمون عام ١٢هـ. وبنو ساسان[١] - الأسرة المالكة - تنسب إلى رجل من عائلة نبيلة عاش فى أواخر عهد الدولة الإشكانية، وكان سادناً لبيت نار أناهيد فى إصطخر ثم خلفه ابنه بابك فى وظيفته، واستطاع هذا أن يعين أحد أولاده الصغار أردشير في الوظيفة العسكرية الكبرى على مدينة دارابجرد. وفى حوالى ٢١٢م أصبح أردشير سيداً على كثير من مدن الإقليم بالغلبة أو بقتله حكامها. بينما ثار أبوه بابك على قريبه الملك جوتشهر وقتله وولى مكانه. ومات بابك فارتقى مكانه ولده الأكبر سابور واشتعلت الحرب على تنازع السلطة بينه وبين أخيه أردشير، ولكن سابور مات فجأة وكان له إخوة آثروا السلامة فمنحوا التاج دون منافسة إلى أردشير فقبله منهم، غير أنه خشى من وجودهم فقتلهم.

وغزا أردشير كرمان وسواحل الخليج الفارسى والأهواز وميسين Meséne عند مصب نهر دجلة. وفى هذا الوقت وفدت قبائل عربية من التى نزحت من اليمن بعد انهيار سد مأرب واستقرت فى الحيرة غربى الفرات فى زمن معاصر لنشوء الدولة الساسانية، فنشأت إمارة عربية تابعة للدولة الساسانية واعتبرت حصنهم حيال العرب الرحل. ثم نشبت معركة أخيرة بين أردشير وجيش الإشكانيين الذى قاده أردوان آخر ملوكهم وانتصر أردشير فى ٢٨ ابريل (نيسان) ٢٢٤م ودخل المدائن. ثم أخضع بابل لطاعته ثم ميديا وهمدان وأذربيجان وأرمينية ثم سجستان وخراسان وخوارزم وبلخ. وأرسلت أقاليم أخرى سفراءها إليه معترفين بسيادته، فتوّج نفسه شاهنشاه (يعنى ملك الملوك) لفارس وتابعه أبناؤه على ذلك فكانوا يصفون أنفسهم بأنهم كائنات إلهية آل إليهم الحق الإلهى فى ملك فارس. ونقل أردشير عاصمته من إصطخر إلى سلوقية (المدائن) التى كانت خارج الأراضى الفارسية بالمعنى الحقيقى وكانت دولة الروم الكبيرة على أبوابها. ومات أردشير فى ٢٤١م وتوالى على عرش فارس حوالى ثلاثون من بنى ساسان كان آخرهم الأكاسرة الآتية أسماؤهم:

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٧٤ - ٨٣.

كسرى الثانى بن هرمز الرابع	٥٩٠ - ٦٢٨م	وهو كسرى برويز.
قباذ الثانى (شيرويه) بن كسرى الثانى	٦٢٨ - ٦٣٣م	بدأت حملة خالد بن الوليد مايو (آيار) - ابريل (نيسان) ٦٣٣م فى عهده، وتوفى قباذ فى أواخر مايو (آيار) ٦٣٣م.
أردشير الثالث بن شيرويه	٦٣٣م	
شهر براز (ثورة وقتل أردشير)	٦٣٤ - ٦٣٤م	فى عهده كانت موقعة بابل مع المثنى بن حارثة. ومات شهر براز مع الهزيمة فى أواخر مايو (آيار) بعد أن ملك ٤٠ يوماً.
آزرميدخت		ملكت بضعة أشهر قبل بوران.
بوران بنت كسرى برويز	٦٣٥م	حتى آخر سبتمبر (أيلول) ٦٣٥.
يزدجرد الثالث بن شهريار بن كسرى برويز		آخر الأكاسرة.

طبقات المجتمع الفارسي

كان فى فارس أيام الساسانيين سبع طبقات[1] :

الملوك

وهم الطبقة الأولى (شهر داران) ويحملون لقب ملك . وقد سوغ هذا الملك فارس أن يحمل لقب ملك الملوك (شاهنشاه) . وتشمل هذه الطبقة الأمراء التابعين الذين يحكمون أطراف الدولة وحكام الإمارات ، وأولئك الذين ضمن لهم ملك فارس الإمارة لهم ولذويهم من بعدهم نظير خضوعهم مع التزامهم بوضع قواتهم الحربية تحت تصرفه وأداء جزية معينة . وربما كان من هؤلاء ملوك الحيرة والبحرين . وقد كانت الدولة مقسمة إلى أربع إيالات يحكم كل إيالة منها مرزبان من هذه الطبقة يحمل لقب شاه . وكان يضاف إليهم الحكام المنتسبون إلى الأسرة الساسانية . ولقد كان أبناء الملوك يولون حكم الإمارات ، وخاصة الذين يؤمل فيهم ارتقاء العرش ، كنوع من المران على الحكم .

الأشراف

وهم الطبقة الثانية (واسبوران) - وهى طبقة العائلات السبع الممتازة - وكان لكل من هذه الأسر منطقة نفوذ من مناطق فارس تقيم بها ويظهر فيها سلطانها ، هذا إلى جوار انخراطهم فى البلاط . وجميع الألقاب التى تنتهى بمقطع «آن» تدل على أسرات إقطاعية أو فروع منها . وكان الرعايا ملزمين بدفع الضرائب إما إلى سيد الإقطاع أو إلى الدولة أو إليهما جميعاً ، كما كانوا ملزمين بأداء الخدمة العسكرية تحت رئاسة سيد الإقطاع . كذلك كان للدولة إقطاعات يديرها حكام من قبل الملك مباشرة تشمل قسماً له أهميته واعتباره من مساحة فارس .

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٨٤ .

وقد كانت بعض المناصب العامة تورث بين أفراد الأسر السبع الممتازة مثل وظائف تتويج الملك، وإدارة شئون الحرب والإدارات المدنية وفض المنازعات بين المتخاصمين الراغبين فى التحكيم، وقيادة الفرسان وجباية الضرائب ورعاية الكنوز الملكية، والعناية بالأسلحة والتعبئة الحربية. ويذهب كريستنسن إلى أن الوظائف الوراثية فى الدولة لابد كانت وظائف شرفية استناداً إلى أنه لا يعقل أن تكون وظيفة هامة كقيادة الجيش تنتقل بالوراثة وألا يكون للملك حق الخيار بين مستشاريه. والذى نراه أن هذه الوظائف لم تكن تورث كما يورث العرش وإنما كانت حكراً على طبقة معينة محصورة فى هذه الأسر السبع، فلم يكن الملك ليختار قائد جيشه من عامة الشعب حتى ولو ظهرت بطولته. وهو ما نلحظه فى كل ما ورد عن قادة الفرس الذين قاتلوا المسلمين. فقد كان هرمز قائدهم فى ذات السلاسل من بيوتات الشرف وله قلنسوة تدل على ذلك. وكان قباذ وأنو شجان على ميمنته وميسرته وهما يمتان إلى بنى ساسان بأواصر القربى، وكان نرسى قائدهم فى السقاطية من هؤلاء الأشراف. وكان بندويه بن بسطام وأخوه تيرويه قائدا ميمنته وميسرته ابنى خال كسرى وابنى خال نرسى. وكذلك رستم قائدهم فى القادسية وكان قبلها أميراً على خراسان. كذلك مهران بن بهرام جوبين قائدهم فى عين التمر، ومهران بن باذان قائدهم فى البويب وكان أبوه عامل كسرى على اليمن، ومن هذه البيوتات أيضاً كان بهمن جاذويه قائدهم فى معركة الجسر ... إلخ.

وقد لبث الواسبوران يتساندون زمناً طويلاً بعد سقوط الدولة الساسانية. كتب ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) يقول: «وبفارس سُنَة جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة من تفضيل أهل البيوتات القديمة وإلزام أهل النعم الأولية، وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم أيامهم إلى يومنا هذا».

رجال الدين

والطبقة الثالثة رجال الدين، وقد اعتبر الساسانيون الدين المجوسى الزرادشتى هو الدين الرسمى، ورفعوا شأن رجال الدين، وكان عددهم كبيراً جداً، فقد دعي إلي المجلس الأول منهم ثمانون ألفاً وقد تضاعف هذا العدد بعد ذلك، ثم اتخذ الملك منهم مجلساً من سبعة للمشاركة فى الأمور، وهم أعظم الجمع فى التقوى والمعرفة، وكانت بلخ هى مقر المجوسية ومركزها. وكانت أملاكهم واسعة وكان من سلطتهم فرض الضرائب. ومن الأقوال المنقولة عن زرادشت منشئ هذه الديانة - وكانوا يلقنونها الناس : «ولو أن حسناتكم تتجاوز عدد

أوراق الشجر وقطرات المطر ونجوم السماء ورمال الشاطئ، فلن تكون نافعة مقبولة إلا إذا قبلها الموبذان! (رجل الدين)» .

ولم يسمح أردشير بأى دين آخر في فارس، ونتج عن ذلك اضطهاد الأديان الأخرى ولا سيما اليهودية والنصرانية. وقد اشتد اضطهاد المسيحية بصفة خاصة بعد اشتباك الفرس والروم فى حروب مستمرة. وبالرغم من ذلك فقد ظل عرب الحيرة وعرب الجزيرة من اللخميين الذين انتشرت فيهم النصرانية موالين للفرس فى كافة حروبهم مع الروم. كما ظل عرب الشام من الغساسنة الذين انتشرت فيهم النصرانية أيضاً موالين للروم. ولم تشفع نصرانية هؤلاء ولا هؤلاء للحيلولة دون أن يلتحموا كلما التحمت فارس والروم. ومن أجل ذلك لم يكن غريباً بل كان طبيعياً أن نجد هؤلاء وهؤلاء كل قد انضم إلى أسياده فى قتال المسلمين غزاة العراق أو الشام. ولكن ظل هؤلاء العرب بعيداً عن دين الفرس لم يعتنقوه.

وكان على رأس رجال الدين الزرادشتى مُوبذان موبد وهو بمثابة البابا عند النصارى. وكانوا عدة أقسام، فمنهم الحكام، والعباد، والمغان وهم السدنة الروحانيون للدين الزرادشتى، والزهاد والسدنة (الهربدان) ثم علماء مختلفون، ثم المراقبون (دستوران) والمعلمون. وكانوا من قبيلة واحدة (مغان). وقد ساروا مع نبلاء الإقطاع جنباً إلى جنب. وكان لرجال الدين إجراء أحكام الطهارة والاعتراف والعفو والغفران والحكم بالغرامة بعد الإقرار بالذنب (ككفارة) ومراسم الزواج والميلاد والجنازات وقراءة الطالع. وكان على الفرد أن يصلى للشمس أربع مرات نهاراً وللقمر وللنار وللماء. وكان التعليم الإبتدائى والعالى بأيدى رجال الدين.

رجال الحرب

والطبقة الرابعة رجال الحرب (ارتشتاران) وعلى رأسهم إيران سباهبد، وهم من الفرسان وكانوا زهرة الجيش الساسانى، ثم الرجالة (المشاة)، ولكل من القسمين رتبه وموظفوه. وكان ضباط الجيش يسمون الأساورة، وكانوا يعيشون إبان السلم من ريع أراضيهم. وكان إيران سباهبد يجمع بين وزارة الحرب والقيادة العامة للجيش والقيام بمفاوضات الصلح، كما كان من مستشارى الملك. وكان من مزايا القواد أن يدخلوا المعسكرات على صوت الطبل. وكان من رجال الحرب أيضاً الحرس الملكى. أما فرق المشاة فكانوا يستخدمون فى الأقاليم كشرطة أو جلادين، كذلك كانت فرق الرماة تلحق بالقرية. وكان هناك موظف كبير هو مؤدب

الأساورة مهمته تعليم أبناء المحاربين فى المدن والرساتيق حمل السلاح وآدابه . ولم يكن يحق لسوى هذه الطبقة أن يتولى وظائفها . ولعل هذه الطبقة كان جانباً من الطبقة الثانية ، طبقة الأسر السبع الممتازة إذ لم يكن الفرسان الأساورة يخرجون عن هذه الطبقة .

الكتاب

الطبقة الخامسة كتاب الدواوين (دبيران) على رأسهم إيران دبيربد ، وينقسمون إلى كتاب الرسائل وكتاب الحسابات وكتاب الأقضية . . . إلخ ويدخل فيهم الشعراء والأطباء والمنجمون .

الدهاقين

والطبقة السادسة دهكانان ، وهم الدهاقين رؤساء القرى وكانوا يستمدون قوتهم من الملكية الوراثية للإدارة المحلية . وكانوا أساساً متيناً للإدارة ، فهم الرؤساء وملاك الأراضى والقرى ولم تكن أملاكهم واسعة جداً كالإقطاعات ، وإنما كانوا أشبه بالعُمد . وكانت وظيفتهم الأصيلة استلام الضرائب ، وإليهم يرجع الفضل فى تمويل الدولة . وكانوا مثقفين إلى حد ما وقد ظلوا إلى ما بعد سقوط دولتهم بعدة قرون يحفظون شيئاً من تاريخهم وآداب ديانتهم[1] .

الشعب

أما الطبقة السابعة فهى طبقة الشعب من الفلاحين والصناع ، ويدخل فيهم الرعاة والتجار وأهل الحرف .وكان كثير من التجار يستطيع القراءة والكتابة والحساب ، أما عدا ذلك فثقافة أفراد الشعب كانت ضئيلة جداً .

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٤٠٠ .

النظام الحربى للفرس[1]

اتجهت سياسة أردشير وخلفاؤه الأوائل إلى حماية حدود الدولة فى الشرق والشمال والغرب وإعداد الدفاع عنها. وقد أدمجت طوائف الجند التى كانت تتبع قبل ذلك صاحب الإقطاع فى الجيش المنظم. وكان أكبر الألقاب العسكرية وراثياً فى الأسرة المالكة، كما كانت وظيفتا رئيس شئون الجيش وقائد الفرسان وراثيتين فى أسرتين من الأسر الكبيرة.

وصف الضابط الرومانى آمين مارسلن Ammien Marcellin جيش الفرس فقال: «إن نخبته كانت تتكون من الفرسان الدارعين النبلاء (أسواران – وهم الأساورة)، وكان لهم المقام الأول فى المعارك، وكانت نتيجة المعركة تتوقف على قوتهم وشجاعتهم. وكان الفرس يلقون ضد الروم بأفواج منظمة من الفرسان المدرعين فى صفوف كثيفة كل الكثافة، فكان بريق الدروع يعكس هيبة تبهر الأبصار. وكانت هذه الفرق كأنها صيغت من حديد وقد غطى كل جسد بألواح ملتصقة تتحرك مفاصلها الحديدية فى يسر وفقاً لحركة أعضاء الجسم، كما كان للوجه قناع يحميه، فكان من المتعذر إصابة الفارس ما لم يسدد الطعن أو يوجه السهم إلى الفتحات الصغيرة قبالة العينين، أو ثقبى التنفس الدقيقين أمام الأنف. وكان بعض الفرسان المسلحين بالحراب يقفون بلا حراك حتى كأنهم جمادات، ويقف بجانبهم الرماة، وقد مدوا أذرعهم ليشدوا الأقواس المرنة بحيث يلمس الوتر الجزء الأيمن من صدورهم، بينما السهم معلق فى أيديهم اليسرى، وكان السهم ينطلق فيدوى فى الفضاء نحو هدفه». ويقول آمين: «إن الفرس مع ذلك لم يكونوا ذوى بأس فى الحروب ولم يتعودوا النضال فى جسارة إلا أن يكونوا على مسافة بعيدة من أعدائهم، فإذا بدأت فرقهم فى التراجع فإنهم يتقهقرون سراعاً كالريح، مطلقين سهامهم من خلفهم – ليخففوا من ضغط مطارديهم».

قال آرثر برنى[2] Arthur Birnie: «كانت قوة الفرس عموماً قائمة على الفرسان والرماة، وكان أسلوبهم فى القتال أن يمطروا العدو سهاماً، ثم يكتسحوه بهجوم الفرسان فى

---

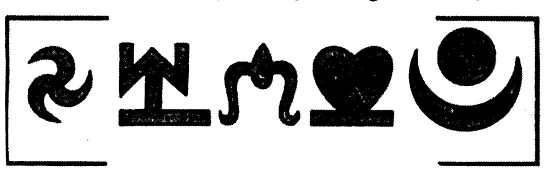
(١) إيران فى عهد الساسانيين ١٩٦ .

(٢) عبقرية خالد ١٨٦ عن The Art of War .

التوقيت الملائم. وقد نجح هذا الأسلوب مع الرماة الميديين ومع الفرسان حاملي الرماح الليديين ومع المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين. لكنها فشلت مع الإغريق بسبب ضعف فرق المشاة الفارسية، فإذا ما تمكن جنود الإغريق من الاقتراب - ويتوقف كل شيء على هذا - عاجلوا مشاة الفرس بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة». وأغفل الكاتب الغربي كعادة الغربيين فشل هذا التكتيك الفارسي في مواجهة المسلمين، ولكن القائد المسلم المثنى بن حارثة الشيباني ذكره في حديث له مع قواد وحدات جيشه بعد معركة البويب[1]، قال: «... فلا يروعنكم زُهاء (منظر) ترونه ولا سواد (كثرة) ولا قسي فج (أجود أنواع القسي) ولا نبال طوال، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها، كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت». وسنرى أنه كلما التقى المسلمون بالفرس عاجلوهم بالهجوم حتى يلتحموا بهم. والسيف هو سلاح الالتحام الذي يتفوق به المسلمون على الفرس وليحرموهم من فرصة استعمال القسي والسهام التي يجيدون استخدامها، والتي كان المسلمون أيضاً يجيدون استخدامها، ولكن الاشتباك بسلاح يبزون فيه أعداءهم، كان أصلح لهم من الاشتباك والتراشق بسلاح يتساوون في مهارة استخدامه.

وكان لدى الساسانيين فرقة من عشرة آلاف من الفرسان المختارين تسمى «فرقة الخالدين» وفرقة أخرى من الفدائيين تمتاز بالجرأة وتحدي الموت.

وقد وجد في بعض النقوش الساسانية علامة على بعض القلنسوات الطويلة لرجال يلتفون حول الملك، لعلها العلامات التي كانت تميز الضباط من الفرق المختلفة منها:



شكل رقم (٤) - إشارات ضباط الفرق الفارسية

وكان الفرس يستخدمون الأفيال في القتال. وكانت الفيلة تتخذ مكانها خلف الفرسان، وكانت أصواتها ورائحتها ومناظرها غير المألوفة لأعدائهم تلقي الرعب فيهم وفي خيلهم.

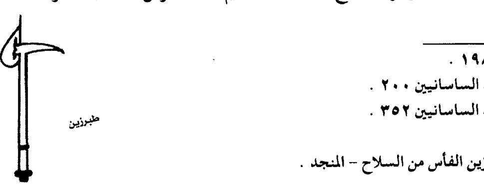
---

(١) انظر معركة البويب في الجزء الثالث.

وكان سائسوها يركبونها وفى أيديهم اليمنى سكاكين ذات مقابض طويلة، فإذا ما ذعر الفيل فارتد إلى صفوف الفرس يدوسهم، وكان هذا يحدث أحياناً، فيبادر الفيّال إلى قتله بإغماد السكين بين عظام رقبته.

وكانت مؤخرة الجيش تتألف من (بايكان) وهم[1] المشاة من أهل القرى الذين يسخرون للحرب دون أجر أو غيره من المثوبة، وكانوا على الأقل مدرعين بدروع مستطيلة ومقوسة من الخيزران المتشابك المغطى بجلد غير مدبوغ. وهم جنود غير مهرة بوجه عام. خطب الإمبراطور الرومى جوليان فى جنده فأشار بإصبعه إلى بعض الأسرى الفرس وقال: «إنهم مَعِزٌ قذرة قد مسختهم القذارة وهم يلقون السلاح ويولون الأدبار قبل أن يبتدرهم أحد بالحرب». وكانت الفرق المجندة من الشعوب المحاربة فى أطراف الدولة (مثل عرب الحيرة) أكثر نفعاً فى الحرب من المشاة الفلاحين. وكانت الوحدات الكبيرة من الجند تسمى «كُنُد»، أما «درفش» فكانت فرقاً أصغر (درفش معناها لواء)، وكانت وحدات أصغر من ذلك تسمى[2] «وشت».

وفى عهد كسرى[3] أنوشروان ٥٣١ - ٥٧٩م أجرى إصلاحاً ماليًا قضى به على الظلم الذى كان واقعاً على دافعى الضرائب واستهدف به فى الوقت نفسه، أن تكون الأموال تحت يده فى أى وقت لأغراض الدفاع والحرب. وتبع ذلك إصلاح حربى. فقد كان أفراد الجيش مجبرين على الجندية بلا أجر، بل كان عليهم فوق ذلك أن ينفقوا على أسلحتهم. وكان المشاة من الفلاحين البؤساء يعملون فى الجيش لهدم الأسوار وسلب القتلى وخدمة الفرسان. وتفقد أنوشروان الأساورة، فمن لم يكن منهم ميسوراً أمده بالدواب والعدة وأجرى لهم ما يقويهم. وكان سلاح الفارس أيام أنوشروان ثقيلاً يتكون من تجافيف (دروع للفرس[4] وللإنسان) ودرع وجَوْشَن (درع صدر لا ظهر له) وساقين وسيف ورمح وترس وجُرز (عمود من حديد) تلزمه منطقة، وطبرزين (بلطة[5] للقتال) أو عمود وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة، ووترين مضفورين يعلقهما الفارس فى مغفر له ظهرياً. وكان السلاح الرئيسى عندهم القوس والنشاب، وهو السلاح التقليدى القديم لدى الفرس الذى يحسنون استخدامه



---

(١) كريستنسن ١٩٨ .
(٢) إيران فى عهد الساسانيين ٢٠٠ .
(٣) إيران فى عهد الساسانيين ٣٥٢ .
(٤) المنجد .
(٥) الطبر والطبرزين الفأس من السلاح - المنجد .

منذ أقدم العصور. وقد شهد لهم بروكوب القيصرى Procope من ضباط الروم، الذى يعتبر ما كتبه من المصادر الرئيسية عن حروب الروم مع الفرس فى عهد قباذ الأول وكسرى أنوشروان، فقال: «إن الفرس يجيدون جميعاً رماية السهام وهم أمهر الناس فى استعمال هذا السلاح، ولكن رميهم السهم يحتاج دائماً إلى قوة لأن أوتار الأقواس ليست محكمة الشد».

وقد نقل ابن قتيبة عن الآيين (بعض كتبهم) بعض تعاليم الفرس وتعليماتهم لمقاتليهم. فيذكر عن الكمائن أنه ينبغى أن تختار لها أماكن قريبة من الماء حتى ينال الجند منه إن طال مكثهم، وألا يخيفوا سباعاً ولا طيراً ولا وحشاً. وأن يكون إيقاعهم كضريم الحريق وأن يجتنبوا الغنائم، وينهضوا من المكمن متفرقين إذا ترك العدو الحراسة وإقامة الرماة، وإذا سرّح دوابه للرعى. ويذكر أيضاً البيات (الهجوم الليلى) وما يجب أن يصحبه من ضجة وضوضاء لإلقاء الرعب فى نفوس الأعداء، وأن ينتهزوا فرصتها إذا هبت الريح، أو فى أصوات خرير الماء وأن يتوخى بالوقعة نصف الليل أو أشد ما يكون إظلاماً، وأن يصير جماعة من الجند فى الوسط ليسمع بالضجة والضوضاء من ذلك الموضع وأن يُشرد قبل الوقعة من دوابهم بقطع أرسانها (أحبالها) وهمزها بالرماح فى أعجازها وأن يهتف هاتف ويقول: «يا معشر أهل العسكر: النجاء النجاء فقد قتل قائدكم فلان وقتل وهرب خلق»، ويقول آخر: «أيها الرجل استحينى لله»، ويقول آخر: «العفو العفو»، وآخر يقول: «أوّه أوّه»، وهكذا. ويتناول أيضاً حيل محاصرة الحصون وكيفية الوصول إلى أسرار أهل الحصن وكيفية إفزاعهم، وذلك بأن يدس فيهم من يصغر شأنهم ويؤيسهم من المدد. أو بكتابات ترسل إليهم على نشابة فيها تثبيط لهممهم مثل «إياكم أهل الحصن والاغترار وإغفال الحراسة، عليكم بحفظ الأبواب فإن الزمان خبيث وأهله أهل غدر، فقد خُدع أكثر أهل الحصن واستُميلوا». وأن يطاف حول الحصن ويشار إليه بالأيدى كأن فيه مواضع حصينة وأُخَر[1] ذليلة.

وفى الآيين: من إجادة الرمى بالنشاب فى حالة التعلم إمساك المتعلم القوس بيده اليسرى بقوة عضده الأيسر، والنشابة بيده اليمنى وقوة عضده الأيمن، وكفه أصدريه[2]، وإلقاؤه ببصره إلى معلَّم الرمى (الهدف) وإجادته نصب القوس بعد أن يطأطئ من سيتها بعض الطأطأة وضبطه إياها بثلاث أصابع وإضاؤه السبابة على الوتر وإمساكه بثلاثة وعشرين كأنها ثلاثة وستون وضمة الثلاث ضماً وتحويله ذقنه إلى منكبه الأيسر وإشرافه (رفعه) رأسه

(١) عيون الأخبار ١٠ .
(٢) الأصدران عرقان تحت الصدغين – المنجد .

وإرخاؤه عنقه، وميله مع القوس وإقامته ظهره وإدارته عضده ومغطه القوس مترافعاً، ونزعه الوتر (شده) إلى أذنه ورفعه بياض عينيه من غير تصريف لأسنانه وتحويل لعينه وارتعاش من جسده، واستبانته موضع[1] رجحة النشاب.

ومنذ عهد كسرى أنو شروان أصبحت لكلمة أساور (فارس) قيمة أخرى وأصبح الفرسان وأبناء الملوك هم الطبقة الأولى في بلاط كسرى، وكان الملك يختارهم رفقاء في السفر، وقد كلّف عدد منهم بتربية أبناء كسرى برويز. وقد استخدم أنو شروان الأسرى في الأغراض الحربية حتى أنه غزا اليمن بقائد من قواده في جند من أهل الديلم. وألغى أنو شروان وظيفة إيران سباهبذ ووزعها على أربعة إصبهبذين، واحد للمشرق وخراسان والثاني للعراق حتى حدود الدولة البيزنطية، والثالث لليمن، والرابع لأذربيجان وما والاها. ولكل واحد من هؤلاء خليفة هو المرزبان، ويبدو أنه كان أشبه بالمحافظ أو المدير في إقليمه.

---

(١) عيون الأخبار ٢٩ .

المجوسية

الأوستا هو الكتاب المقدس للدين الزرادشتى، وكان يسمى ونديداد ومعناها الشريعة المضادة للشيطان. وهو باللغة الأوستية القديمة، ويحوى مجموعة من القواعد والمراسيم التى تختلف فيما بينها باختلاف الأقاليم الفارسية وبينها تناقضات واضحة. ويتناول الونديداد الأنواع المختلفة من النجاسات والآثام ووسائل الطهر والتوبة، ثم يبحث فى العدوان وقتل (الكائنات الأهورية)، الرجال والكلاب وكلاب الماء، وما يفعل بالجثث، فقد حرمت الديانة الزرادشتية تحريماً باتاً تلويث العناصر بدفن الجثث أو حرقها، فإن دفنها يلوث التراب وحرقها يلوث الهواء! وإنما توضع فوق منصة من الآجر - اسمها دَخْمَة، وهى برج الصمت، وجمعها دخمات - وتترك كى تنهشها جوارح الطير، ويؤكد هذا ما رواه السائح الصينى البوذى هيون تسيانج الذى زار إيران فى عهد الساسانيين، قال إن الجثث كانت غالباً تترك[1]. وحين حوكم سياوش أقوى رجال الدولة فى عهد قباذ الأول بسبب فشله فى مفاوضة الروم، وكانت المحكمة عازمة على شنقه، وجهت إليه اتهامات أخرى عقوبتها الإعدام منها أن زوجته ماتت قبيل المحاكمة فدفنها دون أن يعرض جثتها على الدخمة حتى تلتهمها الطيور، وحكم عليه بالقتل. ثم أراد قباذ الأول أن يحمل أهل جورجيا النصارى على قبول الدين الزرداشتى وحرم عليهم أن يدفنوا جثث موتاهم وأوجب عليهم أن يعرضوها على الدخمات وفقاً للمراسم المجوسية، مما دعا جورجين ملك جورجيا - وكان تابعاً للملك إيران - أن يستجير بامبراطور الروم فأجاره ووقعت الحرب بين فارس[2] وبيزنطة. هذا يؤيد ما ذكره رواة الطبرى - كما سنرى فى صفحات هذا البحث - حينما نشبت المعارك بين الفرس المجوس وبين المسلمين من أن الفرس كانوا لا يعرضون لقتلاهم، وإنما كانوا يتركونهم فى الميدان حيث قتلوا. وذكر الونديداد النجاسة التى تلحق من يمس جثة آدمى أو حيوان ميت أو امرأة حائضاً. وقد أحس الفلاسفة البيزنطيون[3] الذين آووا إلى بلاط كسرى أنو شروان بخيبة أملهم، وراعهم أن

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٢٤.
(٢) إيران فى عهد الساسانيين ٣٤١.
(٣) إيران فى عهد الساسانيين ٤٢٢.

يجدوا الإيرانيين يبيحون التزوج من أمهاتهم أو أخواتهم أكثر مما راعتهم عادة عرض الجيف التى هى عادة مقدسة واجبة.

وكان للشمس عندهم حرمة عظيمة، وكانوا يعبدونها ويقسمون بها. وفى إبان الاضطهاد الساسانى لنصارى إيران كانوا يؤمرون بعبادة الشمس(١). وكان تقديس عناصر الطبيعة خاصة أصيلة فى الدين الزرادشتى فكانوا يحافظون على الماء والنار من النجاسة، وكانوا يقدسون الماء قبل كل شىء إلى حد أنهم لا يغسلون به وجوههم ولا يلمسونه إلا للشرب أو ريّ الزرع، وكان بول الثيران أبعد أثراً عندهم فى الطهارة(٢) من الماء. ومع هذا فإن مكانة النار أعظم شأناً فى الدين الزرادشتى.

وتتعدد الآلهة كثيراً فى ذلك الدين. ويمتلىء بأساطير وخرافات كثيرة جداً. من ذلك أن دورة الدنيا تستمر اثنى عشر ألف سنة، فى الثلاثة آلاف الأولى يبقى عالم النور وعالم الظلمات متجاورين فى هدوء، وفى الثلاثة آلاف الثانية يعيش عالم النور بالقوة، وفى الثلاثة الاف الثالثة يصطرع الخير والشر، ثم يظهر زردشت فيهدى الناس إلى الحق، وفى نهاية كل ألف من الثلاثة آلاف الأخيرة يظهر مخلص يولد من بذور زردشت المخبأة فى إحدى البحيرات. ومع مولد آخر مخلص يبعث الأبطال والتنانين الشيطانية ليتقاتلوا، ثم يبعث الموتى ويقع النجم المذنب جوتجهر على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن وتسيل على الأرض، ويكون على جميع المبعوثين من الموت أن يعبروا هذا السيل فيكون للأتقياء كاللبن الساخن ويمضون منه إلى الجنة ثم يسقط الشر إلى الأبد فى الظلمات وتبقى الدنيا المطهرة فى سكون لا يُعكر صفوه إلى الأبد.

وبيوت النار كانت معابد الساسانيين. يصف المسعودى خرائب بيت نار قديم كان فى إصطخر فيقول: «وللفرس بيت نار باصطخر تعظمه المجوس... وقد دخلته وهو على نحو فرسخ من مدينة إصطخر، فرأيت بنياناً عجيباً وهيكلاً عظيماً وأساطين صخر عجيبة، على أعلاها صور من الصخر طريفة من الخيل وغيرها من الحيوان عظيمة القدر والأشكال، محيط بذلك حيز وسور منيع من الحجر وفيه صور الأشخاص قد شكلت وأتقنت صورها، يزعم من جاء هذا الموضع أنها صور الأنبياء». والقاعدة فى الدين الزردشتى أنه لا يجوز أن تصل الشمس إلى النار المقدسة وعلى هذا الأساس كان بيت النار فى وسطه غرفة مظلمة كل الإظلام

(١) إيران فى عهد الساسانيين ١٣٢-١٣٣.
(٢) إيران فى عهد الساسانيين ١٣٤.

يوضع فيها هيكل النار. وقد كان منظر المعبد يبعث المجوس على الاستغراق وذلك بقاعاته المظلمة، حيث تشتعل النار فوق المذبح، والآلات المعدنية تلمع من أظرف وأهوان وشبابيث ومساند البراسما التي تشبه الهلال، وحيث الهرابذة يتلون الأوراد التي لا تنقطع بصوت مرتفع ولحن جميل حيناً، وبصوت منخفض إلى حد التمتمة حيناً آخر[1]... إلخ.

هذا الدين الذى ساد دولة الساسانيين وذكرنا لمحة مختصرة عنه لم يكن نداً بحال من الأحوال لأن يقف أمام الدين الإسلامى الزاحف الذى امتاز بامتزاجه بالحياة ينظمها كما ينظم أمور المعاد فى مزج متسق، فكان ديناً ودولة وعبادة وقيادة ومناسك ومعاملات، مما دعا الموابذة إلى تغيير كثير من أصول الزردشتية[2] بعد الفتح الإسلامى.

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ١٥٣.

(٢) إيران فى عهد الساسانيين ٤٢١.

فارس قبيل الفتح

بين الفرس والروم

عند قيام الدولة الساسانية كانت فتوحات الروم قد جاوزت[1] نهر الفرات واقتطعت أرض الجزيرة. ولذلك اشتبكت دولة بنى ساسان بدولة الروم من عهد أردشير الأول منشئ الدولة. واتصلت الحروب بين الدولتين وأصابتهما معاً بدمار كبير. وفى ٥٦٠ م هُزم الروم ووقع امبراطورهم فاليريان أسيراً فى أيدى الفرس وظل سجيناً عندهم حتى مات ذليلاً. فكانت الحرب بين الدولتين سجالاً غير أن كلتاهما كانت خاسرة بها، حتى من يحالفه النصر يوماً فقد كان نصراً باهظ التكاليف ثم لا يلبث أن ينقلب إلى هزيمة. وانتصر سابور على الروم فى أرض الجزيرة ومع ذلك فقد أصاب الجزيرة دمار كبير على أيدى الجيش الفارسى. وكان يحدث للجيش الفارسى أن يعزل أو يهلك جوعاً حتى وهو منتصر كما وقع له وهو محاصر القسطنطينية، فقد تركه هرقل أمام أسوارها وزحف بجيش رومى إلى فارس من طريق آخر، فاكتسحها ودمرها وسبى نساء كسرى.

وكان من أهداف ملوك الفرس من وراء تلك الحروب نهب خيرات وأموال البلاد المفتوحة، غير أن ذلك النهب كان يؤول إلى الملك، فى حين يدفع الشعب بأكمله نفقات الحملة. وفضلاً عن حروب الروم، فقد كان للفرس حروبهم الأخرى على حدودهم الشرقية والشمالية مع قبائل الهون حتى اضطروا فى بعض الأحيان إلى أن يدفعوا لهم جزية، كما كانت لهم حربهم ضد الأحباش باليمن.

كسرى أنو شروان

وحتى عصر كسرى أنو شروان ٥٣١م كان نظام المقاسمة سائداً بين الملوك والزراع، فكان

---

(١) الخراج فى الدولة الإسلامية.

الملك يقاسم أصحاب الأرض محصولاتهم على نسب تتراوح بين السدس[1] والثلث. ولكن بعد ٥٣١م عدل عن هذا النظام إلى نظام المساحة، وذلك بفرض خراج محدد على الأرض. وكان لذلك فائدة مزدوجة للمزارعين والملوك. ففيما يختص بالمزارع أصبح عليه مقدار معلوم محدد يؤديه نقداً وهو حر التصرف فى محاصيله، لا استيلاء ولا مقاسمة. وفيما يختص بالملوك أصبحت خزائنهم عامرة بالنقود اللازمة لتمويل الحروب، فالضرائب تجبى نقداً وليست عيناً وهذا أصلح لمواجهة الطوارئ . وقد فرضها كسرى على الرؤوس وعبر عنها بالجماجم، كما فرضها على سبع غلات هى الحنطة والشعير والأرز والكرم والرطاب والنخل والزيتون، وترك ما سوى ذلك، وكان الخراج يجبى على ثلاثة أقساط سنوية. أما الجماجم فتجبى على كل رجل بين العشرين والخمسين من عمره. وقد وضعت هذه الضرائب على عموم الشعب، أما الطبقات الممتازة من الواسبوران والمرازبة والأساورة والموابذة والهرابذة والكتاب ومن كان فى خدمة الملك فلم يكن عليهم ضرائب.

بعد أنو شروان

كان عهد كسرى أنو شروان قمة مجد الإمبراطورية الساسانية، وكان ذلك قبل الزحف الإسلامى بخمسين عاماً. ثم خلفه ابنه هرمز الرابع ٥٧٩ م، ذكر بعضهم أن عدالته فاقت عدالة أبيه، وقيل عكس ذلك، ويبدو على الأرجح أنه كان ظالماً فاسداً. فقد ظلم عماله الناس ونهبوهم، فثارت أقاليم بابل والسوس وكرمان، وغزا الروم الجزيرة وآشور، وغزا الترك خراسان والأقاليم الشرقية، وكادت الدولة أن تدول لولا شجاعة وحنكة قائدها المشهور بهرام جوبين. وتجددت الحرب مع بيزنطة ٥٨١م ولم يظفر فيها الفرس، فانتزع هرمز الرابع القيادة من بهرام جوبين (الرجل الخشبى) بطريقة مهينة. فثار بهرام وعم البلاد التمرد والتذمر، وكان هرمز قد سجن بندويه وهو أحد معارضيه، فخلصه أخوه بسطام من سجنه واقتحما معاً القصر الملكى وخلعا هرمز وسجناه ثم سملا عينيه ونصبا ابنه كسرى برويز (يعنى المظفر) مكانه. وقتل هرمز بعد ذلك بقليل. وتجرأ بهرام جوبين وطلب العرش ففر كسرى برويز ولجأ إلى امبراطور بيزنطة فأنجده بينما دخل بهرام المدائن ووضع التاج على رأسه غير أن الأمر لم يستتب له. وانتصر كسرى برويز بمعاونة الروم، وفر بهرام إلى بلاد الترك حيث قتل بعد قليل وانتهت ثورته. وعاد كسرى إلى العرش ومعه زوجة رومية نصرانية تدعى شيرين

(١) الخراج فى الدولة الإسلامية ٦٩.

اختصها بكل حبه، وقيل بل كانت فارسية من أسرة وضيعة. وفي بيزنطة قتل موريق الذى آوى كسرى فاتخذها هذا ذريعة لشن حرب جديدة مع الروم استمرت ربع قرن ٦٠٣ - ٦٢٨م.

سورة الروم

واكتسح كسرى الروم أمامه، فاستولى على حران والرها وحلب وأرمينيا وآسيا الصغرى وانطاكية ٦١١م وقيصرية ودمشق ٦١٤ ثم أورشليم ٦١٥، وانتزع الصليب الأعظم وبعث به إلى المدائن. وأرسل قائده شهر براز فغزا مصر ٦١٦هـ واستولى على الإسكندرية ٦١٧، وفرض على كل ما فتح جزية باهظة، وهدم معابدها وسلب أموالها، وحمل إلى بلاده كل ذهبها وفضتها ورخامها وصناعها المهرة، ولم يضع لهذه البلاد أى نظام. وقد أتاح له كل ذلك أن يزيد ما كان فيه من ترف[1] ومتعة. وجمع كسرى برويز من الأموال ما لم يجمعه أحد من الملوك.

غلبة الفرس هذه هي التى نزل فيها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]. لقد رأينا طرفاً من الوثنية المجوسية ونستطيع الآن أن ندرك لماذا كان المسلمون يميلون إلى جانب الروم بمشاعرهم ضد الفرس وقد كانوا مازالوا بمكة يعانون من اضطهاد قريش الوثنية. عن ابن عباس[3] قال: «كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب». وقد راهن أبو بكر قريشاً على أربع قلائص - وهى النوق الشابة - على أن الروم سينتصرون على الفرس فى سبع سنين - وكان ذلك قبل تحريم الرهان - فمضت السبع، ولم يكن شىء، ففرح المشركون بذلك وشق، على المسلمين، فذكر ذلك للنبى - ﷺ - فقال: «ما بضع سنين

(١) الطبرى ٢ / ١٥٧ - مروج الذهب ١ / ١٢١.

(٢) سورة الروم ١-٦. وعلى ذلك فتقديرنا أن سورة الروم قد نزلت فى عام ٦١١م قبل الهجرة بعشر سنوات، أو فى العام الرابع من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم، وأن أبا بكر كسب الرهان قبل الهجرة بقليل، فقد كانت الهجرة عام ٦٢١م.

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢٢.

عندكم؟» قالوا: دون العشر، قال: «اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل»، فما مضت السنتان حتى جاء الركبان بظهور الروم على الفرس، وعاث هرقل الروم في بلاد الفرس وقتل رجالها حتى انتهى إلى المدائن فقتل من بها، وأخذ جميع ما فيها من أموال، وسبى نساء كسرى وحريمه، وحلق رأس ولده وأركبه على حمار، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة. وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم.

أوقف هرقل زحف الفرس، واستعاد آسيا الصغرى وأرمينيا وآذربيجان، وفي ٦٢٣ و ٦٢٤ استولى على مدينة جنزك، وهرب منه كسرى حاملاً النار المقدسة، واستولى هرقل على القوقاز ثم غزا وادى دجلة، واستولى في ٦٢٨ على قصر الملك في دستجرد.

كسرى برويز

وقد أثر عن كسرى[1] برويز أنه كان فاسداً جشعاً شرهاً يحتقر الناس ويستخف بهم. وكان بينه وبين قائده شهر براز عداء خفي، وقد أرسل كسرى إليه أثناء محاربته الروم ثلاث رسائل ظهر منها نية القتل، فامتنع شهربراز (ومعناها خنزيز الدولة) عن الحضور إليه، وانضم إلى ملك الروم وهو الذي رسم له الطريق إلى فارس. وقد جمع كسرى برويز في مدة حكمه الثماني والثلاثين عاماً كل ما استطاع من أموال كدسها في خزائنه. ففي عام ٦٠٧ - ٦٠٨ كانت خزائنه التي نقلها إلى بيت المال الجديد بالمدائن تحتوى على ٤٦٨ مليون مثقال من الدراهم، خلاف مقادير هائلة من الجواهر والكسى جمعها من الناس بفرض خراج استثنائي. وفي العام الثالث عشر من حكمه كان لديه ٣٠٠ مليون مثقال من الدراهم. وجاء في الطبرى: وكذلك في النهاية، أنه كان في قصره ثلاثة آلاف امرأة للوطء، وألوف من الجوارى اتخذهن للخدمة والغناء، وثلاثة آلاف رجل يقومون بخدمته، وكانت له ثمانية آلاف وخمسمائة دابة لمركبه، وسبعمائة وستون فيلاً، واثنا عشر ألف بغل. وكان يجمع النساء من أنحاء مملكته حسب الطلب ففي بعض الكتب التي بعث بها إلى العمال:

«خير النساء التي تفكر في عشق الرجل، وكانت بين الطول والقصر، عريضة الصدر، استوى منها الرأس والعجُز والرقبة، الصغيرة القدمين، من كانت بين السمن والهزال، مقوسة الأخمص، سبطة البنان لينة الجسم معتدلته، تفاحية الثديين، بيضاء الأظافر كالثلج، رمانية

(١) إيران في عهد الساسانيين.

اللون، ملوزة العينين، دقيقة الحاجبين كصوف الضأن الصغير، لؤلؤية الثغر رقيقة، سوداء الشعر مع ميل إلى الاحمرار طويلته، لا تتكلم بطريقة لا تواضع فيها».

وقد عدد البلعمي والثعالبي اثنتي عشرة عجيبة لكسرى - وزادها بعضهم عن ذلك - منها: قصرالمدائن ودرفش كابيان وزوجته شيرين (روضة الحسن وضرة البدر) وشيرين بالفارسية معناها: الحلوة، وقد عشقها وتزوجها في أوائل حكمه، واحتفظت بتأثيرها[1] فيه، والمطرب سركش (سرجس) والمطرب فهلبذ، والخادم خوش أرزو، والفرس شبديز (لون الليل)، وفيلا أبيض. وكان له كنوز منها: كنز فيء الرياح، وذلك أنه حين حاصر الفرس الإسكندرية، حاول الروم أن ينقذوا نفائس المملكة فجمعوا خزائنهم وذخائرهم في سفن كثيرة، فلما خرجت في البحر عصفت الريح فسيرتها إلى صفوف الفرس حتى ظفر بها القائد شهربراز وبعث بها إلى المدائن، فأعجبت كسرى واستولى عليها. وكنز الثور، كان أحد الفلاحين يحرث أرضه بمحراث يجره ثوران، فدخل سلاح المحراث في عروة قمقم مملوء ذهباً، فذهب به إلى باب الملك فأمر بحفر الأرض، فأسفرت عن مائة قمقم مملوءة ذهباً وفضة وجواهر من كنوز الإسكندر الأكبر وعليها ختمه فاستولى عليها. وكنز العروس ويتكون مما تدفع الهند والصين من جزية. وكنز الديباج الملكي، وكنز آفر أسياب، وكنز المحرق، وكنز اللآلئ، والماء الطيب، وكنز شادورد، وتاج الإيوان. ونفائس كثيرة مثل الشطرنج المنحوت من الياقوت الأحمر وقصب الزمرد، والنرد المتخذة من البسد والفيروز، ومائتا مثقال من الذهب كالشمع اللين، كان يخرج من بين الأصابع إذا قبض عليه وينطبع، ويتخذ منه التماثيل، ثم يعاد إلى حاله، فيعود كما كان.

وكان أعظم نفائس كسرى التخت الذي يشبه القبة، وهو سرير من العاج والساج، صفائحه ودرابزيناته من الذهب والفضة، طوله مائة وثمانون ذراعاً وارتفاعه خمسة عشر ذراعاً، وفي مراقيه (درجاته) سرر من الشيز والأبنوس مضببة بالذهب وعليه طاق من الذهب واللازورد فيه صور الفلك عليه البروج الإثنا عشر والكواكب السبعة السيارة والقمر الوضاء وما يجتاز من بروج، ويرى فيه المنجمون النجم الثابت والسيار، ويرون فيه كم انقضى من الليل وكم سارت السماء فوق الأرض، وفيه الأقاليم السبعة وصور الملوك وهيئاتهم في المجالس والحروب والمصائد. وفيه أيضاً ما يدل على معرفة ساعات النهار، وله على مقداره أربعة بسط من الديباج المنسوج المرصع باللآلىء واليواقيت يختص كل واحد منها بما يشاكله ويوافقه من

(١) إيران في عهد الساسانيين ٤٥٧.

فصول السنة. وكان فى حديقة قصره الذى خربه هرقل فى دستجرد ٦٢٨م النعام والغزلان وحمر الوحش والطواويس والديوك البرية والسباع والنمور[١]. كذلك كان من هذه العجائب بساط كسرى، وكان يسمى القطْف وهو الذى غنمه المسلمون حين دخلوا المدائن، ثقل على يزدجرد حمله فى فراره فتركه. وبقى القطْف بعد توزيع غنائم المدائن لم تعتدل قسمته، فبعث به سعد بن أبى وقاص مع الأخماس إلى عمر بن الخطاب، فكان ستين ذراعاً فى ستين ذراعاً! بساطاً واحداً مقدار جريب (١ / ٣ فدان). «فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفى حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من حرير على قضبان الذهب، ونوّاره بالذهب والفضة وأشباه[٢] ذلك». «وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين. فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه، فكأنهم فى رياض. أرضه بذهب، ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب[٣]».

نكتفى بهذا القدر الذى يعتبر ضئيلاً بالنسبة لما ورد عن فخفخة ذلك العصر وأبهته لرسم صورة عنه مقابلة للصورة التى رسمناها لبيئة المسلمين.

بعد برويز

كان ذلك قبل زحف المسلمين إلى العراق بخمس سنوات، حين مرض كسرى برويز، فنقلوه إلى المدائن ليرتب وراثة العرش ومعه زوجته شيرين وولديه منها مردانشاه وشهريار، وكان فى نيته تثبيت مردانشاه. وعلم بذلك قباذ الملقب بشيرويه، وهو ابن كسرى من زوجة أخرى، ويبدو أنه كان أكبر إخوته، فعزم على الدفاع عن حقوقه ورتب أمره. وذات صباح سمع كسرى المريض الناس يصيحون فرحين: «قباذ شاهنشاه»، فأخذه الهلع وهرب فاختبأ فى حديقة القصر، حيث عثر عليه. وقبض عليه، فسجن فى مخزن، ثم قتل بسهم. وأمر شيرويه ففتح سجنهم الرهيب المعروف بقلعة النسيان، وأفرج عن عدد كبير من مسجونى الدولة فانضموا إليها. وأمر شيرويه بقطع أيدى إخوته السبعة عشر وأرجلهم، حتى يفقدوا صلاحيتهم للملك، فلا ينافسوه عليه، ثم قتلهم. من هؤلاء كان شهريار بن كسرى برويز وابن شيرين، شهريار هذا كان والد يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٤٥١.
(٢) الطبرى ٤ / ١٧٧، عن المهلب بن عقبة الأسدى وطلحة بن الأعلم وزياد بن سرجس ومحمد بن عبدالله وعمرو وسعيد.
(٣) الطبرى ٤ / ١٧٨ عن عبدالله بن عمير.

ساسان. ثم مات شيرويه بعد ذلك مسموماً أو بالطاعون[1] الذى انتشر، وقال عنه الطبرى: «هلك فيه الفرس إلا قليلاً[2] منهم». فى عهد شيرويه هذا، بدأ زحف خالد بن الوليد نحو العراق عام ١٢ هـ ٦٣٣م.

وولى بعده ابنه أردشير، ومكث ملكاً عاماً ونصف عام حتى أقبل القائد شهربراز، فاقتحم المدائن واستباحها واغتصب الملك ومكث فيه أربعين يوماً. وسيأتى فى الأجزاء التالية إن شاء الله تعرض آخر لأحوال فارس الداخلية المعاصرة لحركة الفتح عند انتقالنا إلى خطوات الفتوح.

يقول[3] برون فى A Literary History of Persia : «إن فارس ولو أنها كانت فى المظهر تبدو رائعة فخورة، إلا أنها كانت فى صميمها متعفنة، حياتها مملوءة بالدسائس، تغلى داخلها بالسخط وتمزقها المنازعات الأهلية».

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٤٧٥ - ٤٧٨.

(٢) الطبرى ٢/ ٢٢٩.

(٣) الخراج فى الدولة الإسلامية ٨٢.

العراق

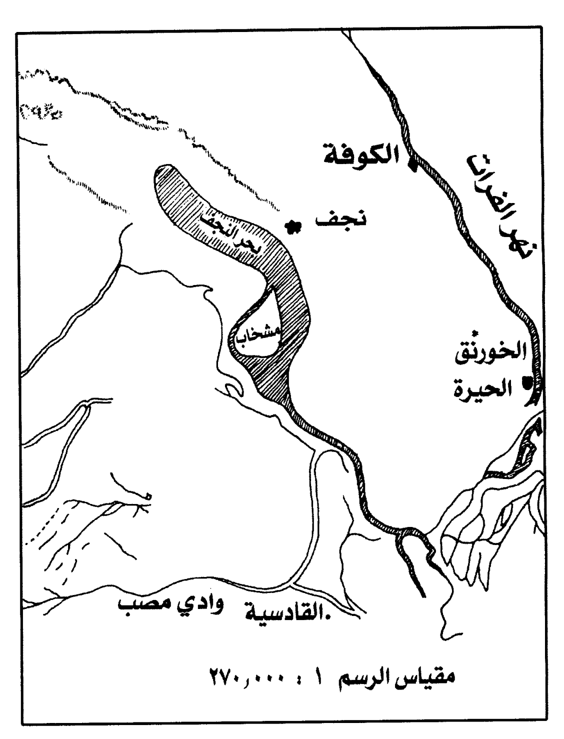
ذكرنا فى عرضنا لجغرافية جزيرة العرب أنها تفسر لنا، كونها قاعدة هجوم سمحت بالانسياح منها إلى خارجها، ولم تسمح بالعكس. ولا بد لاستكمال هذه الصورة، ونحن بصدد دراسة فتح العراق أن نلقى نظرة على أرض العراق تتيح لنا معرفة طبيعتها مع الاهتمام بالتعرف على ما طرأ من تغير على مدى ذلك الزمن بغية الرجوع بخريطتها إلى ما كانت عليه فى عصر الفتح.

ومن الناحية الجغرافية التاريخية، كان العراق يحتل موقعاً استراتيجياً بالغ الأهمية لأنه كان يقع ضمن الجسر البرى الذى يربط القارات الثلاث: آسيا وأوروبا وأفريقيا، كما كان يصل المحيط الهندى براً بالبحر الأبيض المتوسط. وقد كان لذلك كله أثره على تجارة الترانزيت، فكان لموقعه دور هام فى عهد طرق القوافل التى كانت تعبره من آسيا إلى أوروبا، مثل طريق الحرير المشهور الذى كان يمر الحرير خلاله من الصين إلى الدولة الرومانية، كما كانت تنقل خلاله التوابل والعاج والسكر والكحل والبخور والأحجار الكريمة. ولم يفقد موقع العراق أهميته تلك إلا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ثم بعد شق قناة السويس[1].

وأرض العراق سهل منخفض حتى لكأنه واحة كبيرة وسط ما حوله، فمن الشرق يحصره إقليم الجبال، ومن الشمال تحده جبال أرمينيا وأذربيجان، ومن الغرب صحراء السماوة التى ترتفع عن مستواه. وفى جنوبه وجنوبه الغربى العروض ونجد. ولقد عُرف العراق عند العرب باسم السواد، وذلك لسواده بالزرع والأشجار، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التى قل الزرع فيها والشجر، كانوا إذا خرجوا من أرضهم إليه ظهرت لهم خُضرة الزرع والشجر، وهم يجمعون بين الخضرة والسواد فى الأسماء، فسموا خضرة العراق[2] سواداً. ومن هذا ما وصف به القرآن الكريم الجنة[3] بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣)

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ٦.
(٢) بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ١ / ٢١٥.
(٣) سورة الرحمن ٦٢-٦٤.

مُدْهَامَّتَانِ ﴾ . والأدهم هو الأسود . والعراق في لغة العرب الاستواء، سموه عراقاً لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تنخفض . ويشق العراق من شماله إلى جنوبه النهران الكبيران : دجلة والفرات، ولذلك عرف منذ القدم ببلاد بين النهرين .



خريطة رقم (٦) - منطقة الحيرة

والفرات ينبع من الأراضي التركية على ارتفاع ٣٠٠٠ متر عن سطح البحر، وينشأ عن

عدة منابع تلتقى وتتجمع بشمال العراق، ثم يمتد[1] ١٧٨٠ ميلاً (حوالى ٣٣٠٠ كيلو متراً)، ويمر بجسر منبج ثم بالس وصفين والرقة والرحبة وهيت حتى يصل إلى الأنبار، فتأخذ منه أنهار مثل: نهر عيسى ونهر النيل ونهر الملك وغيرها، فتصب فى دجلة، ويعلو مستوى الفرات فى هذا المكان عند الفلوجة سبعة أمتار عن مستوى دجلة المقابل له والذى لا يبعد عنه أكثر من ٥٠ كيلو متراً، ولذلك نجد الأنهار الواصلة بين النهرين فى هذا الجزء من السواد، تنحدر من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى من الفرات إلى دجلة، أما فى الجنوب فالأمر على العكس، إذ يعلو مستوى دجلة عن مستوى الفرات. ويستمر الفرات فى رحلته إلى الكوفة ونرسي والطفوف حتى يصل إلى البطيحة التى بين البصرة وواسط. وإذا أردنا أن نستشف شيئاً مما كان عليه الفرات القديم فى منطقة من أهم المناطق التى دارت عليها معارك فتح الحيرة والقادسية بين المسلمين والفرس، وجدنا المسعودى[2] يصف لنا ذلك فيقول: «وقد كان الفرات الأكثر من مائة ينتهى إلى بلاد الحيرة، ونهرها بيِّن إلى هذا الوقت - وقته - وهو يعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم، وهى وقعة القادسية، فيصب فى البحر الحبشى، وكان البحر حينذاك فى الموضع المعروف بالنجف فى هذا الوقت، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند إلى ملوك الحيرة... فلما انقطع الماء عن مصبه فى ذلك الموضع انتقل البحر براً، فصار بين الحيرة وبين البحر فى هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة، ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا، وكتنقل الدجلة العوراء[3]، فصار بينهما وبين الدجلة فى هذا الوقت مسافة بعيدة، وصارت تدعى ببطن جوخى (أو بطن حرحى)، وذلك من جهة مدينة فارس من أعمال واسط إلى دانوقاء إلى نحو بلاد السوس، وكذلك ما حدث فى الجانب الشرقى ببغداد من الموضع المعروف برقة الشماسية، وما نقل الماء بتياره من الجانب الغربى من الضياع التى كانت بين قُطْرُبُل ومدينة السلام (بغداد) كالقرية المعروفة بالقب، والموضع المعروف بالبشرى (أو اليسرى)، والموضع المعروف بالعين (بالعمر)، وغير ذلك من ضياع قُطْرُبُل، وقد كان لأهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقى ممن ملك رقة الشماسية فى أيام المقتدر بحضرة الوزير أبى الحسن... فإذا كان الماء فى نحو من ثلاثين سنة قد ذهب بنحو من سُبع ميل فإنه يسير ميلاً فى قدر مائتى سنة، فإذا تباعد النهر أربعة آلاف ذراع من موضعه

(١) العراق قديماً وحديثاً ٥٩.
(٢) مروج الذهب ١ / ١٠٣.
(٣) الدجلة العوراء: الاسم القديم لشط العرب.

الأول، خربت بذلك السبب مواضع وعمرت مواضع، وإذا وجد الماء سبيلاً منخفضاً وانصباباً، وسع بالحركة وشدة الجريان لنفسه، فاقتلع المواضع من الأرض من أبعد غايتها، وكلما وجد موضعاً متسعاً من الوهاد ملأه في طريقه من شدة جريته حتى يعمل بحيرات وبطائح ومستنقعات». هذا وقد أمدتنا مديرية الآثار العراقية ببغداد مشكورة بخريطة الحيرة (خريطة ٦) - مركز قضاء النجف -، تدعم ما ذكر المسعودى، وقد أفادتناكثيراً عند تصوير سير المعارك على هذه الأرض.

واعتباراً من جنوب المسيب يتفرع الفرات إلى فرعين كبيرين، ثم يتفرع كل من هذين الفرعين وتجتاز أفرعهما أرض السواد حتى تعود إلى التجمع مرة أخرى قبل التقائها بدجلة[١]، وهى فى هذا تشكل شبكة معقدة غاية التعقيد.

أما دجلة فينبع من جنوب شرقى تركيا، وطوله من منبعه إلى مصبه ١٧١٨ ميلاً، ويصب فيه كثير من الروافد مثل: الزاب الكبير والزاب الصغير فوق مدينة السن، يأتيان من بلاد أرمينيا وأذربيجان، ثم ينتهى إلى تكريت وسر من رأى والمدائن، فيصب فيه الخندق والصراة ونهر عيسى وغيرها من الأنهار التى تأخذ من الفرات، وأنهار أخرى تنحدر من جبال إيران. فإذا خرج دجلة من مدينة واسط تفرقت فى أنهار أخرى إلى بطيحة[٢] البصرة.

ويلتقى النهران عند القرنة ليسلكا مجرى واحداً، بعد ذلك يعرف بشط العرب - وكان يسمى قديماً دجلة العوراء، ويبلغ طوله[٣] حوالى ١١٠ كيلو متراً ويبلغ عرضه عند المصب أكثر من كيلو مترين، بينما يضيق عند البصرة إلى حوالى كيلو متر واحد. ويتأثر شط العرب بأحوال المد والجزر فى الخليج العربى الذى يتكرر مرة كل حوالى ١١ ساعة، ويصل الفرق بين منسوب المد ومنسوب الجزر إلى ١٫٧٠ متراً صيفاً، حيث تهبط مياه الأنهار. ويقل إلى ما يقرب من ٢٥ سم خلال موسم الفيضان الذى يستمر حوالى شهراً فى الجنوب هو شهر أبريل (نيسان)[٤].

ومن المؤكد أن شط العرب لم يكن على طوله الحالى فى عصر الفتح، ولا كان ساحل الخليج الفارسى حيث هو اليوم. فإن الترسبات التى تجلبها مياه دجلة والفرات تملأ رأس ذلك

---

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ١٧٣.

(٢) مروج الذهب ١ / ١٠٥.

(٣) جغرافيا العراق الطبيعية ١٨٠.

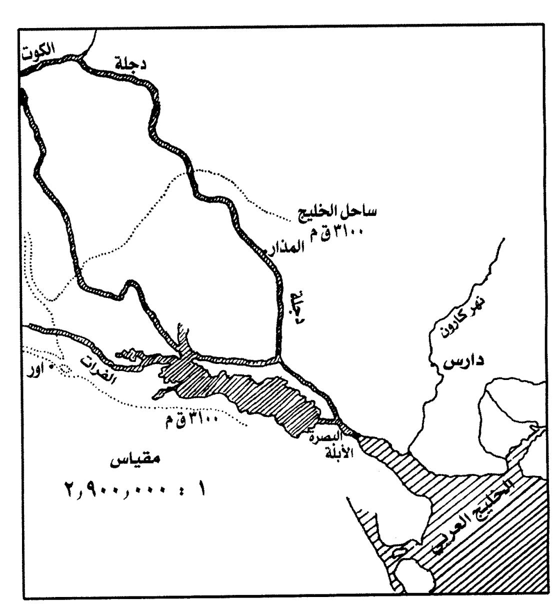
(٤) جغرافيا العراق الطبيعية ٢٥.

الخليج بمعدل ٧٢ قدماً في السنة أو ميل ونصف في القرن الواحد. وإن الرأى السائد، أن الأراضى الواطئة في جنوب العراق والتى لاتزال تشغل بعض جهاتها المستنقعات قد تكونت من الترسبات التى جلبتها أنهار دجلة والفرات والروافد الصغيرة التى تنحدر من هضبة إيران. ومن المعتقد أن الخليج كان يمتد إلى شمال موقع بغداد بحوالى ٦٤ كيلو متراً فى حوالى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد، وأنه فى زمن السومريين كان يمتد إلى موقع مدينة الناصرية على الفرات، فإن أنهار العراق تصب فى الخليج، وحدوث ظاهرة المد والجزر به مرتين كل يوم قمرى، ينتج عنه مد عال يدخل إلى شط العرب، فيرتفع مستوى الماء فيه، ويؤثر فى بطء مجراه مما يساعد على ترسيب الطمى وتجمعه. وفى خريطة بمقياس ١ :٢ مليون نشرتها مديرية الآثار العراقية ببغداد، رسمت حدوداً معينة لساحل الخليج الفارسى عام ٣١٠٠ قبل الميلاد. بينما كتب ابن بطوطة عن رحلته فى منتصف القرن الثامن الهجرى، يقول: «... والخليج الملح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها - من البصرة - فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب، وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح...» ثم يروى أنه ركب من ساحل البصرة فى قارب صغير إلى الأبلة، وبينها وبين البصرة عشرة أميال، فكأنها كانت قريباً جداً من الخليج. فإذا قارنا ذلك كله ببعضه تأكد لدينا أن معدل الترسيب الحالى (ميل ونصف فى كل قرن) لم يكن هو المعدل الثابت على مدى العصور. وهذا أمر طبيعى، فقد تكون كمية الطمى ثابتة، ولكن اتساع الخليج وعمقه ليس ثابتاً فى كل أجزائه. وقد خرجنا من هذا كله بخط تقديرى لما كان عليه مكان الخليج من النهر فى عصر الفتح الإسلامى التزمناه بعد ذلك فى خرائطنا (خريطة ٧)، كما التزمنا ما سبق أن ذكرنا (خريطة رقم٦) لمنطقة الحيرة والنجف. ويذكر المسعودى[1] الموضع المعروف بالجرارة (أو الحدارة) فيقول: «... وهى دخلة من البحر إلى البر تقترب من نحو بلاد الأبلة، ومن أجلها ملح الأكثر من أنهار البصرة. ولهذه الجرارة اتخذت الخشبات فى فم البحر مما يلى الأبلة وعبادان عليها أناس يوقدون النار بالليل (مثل الفنار) على خشبات ثلاث كالكرسى فى جوف الليل خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرهما، أن تقع فى تلك الجرارة وغيرها فتعطب، ولا يكون لها خلاص... وهذه الديار عجيبة فى مصبات مياهها، واتصال البحر بها والله أعلم».

وروافد دجلة المنحدرة إليه من هضبة إيران أكثر من روافد الفرات الذى يشق طريقه وسط الصحارى، تجعل مياه دجلة أغزر من مياه الفرات. وتقل مياه النهرين كثيراً صيفاً وخريفاً،

(١) مروج الذهب ١ / ١٠٥.

حتى يصبح فى إمكان الرجل عبور النهر خوضاً فى أماكن[1] متعددة. ولكنها تبدأ فى الازدياد شتاء حتى يفيض أحدهما أو كلاهما لكثرة الأمطار على منابعهما بجبال أرمينيا وكردستان. وفى الربيع تذوب الثلوج على الجبال، وتكثر السيول ويمتلئ حوض النهرين بما يؤدى إلى فيضانات خطيرة، وتغرق البلاد، وتنتشر الأمراض ولاسيما الملاريا.



خريطة رقم (٧) – ساحل الخليج فى عصر الفتح الإسلامى

وفضلاً عن تلك الشبكة المتشعبة من الأنهار والنهيرات، فقد غمرت البحيرات الكبيرة والصغيرة والمستنقعات ثلث أراضى العراق الجنوبى، وبينما تبلغ بحيرة الحبانية ١٤٠ كيلو متراً مربعاً، تبلغ مساحة بحيرة الحمار وحدها ٥٢٠٠ كيلو متراً مربعاً. وفى تقرير خاص

(١) العراق قديماً وحديثاً ٥٩.

بعثت به إلينا مديرية الآثار العراقية ببغداد أنه : «عندما كان نهر كرى سعده عامراً، كانت منطقة هور الحمار أرضاً عامرة بالمزارع والقرى، ومازالت آثار الأبنية القديمة قائمة فى منتصف البحيرة، كتل شعيب وأم الساح وأبو زركى وأبو صلابيخ». ونهر كرى سعده كراه (يعنى حفره) سعد بن عمرو بن حرام بأمر من سعد بن أبى وقاص. وقد أشار سعد بن أبى وقاص إلى شيء من هذه البطائح، وهو يصف موقع القادسية فى رسالته، إلى عمر بن الخطاب : « .. وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاحٍ (متجه) إلى الحيرة... وإن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم». والولجة كانت بالصحراء جنوبى الفرات بجنوب العراق. وفى رسالة من عمر إلى سعد : «إنك تقدم على بلد منيع وإن كان سهلاً، كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض».

وأصل هذه البطائح، أنه فى عهد[1] قباذ الأول بن فيروز، قبل الفتح الإسلامى بقرن من الزمان، انبثقت المياه فى فيضان عظيم جنوب كسكر، وغلب ماؤه فأغرق كثيراً من الأراضى الواطئة العامرة. وأعاد كسرى أنو شروان استصلاح بعض تلك الأراضى، وأقام المسنيات (السدود) لحمايتها. ولكن فى عام ٦ أو ٧ من الهجرة، فاض النهران فيضاناً لم يحدث مثله، وغرقت الأراضى وحاول كسرى برويز أن يصدها، واشتد فى ذلك حتى أنه صلب فى يوم أربعين عاملاً - وقيل سبعين - فلم يقدر على حيلة. وغزا المسلمون العراق وانشغلت الفرس فى الحروب، فكانت البثوق تنفجر والجسور تنهار فلا يلتفت إليها أحد. واتسمت البطيحة وعظمت حتى قدّرها ابن رسته بأنها كانت ثلاثين فرسخاً فى ثلاثين، وقدّرها لى سترانج حديثاً بأنها كانت خمسين ميلاً عرضاً فى مائتين طولاً، وهى مساحة قريباً من تقدير ابن رسته[2]. وقد تم استصلاح كثير منها فى عهد الأمويين.

والرياح السائدة فى العراق شمالية غربية معظم أيام السنة. ويدوم الشتاء من يناير (كانون الثانى) إلى أوائل مارس (آذار)، ويكون الجو معرضاً للأعاصير التى ينقلب فيها اتجاه الريح إلى جنوبية شرقية. ويدوم الصيف من أول يونية (حزيران) إلى آخر سبتمبر (ايلول) أو أوائل اكتوبر (تشرين الأول)، وتزداد الرطوبة صيفاً فى الجنوب عنها فى منطقة المدائن وبغداد، مما يجعل السكان يشعرون بالضيق. وفى أشهر الصيف تشرق الشمس من ١٢ إلى ١٤ ساعة فى اليوم، وتكون السماء صافية خالية من الغيوم. وشهر يوليو (تموز) أحر شهور

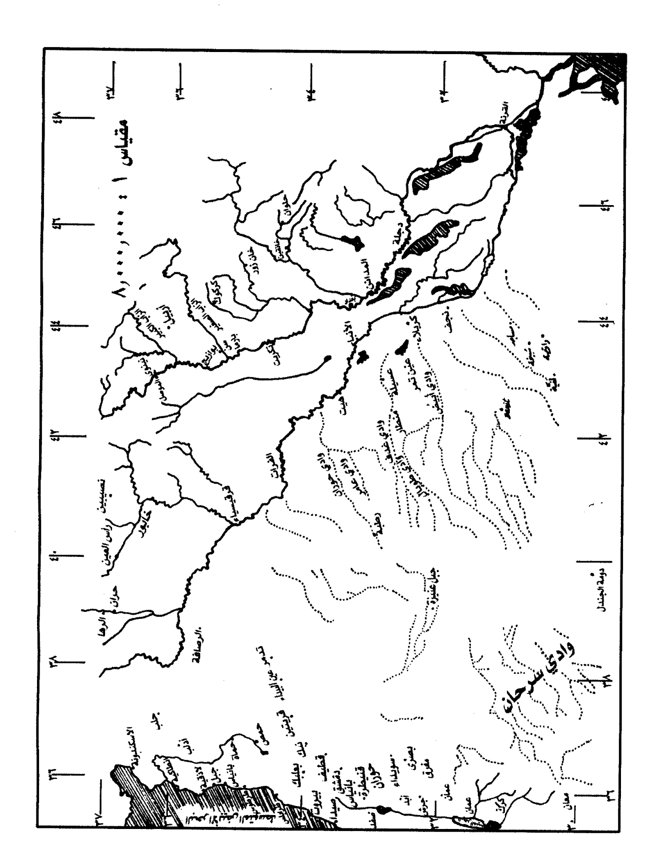
(١) فتوح البلدان ٧٤١ - ٧٤٥.

(٢) الخراج فى الدولة الإسلامية ١٧٩.

السنة، وتصل الحرارة أحياناً فى وسط وجنوب العراق إلى ٥٠ مئوية. وأحياناً تمر فى الصيف عواصف رملية - ربما صادفت أغسطس (آب) - وتدوم فترة الحر الشديد أربعين يوماً، اعتباراً من العشر الأواخر من يونية (حزيران) حتى نهاية يولية (تموز). وتشتد الرياح فى بعض أيام الصيف، فتصل سرعتها إلى ٦٥ كيلو متراً، وكلما ازدادت سرعتها ازدادت كمية الغبار الذى تحمله معها من صحراء السماوة. وشهور الصيف جافة خالية من المطر.

وتفصل صحراء السماوة بين العراق فى الشرق والشام فى الغرب، وقد أتاح هذا للمسلمين ميزة استراتيجية، وهى أنهم فى فتح الشام وفى فتح العراق كانوا فى مركز يتيح لهم حرية توجيه الضربات يميناً إلى الفرس أو شمالاً إلى الروم، ويسمح لهم بنقل قواتهم بين الميدان الشرقى وبين الميدان الغربى وبين شبه الجزيرة فى جهالة تامة من الفرس ومن الروم الذين لم يكن لهم أن يعلموا أين ومتى وكيف توجه إليهم الضربات. وبادية السماوة لا عيون ولا آبار بها، وغاية ما يبل الصدى غدران أو برك طبيعية متباعدة وخزانات صناعية يحفظ بها ماء المطر كان يعرفها أهل تلك الجهات ولا يفطن إليها سواهم[1].

(١) الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٦.



خريطة رقم (٨) - العراق

الباب الخامس

المقاييس

وحدات القياس

يصادف من يتعرض لدراسة التاريخ الإسلامي بوحدات للقياس تختلف عما يجرى به العمل اليوم، فنجد البريد والفرسخ والميل والذراع لقياس المسافات والأطوال، ونجد الدينار والدرهم كوحدات للمعاملات. ولابد لمتابعة البحث من الوقوف على الصلة بين هذه الوحدات والوحدات المعلومة لنا. وقد تعرض لهذا الأمر كثير من المؤلفين العرب والمستشرقين، واختلفوا فيما وصلوا إليه اختلافاً كبيراً، وذهب كل منهم يدلل على وجهة نظره ويسوق أدلة تحقيقه. ولا نرغب أن نعيد هنا ذكر ذلك، فهو ليس من أهداف هذا البحث، وحسبنا أن نجتزئ النتيجة التي نطمئن إليها. ونزكي ما توصل إليه الأستاذ المحقق محمد ضياء الدين الريس وضمّنه نحواً من تسعين صفحة من كتابه «الخراج في الدولة الإسلامية»، فهو بحث مفيد ونافع ولا غنى عنه لدارس التاريخ الإسلامي.

المسافات والأطوال

اليوم = ٢ بريد = ٨ فراسخ = ٤٤٫٣٥٢ كيلو متراً.

البريد = ٤ فراسخ = ٢٢٫١٧٦ كيلو متراً.

الفرسخ = ٣ ميل = ٥٥٤٤ متراً = ١٢٠٠٠ ذراعاً مرسلة = ٩٠٠٠ ذراعاً هاشمية.

المرحلة = من خمسة فراسخ إلى ستة (من ٢٨ إلى ٣٣ كيلو ومتوسطها ٣٠٫٥ كيلو متراً).

الميل = ٤٠٠٠ ذراع مرسلة = ٣٠٠٠ ذراع هاشمية = ١٨٤٨ متراً.

وقد جاء في The Concise Oxford Dictionary أن الميل البحرى أو الجغرافى الذى هو دقيقة من دائرة الأرض الكبرى قد حددته البحرية البريطانية بأنه ٦٠٨٠ قدماً. والقدم الإنجليزى ٣٠٫٤ سم، يعنى أن الميل البحرى = ١٨٤٨٫٣٢ متراً. وهو مقدار الميل العربى.

الغلوة = ١ / ١٠ ميل = ١٨٤٫٨ متراً.

الذراع الأساسى = ٤٦٫٢ سم. وله أسماء أخرى، فهو الذراع الأصلى، والشرعى، والمرسلة، والمصرى العتيق، والصحيح، وذراع القياس، وذراع اليد، وذراع الكرباس، وذراع

العامة، والذراع الآدمى، والذراع الصغير.

الذراع السوداء = ٦٩ر٥٠ سم.

الذراع القديم = ٩ر٥٣ سم وهو ذراع الملك الفارسى.

الذراع الهاشمى = ٦ر٦١ سم وهو ذراع الملك، وهو ذراع المساحة.

الذراع البلدى = ٧ر٥٧ سم وهو ذراع النجار.

القدم = ٨ر٣٠ سم (القدم الإنجليزى ٤ر٣٠ سم).

المساحات

الجريب = ٣٦٠٠ ذراعاً مربعة من الأذرع الهاشمية = ١٣٦٦ متراً مربعاً.

والفدان المصرى الحالى = ٣٫٠٧ جريب = ٥ / ٦ ٤٢٠٠ متراً مربعاً. أما الفدان القديم الذى كان على عهد دخول الفرنسيين مصر فقد كان ٥٩٢٩ متراً مربعاً.

الفرسخ المربع = ٥٠٠ ٢٢ جريب.

القفيز = ١ / ١٠ جريب = ٦ر١٣٦متراً مربعاً.

العشير = ١ / ١٠ قفيز = ٦٦ر١٣ متراً مربعاً.

والجريب والقفيز أيضاً اسمان لمكيالين.

المكاييل

الصاع = ٧٥ر٢ لتراً = قدح وثلث.

القسط = ٣٧ر١ لتراً = ٢ / ٣ قدح.

القفيز = ٣٣ لتراً = ١٢ صاعاً = ٤٨ مُدّاً = ٢ كيلة مصرى.

وهو الذى وضعه عمر بن الخطاب على سواد العراق مع الدرهم عند فتحه، وهو الذى كان موضوعاً من عهد كسرى أنو شروان.

الجريب = ٨ قفيزاً.

الكر = ٦٠ قفيزاً.

الموازين

الأوقية = ٤٠ درهماً.
الشعيرة = ١ / ٦٠ من الدرهم.
النش = ٢٠ درهماً.
النواة = ٥ دراهم.

النقود[١]

تهتم الشريعة الإسلامية بالنقود فى ميدان العبادات والمعاملات، وذلك لاتصال النقود بالزكاة والخراج والعشور والجزية والصداق والعقود والوقف والديات والعقوبات... إلخ. وقد مرت النقود فى تاريخ المسلمين بأدوار من الزيادة والنقصان فى فئة العملة المتداولة، مما استدعى معرفة نوع العملة ومقدارها فى العصر الذى نبحثه. وقد استخدم المسلمون فى ذلك العصر نوعين من العملة هما: الدينار والدرهم.

الدينار

كان الدينار أصلاً عملة رومانية ذهبية عرفها العرب وتعاملوا بها قبل الإسلام وبعده. وقد أشار إليها القرآن الكريم[٢] فى قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾. وحين أصلح عبدالملك بن مروان النظام النقدى فى الدولة الإسلامية سنة ٧٤هـ، لم يمس عيار هذه العملة، وإنما عمل على ضبط وزنها عن طريق صنج زجاجية غير قابلة للزيادة أو النقصان وإلا انكسرت فبطلت، ومن ثم أصبح الوزن الشرعى للدينار الإسلامى منذ تعريبه هو وزن المثقال، ولم يتغير وزن الدينار عن هذا أبداً فى أى عصر من العصور[٣] وهو ٤ر٢٥ جراماً، وكان عيار الدينار العربى وأجزائه مرتفعاً، وكان فى الغالب ثلاثة وعشرين وثلاثة أرباع قيراط. فإذا أردنا حساب قيمته بعملة اليوم، نجد أن جرام الذهب من هذا العيار فى ٣١ / ٥ / ٢٠٠٠ بسوق الموسكى بالقاهرة

(١) النقود العربية ٦.
(٢) سورة آل عمران ٧٥.
(٣) الخراج فى الدولة الإسلامية ٣٣٦.

يساوى ٣١٫٦٥ جنيهاً مصرياً[١] . نخلص من هذا إلى أن ذلك الدينار كان فيه من الذهب ما يساوى ١٣٤٫٥ جنيهاً مصرياً فى التاريخ المذكور . وبطبيعة الحال يتغير هذا السعر من يوم لآخر ومن سوق لآخر ، وهذه طبيعة أسواق النقود يتغير سعر المبادلة فيها بتغير الزمان والمكان . فعلى من يريد أن يقدر قيمة ذلك الدينار ، فى أى وقت ، أن يحسب قيمة ما فيه من الذهب ، إذ ليست النقود فى واقع أمرها إلا سلعة عيارية يرتضيها الجميع كأداة للمبادلة وتقييم لها . وقد كانت النقود فى ذلك الوقت تستمد قيمتها من قيمة ما فيها من المعدن الثمين ، وليس من سعر إلزامى يفرضه القانون كما هو شائع فى عملات اليوم من المعادن الرخيصة أو العملات الورقية .

الدرهم[٢]

هو عملة فضية اشتق اسمها من الدراخمة اليونانية . وقد استعار العرب استعماله من الفرس . وقد ذكر البلاذرى[٣] أنه كانت ترد عليهم دراهم الفرس البغلية (نسبة إلى ملك اسمه رأس البغل) كما قال : «إن الدراهم الواردة من بلاد الفرس كانت مختلفة الأوزان ، صغاراً وكباراً ، فكان منها ما هو مثقال وزن عشرين قيراطاً ، وكان منها ما هو اثنا عشر قيراطاً ، وكان منها ما هو عشرة قراريط» ، وذكره الماوردى أيضاً . وقد حدد عمر بن الخطاب وزن الدرهم بالوزن المتوسط بين هذه الأنواع الثلاثة فكان وزنه ١٤ قيراطاً ، وبذلك يكون ١٤ / ٢٠ من المثقال أى ٧ / ١٠ ، واعتبر هذا هوالدرهم الشرعى الذى انعقد عليه الإجماع منذ صدر الإسلام . غير أن ما فعله عمر بن الخطاب كان درهماً حسابياً فقط ، ولكنه لم يضرب نقوداً جديدة على هذا الوزن .

وحين أصلح عبدالملك بن مروان النظام النقدى حدد وزن الدرهم بسبعة أعشار وزن الدينار ، أى أنه كان ٢٫٩٧٥ غراماً ، وضرب الدراهم بهذا الوزن . وكان الدرهم الساسانى المستخدم فى فجر الإسلام[٤] قطعة مستديرة من الفضة على أحد وجهيها نقش يمثل الجزء العلوى من صورة كسرى ، ويظهر وجهه فى وضع جانبى (بروفيل) ، وعلى رأسه التاج الساسانى المجنح . أما الوجه الثانى للدرهم ، فعليه حارسان مسلحان أو كاهنان بينهما بيت

(١) كان ثمنه بسوق الموسكى ١١٠ قرشًا مصريًا فى ٣٠ / ٤ / ١٩٦٩ (الطبعة الأولى من هذا الكتاب) ، وبطبيعة الحال يتغير تقديره بتغير سعر الذهب .
(٢) النقود العربية ١٠ .
(٣) فتوح البلدان ٥٧١ .
(٤) النقود العربية ٢٤ .

نار. وتشير الكتابات البهلوية المنقوشة على الدرهم إلى اسم الملك، وأحياناً عبارات دعائية له ولأسرته. وفي الهامش الخارجي للدرهم توجد ثلاثة أو أربعة أهلة، وفي داخل كل هلال نجمة إشارة إلى كوكب الزهرة عند تقابله مع القمر، وهو دلالة على الرخاء عند منجمي الفرس. وقد كان الفرس أهل تنجيم يعتقدونه ويرسمون تصرفات حياتهم بمقتضاه.

تطور النقد العربي[1]

كان العرب يحصلون من معاملاتهم مع الشام على أرباح طائلة تصل إلى ١٠٠٪ وكانوا يحصلون أحياناً من قافلة تجارية واحدة إلى الشام على خمسين ألف دينار من الذهب (حوالى ستة وثلاثة أرباع مليون جنيه مصرى). ولقد كانت تصل إلى شبه الجزيرة إلى جوار النقود البيزنطية والفارسية قطع قليلة من النقود الحميرية من اليمن. وكانوا يسمون الدراهم الفارسية الساسانية الوَرِق، والورق فى اللغة هو الفضة، وفى سورة الكهف: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ..﴾ وعرفوا الدنانير البيزنطية الذهبية على أنها تبر، كما كانوا يسمونها «العين». فلما جاء الإسلام أقر الرسول ﷺ تعامل الناس بهذه النقود وقال: «المكيال مكيال المدينة، والميزان ميزان مكة»، وقد كانت النقود من الموازين، والوزن يراد به الذهب والفضة خاصة. وقد تعامل الرسول نفسه بها فزوّج علياً رضى الله عنه ابنته فاطمة رضى الله عنها على صداق قدره ٤٨٠ درهماً، وجعل زكاة المال خمسة دراهم عن كل خمس أوقيات من الفضة، ونصف دينار عن كل عشرين ديناراً من الذهب. وكان تعامل العرب بهذه النقود بالوزن، ولم يكن بالعدد.

وسار أبو بكر رضى الله عنه بسنة النبى ﷺ فى إقرار العمل بهذه النقود، فلم يغير منها شيئاً. فلما ولى عمر، وفتح الله على المسلمين بلاد فارس، أقر التعامل بالنقود الساسانية فى العراق وفارس، كما هى بلغتها وحروفها البهلوية وشاراتها وشعائرها غير الإسلامية، حتى أسماء دور السك وتاريخ الضرب استمر باللغة البهلوية كذلك. وقد ورد على هذه الدراهم التى ضربها المسلمون على الطراز الساسانى أسماء ما يقرب من مائة دار للسك كانت تسكها. وفى عام ١٨هـ، ضرب عمر بن الخطاب الدراهم بنفس النقش حتى بصورها، غير أنه زاد عليها عبارة: «الحمد لله»، وفى بعضها: «محمد رسول الله»، وفى بعضها: «لا إله إلا الله وحده».

---

(١) النقود العربية ٢٢.

وفى عهد عثمان، ضربت دراهم نقش عليها: «الله أكبر»، وظل الدرهم يحمل الطابع الساساني، وأسماء وصور بنى ساسان أكثر من نصف قرن تحت الحكم الإسلامى، حتى كتب الحجاج بن يوسف الثقفى اسمه بالعربية على الدراهم، ثم اختفى تماماً هذا الطراز الساسانى فى إصلاح عبدالملك بن مروان للنظام النقدى للدولة سنة ٧٤هـ.

ومثل ذلك جرى مع الدينار الرومى، فقد قبل عمر بن الخطاب النموذج البيزنطى للدينار عندما ضرب[١] نقوده. وظلت الدنانير تحمل الشارات المسيحية والصلبان فوق تيجان الأباطرة، وفوق عصا المطرانية، ثم بدأ ذلك يختفى فى تطور تدريجى طويل لتظهر بدلاً منها الكتابات العربية، وصور الخلفاء حتى صارت عربية تماماً فى عهد عبدالملك بن مروان.

ومن الثابت فيما يختص بسنوات الفتح، وما قبلها، وما بعدها أن بلاد العراق وفارس اختصت بالدراهم الفضية، بينما اختصت الشام ومصر والمغرب بالدنانير الذهبية، ذلك أن البيزنطيين كانوا قد عقدوا مع الساسانيين معاهدة بشأن النقود تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة، وألا يتخذوا نقوداً ذهبية سوى النقود البيزنطية الجارية فى التعامل، ولا غرابة فى هذا، فقد كان الساسانيون يفتقرون إلى الذهب فى القرن السابع الميلادى نتيجة الحروب التى شنوها على الروم، ثم الهزيمة التى أوقعها بهم هرقل، وما تبع ذلك من فوضى، وارتفاع نفقات الحرب، والجزية الحربية.

أما قبول المسلمين لاستمرار سك النقود على الطراز الساسانى بما فيه من بيوت النار، وصور الأكاسرة الذين بادوا وبحروف بهلوية، أو على الطراز البيزنطى بما فيه من صلبان وصور ملوك الروم والنقش عليها بحروف رومية، هذه الظاهرة لا ندرى لها تعليلاً أكيداً ولكننا نظن أنها تتمشى مع روح الإسلام المتسامحة فى احترام حرية العقيدة والرأى، وما دام أهل فارس مازالوا مجوسًا، فلتكن نقودهم على شعاراتهم، وما دام أهل الشام ومصر ما زالوا على نصرانيتهم، فلتكن النقود المسكوكة لتعاملهم حاملة لصلبانهم وشعاراتهم كما يريدون. تسامح المسلمين مع الشعوب المفتوحة أمر معروف، وقرآنهم هو الذى يعلمهم: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. أما بعد أن دخلت هذه الشعوب أفواجاً فى دين الإسلام، ومال أهلها عن دياناتهم الأولى إلى دين الإسلام، فلم يعد ثمة معنى لاستمرار سك النقود على الطرازات الساسانية أو البيزنطية، وإنما تصبح شعارات الإسلام هى المناسبة لهم، وهو ما فعله عبدالملك بن مروان عام ٧٤هـ، بعد حوالى ستين عاماً من الفتوح.

---

(١) النقود العربية ٢٦.

وقد كانت الأوقية عند العرب ٤٠ درهماً = ١١٩ جراماً، ونصاب الزكاة في الفضة خمس أواقي = ٥٩٥ جراماً، وهذه كان عليها خمسة دراهم. أما النصاب من الذهب فهو ٢٠ ديناراً = ٨٥ جراماً من الذهب، وكان فيه نصف دينار. هذان المقداران من نصاب الذهب والفضة كانا متساويين في القيمة. ومعنى هذا أن ثمن الوزن من الذهب كان سبعة أمثال نفس الوزن من الفضة. ولما كان الدينار يزن مثقالاً في حين يزن الدرهم ٧ / ١٠ مثقال، فإن هذا يعني أن الدينار الواحد كان يساوي في قيمته عشرة دراهم. يؤيد هذا أن عمر بن الخطاب جعل في الجزية أربعة دنانير على أهل الذهب معادلة لأربعين درهماً على أهل[1] الفضة.

هذا ونستطيع أن نجد بعض أسعار ذلك العصر من قيمة الدية بنفس القيمة من أصناف متنوعة، فقد كانت كالآتي[2]:

٠٠٠ر١ دينار على أهل الذهب.

٠٠٠ر١٠ درهم على أهل الفضة.

١٠٠ من الإبل.

٢٠٠ من البقر.

٠٠٠ر٢ من الغنم.

٢٠٠ من الحلل.

إذن، فقد كان الجمل مساوياً مائة درهماً أو عشرة دنانير، والبقرة خمسين درهماً، والشاة خمسة دراهم، والحلة خمسين درهماً. هذه نماذج من القوة الشرائية لتلك النقود في ذلك العصر.

وقد استعرض الأستاذ الريس بعض تقديرات المؤلفين المحدثين لقيمة هذه العملة. وانتهى إلى أن تقدير الدينار بأنه ستين قرشاً مصرياً هو الأقرب إلى الصحة، وبناء على ذلك، فإن قيمة الدرهم في تقديره (وهو عشر الدينار) تساوي ستة قروش. ولنا على هذا اعتراض، إذ من المحال أن نعتبر الدينار الذي يحوى من معدن الذهب ما قيمته ٦٥ر١٣٤ جنيهاً مصرياً أن قيمته ستون قرشاً، وإنما قيمته ترتبط قطعاً بقيمة ما فيه من ذهب. أما إذا أردنا تقييم الدرهم

---

(١) فتوح البلدان ١٤٨.

(٢) الخراج في الدولة الإسلامية.

بنفس الطريقة، فإننا نجد أن سعر جرام الفضة في سوق الموسكي بالقاهرة في ٣٠ / ٤ / ١٩٦٩ = ٢٨٫٨٤ مليماً، ومن حيث أن الدرهم كان يزن ٢٫٩٧٥ جراماً، فإن قيمته إذن تعادل ٨٥٫٧٩٩ مليماً مصرياً (حوالى ٨٦ مليماً)، وفي هذه الحالة نجد أن النسبة بين الدرهم والدينار قد اختلت كثيراً، فلم تعد ١ : ١٠، وإنما صارت نحواً من ١ :٥٥. هذا الاختلال في النسبة نتج عن اختلاف قيمة الفضة بالنسبة للذهب تماماً، كما اختلت النسبة في القيمة بين البقر والذهب أو الفضة. فإن البقرة كانت تساوى خمسة دنانير أو خمسين درهماً، ولكنها اليوم لا تساوى هذا ولاذاك، فإذا استخرجنا قيمتها على قاعدة الذهب كانت ٢٣٫٣٧٥ جنيهاً مصرياً، وإذا استخرجنا هذه القيمة على قاعدة الفضة كانت ٤٫٢٩٠ جنيهات مصرية، في حين أن البقرة في مصر في التاريخ المذكور تساوى ١١٠ من الجنيهات.

التقويم

كان من المفيد كثيراً في بحثنا هذا، أن نربط التقويم القمرى الهجرى بالتقويم الشمسى الميلادى للفترة التى ندرسها. ولقد أفادنا هذا في مطابقة الأحداث مع فصول السنة وطبيعة المناخ والمحاصيل والفيضانات، كما أفادنا في الضبط والترجيح بين بعض التواريخ المختلف عليها. ولقد أخذنا مطالع العام الهجرى من قاموس المنجد، وكذلك أيام الأسبوع منسوبة إلى التقويم الشمسى، ومزجنا ذلك كله. بطبيعة الحال تختلف بدايات ونهايات الشهور القمرية باعتبار ما إذا كان الشهر السابق ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين، وهو ما لا يمكن اليوم ضبطه تفصيلاً لذلك العصر، بل إن نتائج اليوم لعصرنا الذى نعيش فيه لتعجز عن ضبطه، ولذلك فهناك احتمال لفروق مقدارها يوم. ومع ذلك فقد حاولنا جهدنا الإقلال من هذا الاحتمال بتطبيق ما علم لنا من التاريخ القمرى منسوباً إلى أيام الأسبوع، كأن يذكر الرواة أن رسول الله ﷺ توفى يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ١١هـ، وأن السيدة فاطمة توفيت ليلة الثلاثاء الثالث من رمضان ١١هـ، وأن وقعة أجنادين كانت سنة ثلاث عشرة في جمادى الأولى لليلتين بقيتا منه يوم السبت قبل وفاة أبى بكر رضى الله عنه بأربع وعشرين ليلة، وأن وفاة أبى بكر، كانت مساء الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة عام ١٣هـ وهكذا...

وبذلك تمكنا من تحديد التاريخ الميلادى لكل حادثة أو معركة بأقرب ما يمكن من الدقة، وأثبتنا التاريخ الميلادى إلى جانب التاريخ الهجرى كما سيمر معنا .

الجزء الثانى

الباب السادس: **مدخل إلى الفتوح (حروب الردة)**

الباب السابع: **حملة خالد بن الوليد**

الباب الثامن: **اكتساح العراق الجنوبى**

الباب التاسع: **فتح الحيرة**

الباب العاشر: **خالد ينجز مهمة عياض**

الباب الحادى عشر: **ختام مرحلة وانتقال خالد إلى الجبهة الغربية (الشام)**

الباب الثانى عشر: **هذه الحملة (تحليل ونقد)**



الباب السادس

مدخل إلى الفتوح

مع الــردة



تمهيد

كانت حركة الفتوح من ناحيتيها السياسية والحربية امتداداً لعمليات ردع الردة فى جزيرة العرب. ولذلك كان علينا لكى ندخل العراق من أبوابه مع جيوش الفاتحين أن نبدأ من الردة، فنذكر عجالة جد مختصرة عنها، وعن ما وقع فيها.

توفى رسول الله ﷺ فى الثانى عشر من ربيع الأول ١١هـ، وولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة. وقد أمر الرسول قبل وفاته ببعث أسامة بن زيد بن حارثة إلى تخوم الشام، فبادر أبو بكر بتنفيذ ذلك فى آخر ربيع الأول ١١هـ. وكما جاءت وفود العرب من قبل إلى رسول الله ﷺ معلنة إسلامها، فقد جاءت الآن إلى أبى بكر[١] لتعلن ارتدادها. وجاءته الأخبار من أرجاء شبه الجزيرة أن العرب قد انتقضوا ومنعوا ما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ من الزكاة، إلا قريشاً وثقيفاً وأهل المدينة. وذهب بعض من ارتد إلى أبعد من ذلك قبل وفاة النبى، فادّعى النبوة! مثل الأسود العنسى باليمن ومسيلمة بن حبيب الكذاب فى بنى حنيفة باليمامة، وطليحة بن خويلد فى بنى أسد، وقد اجتمع إليه المرتدون من طئ وغطفان وأشجع. وتذبذبت هوازن فقدمت رجلاً وأخرت أخرى، وارتد بعض من سُلَيْم، وكذلك سائر الناس بكل مكان. وجاءت كتب أمراء النبى ﷺ من كل مكان بانتقاض من انتقض وتبسطهم بالتنكيل والتمثيل بالثابتين[٢] على إسلامهم.

وأُخِذَ المسلمون بالموقف لولا أن قيّض الله أبا بكر الذى يعدل إيمانه إيمان أمة. قال عبدالله بن مسعود: «لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبى بكر، أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون، وأننا نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم، فوالله ما رضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار، ومن قتل منا فى الجنة، وأن يَدُوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن

(١) الطبرى ٣ / ٢١٢ عن عبيد الله بن سعيد، عن عمه عن سيف. وس ش س، عن هشام بن عروة عن أبيه.
(٢) الطبرى ٣ / ٢٢٢ عن عبيد الله عن عمه عن سيف. وس ش س، عن هشام بن عروة عن أبيه.

يخرجوا من ديارهم[1]».

كان طبيعياً أن ينتظر أبو بكر رجوع أسامة وجيشه قبل أن يتحرك لردع المرتدين، غير أن عبساً وذبيان عاجلوه وخرجوا فى زحف يريدون المدينة، فبادرهم فى جمادى الأولى أو الثانية عام ١١هـ وقاتلهم قبل رجوع أسامة. وكان على ميمنة أبى بكر النعمان بن مقرّن المزنى، وعلى ميسرته أخوه عبدالله بن مقّرن، وعلى الساقة (المؤخرة) أخوهما سويد بن مقرّن المزنى[2]، وخرجوا من آخر الليل، فما طلع الفجر إلا وهم والمشركون فى صعيد واحد، ما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فما بزغت الشمس حتى ولوا الأدبار، وغلب المسلمون المرتدين على أرضهم، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة، فوضع فيها النعمان بن مقرّن فى عدد، ثم عاد إلى المدينة. ووثب المشركون من عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم من المشركين مثل فعلهم فى سائر القبائل، فحلف أبو بكر ليقتلن فى كل قبيلة بمن قتل من المسلمين[3]. وانضمت فلول عبس وذبيان إلى طليحة فى بزُاخة من مياه بنى أسد. ومع رجوع أبى بكر إلى المدينة جاءته صدقات من ثبت على إسلامه من القبائل، منهم عدى بن حاتم الطائى جاء بزكاة مسلمى بنى طيء.

جيوش حروب الردة

وعاد أسامة وجيشه بعد أربعين يوماً من مخرجه - وقيل بعد سبعين - فأبقاهم أبو بكر بالمدينة ليريحوا ظهورهم (خيلهم وإبلهم)، وبعدما استجموا عقد أبو بكر أحد عشر لواء وجهها إلى المرتدين فى مواطنهم من أرجاء شبه الجزيرة. وكانت هذه الجيوش[4] كالآتى:

١- خالد بن الوليد إلى طليحة بن خويلد فى بنى أسد ومن انضم إليهم من مرتدى طئ وعبس وذبيان. فإذا فرغ منه فإلى مالك بن نويرة، زعيم ردة بنى تميم بالبطاح.

٢- عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة بن حبيب الكذاب فى اليمامة.

---

(١) ابن الأثير ٢ / ١٣٠.

(٢) النعمان بن مقرن وإخوته، سيتردد ذكرهم كثيراً فى الفتوح.

(٣) الطبرى ٣ / ٢٢٤ س ش س، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد.

(٤) الطبرى ٣ / ٢٢٥ س ش س، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد. وهذا الترقيم للجيوش من عندنا.

٣- شرحبيل بن حسنة فى أثر عكرمة ولنفس الهدف.

٤- طريفة بن حاجز إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن.

٥- عمرو بن العاص إلى قضاعة ووديعة والحارث.

٦- خالد بن سعيد إلى مشارف الشام.

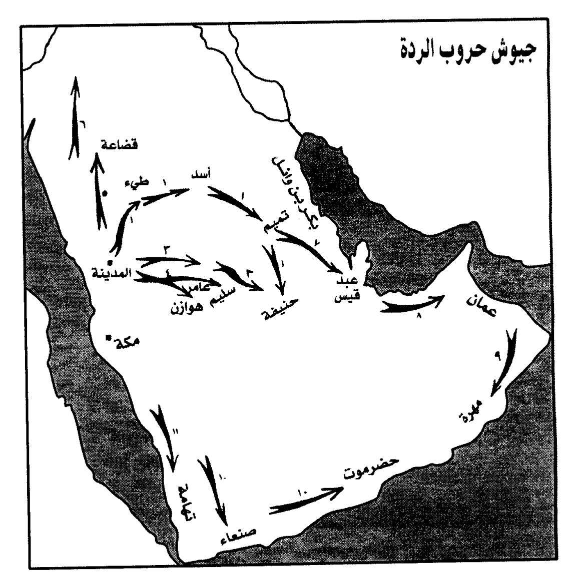
٧- العلاء بن الحضرمى إلى البحرين.

٨- حذيفة بن محصن الغلفانى إلى دبا بعُمان.

٩- عرفجة بن هرثمة إلى أهل مهرة.

١٠- المهاجر بن أبى أمية إلى الأسود العنسى بصنعاء ثم إلى حضر موت.

١١- سويد بن مقرّن إلى تهامة اليمن.



خريطة رقم (٩) - جيوش حروب الردة

منشور الخليفة إلى القبائل

وكتب أبو بكر إلى جميع قبائل العرب كتاباً من صيغة واحدة[1]، هي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه.

سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى.

فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نقر بما جاء به ونُكفِّر من أبى ونجاهده.

أما بعد، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ليُنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً. ثم توفي رسول الله ﷺ وقد نفد لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه، وكان الله قد بيّن له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[2]. وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[3]. وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[4]. فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حي قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه يجزيه.

وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضال، وكل من لم يعافه مبتلى، وكل من لم يعنه مخذول. فمن هداه الله كان مهتدياً ومن أضله كان ضالاً، قال الله

(١) الطبري ٣ / ٢٢٦ س ش س، عن عبدالله بن سعيد، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٣٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

تعالى : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1] . ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقربه ولم يقبل منه فى الآخرة صرف ولا عدل .

وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[2] .

وقال : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[3] .

وإنى بعثت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله ، وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان . فإن أذن المسلمون فأذنوا ، كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم . وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغى لهم » .

تعليمات إلى قادة الجيوش

خرجت الرسل بالكتب أمام الجنود وخرجت أمراء الجيوش فى جيوشهم على آثارهم ومعهم عهود هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سره وعلانيته .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٥٠ .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٦ .

وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام. فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم، لا يُنْظِرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقرَّ له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله. فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسرَّ به. ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام. فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه. ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه. وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن لا يُدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم، لا يكونوا عيوناً (جواسيس) ولئلاً يؤتى المسلمون من قبلهم. وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول» .

عمليات الجيش الأول
والثاني والثالث والرابع

خالد يجتاح بني أسد

هذا الجيش الأول الذى تجمع فى ذى قصة خارج المدينة على بريد منها نحو نجد، كان عدته أربعة آلاف أقلهم من المهاجرين، وكان فيهم من الأنصار ما بين أربعمائة إلى خمسمائة عليهم ثابت بن قيس ويحمل رايتهم أبو لبابة، وكان أكثرهم من القبائل القريبة من المدينة، بعضهم من كنانة. وعقد أبو بكر لواء الحملة ثم عرض إمارتها على زيد بن الخطاب، فاعتذر عنها بأنه ينشد الشهادة، وأن قائد الجيش لا ينبغى أن يباشر القتال بنفسه. فعرضها على أبى حذيفة بن عتبة، فاعتذر عنها للسبب نفسه. فعرضها على سالم مولى أبى حذيفة فكان كسابقيه، فأمر على الجيش[1] خالد بن الوليد. يدلنا هذا على أن خالداً حتى ذلك التاريخ، ورغم أنه سيف الله المشهود له فى ميادين الحرب، لم يكن بين الصحابة المرشح بالتزكية، بل كان هناك من ينظر إليهم على الأقل بأنهم أنداد له وأقران.

أقام طليحة فى منازل بنى أسد ببزاخة، وقد انضمت إليه فلول عبس وذبيان الذين هزمهم أبو بكر رضى الله عنه. وأرسل طليحة إلى جديلة والغوث (بطنين من طئ)، فتعجل أقوام منهم إليه وأوصوا قومهم باللحاق بهم. غير أن عدى بن حاتم الطائى - وكان ممن ثبت على إسلامه من بنى طئ، وقدم على أبى بكر بالمدينة بإبل الصدقة، ثم خرج مع خالد فى جيشه - استمهل خالداً أياماً حتى يثنى طيئاً عن ردتهم[2]، وأفلح فى ذلك، وأرسلوا فى استرجاع من سبق منهم إلى بزاخة، فرجع إليهم خمسمائة فارس من الغوث. فقال خالد: «يا أبا طريف ألا نسير إلى جديلة؟».

قال عدى: «يا أبا سليمان لا تفعل. أقاتل معك بيدين أحب إليك أم بيد واحدة؟»

---

(١) عرجون، وعبقرية خالد ٩٦ و١٦١.

(٢) ترجمة عدى بن حاتم فى آخر الكتاب. وكتاب «عدى بن حاتم» أحمد عادل كمال.

قال : «بل بيدين» .

قال : «فإن جديلة إحدى يدى» .

فكف عنهم خالد فأتاهم عدى فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا . فحمد الله وسار بهم إلى خالد وهم فى أهبة الحرب . فلما رآهم خالد فى عدتهم ظن أنهم جاءوا لحربه ، فنادى فى جيشه ، فقيل إنما هى جديلة أتت تقاتل معك ، ففرح بهم . وقالوا له : «نحن لك حيث أحببت» ، فضمها خالد إلى جيشه وعقد لواء طىء ، غوثها وجديلتها لعدى[1] بن حاتم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب أوشكوا أن يكونوا عليهم . فكان عدى أبرك رجل على قومه ، وبذلك صار جيش خالد خمسة آلاف . وكانت سليم مازالت مترددة فى ردتها ، فلما سار خالد نحو بنى أسد ، كتب خالد إلى معن بن حاجز عامل أبى بكر على سليم أن يسير بمن ثبت معه على الإسلام . فسار إليه معن وقد استخلف على عمله أخاه طريفة بن حاجز قائد الجيش الرابع من جيوش أبى بكر لقمع الردة . هؤلاء الذين سار بهم معن من سليم لم نقف على عددهم .

وشغلت نجد كلها بهذه المعركة التى على الأبواب . كان ضرار بن الأزور من فرسان بنى أسد المشهورين ، ومن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مع خالد فى جيشه وهو يتجه إلى قومه من بنى أسد . وقد كان من القادة الذين اعتمد عليهم خالد فى حروب الردة وفى فتوح العراق والشام . كانت لضرار مكانة فى أهل المنطقة ، وكان أخوه عبدالرحمن بن الأزور ثابتاً على إسلامه ، ولكنه لبث فى بلاد قومه من بنى أسد حيث ظهرت الردة ، فبعث إلى ضرار ليحرض الأنصار على جهاد المرتدين قصيدة مطلعها :

قد قلت للمرء الشقيق ضرار طال البكاء لفرقة الأنصار

كذلك أرسل مهلهل بن زيد الخيل الطائى إلى ضرار[2] يقول : «فى حال محاربة طليحة ، إن دهمكم طليحة فأعلمنى فإن معى حد العرب (قوتهم) ونحن بالإكثار (مكان) بحيال فيد» ، أولئك مسلمون ارتفعوا بإيمانهم فوق النزعة القبلية ، وقد كان بين أسد وبين طىء حلف فى الجاهلية أراد طليحة أن يستغله فى تجنيد طىء معه .

(١) الطبرى ٣ / ٢٥٣ حدثنا عبيد الله بن سعد ، قال حدثنى عمى ، س ش س ، عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد وبدر بن الخليل وهشام بن عروة . صادق عرجون ١٣٠ ، خالد بن الوليد .

(٢) الاستيعاب ٢ / ٢٠٣ - الإصابة ٤١٧٢ - ٦٣٦٨ - ٨٤٧٣ . وكان لضرار فرس من مشاهير خيل العرب اسمها : المحبر ، فكان يقال له : فارس المحبر (بلوغ الأرب ٢ / ١١٧) .

ولما تراءى[1] جند طليحة قال عدى بن حاتم لخالد: «يا أبا سليمان اجعل قومى مقدمة أصحابك». فقال له خالد: «يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب وأنا أخاف أن أقدم قومك، فإذا لحمهم القتال انكشفوا فانكشفت من معنا، ولكن دعنى أقدم قوماً صبراً لهم سوابق، وهم من قومك (يقصد المهاجرين والأنصار)»، فقال عدى: «الرأى ما رأيت». ولا شك أنها كانت نظرة صائبة من خالد تدل على إدراكه أصول علم النفس العسكرى.

ودارت المعركة بين خالد وبين طليحة، وقد اجتمع إليه جيش يربو على جيش خالد بألف مقاتل أو يزيد[2]. وانهزم المرتدون، فقام طليحة إلى فرس له فحمل عليه امرأته وهرب إلى النقع من منازل كلب على تخوم الشام، وانفض جمعه، وقتل منهم من قتل، وهرب منهم من هرب، وأقر من بقى بالإسلام.

وكتب أبو بكر إلى خالد: «ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً. واتق الله فى أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. جد فى أمر الله ولا تَنِيَنَّ. ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته، ونكلت به غيره، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن فى ذلك صلاحاً فاقتله».

فأقام خالد فى بزاخة شهراً يُصَعِّد عنها ويصوِّب، ويرجع إليها فى طلب الفارين ممن مثل بالمسلمين، فنكل بهم[3]، منهم من أحرق ومنهم من أوثقه ورضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال ونكسهم فى الآبار وخزقهم بالنبال كما فعلوا بالمسلمين فعل بهم على سبيل القصاص.

قبائل ألقت السلاح

وكانت بنو عامر وسليم وهوازن على مقربة ترقب مجرى الحوادث، فلما رأوا ما كان قالوا: «ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله»، فعادوا إلى الإسلام. وفى رواية أخرى، أن طريفة بن حاجز (الجيش الرابع) قاتلهم حتى هزمهم. وظفر خالد بقُرَّة بن هبيرة صاحب ردة بنى عامر، فلم يقتله لأنه كان قد اكتفى بمنع الزكاة دون أن يقتل أحداً من المسلمين أو يمثل به، فأرسله إلى أبى بكر ليرى فيه رأيه، وكتب[4] إلى أبى بكر.

---

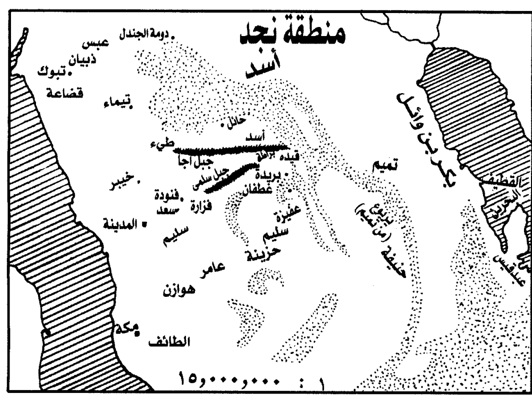
(١) عرجون ١٣١ - «طليحة بن خويلد» أحمد عادل كمال.

(٢) عبقرية خالد ٩٩.

(٣) الطبرى ٣ / ٢٣٣ س ش س، عن أبى عمرو، عن نافع.

(٤) الطبرى ٣ / ٢٣٣ س ش س، عن أبى عمرو وأبى ضمرة، عن ابن سيرين.

«.... ولم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيؤوني بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة وبعثت إليك بقُرَّة وأصحابه».



خريطة رقم (١٠) – منطقة نجد

أما هؤلاء الذين عادوا إلى الإسلام من بعد ردة، فلم يكن ليعدو عليهم، وقد أسلموا، ولم يكن ليطمئن إليهم وقد تذبذبوا بين الكفر والإسلام، فاكتفى بنزع سلاحهم واستحلفهم على ما غيبوا منه حتى جمع منهم شيئاً كثيراً استعمله في قتال أعدائه، وأعطاه لمن يحتاج إليه من جنده، ثم أعاد جمعه منهم بعد القضاء على الردة، فقدمه إلى أبي بكر فضمه إلى ما كان قبضه من أسد وغطفان من السلاح والكراع. فلما توفي أبو بكر اعتبره عمر أنه كان استعارة لوقت الحاجة فرده إلى أصحابه وإلى ورثة من مات[1] منهم.

وعلم طليحة بانتهاء ردتهم فأسلم هو الآخر، وخرج نحو مكة معتمراً، ثم عاد إلى المدينة في عهد عمر فبايعه، ورجع إلى داره في بزاخة بني أسد وظل مقيماً بها حتى خرج إلى العراق.

---

(١) عرجون ١٣٨.

أما تميم فقد اختلفت بطونها فمنهم مرتد ومنهم ثابت على إسلامه. وتزعم مالك بن نويرة ردة بنى تميم. وادعت امرأة اسمها سجاح النبوة فى بنى تغلب من أرض الجزيرة بشمال العراق، وزحفت فى جموعها لتغزو أبا بكر! فلما بلغت الحَزْن من منازل بنى تميم راسلت مالك بن نويرة فحالفها ووادعها، فأقبلت إليه ثم جاوزته إلى مسيلمة فى اليمامة. وخشى مسيلمة أن تشغله سجاح عن قتال أبى بكر فى الوقت الذى يترقب زحف المسلمين إليه، فعرض عليها أن يتزوجها ليضم قوتها إلى قوته ويأكل بقومه وقومها العرب[١]، فقبلت وتزوجها. غير أننا نجدها لا تلبث أن تكر راجعة إلى الجزيرة.

ولما أراد خالد الخروج إلى بطاح بنى تميم اعترض الأنصار وتخلفوا عنه وقالوا: «ما هذا بعهد الخليفة إلينا. إن الخليفة عهد الينا إن نحن فرغنا من بزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا». فقال خالد: «إن يكن عهد إليكم هذا، فقد عهد إلى أن أمضى، وأنا الأمير وإلىّ تنتهى الأخبار. ولو أنه لم يأتنى له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه فلم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به. وهذا مالك بن نويرة بحيالنا وأنا قاصد إليه ومن معى من المهاجرين والتابعين بإحسان ولست أكرهكم».

وخرج خالد من بزاخة بنى أسد. وعاد الأنصار يقلبون الأمر فيما بينهم. قالوا: «إن أصاب القوم خير إنه لخير حرمتموه. وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس». فأجمعوا على اللحاق بخالد وأرسلوا إليه رسولاً فأقام على الطريق حتى لحقوا به ثم ساروا جميعاً. فلما قدموا منازل بنى تميم بالبطاح لم يجد جمعاً[٢]. إذ كان مالك بن نويرة قد فرق قومه فى مياههم ونهاهم عن الاجتماع وأمرهم بالرجوع إلى الإسلام. وأرسل خالد خيله فجاءته بمالك بن نويرة فى نفر من قومه فقتلهم، وكان ضرار بن الأزور الأسدى هو الذى ضرب عنق مالك، وتختلف الروايات اختلافات كثيرة حول الظروف والملابسات التى صاحبت مقتل ابن نويرة. وتزوج خالد امرأة مالك وكان هذا وذاك سبباً فى غضب عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد.

---

(١) الطبرى ٣ / ٢٣٩.

(٢) الطبرى ٣ / ٢٤١ س ش س، عن الصعب بن عطية بن بلال.

أما عكرمة بن أبى جهل (الجيش الثانى) الذى بعثه أبو بكر إلى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل (الجيش الثالث) ، فقد تعجل الأمر وصادم مسيلمة قبل أن يأتيه شرحبيل فغلبه مسيلمة . وأدرك الخبر شرحبيل فأقام بالطريق . وكتب عكرمة إلى أبى بكر بالذى كان فغضب لذلك وكتب إليه ألا يرجع إلى المدينة فيوهن الناس ، وأمره أن يمضى فيساند حذيفة وعرفجة على قمع ردة عمان ومهرة . . ثم يتم دورته حول شبه الجزيرة إلى اليمن . رضى الله عن أبى بكر ، ما أجمل رأيه وفكره . كما كتب إلى شرحبيل أن يقيم حيث كان بأدنى اليمامة حتى يأتيه أمره .

ورجع خالد من البطاح (بنى تميم) إلى أبى بكر لمساءلته عن مقتل مالك ابن نويرة ، فسمع عذره وقبل منه ورضى عنه ثم وجهه إلى مسيلمة وجمع له الناس . ورجع خالد إلى عسكره بالبطاح حتى يدركه الجمع الجديد ، فلما وافاه نهض إلى اليمامة ، وبنو حنيفة يومئذ كثير قدرهم بعض الرواة بأربعين ألف مقاتل فى قراهم .

وأعاد شرحبيل غلطة عكرمة فتعجل القتال مع بنى حنيفة ودارت الدائرة عليه ، وأدركه خالد فلامه على فعلته . وأمد أبو بكر خالداً بسليط بن قيس من أصحاب بدر من الأنصار كمؤخرة له ليحمى ظهره حتى لا يؤتى من خلفه . وجمع مسيلمة جموعه ثم خرج إلى عقرباء وجعل على ميمنته المحكم وعلى ميسرته نهَار الرجال . وقدّم خالد شرحبيلاً وجعل على مقدمته خالد بن فلان المخزومى وعلى ميمنته زيد بن الخطاب وعلى ميسرته أبا حذيفة . وجعل راية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس . وكان فى هذا الجيش عبدالرحمن بن أبى بكر ووحشى الحبشى قاتل حمزة بن عبدالمطلب يوم أحد (وهو الذى قتل مسيلمة) . وكانت أم تميم التى تزوجها خالد بن الوليد بعد مالك بن نويرة تصحبه وتقيم فى فسطاطه ، وقد عهد إليها أن ترعى أسيراً من كبار قوم مسيلمة اسمه مُجاعة أسره المسلمون بالطريق .

إذا أردنا أن نقدر جيش خالد وجدنا أنه خرج من ذى القصة فى أربعة آلاف ، انضم إليهم ألف فارس من طيء ، ثم انضم إليه معن بن حاجز بعدد غير معلوم لنا ممن ثبت على إسلامه من بنى سليم ، وأمده أبو بكر بعدد آخر لا نعلمه قبل أن يتحرك إلى اليمامة ، ثم بعدد آخر عليه سليط بن قيس ، هؤلاء جميعاً لحقوا بشرحبيل بن حسنة الذى كان يقود الجيش الثالث ، والذى لا يقل فى تقديرنا بأى حال عن ألفين . كذلك لحق بخالد من ثبت على إسلامه من بنى

تميم. فهذه سبعة آلاف معلومة بأعدادها، وأمداد غير معلومة العدد من سليم وتميم ومدد الخليفة والردء الذى كان عليه سليط. فنستطيع القول أن خالداً كان يقود فى اليمامة جيشاً لا يقل عن عشرة آلاف، وربما تجاوز ذلك إلى اثنى عشر ألفاً أو نحوها.

والتحم الجمعان بعقرباء. وتفوقت بنو حنيفة حتى أزالوا خالداً عن فسطاطه، واقتحموه وفيه أم تميم ومُجاعة مقيداً فى الحديد، فهموا بقتلها ولكن مجاعة أجارها فتركوها ومزقوا الفسطاط بالسيوف. واستبسل المسلمون وزحفوا فردوا المرتدين إلى حديقة عرفت بحديقة الموت وفيها مسيلمة. واقتحمها المسلمون عليهم وقتلوا مسيلمة وأكثروا القتل فى بنى حنيفة. وقد صبرت بنو حنيفة يومها للمسلمين من مطلع الشمس إلى صلاة العصر[1]. وكانت المصيبة فى المهاجرين والأنصار أكثر منها فى أهل البادية. وقتل من الصحابة وقرّاء القرآن جمع كبير، وبلغ عدد من قتل من المهاجرين والأنصار وتابعيهم بإحسان ١٢٠٠ منهم ٣٦٠ من أهل المدينة وحدها، بينما قتل من بنى حنيفة حوالى عشرون ألفاً. ويبدو أن معركة اليمامة قد استأصلت بنى حنيفة إذ لم يظهر لهم بعد ذلك ذكر فى الفتوح أبداً، ولم يذكر لنا التاريخ بطلاً من بنى حنيفة خلافاً لما ذكر لنا من سائر القبائل. قال خالد بن الوليد: «فما ضرب أحد من بنى حنيفة بعده بسيف[2]».

وجمع خالد ما كان خارج الحصون ثم نادى بالرحيل لينزل على حصون بنى حنيفة. وكلمه مُجاعة فأوهمه أن الحصون مملوءة رجالاً، ولم يكن بها فعلاً إلا النساء والصبيان. وطلب منه الصلح على أن يسلموه ما عندهم من الذهب والفضة (الصفراء والبيضاء) والسلاح وربع السبى والخيل وحائطاً من كل قرية ومزرعة، وأن يعصم دماءهم على أن يسلموا. وقبل خالد. وبذلك انتهت ردة اليمامة أكبر حركات الردة، فنزل خالد وادياً من أودية اليمامة اسمه الوبر فجعل منزله به. وفى قتال مسيلمة قال ضرار بن الأزور الأسدى[3]:

ولو سئلت عنا جَنُوب لخبَّرت	عشيةَ سالت عَقْرباءُ بها الدم
عشية لا تغنى الرماح مكانها	ولا النبلُ إلا المَشْرَفِىّ المصمَّمُ
فإن تبتغى الكفّار غير مليّة	جنوبٌ فإنى تابع الدين مسلمُ

---

(١) ابن الأثير ٢ / ١٣٩.

(٢) عرجون ١٦٤.

(٣) بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ٢ / ٦٢ فى أبيات.
معجم البلدان - مادة عقرباء.

عمليات الجيش السابع[1]

الردة فى البحرين

أما أهل البحرين من ربيعة (وهم بنو عبد قيس وبنو بكر بن وائل) فقد كان أسبقهم إلى الإسلام الجارود بن المُعَلَّى بن عمرو بن حنش حين ارتاد المدينة، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأسلم. ثم أرسل النبى العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى كبير عبد قيس فدعاه إلى الإسلام فأسلم. وأقام العلاء بالبحرين أميراً من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم مات المنذر بعد وفاة الرسول بقليل. وارتد من كان بالبحرين من عبد القيس وبكر بن وائل. قالت عبد قيس: «لو كان محمد نبياً لما مات». وبلغ ذلك الجارود بن المعلى فبعث فيهم فجمعهم ثم قام فخطبهم فقال:

- «يا معشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى به إن علمتمونى ولا تجيبونى إن لم تعلموا.
- سل عما بدا لك.
- تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟
- نعم.
- تعلمونه أو ترونه؟
- بلا بل نعلمه.
- فما فعلوا؟
- ماتوا.
- فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وأكفّر من لا يشهد.

---

(١) لم نذكر عمليات الجيشين الخامس والسادس، لأنه لم يكن لهما دور فى الفتح، بل انتهت مهمتهما فى حروب الردة.

- ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا».

وثبتوا على إسلامهم حين ارتدت سائر ربيعة واجتمعت بالبحرين. ارتد الحُطَم بن ضبيعة أخو بنى قيس بن ثعلبة فيمن تبعه من بكر بن وائل وانضم إليه من غير المرتدين من لم يزل كافراً. ونزل القطيف وهَجَر، وبعث إلى المرتدين فى دَارِين فأقاموا له حتى يحصر عبد قيس المسلمين بينه وبينهم. وأرسل إلى المنذر بن النعمان بن المنذر - وكان يسمى الغَرُور، وهو من آل المنذر الذين ملكوا الحيرة يوماً - فبعثه إلى جُوَاثا وقال له: «اثبت فإنى إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة».

واشتد الحصار على المسلمين من عبد قيس فى جواثا حتى كادوا أن يهلكوا. وفى ذلك قال شاعرهم عبدالله بن حَذَف أحد بنى أبى بكر بن كلاب:

ألا أبلغ أبا بكر رسولا	وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكمُ إلى قومٍ كرامٍ	قعودٍ فى جُوَاثا مُحْصَرينا
كأن دماءهم فى كل فجٍّ	شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنا على الرحمن أنا	وجدنا الصبر للمتوكلينا

العلاء يتحرك

فأرسل أبو بكر العلاء بن الحضرمى على قتال أهل الردة بالبحرين، ولحق به ثمامة بن أثال فى مسلمى بنى حنيفة، وقيس بن عاصم فى مثل عسكر العلاء من بنى تميم. وسلك العلاء الدهناء وبات فى بحبوحتها بين الحنَّانات والعزَّافات عن يمينه وشماله، ثم سار حتى ينزل هجر. وأرسل العلاء إلى الجارود أن يضم قواته فى عبد قيس حتى ينزل عليه من ناحيته. وتجمع المرتدون والمشركون - إلا أهل دَارِين - إلى الحطم. وحفر كل من المسلمين والمشركين خندقاً حول عسكره، فكانوا يتراوحون القتال، ثم يعودون كل خلف خندقه، واستمروا على ذلك شهراً.

وفى ليلة، سمع المسلمون ضوضاء شديدة فى عسكر المشركين، فقال العلاء: «من يأتينا بخبر القوم؟» قال عبدالله بن حذف - وكانت أمه عجلية من بنى عجل -: «أنا آتيكم بخبر القوم». فخرج حتى إذا دنا من خندقهم اشتبهوا فيه، ورابهم أمره فأخذوه، فقالوا له: «من أنت؟» فنسب نفسه إليهم، وجعل يصرخ وينادى على أحد أخواله من بنى عجل ويقول: «يا

أبجراه»، فجاءه أبجر بن بجير، فعرفه وقال: «ما شأنك؟» فأثار عبدالله فيه النزعة القبلية وقال: «لا أضيعن بين اللهازم! علام أقتل وحولي عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة؟ أيتلاعب بي الحُطَم ونزاع القبائل وأنتم شهود؟» فخلصه من أيديهم وهو يقول: «والله إني لأظنك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة». قال عبدالله: «دعني من هذا وأطعمني، فإني قد متُّ جوعاً» فقرب له طعاماً، فأكل ثم قال: «زودني واحملني وجوِّزني (يجعله يجتاز المنطقة) أنطلق إلى طيتي (أهلي)». وكان أبجر قد غلب عليه الشراب ففعل وحمله على بعير وزوده وجوزه، فخرج عبدالله بن حذف حتى دخل عسكر المسلمين، فأخبرهم أن القوم سكارى.

ولم يضع العلاء الفرصة فتحرك من فوره، وخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا مواقعهم وأخذوهم بالسيوف. وأخذ المشركون على غرة فاقتحموا الخندق ليهربوا، فمنهم من تردى فيه ومنهم من نجا ومنهم من قتل أو أسر. واستولى المسلمون على ما في معسكرهم، فلم يفلت رجل إلا بما عليه. أما الحُطَم فقد ضربه أبو ضبيعة فقطع رجله من الفخذ وتركه، فقال الحطم: «أجهز عليّ»، قال: «لا أحب أن تموت حتى أُمضُك» (أتركك تشعر بالمضض)، فكان الحُطَم لا يمر به في الليل أحد من المسلمين إلا قال: «هل لك في الحُطَم أن تقتله؟» حتى مر به قيس بن عاصم التميمي، فقال له ذلك، فمال عليه فقتله[1].

وخرج المسلمون يطلبون الفارين، وقد بلغ أكثرهم دارين - وهي جزيرة في الخليج الفارسي - فركبوا إليها السفن، ورجع آخرون إلى بلاد قومهم. ولما أصبح الصباح قسّم العلاء الأنفال، ونفل رجالاً من أهل البلاء، ثم كتب إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل، فأرسل إلى عتيبة بن النهاس العجلي وإلى عامر بن عبد الأسود وإلى خصفة التيمي وإلى المثنى بن حارثة الشيباني بلزوم أماكنهم، وأخذ الطرق على أهل الردة. وأمر مِسْمَع بمبادرتهم، فمنهم من أناب وعاد إلى الإسلام فقبلوا منه وضموه إليهم، ومنهم من أبى فمنع من الرجوع إلى مقصده فعادوا حتى عبروا إلى دارين، فاجتمعوا بها مع من سبقهم إليها. وأقام العلاء حتى جاءته رسائل من كاتبهم من بكر بن وائل بقيامهم بأمر الله وغضبهم لدينه، فاطمأن إلى أنه لن يؤتى من خلفه من جهة البحرين فبدأ يتجه إلى دارين.

---

(١) وقيل: قتله الحارث بن عوف العبدي أحد عبد قيس، وقيل: بل أخوه حبيب. وقيل: قتله الشماخ الشاعر.

جمع العلاء قواته وخطبهم فقال : «إن الله قد جمع لكم أحزاب الشيطان وشُرَّد الحرب فى هذا البحر ، وقد أراكم من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر ، فانهضوا إلى عدوكم ، ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم» . فقالوا : «نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولاً ما بقينا» . فارتحلوا حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموه رجالاً وركباناً ، على الصاهل والحامل والشاحج والناهق ، الراكب والراجل ، وكان العلاء والمسلمون يدعون : «يا أرحم الراحمين ، يا كريم يا حليم ، يا أحد يا صمد يا حى يا محيى الموتى يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا» . واجتازوا مياه الخليج وهم على ذلك يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر فى بعض الحالات .

هل هى معجزة ؟ هل شق لهم البحر كما شقه الله لموسى ؟ سوف نتطرق لذلك عند التعرض لعوامل نجاح الفتوح ، ونبين أن زمن المعجزات قد انقضى بانقضاء النبوات وأن علينا أن نجد لكل شيء سبباً . ولنا لهذا الحادث تعليل مقبول . فإن دارين جزيرة فى الخليج الفارسى ، وهذا الخليج شأن كل الخلجان يتعرض لظاهرة المد والجزر ، ولابد أن يكون المسلمون قد صادفوا انحسار المد وعبروا والجزر فى أظهر حالاته وهو ما يفهم من ذلك الوصف « ... يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل» . فهى لا تدخل فى باب المعجزات ، ولكنها ظاهرة طبيعية لا تخرق سنن الكون .

طلع المسلمون على المرتدين بالجزيرة التى حصروا أنفسهم فيها فأذهلتهم المفاجأة واقتتلوا قتالاً شديداً فما ترك المسلمون بها مخبراً ، وسبوا الذرارى واستاقوا الأموال فبلغ نفل الفارس ستة آلاف درهم والراجل ثلث ذلك . فلما فرغوا عادوا أدراجهم حتى عبروا رجوعاً كما ذهبوا . رجعوا إلى البحرين وقد انتهت الردة بها ، وعز الإسلام وأهله وذل الشرك وأهله . فمن أراد الرجوع من جيش العلاء رجع ومن أراد المقام[1] أقام .

نكتفى بهذا القدر عما كان من شأن ردة القبائل التى كانت على طريق العراق . أما سائر جيوش قمع الردة فقد قامت بما وكل إليها . فانتهت ردة أهل عمان ومهرة واليمن ، وقضى على ردة الأخابث من عك وعلى ردة حضرموت . سقطت الردة وعادت شبه الجزيرة إلى الإسلام . وتم ذلك قبل انتهاء عام ١١هـ .

---

(١) الطبرى ٣ / ٢٦٠ عن عبيد الله بن سعيد ، عن عمه عن سيف عن إسماعيل بن مسلم ، عن عمير بن فلان العبدى .

آثار حروب الردة

انتهت الردة إثر معارك طاحنة اشتعلت بها شبه الجزيرة جميعها، فلم تكن حدثاً عابراً انتهت وانتهى كل شيء بانتهائه، وإنما تركت في التاريخ آثاراً وآثاراً.

١ - لزوم فتح جبهة جديدة

وأول هذه الآثار أن الردة حدثت في شبه الجزيرة بعد أن صارت لأول مرة منذ بدء الخليقة دولة. فهي إذن حرب أهلية لا نغالي إذا قلنا إنها شملت كل فرد فيها. فقد كان كل فرد واحداً من اثنين، مرتداً أو ثابتاً على إسلامه ولا ثالث لذلك، ولم يكن هذا أو ذاك بمنأى عن تلك الأحداث. فكان بكل مكان من شبه الجزيرة عشائر قتلى، ومصابون من الخارجين على سلطان الدولة، وعائدون إلى الدين الحنيف من بعد ردة، وثابتون على إسلامهم لم يقترفوا ردة. كيف يتعايش هؤلاء جميعاً في صفاء قلب وهدوء نفس في بيئة درجت على طلب الثأر؟ لم يكن بد - من الناحية السياسية البحتة - من فتح جبهة جديدة تشد انتباه الناس كافة واهتماماتهم عما كان يجوز أن يشغلهم في ديارهم بشبه الجزيرة. فكان من أهم آثار الردة أنها ولدت الشعور بضرورة فتح جبهات تُنسي الأمة ما كان من أمرها وتسحب عليه ستائر النسيان لتجمعها من جديد على هدف واحد يصرفها عن تذكر الخلافات داخل شبه الجزيرة، فكانت الفتوح. نعم لم تكن الردة - أو قمع الردة - هي العامل المؤثر على بعث الجيوش إلى الفتح، وإنما كانت فريضة الجهاد لنشر الإسلام هي الباعث الأول بلا ريب، وسنعود إلى هذا عند التعرض لبواعث الفتح، غير أن الردة وما أسفرت عنه هي التي ولدت حركة الفتوح وأقتتها بميقات حتمتها فيه.

٢ - طاقات جاهزة للتعبئة

ومن جانب آخر ما كان في الإمكان أن تبدأ حركة الفتوح وفي شبه الجزيرة ردة. فتمهيد شبه الجزيرة وإخضاع جميع ربوعها لسلطان الدولة، ودخول أهلها جميعاً في عقيدة الإسلام كان أمراً لابد منه ولا محيص عنه حتى يمكن الاتجاه إلى خارجها. إن جزيرة العرب هي قاعدة

الفتوح، فكيف كان يتسنى الفتح إذا لم تكن له قاعدة أو كانت هذه القاعدة مضطربة غير مستقرة. أما الآن فقد أصبح ممكناً تعبئة كل طاقات شبه الجزيرة وحشدها للأعمال الحربية التى تلت. هذه السياسة كانت مما سن رسول الله ﷺ قبل وفاته، أن لا يقبل من عربى يسكن شبه الجزيرة غير الإسلام، وأن يجلى من سوى ذلك من اليهود والنصارى، فتم إجلاء اليهود فى حياته وأوصى بإجلاء نصارى نجران فأجلاهم عمر بن الخطاب مع تعويضهم عن ديارهم تعويضاً مجزياً.

٣ - تدريب لابد منه

أثر آخر كانت له أهميته الكبرى فى الصلة بين الردة والفتوح وقنطرة ما بينهما، ذلك أن معارك الردة بحكم ترتيبها الزمنى واتساع رقعتها وكبر حجمها، كانت أول تدريب حربى عملى لكافة المسلمين فى جزيرة العرب،و كانت أول «مناورات بالذخيرة الحية» سواء فى ذلك أهل الحضر وأهل البادية. كانت تدريباً على كافة شئون الحرب على مستوى الجيوش الكبيرة ابتداء من الحشد والتعبئة العامة إلى التحركات والسير، إلى الالتحام إلى أعمال الدوريات والحصار، إلى المخابرات وتدبير الشئون المعيشية للقوات فرسانها ومشاتها، نسائهم وذراريهم على السواء. كانت الحروب بين العرب قبل ذلك حتى عصر النبوة على مستويات أقل من ذلك بكثير. فكانت الردة أول حرب اشتعلت فيها كل الجزيرة واشترك فى معاركها عشرات الألوف، ولمدة غير قصيرة أدت بنا إلى أن رأينا فى الفتوح مقاتلين من طراز فريد مارسوا الحروب وعركوها. ولا نعدو الواقع إذ نقرر أن أى مقاتل من جيوش الفرس والروم لم ينل من التدريب ما نال المقاتل العربى المسلم. يؤيد ذلك أن كانت نتيجة المبارزة التى تسبق المعارك دائماً فى صالح المسلمين كما سنرى.

٤ - ظهور قيادات حربية

وكما كانت حروب الردة مجالاً لتدريب المقاتلين على كافة المستويات، فقد كانت فرصة مواتية لتكوين وإظهار قيادات حربية كان يتحتم عليها لكى ترقى سلم الخبرة والكفاءة والقيادة، أن تتدرج من قيادة عمليات صغيرة إلى قيادة عمليات أكبر ثم إلى أكبر منها، وهكذا حتى تتيح لهؤلاء القادة أن تنمو مواهبهم وأن يظهروا ويثبتوا وجودهم وجدارتهم.

هذه الأسماء التى ظهرت فى عملية صنع ذلك المجد الذى قل نظيره من أمثال : القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم بن عمرو وزهرة بن الحوية وجرير بن عبدالله والمثنى بن حارثة وعدى بن حاتم والنعمان بن مقرّن وإخوته، وغيرهم كثير وكثير، ما أحوج مكتبتنا العربية اليوم، بل والمكتبة الحربية للعالم كافة إلى من يزيح عن هذه الأسماء تراب الزمن حتى تلمع لأبناء جيلنا نجوماً وشموساً كما أضاءت بهم الدنيا يوماً. لقد ظهر الكثير عن رؤوس القادة مثل : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص، وفى رأينا أنها لم توف ومازال ينقص الكثير لتبيان كفاءاتهم الحربية، ولكن قصرت الهمم أن تقدم لنا ما يناسب هؤلاء الفرسان المسلمين النبلاء. ما كان أدرى خالد بن الوليد بالقعقاع بن عمرو أو عتيبة بن النهاس أو الإخوة العشرة أبناء مقرّن أو غيرهم حتى يستعملهم على أعمال كبيرة فى حرب العراق إن لم يكونوا رشحتهم كفاءاتهم التى ظهرت فى ماضيهم المشرق المشرف فى ميادين الحرب قبل الفتوح؟

بل ما الذى رشح خالد بن الوليد نفسه عند أبى بكر ليسند إليه فتح العراق ثم فتح الشام؟ إنه ماضيه الذى بدأ رويداً فى عصر النبوة، ثم ازداد لمعاناً وإشراقاً فى حروب الردة. فى الردة أخرج أبو بكر أحد عشر جيشاً عليها أحد عشر قائداً، وكانت اختباراً عسيراً لكفاءة هؤلاء، ونتيجة هذا الاختبار هى التى رشحت خالد بن الوليد ولم ترشح عكرمة بن أبى جهل أو شرحبيل مثلاً لقيادة فتح العراق.

لقد كانت حروب الردة مرحلة وسيطة - من حيث الحجم وكل ما يترتب على الحجم - بين غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين المعارك الكبرى للفتوح التى غيّرت شكل الأرض وخريطة العالم مثل اليرموك أو القادسية وما بعدهما. وبالرغم من أنها مرحلة فى تدرج ودرجات فى سلم، فإننا إذا نظرنا للزمن الذى استغرقه هذا التدرج لوجدنا أنه طفرة وأى طفرة.

إننا نجد الدول الكبرى فى عصرنا الذى نعيش فيه كثيراً ما تفتعل الحروب والمعارك، أو تكون بمنأى عنها فتحشر أنفها فيها، مثل الحرب الأهلية فى إسبانيا التى اشتركت فيها قوات من ألمانيا وإيطاليا وانجلترا وفرنسا لتكون ميداناً لتجربة أسلحتها الجديدة واختبار تخطيطها وأفكارها فى الحرب وتدريب جنودها وإنشاء قادة صقلتهم معارك حقيقية. مثل ذلك أفاده المسلمون من حروب الردة. لم يفتعلوها، ولكنها كانت حرباً حقيقية أفادوا منها تجربتهم فى الحروب.

٥- ثقة في النظام وقدراته

ثم لا شك أن النصر الذى أحرزه المسلمون فى تلك الحروب قد منحهم ثقة لا حدود لها بأنفسهم وبقدراتهم وبنظامهم الذى انتصر بهم فى هذه المعارك وانتصروا به. هذه الثقة شىء هام جداً فى مواجهة قوى عاتية أكبر من القوة المادية والعددية للمسلمين حين خرجوا من ديارهم فاتحين. لقد صار مستقراً فى أذهانهم أنه ليس هناك شىء اسمه مستحيل، فإذا كان هناك مستحيل فهو ألا ينتصروا. إذا كان هناك مستحيل فهم صانعو هذا المستحيل.

بل إن هذه الثقة قد جاوزتهم إلى أعدائهم، فلا يسمعون باسم مثل خالد بن الوليد حتى يكون هذا فى حد ذاته مثاراً لرعبهم وعاملاً من عوامل هزيمتهم.

إن لكل قتال جانبيه المادى والمعنوى. الجانب المادى هو القوة بكل مكوناتها من عدد وعدة وعتاد وتدريب وخبرة وجندية وقيادة ومخابرات... إلخ. والجانب المعنوى يشمل الإيمان بالهدف والروح المعنوية والحالة النفسية... إلخ. ونستطيع أن نؤكد أن مصير أى معركة يتحدد فى قلوب المتعاركين فيها قبل أن يتحدد على أرضها. وقد خرج المسلمون فاتحين يملؤهم الأمل والثقة فى النصر. يدعم ذلك ويؤكده سوابق من الردة رأوا فيها الحلم حقيقة والأمل واقعاً.

من هنا نرى أن معارك الردة كانت ذات قيمة فنية لا تقدر. وإذا كان التاريخ قد نعى كثرة من قتل فيها من أعلام المسلمين وحفّاظ القرآن، فإننا نرى أنه كان لابد من هذا سداداً لثمن خبرة الحرب التى اكتسبها المسلمون، فمكنت لهم من أعدائهم وذللت لهم النصر على الفرس وعلى الروم على السواء. فمن حيث كان شهداء الردة ثمناً دفعته الأمة نقول: إنهم لم يكونوا لكسب حروب الردة فحسب، وإنما كانوا ثمناً لقمع الردة وللفتوح بعدها. كانوا ضريبة الحياة لهذه الأمة وانسياح الإسلام فى الشرق والغرب .



الباب السابع

حملة خالد بن الوليد

«ثمانية عشر ألفاً يحبون الموت»



القائد العام خالد بن الوليد

القائد المشهور ذائع الصيت على مدى القرون والأجيال، الذى خاض عشرات المعارك، منها الكبير الحاسم، فى جزيرة العرب والعراق والجزيرة والشام، لم يفقد منها معركة واحدة. وصفه داهية الحرب المعاصر له عمرو بن العاص[1] فقال: «له أناة القطاة ووثوب الأسد». كان خالد جندياً ممتازاً وقائداً ممتازاً، غنيًّا متقشفاً راسخ العقيدة، شديد الثقة بربه وبنفسه وبعمله وبكفاءة معاونيه وجنده، خبيراً بهم فخوراً بهم، مقداماً. المسئولية ضالته أنى وجدت كان الأحق بحملها، وكان إذا تولى مسئولية منح نفسه أوسع السلطات لإنفاذها، وإذا ولاها أحداً من معاونيه، منحه أيضاً أوسع السلطات للتنفيذ.

كان عميق النظر فى الحرب، ذكياً، فطناً، لماحاً، سريع الحركة، نهازاً للفرص، قوى الإرادة، جسوراً موفقاً فى جسارته، خطيراً على أعدائه، ميمون الطائر مباركاً له، عالى اللياقة البدنية ومبارزاً جيد التدريب على كافة أسلحة عصره، مبتكراً يقظاً على المجالين التكتيكى والاستراتيجى. كان ذا أعصاب فولاذية، لا يبطره الفوز ولا يهزه تحرج الموقف، قادراً على أن يتخذ بسرعة الموقف الذى يصوبه التاريخ إذا ما درسه خبراء الحرب ملياً بعد قرون وأجيال، فاكتسب من الماضى أمجده، وأدرك فى عصره ما انتهى إليه علم الحرب الحديث. كان يعرف هدفه ويحدده ويحافظ عليه، هجومياً فى كافة عملياته، قادراً على ابتكار المفاجأة لأعدائه، مفاجآت مذهلة مؤلمة تشل تفكيرهم وتعجزهم عن المقاومة رغم تفوقهم العددى، يدرك قيمة الحرب النفسية وأثرها فى الميدان، قدرته فائقة على توفير الحشد الذى يلزمه، مقتصداً فى القوى، فلا يدفع إلى معركة بأكثر مما تستحق، آخذاً بمبدأ توفير الأمن لقواته حتى لا يؤتى من وجه لم يحسب حسابه، متمتعاً بمرونة نادرة وخفة حركة شاذة محققاً للتعاون والتنسيق بين كافة الوحدات التابعة لقيادته. أما عن الروح المعنوية التى كان يتمتع بها أو يستطيع أن يبثها فى جنده، فلم يكن لها حدود. كذلك أثبت خالد أنه فى مجال الإدارة لم يكن بأقل منه فى ميدان الحرب. لذلك كله كان المسلمون يحبون أن يقاتلوا معه، وأن يقودهم خالد.

(١) قادة فتح العراق ١٥٦ عن اليعقوبى ٢ / ١٠٨.

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن قريش. يلتقى برسول الله ﷺ في جدهما مرّة، من قبيلة قريش التى سكنت مكة وقامت على أمر الكعبة بيت الله الحرام. وقد كان عرب شبه الجزيرة يعظمونه فى الجاهلية، كما عظموه بعد ذلك فى الإسلام. وبهذا البيت اكتسبت قريش بين قبائل العرب منزلة خاصة. وتقاسمت البطون الكبرى من قريش المسؤوليات الهامة فى مكة.

بنو هاشم، كانت لهم سقاية الحاج.

بنو أمية، كانت لهم راية الحرب يخرجونها عند القتال.

بنو نوفل، كانت لهم الرفادة، وهى إعانة الحاج بالمال.

بنو عبدالدار، كانت لهم السدانة والحجابة واللواء.

بنو أسد، كانت لهم المشورة.

بنو تيم، كانت لهم شئون الديات والمغارم.

بنو مخزوم - عشيرة خالد بن الوليد، كانت لهم القبة، يضربونها ليجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش، كما كانت لهم الأعنَّة، وهى قيادة الفرسان.

بنو عدى، كانت لهم السفارة.

بنو جمح، كانت لهم الأيسار والأزلام.

بنو سهم، كانت لهم الحكومة (التحكيم) والأموال المحجرة.

وظلت هذه الوظائف متوارثة فى كل بطن من بطون قريش حتى ظهور الإسلام. ويذهب العقاد إلى أنه لم تكن بينها سلطات فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات هى: السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار، والسلطة السياسية لأمية، والسلطة الحربية لمخزوم.

واشتدت المنافسة على شرف قريش بين بنى هاشم وبنى مخزوم، حتى بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم بالرسالة، فكان طبيعياً أن نجد بنى مخزوم من ألد خصوم الدعوة إلى الإسلام. قال أبو خالد - الوليد ابن المغيرة -: «أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين؟» ونزلت فى عناده للرسول والرسالة عديد من آيات الكتاب الكريم. وكان الوليد كثير المال، قدر ماله باثنى عشر ألف دينار وكان صاحب بساتين فيما بين مكة والطائف. وكان يكسو

الكعبة عاماً وتكسوها قريش مجتمعة عاماً. وكان لبنى مخزوم وحدهم فى وقعة بدر ثلاثون فرساً من مائة لقريش كلها، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد. فى هذا الثراء والغنى نشأ خالد بن الوليد فلم يذكر أحد من الرواة أو المؤرخين أنه كان ذا عمل يقوم به قبل إسلامه. لعل هذا، بالإضافة إلى لياقته البدنية فضلاً عن مسئولية بنى مخزوم عن القبة والأعنة، قد أتاح له الانصراف إلى هوايته المفضلة من ممارسة الفروسية وركوب الخيل والتدرب على استخدام السيف والرمح والقوس. ولاشك أن بروز خالد فى ذلك كان واضحاً حتى اسلمته قريش شئون حربها. كان خالد فى حوالى العشرين من عمره حين بعث الله محمداً برسالة الإسلام، فوقف من الإسلام والمسلمين موقف أبيه.

أثر أحد فى خالد

فى السنة الثالثة من الهجرة وقعت موقعة أحد، فجاءت قريش بخيلها ورجلها تريد المسلمين، كانوا ثلاثة آلاف فيهم مائتان من الفرسان، وكان خالد على هذه الخيول، وكان المسلمون ألفاً ليس فيهم سوى فارسان، فأسندوا ظهورهم إلى جبل أحد كموقع دفاعى وجاءت إليهم قريش من بطن الوادى. كان خالد قد بلغ السادسة والثلاثين، وكانت أحد أولى معاركه. ومن رأينا أنها تركت فيه من الأثر والانطباع ما لازمه فى كافة حروبه بعد ذلك. ذلك أنها كانت تجربة وجد فيها خالد نفسه واكتسب أسلوبه الخاص به فى القتال. ذلك أن المسلمين أحرزوا نصراً على المشركين شرعوا على آثاره يولون الأدبار والمسلمون يطاردونهم، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد وكل حماية ظهر المسلمين إلى بعض الرماة الذين اتخذوا أماكنهم على الجبل. فما أن رأى هؤلاء قريشاً تنهزم تاركة متاعها وأدواتها فى الميدان، وإخوانهم المسلمين يتعقبونهم ويجمعون غنائمهم حتى تركوا أماكنهم للمشاركة فى ذلك. ولم يفت خالد أن يلتقط الموقف وقد اكتشف انكشاف ظهر المسلمين بنزول حماة الجبل من عليه. فدار بالميمنة وارتقى الجبل الخالى من الدفاع بخيله وأتى المسلمين من خلفهم يضرب ويقتل، وعاد فُرَّار قريش لمواجهة المسلمين وانقلبت هزيمة المشركين نصراً ونصر المسلمين هزيمة.

هذه التجربة الأولى لخالد تعلم منها دروساً. فإن ذلك الموقف الذى اتخذ فيه خالد قراره فى برهة، قد لا تقاس بالثوانى، وما أسفر عنه من نتائج لابد وأنه ظل يتأمله ويحلله ويدرسه بعد ذلك بينه وبين نفسه، بل لابد وأنه كان أيضاً محل مناقشة ومدارسة بينه وبين سادة قريش

وفرسانها من أمثال عمرو بن العاص وأبى سفيان وضرار بن الخطاب وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم، بحيث تبلورت نتيجة أحد فى نفس خالد إلى تجارب ودروس ذات عناصر محددة ظهرت بعد ذلك فى المعارك التى خاضها.

تعلم أن العبرة فى النصر أو الهزيمة، إنما يكون بالنتيجة النهائية للمعركة وليس ببعض مراحلها، ومن ثم فإن تحرج الموقف لم يكن ليحرجه أو يذهب بلبه، كما وأن بعض الظفر لم يكن لينشيه ويبطره فيركن إليه.

وتعلم أن يحتفظ بشجاعته وهدوء نفسه وصفاء تفكيره، وإن دارت عليه الدائرة وبدا الموقف معقداً، مطمئناً إلى أن هذه الدائرة إنما هى مرحلة.

وتعلم أن لا يطمئن إلى أنه أحرز النصر إذا دارت الدائرة له على عدوه حتى يجعل من ذلك النصر نتيجة نهائية للمعركة، ثم للحرب كلها.

وتعلم - وهو الأهم - أنه فى المراحل الحاسمة من المعارك حين تخرج المعركة عن جمودها وتبدأ فى الحركة له أو عليه، أن نوعاً من الخلل يحدث فى صفوف كل من الطرفين، وأن عليه أن يلمح ذلك الخلل فى صفوف عدوه، ويبادر إلى دس خابوره ودق إسفينه فى الوقت المناسب لذلك تماماً. فإن لم يفعل فاتته الفرصة. كان خالد يرى ذلك حتى وإن كان الموقف العام فى صالح خصمه... كان يرى أنه تأتى لحظات ربما تقاس بالدقائق، أو بالثوانى تكون مناسبة تماماً لانتزاع الموقف برمته.

هذا الدرس الذى خرج به خالد من أحد، كان يتيح له استخدامه والاستفادة منه ما جبل عليه من كفاءة حربية وشجاعة لا تهتز وبديهة لا تخونه وقوة عضلية ولياقة بدنية يستطيع أن يعتمد عليها. بهذه النظرية فى الحرب، استطاع خالد أن ينتزع النصر فى اليمامة بعد أن اكتسحت جنود مسيلمة فسطاطه الذى لابد أن كان مقاماً فى قلب المسلمين، وبه امرأته أم تميم، وهتكوه بأسيافهم. وبها استطاع أن ينتزع النصر من الروم على ضفاف اليرموك، وقد اقتحمت فرسانهم فسطاطه أيضاً. ثلاث معارك كبرى فى حياة خالد وتاريخ الإسلام، أحال نصر عدوه المؤكد إلى هزيمة محققة اعتماداً على أسلوبه الذى اكتسبه أول مرة يوم أحد، القائم على البحث عن الخلل فى صفوف عدوه المنتصر، واختطاف الموقف بسرعة. ثلاث معارك هامة لا تذكر دون أن يذكر خالد.

خالد مع الأحزاب

فى العام الخامس من الهجرة، تحزبت قبائل الشرك بتحريض من اليهود، وزحفت إلى المدينة فى عشرة آلاف، وهو عدد ندر أن يجتمع لجيش عند العرب، وكان خالد من قادته. وخشى المسلمون مغبة ذلك الزحف، فأشار سلمان الفارسى على رسول الله ﷺ بحفر الخندق فى الجانب المكشوف من المدينة. وفوجئ المشركون حين بلغوا المدينة بهذا الخط الدفاعى فوقفوا أمامه ووقف المسلمون قبالتهم خلفه، فأوقفوا هذا الزحف الرهيب عن بلوغ مرامه واقتحام يثرب. ووقفت الأحزاب أياماً فى زمهرير الشتاء قبل أن تعود أدراجها يائسة. فى هذه الأيام التى مكثتها تبادلت الرمى بالنبال مع المسلمين، وتناوب المشركون مناوشة المسلمين، فكان أبو سفيان وأصحابه يوماً، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص يوماً، وهبيرة بن وهب يوماً، وعكرمة بن أبى جهل يوماً، وضرار بن الخطاب يوماً.

وفى السنة السادسة خرج رسول الله وأصحابه من المدينة إلى مكة للعمرة فى غير موسم الحج ووقفت قريش تمنعه من دخولها، وكان على خيلها يومذاك خالد بن الوليد. وانتهى الأمر باتفاق بين النبى وبين قريش على أن ينصرف المسلمون من عامهم هذا على أن يعودوا فى العام التالى، فتخرج قريش من مكة ويدخل النبى والمسلمون ثلاثة أيام ليس معهم إلا السيوف فى جرابها، وغضب خالد من ذلك الصلح وأقسم أن يخرج من مكة حتى لا يرى المسلمين يدخلونها.

إسلام خالد

اختلفت الروايات حول قصة إسلام خالد وتاريخ ذلك. ونثبت هنا ما رواه ابن سعد فى طبقاته عن الحارث بن هشام كما سمعها من خالد. قال: «لما أراد الله بى من الخير ما أراد، قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى، وقلت قد شهدت المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم، فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمداً سيظهر. فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية، خرجت فى خيل قريش فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه بسعفان، فقمت بإزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر إماماً، فهممنا أن نغير عليه فلم يعزم لنا، وكان فيه خير، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع

ذلك مني موقعاً وقلت : الرجل ممنوع ، وافترقنا ، وعَدَلَ عن سنن خيلنا ، وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية قلت في نفسي : «وأى شيء بقى ، أين المذهب ؟ أ إلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده . أفأخرج إلى هرقل ، فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية ؟ أفأقيم في عجم أو أقيم في داري فيمن بقى» ؟ وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضاء وتغيبت فلم أشهد دخوله . وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في تلك العمرة ، فطلبني فلم يجدني فكتب إليَ كتاباً ، فإذا فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام يجهله أحد ؟ ! وقد سألني رسول الله ﷺ ، فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأت به الله . فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته مع المسلمين على المشركين ، كان خيراً له ولقدمناه على غيره . فاستدرك يا أخي ما فاتك فقد فاتتك مواطن صالحة» .

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله ﷺ ، ورأيت في النوم كأني من بلاد ضيقة جدبة ، فخرجت إلى بلد أخضر واسع ، فقلت : إن هذه الرؤيا حق . فلما قدمت المدينة قلت : لأذكرها إلى أبي بكر ، فذكرتها . فقال : هو مخرجك الذى هداك للإسلام والضيق الذى كنت فيه الشرك .

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : «من أصاحب إلى محمد ؟» فلقيت صفوان بن أمية فقلت : أما ترى ما نحن فيه وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرف محمد شرف لنا . فأبى عليَ أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً . فافترقنا وقلت : هذا رجل موتور يطلب وتراً ، قتل أبوه وأخوه ببدر . ولقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، وقال لي مثل ما قال صفوان ، فقلت له : فاطْوِ ما ذكرت لك ، قال : لا أذكره .

وخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي تخرج إلى أن ألقى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فقلت : إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أريد ، ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما عليّ وأنا راحل ساعتي . فذكرت له ما صار الأمر إليه ، وقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب لو صب عليه ذَنوب ماء خرج . وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفج مناخة . وواعدني إن سبقني إلى يأجج أقام ، وإن سبقته أقمت عليه (يأجج على ثمانية أميال من مكة على طريق المدينة) .

وخرجنا جميعاً فأدلجنا سحراً فلما كنا بالهدة إذا عمرو بن العاص فقال : مرحباً بالقوم . قلنا : وبك ؟ قال : أين مسيركم ؟ فأخبرناه . وأخبرنا أنه يريد النبي ﷺ ليسلم . فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ أول يوم من صفر سنة ثمان ، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله ﷺ ، فقال : «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها» . ثم لبست من صالح ثيابي وعمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيني أخي ، فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ أخبر بقدومك ، فسر به وهو ينتظر . فأسرعت المشي ، فلما طلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة ، فرد عليّ السلام بوجه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : «الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير» . وبايعت رسول الله ﷺ وقلت : استغفر لي كل ما أوضعت فيه من حق عن سبيل الله . فقال : «إن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله» . قلت : يا رسول الله على ذلك . فقال : «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع من حق عن سبيلك» ثم تقدم عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فأسلما وبايعا الرسول ، فوالله ما كان رسول الله من يوم أسلمت يعدل بي أحداً فيما يحزبه» .

في مؤتة

وفي نفس هذا العام الثامن كانت غزوة مؤتة . فقد بعث رسول الله ثلاثة آلاف وجعل أميرهم زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبدالله بن رواحة وكان خالد في هذا البعث . ولما بلغوا تخوم الشام وجدوا الروم قد استعدوا لهم بمائة ألف خلاف من انضم إليهم من عرب الشام . وتردد المسلمون بين الالتحام أو الإحجام فلم يكن هناك أي تكافؤ بين القوتين ، ثم اختاروا الالتحام فاقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيه زيد بن حارثة برماح الروم ، فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل ، ثم أخذ الراية ابن رواحة فقاتل حتى قتل ، فأخذ الراية ثابت بن أرقم وصاح في الناس : «يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم» قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد فأخذ الراية ودافع الروم حتى جمع المسلمين وقد كادوا أن يتشتتوا ، ثم بدأ يتراجع بهم . وأرخى الليل سدوله فحال بين الفريقين والقتال . وقدر خالد الموقف ورأى أنه لابد من الانسحاب فأصبح وقد بدل أوضاع قواته فجعل الميمنة في الميسرة والميسرة في الميمنة والمقدمة في المؤخرة والمؤخرة في المقدمة حتى يلقى في روع الروم أنها غير قوات الأمس وأن أمداداً قد وصلت . واقتتل يومه ذاك حتى الليل وهو ينسحب إلى قرية مؤتة ثم قفل راجعاً إلى المدينة . ووقف رسول الله على منبره فأنهى إلى المسلمين أخبار

جيشهم فى كلمات حزينة إلى أن قال: «... ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء، هو أمّر نفسه... اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره» فمنذ يومئذ سمى خالد سيف الله.

كانت مؤتة أول مشاهد خالد فى الإسلام ولم يكن ممن ولاهم رسول الله ﷺ من أمراء الجيش، ولكن الظروف فرضته لما ادْلَهَمَّ الخطب وتأزم الأمر فوجد المسلمون أن الموقف يتطلبه. وإذا كان قد اكتسب شهرته فى التاريخ من مواقعه، لا سيما ما كان منها بعد ذلك فى حروب الردة وفتوح العراق والشام، فقد كان انتخابه قائداً فى مؤتة فى ظروف كانت تجعلها معركة ميئوساً منها شهادة مبكرة ممن شهدها بأحقيته وجدارته. ليس بين أيدينا ما يفيدنا عن السبب فى أن رسول الله ﷺ لم يضع خالداً فى قائمة أمراء الجيش. أفكان ذلك لأن الثلاثة الذين عينهم الرسول أكفأ فى مجال الحرب من خالد من وجهة نظره ﷺ؟ لا نعتقد ذلك بل نستبعده من افتراضاتنا. فهل كان لسابقتهم على خالد فى الإسلام؟ وأيضاً لا نعتقد أن يكون ذلك هو السبب فمناصب الحرب لا تكون بالسبق إلى الإسلام بل بالسبق إلى استكمال أسباب الغلب. ولقد استخدم أبو بكر خالداً لقمع الردة ولم يستخدم عبدالرحمن بن عوف مثلاً وهو أقدم سابقة من خالد. فما السر إذن أن يُترك قائد كبير فى جيش يحتاجه دون منصب له فيه. هل كان اختباراً وتمحيصاً وإثباتاً لحسن إسلام خالد أو ترويضاً له؟ ربما كان ذلك والله أعلم. فقد كان صد خالد عن الإسلام يستند إلى كبريائه وإلى صلف بنى مخزوم، والإسلام يساوى بين المسلمين، فهم سواسية كأسنان المشط، فليكن خالد جندياً فى جيش يقوده زيد بن حارثة عتيق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أثبت خالد جدارته وأهليته كمسلم عقيدة وقائد حرب، وأثبت أنه لم يدخل الإسلام طمعاً فى شرف أو جاه بعد أن بدأ الدهر يولى قريشاً ظهره.

وأمام انسحاب خالد، نقف وقفة قصيرة. فهل يعتبر الانسحاب هزيمة؟ بذلك قال صبيان المدينة فاستقبلوا الجيش العائد بالتراب يحثونه فى وجوههم ويقولون لهم: يا فرّار، وهكذا يظن بسطاء الناس عادة، ومن ليس له بالحرب علم ولا معرفة. ولكن كثيراً ما يكون الانسحاب الناجح أكبر نصر للجيش، وأعظم عمل لقائده إذا كان فى مأزق لا أمل فيه، فيكون الانسحاب الذى هو نجاة للقوات من خطر الإبادة إلى أن يتهيأ لها ظرف أفضل هو أعظم نصر. وبذلك قال رسول الله ﷺ: «بل الكرار إن شاء الله». ولقد كان انسحاب خالد بالمسلمين من مؤتة عملاً ينطوى على الصواب كل الصواب من الناحية الحربية، كما ينطوى

على الشجاعة كل الشجاعة من الناحية الأدبية إذا أخذنا فى اعتبارنا أن وراءه بيئة تلتهب بالحماس، وقد استشهد قبله ثلاثة قادة.

فتح مكة

وفى العام الثامن من الهجرة أيضاً حدث فتح مكة. فقد نقضت قريش عهدها مع رسول الله فقرر فتح مكة، وحشد حشوده وكتب إلى من أسلم من قبائل أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، كما اجتمع إليه أصحابه من المهاجرين والأنصار، فكانوا جميعاً عشرة آلاف. وكان النبى حريصاً على أن يتم الفتح دون دماء، فاعتمد لذلك على المفاجأة وتكتم فى تحركاته وما اعتزم عليه. خرج المسلمون من المدينة فى العاشر من رمضان. وخرج بعض القرشيين للاستطلاع، فرأوا جمعاً لم يجتمع للمسلمين من قبل. وقبيل مكة عند ذى طوى عبأ النبى ﷺ جيشه، فقسمه إلى أربع لواءات، كان خالد بن الوليد على واحد منها ليدخل مكة من الليط فى جنوبها، وكان معه من القبائل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة. وكان الزبير بن العوام على لواء ثان ليدخل مكة من كدى بشمالها، وكان سعد بن عبادة على الأنصار ليدخلها من كداء بغربيها، ثم كان أبو عبيدة بن الجراح ليدخلها من أعلاها بحذاء جبل هند. وأمر النبى كل الفرق ألا تقاتل إلا إذا أكرهت على ذلك. وتصدى عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فى بعض من اجتمع إليهم لصديقهم القديم خالد بن الوليد، وناوشوه فاشتبك معهم وقتل منهم ثلاثة عشر، كما قتل فى هذا القتال ثلاثة من المسلمين. وطلع الرسول ثنية كداء، فنظر إلى جهة خالد ورأى ما يحدث فقال: «ما هذا وقد نهيت عن القتال؟» قالوا: «نظن أن خالداً قوتل وبدىء بالقتال، فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك». وسأل رسول الله ﷺ خالداً عن ذلك فقال: «هم بدأوا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا بالنبل، وقد كففت يدى ما استطعت». قال: «قضاء الله خير».

بعد مكة

فتحت مكة، وطهّر المسلمون الكعبة من الأصنام فحطموها، ثم أرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد فى ثلاثين فارساً إلى بطن نخلة حيث كان هيكل العزى من أكبر أصنام قريش، فهدمها خالد فى الخامس والعشرين من رمضان. وفى شوال أرسله النبى أميراً لسرية فى

ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار داعياً - ولم يبعثه مقاتلاً - إلى بنى جذيمة بن عمار بن عبد مناة بن كنانة بأسفل تهامة. فلما رأوا خالداً أخذوا أسلحتهم فقال لهم خالد: «ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا». فقال رجل منهم اسمه جحدم: «ويلكم يا بنى جذيمة إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق، ووالله لا أضع سلاحى أبداً». قال له رجال من قومه: «يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وآمن الناس». ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم سلاحهم، فأمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف ليقتل منهم، فأنكر عليه ذلك عبدالله بن عمر بن الخطاب، فزجره خالد فسكت عبدالله، فأنكر عليه سالم مولى أبى حذيفة وراجعه واشتد الجدل بينهما، ثم نفذ خالد ما أراد فقتل منهم رجالاً وجحدم يقول: «يا بنى جذيمة ضاع الضرب قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه». وانتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ودعا على بن أبى طالب وأعطاه مالاً وقال له: «اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك». وأدى على إليهم ديات من قتل وما أصيب من أموال، وبقى معه من المال شىء فقال لهم: «أبقى دم أو مال لم يؤد لكم؟» قالوا: «لا». قال: «فإنى أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون». وسرَّ رسول الله لتصرف على وقال له: «أصبت وأحسنت». وأثار تصرف خالد كثيراً من النقد والجدل بين متهم له مغلظ عليه وبين مدافع عنه ومحاول تبرير تصرفه. ويغنينا عن الخوض فى ذلك ما كان من رسول الله ﷺ: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». وودى الدماء والأموال، ولكنه ظل يستعمل خالداً.

وبعد فتح مكة علمت هوازن أنها غير متروكة، فعزمت على أن تبدأ هى بغزو مكة. واتجه الرسول إلى غزوها فى ديارها إلى الجنوب الشرقى من مكة، وخرجت هوازن ومعها ثقيف، كلهم ثلاثون ألفاً، حتى نزلوا حنيناً وهو وادٍ ضيق من وديان تهامة يقودهم مالك بن عوف. وخبأ مالك خيله ومن ورائها مشاته فى شعاب الوادى وعلى رؤوس الجبال. وكان خالد فى مائة فرس هى خيل بنى سليم مقدمة لجيش المسلمين الذى بلغ اثنى عشر ألفاً. فلما انحدروا فى وادى حنين انصبت عليهم هوازن من مخابئها والمسلمون حُسَّر ليس عليهم دروع، وهوازن قوم رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً لا يكادون يخطؤون فبغتتهم، واضطرب أمر المسلمين فولوا الأدبار حتى قام فيهم النبى ينادى: «إلىَّ أيها الناس، أنا رسول الله».

بطبيعة الحال كان خالد ممن دهمتهم المفاجأة، وقد انسحب مع المقدمة. وفى موقف كهذا لم يكن بد من ذاك حتى لا يبقى بين المطرقة والسندان، فلما ناداهم الرسول عاد خالد ومن كان معه، وقاتل أشد قتال وقاتلوا معه حتى أصيب بجراحات كثيرة، وأتاه النبى ﷺفى رحله بعد أن هزمت هوازن ليعرف خبره ويعوده فنفث فى جرحه فانطبق. ورغم هذه الجراح ظل خالد على رأس ألف كمقدمة للمسلمين فى زحفهم نحو ثقيف. حاصروها زمناً فى حصونها فلم يتسن لهم فتحها، فأذن الرسول للناس بالرحيل. وقد جاءت ثقيف بعد ذلك إلى النبى مسلمة.

وفى رواية أن الرسول أرسل الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليجمع صدقاتها، فخرجوا يستقبلونه، فظن أنهم خرجوا لقتاله، فرجع وأخبر الرسول بذلك، فأرسل إليهم خالد بن الوليد فوجدهم على الإسلام. ثم أرسله النبى فى أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبدالملك صاحب دومة الجندل، وكان نصرانياً، فزحف خالد إليه من تبوك وفاجأه فى دومة الجندل فأسره وقتل أخاه حسان، ثم صالحه على ألفى بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح، ودخل المسلمون الحصن وعاد خالد إلى الرسول بأكيدر(١).

وبعث النبى خالداً إلى ثقيف ليهدم اللات فأمر خالد المغيرة بن شعبة الثقفى أن يهدمها بنفسه، فأخذ المعول وسواها بالأرض وحفر أساسها وأخرج ترابها.

ثم بعثه النبى فى أربعمائة إلى بنى الحارث بن كعب بنجران من أرض اليمن وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً قبل أن يقاتلهم، فإن استجابوا فليقم فيهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه، وإن أبوا فليقاتلهم. فأسلموا ولم يقاتلوا وأقام خالد بينهم بما أمره به رسول الله ﷺ. ثم أرسل إليه النبى أن يعودوا ومعهم وفد منهم ففعل.

وتوفى رسول الله، وارتد من ارتد من العرب، وأخرج أبو بكر جيوشه لردع الردة، فكان خالد قائد جيشه الأول وهو أكبرها وأهمها جميعاً. قال أبو بكر: «إنى سمعت رسول الله ﷺيقول: نعم عبدالله أخو العشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سله على الكفار».

(١) الإصابة ٢٢٠١.

المثنى بن حارثة
قائد عام آخر

قبائل العرب كانت تحج إلى مكة، فكان الرسول يعرض دعوته عليها. وجاءت جماعة من بني شيبان، فتلا الرسول عليهم: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾[1] ثم تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ...﴾[2] فقال المثنى: «قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك وأعجبني ما تكلمت به، ولكن علينا عهد من كسرى لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً، ولعل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما يكرهه الملوك. فإذا أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي بلاد العرب فعلنا». فقال النبي ﷺ: «ما أسأتم إذا أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه بجميع جوانبه». ثم نهض النبي.

وبنو شيبان قبيلة المثنى، أحد فروع بكر بن وائل من ربيعة من معد بن عدنان. فمن ربيعة كانت أسد، ومن أسد كانت جديلة، ومن جديلة بكر بن وائل بن قاسط، ومن بكر كان شيبان بن ثعلبة جد المثنى. والمثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعيد بن ذهل بن شيبان. وكانت ديار ربيعة بين الجزيرة والعراق إلى البحرين على شواطىء الخليج الفارسي. ولم تكن لهم مدن ولا قرى، وإنما كانوا أصحاب مضارب وخيام، وأهل حلّ وترحال.

وكانت في الجاهلية حروب ووقائع بين بكر وتغلب ابني وائل، واستمرت حتى كانت الغلبة لبكر على تغلب، فتفرقت تغلب بينما انتشرت بكر فيما بين اليمامة والبحرين إلى أطراف السواد، ومن الأبلة إلى هيت. اقتسمت ربيعة تلك المناطق تجاور بني تميم وتتداخل معها أحياناً. وكانت منازل ربيعة كثيراً ما يلحقها الجدب، بينما كانت منازل تميم (من مضر) في نجد بشمال جزيرة العرب وتمتد إلى البصرة، كانت أكثر خصباً، ولذلك كثيراً ما كانت ربيعة تغير على جيرانها من تميم، فاشتعلت الحرب بينهما اثنتى عشرة مرة، فازت تميم منها بست وفازت ربيعة بست. في هذه البيئة نشأ المثنى وساد قومه، فقد كان أكثرهم

---

(١) سورة الأنعام ١٥١.

(٢) سورة النحل، الآية ٩٠.

شجاعة وفروسية وعزيمة وصدقاً وجلداً وصبراً وإقداماً ونظراً فى الحروب. ومن المؤسف أن ذلك الفارس القائد النادر لا نكاد نجد شيئاً عن شخصه خارج نطاق معاركه وفتوحه.

وكان للفرس سلطان فى البحرين وعمان واستوطنهما بعضهم، وكثيراً ما وقع الصدام بينهم وبين بنى شيبان. وقد انتصر بنو شيبان انتصارهم الكبير على الفرس فى ذى قار من أرض العراق. واكتشف المثنى بأس قومه فى القتال كما اكتسب جرأة على قتال الفرس واقتحام سوادهم. يقول ابن الأثير: إن الإسلام جاء وليس فى العرب أعز داراً ولا أمنع جاراً ولا أكثر حليفاً من بنى شيبان.

وقد عاش مع المثنى أخواه المعنى ومسعود وشاركاه معاركه الرائعة ضد الفرس. ولزوج المثنى ذكر فى التاريخ، شهدت معه معاركه ضد الردة فى شبه الجزيرة وضد الفرس فى العراق وهى سلمى بنت خصفة التيمية. وفى رواية أنها وفدت مع المثنى على رسول الله ﷺ وأسلمت معه، فهى على هذا صحابية.

ولما انتقل المثنى إلى رحاب الله، وقد كان ينتظر قدوم سعد بن أبى وقاص إلى العراق، ترك له وصيته بأن يقاتل الفرس على حدود أرضهم، ونقل المعنى وصية أخيه إلى سعد، وكانت تصحبه سلمى فخطبها سعد من المعنى فقبل، وصارت هذه المرأة المسلمة المجاهدة زوجاً لسعد بن أبى وقاص، وشهدت معه القادسية.

وحين استطرد المثنى فى تعقبه المرتدين حتى دخل إلى مناطق السيادة الفارسية الكاملة من حوض الفرات، ترامت أنباؤه إلى الخليفة أبى بكر فى المدينة فقال:

«من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟!»

وكان هناك قيس بن عاصم المنقرى، حكيم بنى تميم، خصوم بنى شيبان قبل الإسلام فقال:

«هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد! هذا المثنى بن حارثة الشيبانى».



الباب الثامن

اكتساح العراق الجنوبي



كان عرب البحرين من ربيعة يتاخمون العراق، وكثيراً ما دخلوه ولهم عليه جرأة. وكان منهم من يعرف مسالكه. ولعلنا نذكر أن فرات بن حيان الذى كان دليل قريش فى جاهليتها لتجارتها مع الحيرة بالعراق ومع الشام، وأسرته سرية زيد بن حارثة، كان عِجْلياً من بنى عجل من بكر بن وائل. ولعلنا نذكر أن وقعة ذى قار التى كانت بين ربيعة والفرس فى الجاهلية كانت على صحراء العراق. وأخيراً فى العام الحادى عشر للهجرة، سار المثنى ابن حارثة الشيبانى فى مطاردته المرتدين، حتى دخل جنوب العراق.

وإذ انتهت حروب الردة سار المثنى حتى قدم المدينة على أبى بكر رضى الله عنه، وطلب منه التصريح بعمليات[١] حربية بهذه الجهات فقال له: «أمِّرْنى على من قِبَلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفيك ناحيتى»، فقبل أبو بكر ذلك. ورجع المثنى فجمع قومه وأخذ يغير على أسفل العراق، تارة على نواحى كسكر فيما بين دجلة والفرات وتارة على أسفل الفرات. وكان المثنى ذا نظر حربى ثاقب، فأعمل فكره فى الأمر، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكر بالمدينة يسأله المدد ويقول: «إن أمددتنى وسمعت بذلك العرب أسرعوا إلىَّ وأذل الله المشركين، مع أنى أخبرك يا خليفة رسول الله ﷺ أن الأعاجم[٢] تخافنا وتتقينا».

خطة أبى بكر لغزو العراق

فما لبث أبو بكر أن نظر إلى موضوع العراق نظرة أخرى، ورسم خطته أن يطبق عليه بفكى كماشة بجيشين[٣]، جيش من أسفله وجيش من أعلاه، بحيث يلتقيان فى الحيرة. فكتب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة بعد أن فرغ من أمر مسيلمة وبنى حنيفة:

---

(١) فتوح البلدان ٦٠١ - الاستيعاب ٣ / ٤٩٦.

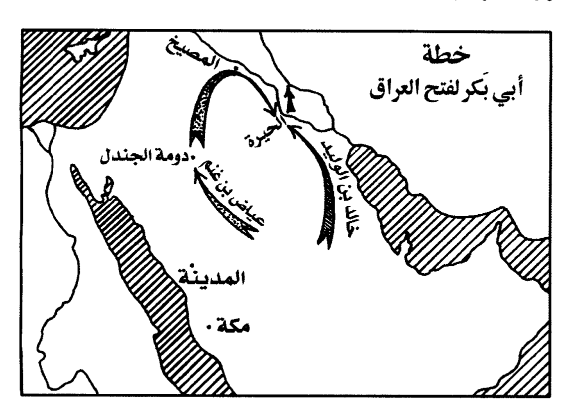
(٢) الاستيعاب ٣ / ٤٩٧.

(٣) الطبرى ٤ / ١٩ س ش س، عن محمد بن عبدالله، عن أبى عثمان. وطلحة عن المغيرة والمهلب، عن سياه وسفيان، عن ماهان.

«إنّ الله فتح عليك. فسر إلى العراق[1] وابدأ بفرج[2] أهل السند والهند، وهى الأبلة (ليوم قد سماه) حتى تلقى عياضاً. وتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم».

كما كتب إلى عياض بن غنم وهو بالعراض[3] بين النباج والحجاز على بعض قوات حروب الردة:

«أن سِرْ حتى تأتى المُصَيَّخ فابدأ بها ثم ادخل العراق من أعلاها وعارِق[4] حتى تلقى خالداً. وأذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره. ثم استبقا إلى الحيرة، فأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه. وإذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس (حصونها) وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما رِدْءاً (عوناً) للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن، وجالدوهم عما فى أيديهم واستعينوا بالله واتقوه وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما. واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصى ومعاجلة التوبة، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة».



خريطة رقم (١١) – خطة أبى بكر لفتح العراق

---

(١) وفى رواية «فعارق».

(٢) ميناء.

(٣) الإصابة ٦٣٩٠ فى ترجمة عبد بن عوف (أو ابن غوث) الحميرى.

(٤) عارق: أى أئت العراق.

خطة رائعة تلك التى رسمها أبو بكر، يضع بها قوات الفرس غربى الفرات بين فكى كماشة، بحيث تواجه هذه القوات أحد الجيشين وهى مهددة من خلفها بالجيش الثانى. إنه تخطيط يوقع قوات الفرس وقادتهم فى ارتباك من حيث استكْناه معرفة أهداف كل جيش ومقصده، ومن حيث توزيع قواتهم لملاقاة كل من الجيشين فى وقت واحد، ومن حيث اختيار أماكن الدفاع والمرابطة، ومن حيث عدم اطمئنان أى قوة للفرس تتواجد غربى الفرات فتبقى قلقة فى أرضها من الناحية النفسية والمعنوية، إذ يزحف إليها جيشان من اتجاهين متضادين. ثم يكون لكل من الجيشين المتقدمين أن يجد العون والنجدة من الجيش الثانى، فضلاً عن أن الطريق الواحد بمياهه المحدودة وكلئه قد لا يحمل عدد الجيشين، فكان من الأفضل - أو من الألزم - أن تقسم مسئولية الفتح على حملتين تتخذ كل منهما مساراً مستقلاً. ثم هى منافسة فاضلة ومباراة ممتعة شيقة بين جيشين من جيوش المسلمين تحفز الهمم وتستثير الحماسة والحمية.

جيش الفتح يحتشد

أذنَ كل من خالد وعياض لمن شاء ممن معهما بالرجوع، فرجع أهل المدينة وما حولها ونقصت قواتهما حتى لم يبق مع خالد إلا ألفان، فكتب كل منهما إلى أبى بكر يطلب المدد، فأمد أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمى(١). فقيل له: «أتمد رجلاً قد انفضّ عنه جنوده برجل؟» وكان أبو بكر عليماً بالرجال، قال: «لا يهزم جيش فيهم مثل هذا» كما قال: «لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل». وأمد عياضاً بعبد بن عوف الحميرى. وكتب إليه وإلى خالد: «أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يَغْزُوَنَّ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيى». فلم يشهد هذه المعارك من سبقت له ردة حتى سُمِحَ لهم فى عهد عمر بذلك فيما بعد، لما ظهرت توبتهم وحسن إسلامهم، وعلى ألا يتولوا رئاسات. حتى فى هذا الوقت الذى يفتقر فيه أبو بكر إلى أعداد من الجند، لم ينس الهدف من الفتح وأنه جهاد الدين الحنيف للشرك الوثنى الخبيث فكان يتخير لجيوشه المسلمين الذين ثبتوا على إسلامهم حين فتن الناس وارتدوا، فلم يسمح لمرتد سابق أن يساهم فى الفتح.

وكان مع المثنى أمير من أمراء الجند من بنى عجل هو مذعور بن عدى، نازع المثنى وتكاتبا

(١) ترجمة القعقاع بن عمرو فى آخر الكتاب.

إلى أبى بكر، فكتب أبو بكر إلى مذعور يأمره بالمسير مع خالد.

نزل خالد[1] النباج (على عشرة مراحل من البصرة، بين البصرة واليمامة وبينه وبين اليمامة أربعة أيام، لبكر بن وائل[2]) على رأس ألفين بقوا معه. وكتب إلى المثنى وكان بخفّان أن يأتيه وبعث إليه بكتاب من أبى بكر يأمره بطاعته جاء[3] فيه: «إنى قد وليت خالد بن الوليد فكن معه» وكان بسواد الكوفة حينذاك، فجاء المثنى إليه مسرعاً. كما كتب خالد إلى أمراء الجند الآخرين، مذعور بن عدى العجلى، وسُلْمَى بن القَين التميمى، وحرملة بن مُرَيْطَة التميمى أن يلحقوا به[4]. هؤلاء الأمراء الأربعة كان تحت إمرتهم ثمانية آلاف مقاتل. ثم حشد خالد ثمانية آلاف أخر من بينه وبين العراق من ربيعة ومضر، فاكتمل جيشه ثمانية عشر ألفاً كلهم متطوع لم تسبق له ردة، دخل بهم خالد العراق. نستطيع أن نتبين من ملامحهم الآتى:

٥٠٠ فارس من الغوث – من طيء.

٥٠٠ فارس من جديلة – من طيء.

ضمهم عدى بن حاتم الطائى إلى جيش خالد قبل أن يصل إلى بزاخة بنى أسد فى حروب الردة.

١٠٠٠ من تميم ومن قضاعة وقليل من الصحابة. وقد أمّر خالد الحارث بن مرة[5] على من كان من قضاعة، وكان من كماة الصحابة. وقيل بل أمّر جرير بن عبدالله الحمْيَرى[6].

٨٠٠٠ من ربيعة ومضر جمعهم خالد.

٤٠٠٠ من بنى شيبان وسائر بكر بن وائل مع المثنى[7] بن حارثة.

---

(١) الطبرى ٤ / ٣، عن هشام الكلبى، عن أبى الخطاب حمزة بن على، عن رجل من بكر بن وائل – فتوح البلدان ٦٠١.

(٢) معجم البلدان.

(٣) الإصابة ٧٧٢٢ من حديث الأصمعى، عن سلمة بن بلال. الاستيعاب، عن أبى رجاء العطاردى.

(٤) سلمة وحرملة كلاهما من بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. وكلاهما له صحبة وهجرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم – الإصابة ١٦٦٥ – ١٦٦٨ – ٧٨٦٤ – ٣٤١٣ – الاستيعاب ٢ / ١٢٤.

(٥) الإصابة ١٤٨٠.

(٦) الإصابة ١١٣٧.

(٧) هذه وما بعدها من تفاصيل الأرقام تقديرى. ولكن إجمالها وارد منصوص عليه أنهم كانوا ٨٠٠٠ مع الأمراء الأربعة.

٢٠٠٠ من بنى عجل وسائر بكر بن وائل مع مذعور بن عدى.

١٠٠٠ من تميم مع سلمى بن القين.

١٠٠٠ من تميم مع حرملة بن مريطة.

١٨٠٠٠

كان فيهم من اللهازم أمَّرَ عليهم خالدٌ عتيبةَ بن النهاس العجلى[١] ، كان شريفاً فى قومه ومن الكماة الشجعان وكان معه ابنه المغيرة، من رواة أحداث هذه الحملة منذ بدء سيرها.

وكان فيهم من بنى ذهل، وعليهم سويد بن قطبة الذهلى[٢].

وكان فيهم من هوازن عليهم يزيد بن نبيشه[٣] من عامر بن صعصعة، وأبو حبيش[٤] بن ذى اللحية العامرى من كماة الصحابة .

---

(١) الإصابة ٦٤١٤.

(٢) فتوح البلدان ٦٠٢.

(٣) فتوح البلدان ٦٠٥.

(٤) الإصابة ٢١٢ كنى.

ذات السلاسل

محرم ١٢هـ - مارس (آذار) أبريل (نيسان) ٦٣٣م

يبدأ بالأُبُلّة

سار خالد نحو الأُبُلّة، وهى ميناء على شط العرب وإليها كانت ترسو السفن الوافدة من الهند والسند، وهى يومئذ أعظم موانئ فارس شأناً وأشدها شوكة. كانت بلدة كبيرة فى منطقة القنوات من دلتا نهر دجلة شرقى البصرة، وكانت تقوم على الضفة اليمنى لهذا النهر وعلى الجانب الشمالى للقناة الكبيرة المعروفة بنهر الأبلة(١). ومكان الأبلة يبعد عن موضع البصرة (ولم تكن البصرة قد اختطت بعد) أربعة فراسخ (٢٢ كم) كما تبعد عن بيان خمسة فراسخ(٢) (٢٨ كم). وعلى ركن الأبلة فى نهرها خور عظيم الخطر. وربما سلمت السفن من سائر الأماكن فى البحر وغرقت فى هذا الخور، يعرف بخور الأبلة(٣). قال خالد بن صفوان(٤): «ما رأينا أرضاً مثل الأبلة أقرب مسافة ولا أطيب نطفة (النطفة الماء الصافى أو الكثير) ولا أوطأ مطية ولا أربح لتاجر ولا أخفى لعابد». وهى فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة ونهر الأبلة كان يعد من جنان الدنيا(٥). قال الخوارزمى: «وأما نهر الأبلة فهو بالبصرة وحواليه من ميادين النخل والأترج والنارنج وسائر الأشجار، وفيها من أصناف الزرع وأنواع الخضروات ما لا ينظر أحسن منه، وعليه من القصور المتناظرة والأبنية الرائقة ما تحار فيه العيون وتهش له النفوس، وفيه يقول ابن عيينة(٦):

ويا حبذا نهر الأبلة منظراً ... إذا مُدَّ فى أثنائه الماء أو جُزِر

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية.
(٢) قدامة بن جعفر ١٩٤.
(٣) المسالك والممالك للاصطخرى ٥٧.
(٤) البيان والتبيين ٢ / ٢٩٧.
(٥) فهرس فتوح البلدان - تحقيق المنجد.
(٦) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١ / ١٨٦.

وكان نهر الأبلة الطريق المائى الرئيسى الذى يمتد من البصرة ثم يسير جنوباً بشرق حتى دجلة ثم إلى عبادان والبحر . والقول الغالب أن طول هذه القناة أربعة فراسخ أو بريدان . وجزء من هذا النهر حفر بعد بناء البصرة عام ١٧هـ ولم يكن كله على عهد خالد بن الوليد حين اتجه إليها من النباج . ويذهب ابن خرداذبة[١] إلى أن الأبلة هى دَسْت ميسان (أو بهمن أردشير كما فى الطبرى) ، ولكن دائرة المعارف الإسلامية تذكر أن هاتين الولايتين يجب أن يلتمس موضعهما على الضفة المقابلة لدجلة . وهى من إنشاء اردشير الأول . ثم أصبحت فى المكان الثانى بعد البصرة ، ولكنها ظلت بلدة كبيرة طوال الخلافة العباسية ، وكانت قد بعدت عن البحر بما يرسبه النهر دائماً من طمى . وكانت مشارف الأبلة كلها بستاناً واحداً كما ذكر ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى . ثم ذكر ابن بطوطة فى القرن الثامن نهر الأبلة ولم يذكر مدينة الأبلة وكأنها قد درست .

إعلان الحرب

كان أمير الأبلة من قبل فارس رجلاً يدعى هرمز . وكان من أسوأ أمرائها جواراً للعرب ، فكل العرب له كاره حتى ضربوه مثلاً فى الخبث والكفر ، فكانوا يقولون : أخبث من هرمز وأكفر من هرمز . وكان يحارب العرب فى البر والهند فى البحر .

وقبل أن يبرح خالد النباج كتب إلى هرمز رسالة أرسلها إليه مع آزاذبة (أبى الزباذبة الذين باليمامة) جاء فيها[٢] :

«أما بعد . فأسلم تسلم واعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» .

أراد خالد أن يستوفى ركنين شرعيين ، الأول أداء واجب الدعوة قبل الحرب ، والثانى إعلان الحرب فى حالة الرفض . كما لا شك أن خالداً كان يهدف إلى إحداث الأثر النفسى بإلقاء الرعب فى قلب خصمه بما اشتمل عليه الكتاب من تهديد ووعيد . ولابد أن يكون آزاذبه حين سلم الرسالة إلى هرمز قد ذكر له ما يعرف عن خالد بن الوليد وما فعله باليمامة وغير اليمامة ، وعن مقدارالحشد الذى يزحف به والذى لم تجمع العرب مثله من قبل فى غاراتها على أطراف العراق .

---

(١) المسالك والممالك ٧ .

(٢) الطبرى ٤ / ٥ ، عن عبيد الله ، عن عمه ، عن سيف ، عن المجالد ، عن الشعبى .

وقسم خالد جنده إلى ثلاث فرق سبقته فى خروجه من النباج ولم يحملهم على طريق واحد بل سلكت كل فرقة طريقاً .

فسرح المثنى بن حارثة قبله بيومين، ودليله ظفر بن دهى وجعله على المقدمة .

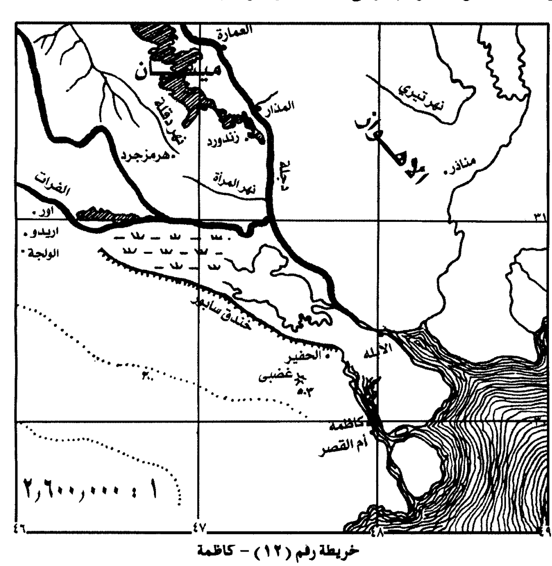
وسرح عاصم بن عمرو التميمى، ودليله سالم بن نصر وجعله على الميمنة .

وسرح عدى بن حاتم الطائى، ودليله مالك بن عباد وجعله على الميسرة .

عدى وعاصم أحدهما قبل صاحبه بيوم .

ثم خرج خالد ودليله رافع بن عميرة الطائى .

وواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به وليصادموا به عدوهم[١] . والحفير ماء لبنى باهلة[٢] على أربعة أميال من البصرة (حوالى سبعة كيلو مترات) .



خريطة رقم (١٢) - كاظمة

(١) الطبرى ٣ / ٣٤٨ قال سيف، عن طلحة بن الأعلم، عن المغيرة بن عتيبة، وكان قاضى أهل الكوفة .

(٢) الحفير أول منزل من البصرة لمن يريد مكة (الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ص ١٩٠)، وقال ابن خرداذبة من البصرة إلى المنجشانية، ثم إلى الحفير، ثم إلى الرُّحيل.. إلخ (المسالك والممالك ١٤٦) .

لماذا قسم خالد جيشه وفرقه على الطرق؟ ربما كان ذلك لضرورات الطريق حيث لا يحتمل طريق واحد من الطرق الصحراوية القديمة أن يحمل ثمانية عشر ألفاً. وربما كان ليعمى وجهته عن عدوه فيظل فى حيرة من أمره حتى آخر لحظة. وربما كان هذا وذاك معاً.

ولما قدم كتاب خالد إلى هرمز كتب بالخبر إلى شيرويه بن كسرى برويز وكان هوالملك، وإلى أردشير بن شيرويه. وجمع جموعه[١] وكانوا من أهل الأهواز وفارس ومن أهل السواد والجبل. ثم تعجل إلى الكواظم (كاظمة) وهى ماء عذب على ساحل الخليج الفارسى يبعد يومين عن البصرة (٨٨ كم) على طريقها إلى البحرين[٢]. تعجل فى أسرع من معه وسبَق خيله إلى الكواظم فلم يجد طريق خالد، وبلغه أن المسلمين قد تواعدوا الحفير فمال إليها ليبادر خالداً فيها، ونزل بها فعبأ قواته وجعل على ميمنته قُباذ وعلى ميسرته أنو شجان، وهما أخوان ينتسبان إلى آل ساسان، البيت المالك فى الدولة.

واختلفوا حول ربط الجند فى السلاسل. فقال من لم ير هذا الرأى لمن أخذ به: «قيدتم أنفسكم لعدوكم! فلا تفعلوا فإن هذا طائر سوء». فأجابوهم: «أما أنتم فيحدثوننا أنكم تريدون الهرب». وكان للمثنى عيونه التى تأتيه بالأخبار، فعلم خالد وهو بالطريق بنزول هرمز بالحفير، وعلم أنهم على تعبئة وأنهم مقترنون فى السلاسل.

---

(١) الطبرى ٤ / ٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن زياد والمهلب، عن عبدالرحمن بن سياه الأحمرى.
وس ش س، عن المهلب بن عقبة وزياد بن سرجس الأحمرى وعبدالله بن سياه الأحمرى.
والأهواز شرقى شط العرب، وفارس شرقى الخليج الفارسى، والسواد هو العراق، والجبل هو الحد الغربى لهضبة إيران.

(٢) وفى معجم البلدان ساق ياقوت الحموى قول الشاعر:

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة — يسعى على قصرات المرخ والعشر

وفى صبح الأعشى يصف بحر فارس (الخليج الفارسى) «... ثم يمتد مغرباً بميلة يسيرة نحو الشمال إلى مدينة عبادان من أواخر بلاد العراق من الشرق على القرب من البصرة عند مصب دجلة فى هذا البحر، ثم ينعطف ويمتد جنوباً إلى كاظمة، وهى جَوْنٌ على ساحل البحرين مما يلى البصرة على مسيرة يومين منها، ثم يمتد إلى القطيف من بلاد البحرين...» (٣ / ٢٤٣) - وكاظمة على ساحل الخليج الفارسى فى الطريق من البصرة إلى البحرين، بينها وبين البصرة مرحلتان، وفيها ركايا كثيرة وماؤها مشروب (معجم البلدان) - وذكر ابن خرداذبه كاظمة على الطريق من البصرة إلى اليمامة وجعل بين البصرة وبين كاظمة منزلاً (المسالك والممالك ١٥١). وطابقه على ذلك قدامة بن جعفر (الخراج وصنعة الكتابة ١٩٣)، فعلى هذا فهى على الطريق من الأبلة إلى جزيرة العرب قبل أن تفترق شعبة منه إلى البحرين وأخرى إلى اليمامة.

ولعل خالداً أراد أن يرهقهم، أو أنه لم يشأ أن ينزل بعد مسيره الطويل على قوم قد تَعَبُّوا له (صفوا صفوفهم)، فعدل طريقه إلى كاظمة. وبلغ هرمز ذلك فبادر إلى كاظمة وسبق خالداً إليها، فنزلها وقد استبد به الغيظ. وأعاد تعبئة جنده واقترنوا مرة أخرى فى السلاسل وقد استحوذوا على الماء فهو فى أيديهم ومعهم فيل من أفيال القتال.

وجاء خالد فنزل على غير ماء. فقالوا له فى ذلك فأمر مناديه فنادى: «ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين». فأدخل خالد حافزاً إضافياً للقتال فجعله أيضاً من أجل الماء فى الصحراء.. من أجل الحياة.

خطة غادرة لهرمز

حطت الأثقال من على ظهور الإبل. والخيل وقوف، وصف خالد قواته. ورسم هرمز خطته على الغدر بخالد، فخرج بين الصفين وطلب المبارزة فنادى: «رجل ورجل.. أين خالد؟» وكان قد عهد إلى فرسانه بالغدر وتواطؤوا على ذلك. ونزل خالد بين الصفين وخرج هرمز. ومشى إليه خالد والناس من الطرفين ينظرون ما يكون. فالتقيا فاختلفا ضربتين، ضرب خالد ضربة فتلقاها هرمز، ثم ضرب هرمز ضربة فتلقاها خالد. ولم يمهله خالد بعد ذلك إذ فاجأه بأن هجم عليه واحتضنه. وغدرت حامية هرمز فهجموا على خالد وهو مشتبك مع هرمز وأحاطوا بهما من كل جانب حتى اختفيا بينهم، فما شغل ذلك خالداً عن قتله. ولما رأى القعقاع بن عمرو ما صنع الفرس قاد المسلمين وأنشب القتال وهجم عليهم والتحم بهم فكشفهم عن خالد فإذا به يقاومهم ويبارزهم.

هكذا بدأت المعركة، وكان من حسن استهلالها أن فقد العجم قائدهم أمام أعينهم بغدر فاشل. وقل فى الأبطال الصناديد بطل مثل خالد ومثل القعقاع. وأخذ الرعب العجم فبدأت هزيمتهم وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل[1]. وجمع خالد متاعهم وفيه السلاسل فكانت حمل بعير ألف رطل، فسميت الموقعة بذلك «ذات السلاسل» وأفلت قباذ وأنو شجان هاربين.

(١) الطبرى ٤ / ٦، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عبدالملك بن عطاء البكائى، عن المقطع بن الهيثم البكائى.

وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم، فمن تم شرفه فله قلنسوة قيمتها مائة ألف درهم. فكانت هذه القلانس أشبه بتيجان أو نياشين تدل على رتبة صاحبها ومكانته فى الدولة. وكان هرمز من هؤلاء الذين تم شرفهم عند العجم فقلنسوته بمائة ألف، وقد نفَّلهاأبو بكر خالداً، وكانت مفصصة بالجوهر.

إخضاع المنطقة

بعد اندحار الفرس وفرار من فر منهم، تبعهم المسلمون فى مطاردة، وما أن رجع المطاردون حتى نادى منادى خالد فى الناس بالرحيل فى نفس اليوم، وسار بالناس وأثقالهم من خلفهم حتى ينزل بموضع الجسر الأعظم من مكان البصرة. وبعث خالد بأخبار النصر، وبما بقى من الأخماس وبالفيل، وكان قد وقع فى أيدى المسلمين، إلى أبى بكر مع زر بن كليب[1]. فلما قدم الفيل المدينة، طيف به ليراه الناس، وقد أدهشهم منظره حتى تساءلت بعض النساء إن كان من خلق الله أو من صنع البشر. ولم يكن أبو بكر رضى الله عنه، ولا المسلمون من هواة الاستعراضات، ولم يكن له فائدة لديهم، فضلاً عن تكاليف إعاشته، إذ المعروف عن الفيل أنه يحتاج إلى ستمائة رطل من الأغذية فى اليوم الواحد، فرده أبو بكر مع زر ومات فى طريق العودة.

وتقدم خالد حتى أتى منطقة البصرة، وبها سويد بن قطبة الذهلى فى جماعة من قومه، يريد أن يفعل بالبصرة مثل فعل المثنى بجهة الحيرة[2]. قال سويد لخالد: «إن أهل الأبلة قد جمعوا لى، ولا أحسبهم امتنعوا منى إلا لمكانك». فقال خالد: «فالرأى أن أخرج من البصرة نهاراً ثم أعود ليلاً، فأدخل عسكرك بأصحابى فإن صبحوك حاربناهم». أراد خالد استدراج قوات الأبلة إلى معركة خارجها، وكان هذا أفضل من مهاجمتها وجيشها متحصن فيها. ونفذ خطته، فتوجه بجيشه نحو الحيرة، فلما أظلم الليل رجع بجيشه فدخل عسكر سويد خلسة. فلما أصبح الصباح، خرج جيش الأبلة إلى سويد وهم يعلمون أن خالداً قد انصرف إلى الحيرة، فلما اقتربوا ورأوا كثرة من فى المعسكر، أسقط فى أيديهم وانكسرت معنوياتهم.

---

(١) زر بن عبدالله بن كليب الفقيمى التميمى. له صحبه ووفادة فى نفر من بنى تميم، وفد على النبى فأسلم، ودعا له النبى ولعقبه. كان من أمراء الجيوش فى فتح خوزستان، وكان على جيش فى حصار جندى سابور وفتحها صلحاً.

(٢) فتوح البلدان ٢٠٢.

فقال خالد : «أحملوا عليهم فإنى أرى هيئة قوم قد ألقى الله فى قلوبهم الرعب» . فحملوا عليهم فهزموهم ، وكثر القتل فيهم ، وغرق طائفة فى دجلة البصرة . ثم مر خالد بالخريبة ففتحها وسبى من فيها ، واستخلف بها شريح بن عامر من بكر بن هوازن ، وكانت الخريبة من مسالح العجم .

نزل خالد موقع البصرة ، وبعث المثنى بن حارثة فى آثار المجوس فى مطاردة عميقة . وأرسل معقل بن مقرن المزنى أحد الإخوة العشرة إلى الأبلة[1] ، فخرج حتى جاءها فجمع مالها وسبيها . وانطلق المثنى قائد المقدمة حتى انتهى إلى نهر المرأة وعليه «حصن المرأة» كان لأميرة فارسية تدعى كامورزاد . ولم يشأ أن يوقفه الحصن عما هو بسبيله ، فخلف أخاه المعنى بن حارثة لحصاره ومضى هو إلى «حصن الرجل» ، وقد كان به زوج كامورزاد فحاصره ثم فتحه واستنزل من به عنوة فقتلهم واستفاء أموالهم . وما أن علمت كامورزاد بذلك حتى صالحت المثنى وأسلمت وتزوجها المعنى .

سبى خالد أولاد المقاتلة الذين قاتلوه ممن كان يقوم بأمر الأعاجم . أما الفلاحون فقد نفذ ما أمره به أبو بكر بشأنهم ، فلم يحرك أحداً منهم وأقرهم على أرضهم وجعل لهم الذمة . وبلغ سهم الفارس فى ذات السلاسل ومعارك النهر ألف درهم ، والراجل على الثلث من ذلك . وقد كان لهذا الظفر أثره البالغ فى معنويات المسلمين ، فقد رأوا أن الفرس - وقد كانت لهم رهبة عند العرب - ليسوا من طينة تختلف عن طينة الناس ، وقد رأوا خالداً يقتل قائدهم أمام أعينهم كما قتلوا هم جنده ، وقد رأوا أن النصر الذى حالفهم ضد المرتدين يستطرد الآن معهم فى حربهم ضد الفرس . كما أن ما غنموه كان من الجسامة بحيث لم يكن لهم بمثله عهد .

---

(١) يذكر الطبرى أن هذه الرواية خلاف ما يعرفه أهل السير عن فتح الأبلة وما جاءت به الآثار الصحاح . وأن فتحها إنما كان أيام عمر بن الخطاب على يدى عتبة بن غزوان ١٤هـ . ولكننا نستبعد أن يوغل خالد فى العراق تاركاً الأبلة وراء ظهره تشكل خطراً عليه ، فضلاً عن أنه لم يكن هناك ما يمنعه من دخولها ، وقد دحر جيشين لها . وقد سبق فى خطاب أبى بكر إليه إذ أمره بالسير إلى العراق أن يبدأ بالأبلة . والذى نراه ونطمئن إليه أن خالداً فتح الأبلة عام ١٢هـ ، ثم انسحب المسلمون منها حين انسحبوا من أكثر الأراضى التى استولوا عليها ، وذلك حين انتقل خالد إلى الشام على ما سيأتى شرحه ، ثم أعاد عتبة فتحها عام ١٦هـ أثناء دخول سعد بن أبى وقاص المدائن .

معركة المذار[1]

أول صفر ١٢هـ - ١٧ أبريل (نيسان) ٦٣٣

موقع المذار

كانت ذات السلاسل في محرم ١٢هـ (أواخر مارس (آذار) ٦٣٣ أو أوائل أبريل (نيسان). وبعدها كانت موقعة المذار. والمذار موقع يقع على الشاطئ الشرقي لدجلة، عند التقاء بعض روافده المنحدرة إليه من الشرق[2]، وعندها تتشعب الطرق إلى الأهواز والجبل وفارس والسواد على مكان تلتقي به أنهار، يصفه الرواة بقولهم: «على مجمع الأنهار إلى النهر المغيث والمغاث» على مسافة أربعة أيام شمال البصرة بالقرب من واسط عاصمة ميسان (حوالى ١٧٥ إلى الشمال من الأبلة). وكانت المعركة في صفر ١٢هـ على ما ذكر الرواة، وتقديرنا أنها كانت في أوله (١٧ أبريل (نيسان) ٦٣٣م).

تحرك ساساني مضاد

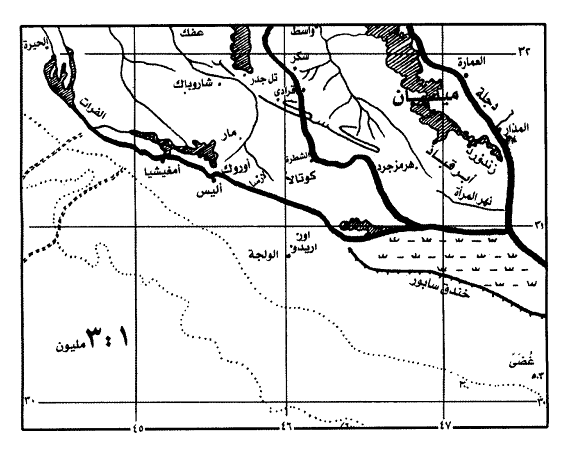
بلغ هرمز بكتابيه إلى أردشير وإلى شيرويه بكتاب خالد إليه وزحفه نحوه من النباج، فأمداه بقارن بن قريانس. خرج قارن من المدائن مدداً لهرمز غير أنه لم يدركه. كان قارن يتحرك نحو الأبلة حتى إذا انتهى إلى المذار بلغته أخبار الهزيمة ومصرع هرمز، ووصلت إليه فلول ذات السلاسل، فتباحثوا وتجادلوا وتحاضوا على الثبات، وقالت فلول الشرق من الأهواز وفارس لفلول الغرب من السواد والجبل: «إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً، فاجتمعوا على

---

(١) الطبرى ٤ / ٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن زياد والمهلب، عن عبدالرحمن بن سياه الأحمرى. وس ش س، عن زياد بن سرجس الأحمرى وعبدالرحمن بن سياه الأحمرى، وسفيان الأحمرى والملهب بن عقبة.

(٢) قال الاصطخرى: «وللبصرة مدن: فأما عبادان والأبلة والمفتح والمذار فعلى شط دجلة وهى مدن صغار متقاربة فى البر عامرة..» (المسالك والممالك ص٥٧) - وقال قدامة بن جعفر: من المذار إلى البصرة (وكانت فيه دواب للبريد فى عصره) ثلاث سكك (محطات) (الخراج وصنعة الكتابة ص٢٢٦) - وقال الطبرى: «.. على النهر المغيث والمغاث» (٤ / ٧) وقد حددنا مكان المذار على الخريطة نقلاً عن خريطة العراق الأثرية لمديرية الآثار العراقية ببغداد.

العودة مرة واحدة فهذا مدد الملك وهذا قارن لعل الله يديلنا ويشفينا من عدونا وندرك بعض ما أصابوا منا». فتعاهدوا على ذلك.



خريطة رقم (١٣) – معركة المذار

وعسكر قارن بالمذار، وقد جعل دجلة عن يمينه والرافد الذى يمده وراء ظهره وقد كدس فيه السفن. وجعل على ميمنته قباذ وعلى ميسرته أنو شجان اللذين كانا على مجنبتى هرمز بالكواظم. وكان المثنى والمعنى قد تقدما فى هذه الأرض فبلغهما خبر هذا الجمع فكتبا إلى خالد. وكأنما أراد خالد أن يصفى حسابات ما سبق، وأن يشجع جنده على مابعدها، فبادر إلى قسمة الفىء على من أفاءه الله عليه، ونفَّل من الخمس ما شاء، وبعث مع الوليد بن عقبة ببقيته وبالفتح إلى أبى بكر، وبأخبار اجتماع العجم بالمذار. ثم تحرك نحو المذار داخل أرض العراق، وقد ترك صحاريه وراء ظهره. وأراد أن يأمن المفاجأة فسار على تعبئة واستعداد للالتحام متى ظهر العدو، فسار شمالاً بحذاء دجلة فى أثر المثنى ومر بزندورد من إقليم كسكر، فافتتحها بعد أن كانت من أهلها مراماة للمسلمين ساعة، وافتتح دُرْتَى وما فى ذمامها بأمان. وأتى هرمز جرد فآمن أهلها أيضاً[1] وفتحها.

---

(١) فتوح البلدان ٦٠٣.

وخرج قارن من القلب يدعو للمبارزة، فبرز إليه خالد بن الوليد ومعقل ابن الأعشى بن النباش المعروف بأبيض الركبان، واستبقا إليه فسبق معقل وقتله في المبارزة. وتزاحف الصفان فاقتتلوا على حنق وحفيظة قتالاً أشد مما كان في ذات السلاسل.

وقتل عاصم بن عمرو التميمى قائد الميمنة، أنو شجان قائد ميسرة المجوس، كما قتل عدى بن حاتم الطائى قائد ميسرة المسلمين، قباذ قائد ميمنة العجم. وكان قارن ممن تم شرفه مثل هرمز، ولم يقاتل المسلمون بعده أحداً ممن تم شرفه من العجم فى هذه الحملة، وقتل من العجم ثلاثون ألفاً[1]، ولجأ الباقون إلى السفن ليعبروا، وغرق بعضهم فى محاولته تلك. ولم يكن مع المسلمين سفن فمنعتهم المياه من طلب عدوهم، ولولا ذلك لأتوا على آخرهم. ولم يفلت منهم من أفلت إلا عراة وأشباه عراة.

أقام خالد بالمذار. وسلم الأسلاب[2] لمن سلبها بالغة ما بلغت، وقسم الفىء ونفَّل من الأخماس أهل البلاء، ثم بعث ببقية الأخماس مع سعيد بن النعمان أخى بنى عدى بن كعب من قريش ووفد معه. وقد زاد سهم الفارس فى المذار على سهمه فى ذات السلال، وأقام خالد على النهر يسبى أسر المقاتلين ومن أعانهم، وسار سيرته مع الفلاحين فأقرهم على أرضهم، ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس وقبلوا الجزية. وكان فى سبى المذار حبيب أبو الحسن البصرى وكان نصرانياً، ومافنَّة مولى عثمان وأبو زياد مولى المغيرة بن شعبة.

واجبات المؤخرة

ونظر خالد فرأى أن منطقة الأبلة التى يريد أن يخلفهاوراء ظهره ليتقدم نحو الحيرة ثم

---

(١) الطبرى ٤ / ٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد بن عبدالله، عن أبى عتمان.

(٢) الطبرى ٤ / ٧، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن زياد والمهلب، عن عبدالرحمن بن سياه الأحمرى.
وس ش س، عن المهلب بن عقبة وزياد بن سرجس الأحمرى وعبدالرحمن بن سياه الأحمرى وسياه.
والسلب هو ما يأخذه المحارب مما على قتيله فى الحرب. ومن الأحكام المتغيرة بتغير الزمان أخذ المحارب لما يجده مع قتيله المستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»، فإن منح السلب للقاتل من قبيل التحريض على القتال فى ظروف دعت إليه. وللحاكم أن يفعله وألا يفعله بحسب ما يرى من مصلحة. فهو ليس من قبيل الشرع العام الثابت الذى لا تجوز مخالفته. (عن مجلة العربى - مايو (آيار) ١٩٧٠ - زكريا البرى، قسم الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت).

المدائن منطقة لها أهميتها الاقتصادية القصوى وخطرها الاستراتيجى. فهى أكبر ثغور إيران البحرية، وهى الطريق المائى الوحيد بين المدائن والشرق (الهند والسند والصين)، وهى مدخل السفن إلى دجلة وإلى الفرات، فضلاً عن أنها باب يمكن السير منه إلى الحيرة (وهى الخطة التى وضعها أبو بكر والتزم خالد بتنفيذها)، ومنها يمكن أن يمخر وسط السواد بين دجلة والفرات فى أقصر خط مستقيم إلى المدائن، ومنها يمكن عبور شط العرب للتوغل فى الأهواز أو فارس والجبال. وهذا كله قد يدفع الفرس إلى محاولة استردادها، بمعنى أنه من الاحتمالات التى توضع فى الحسبان أن يوجه الفرس جيوشهم إلى هذه المنطقة سواء من الحيرة، أو من وسط السواد، أو بحذاء الشاطئ الشرقى لدجلة كما حدث فى المذار، أو من الأهواز ومرتفعات إيران فى الشرق، أو من الجنوب براً أو بحراً.

لذلك، وتأميناً لسلامة قواته، وضع خالد حاميات مناسبة تجاه كل تلك المداخل حتى تكون يقظة لما عسى أن يأتى منها. وضع حاميات تجاه الأبلة والخريبة بناحية موضع جسر البصرة على شط العرب وبأسفل دجلة. فخلف سويد بن قطبة الذهلى على ناحيته من منازل بنى ذهل من جهة البصرة، وقال له[1] وهو يسلمه هذه المسئولية: «قد عركنا هذه الأعاجم بناحيتك عركة أذلتهم لك». واستخلف قطبة بن قتادة بن جرير[2] السدوسى على جهته. واستخلف بالخريبة شريح[3] بن عامر بن قين من بنى سعد بن بكر بن هوازن. فكانت هذه الحاميات أشبه بنقط الحدود تشرف على منافذ المنطقة وتقف عليها وينظر بعضها إلى بعض، وتنتهى قيادتها جميعاً إلى سويد بن مقرّن المزنى الذى أمره خالد على الجزية وأمره بنزول الحفير فى موقع خلفى متوسط بأطراف الصحراء ليجعلها قاعدة له وليحمى ظهر جيش المسلمين المتقدم. وأمره ببث عماله ووضع يده فى الجباية. وسويد بن مقرّن أحد الإخوة العشرة كلهم فى جيش خالد وسيأتى ذكرهم. مر بنا ذكره مرتين. كان مع أبى بكر رضى الله عنه فى قتاله مرتدى عبس وذبيان حين هددوا المدينة، خرج معه من المدينة ليلاً وكان على الساقة (المؤخرة) وكان أخوه النعمان على الميمنة وأخوه عبدالله على الميسرة حتى دهموا المرتدين فى ذى قصة وهزموهم، هذه مرة. ثم أرسله أبو بكر قائداً للجيش الحادى عشر لقمع ردة تهامة اليمن. أما اتجاه الحيرة فسيتولى خالد أمره بنفسه. وأقام خالد بالمذار قليلاً يجمع المعلومات ويتحسس أخبار عدوه ويرقب اتجاه مساراته .

---

(١) فتوح البلدان ٦٠٢، عن الكلبى - وذهل من بكر بن وائل، فكانت صحراء تلك المنطقة من مساكنهم.
(٢) الإصابة ٧١٢٢ - الاستيعاب ٣ / ٢٤٧. وسدوس من بكر بن وائل.
(٣) فتوح البلدان ٦٠٢.

كمين فى الولجة[1]

٢٢ صفر ١٢هـ - ٣ مايو (آيار) ٦٣٣م

تحرك ساسانى جديد

بلغ خبر موقعة المذار إلى المدائن فبعثت جيشاً آخر يقوده أندر زغر، وكان فارسياً من مواليد السواد ومن سكانه القاطنين به، فلم يكن ممن ولد بفارس ولا بالمدائن أو نشأ بها. وكان قبل ذلك أميراً على خراسان. أرسله أردشير على عجل وأرسل فى أثره بهمن جاذويه بجيش آخر، وأمره أن يتبع نفس طريقه حتى يدركه.

وخرج أندرزغر من المدائن حتى أتى كسكر[2] ثم جازها إلى الولجة[3] وهى فى الصحراء خارج كسكر. وخرج بهمن جاذويه فى أثره ولكنه خالف فسلك طريقاً غير طريقه إذ اتجه إلى وسط السواد. والظاهر أنه أراد أن يحصر خالداً بين جيش أندرزغر الذى يخرج من السواد إلى تخوم الصحراء ليلتف حوله ويتقدم إليه من ورائه وبين جيشه هو من أمامه فى وسط السواد. وتاريخ بهمن جاذويه مع جيوش المسلمين بعد ذلك ينم عن أنه كان من أكبر قادة الحروب لدى الفرس ومن أكثرهم كفاءة ودراية وحسن تصرف.

وانضم إلى جيش أندرزغر حشود أخرى حشرت إليه على عجل من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين، فعسكروا إلى جنب عسكره بالولجة إلى الخارج من مجرى الفرات. فلما اجتمع له ما أراد واستتم، أعجبه ما هو فيه وعزم على السير إلى خالد دون انتظار بَهْمَن جَاذَوَيهْ.

---

(١) الطبرى ٤ / ٨، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عمرو، وعن زياد بن سرجس، عن عبدالرحمن بن سياه، وعن محمد، عن أبى عثمان.
وس ش س، عن المهلب، عن أبى عقبة وزياد بن سرجس وعبدالرحمن بن سياه.

(٢) منطقة واسعة بين الكوفة والبصرة - معجم البلدان. وقد اوضحناها على الخريطة.

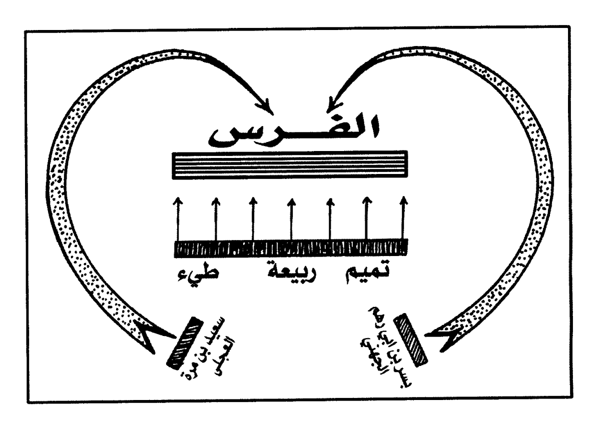
(٣) لم نقف على ما يحدد لنا على وجه الدقة موضع الولجة من الخريطة خلاف ما ذكره الطبرى من أنها كانت على البر مما يلي كسكر. وقد يدلنا اسمها على اشتقاقه من الفعل ولج يلج بمعنى دخل يدخل فيكون اسمها مستمداً من أنها من مداخل الصحراء إلى العراق.

خالد يفلت من الكماشة

انتهت هذه الأخبار إلى خالد وهو مازال بالمذار فقدر الموقف تقديراً سليماً وآثر أن يخرج من المذار شرقى دجلة إلى طريق الصحراء جنوبى الفرات، ونادى فى جيشه بالرحيل وعاد أدراجه إلى الجنوب قبل أن تطبق عليه تلك الكماشة. وتقدّم إلى من خلَف فى أسفل دجلة وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار. كان خالد يعلم أن عدوه تزداد مقاومته فى كل معركة عن سابقتها. وإذا كان قد انتصر فى معركتين قبل ذلك، فليس معنى هذا ضمان دوام النصر، وإن أخطر ما يصاب به المقاتل فى الميدان الغرور والغفلة واختلال الموازين. ولم يكن خالد ممن ينتشى بالنصر فينسيه الحقائق وما ينبغى عليه من وسائل مواجهتها. كان دائماً مالكاً لأعصابه فى حالات النصر كما كان يملكها فى الشدائد والمحن فلا يعميه هذا أو ذاك عن أمره. كان خالد يتحرك إلى الولجة للقاء أندرزغر وهو يعلم أن جيشاً آخر يقوده بهمن جاذويه فى طريقه إليه.

كمين

نزل خالد على أندرزغر بالولجة ونظر فوجد أن ميدان المعركة أرض منبسطة لا تتخللها مسالك ولا مسطحات مائية، فهى ميدان يسمح بالمناورة. صف خالد قواته وأخفى فى الخلف قوتين فى ناحيتين لعمل كمين، إحداهما عليها بُسْر بن أبى رهم الجهنى، والثانية عليها سعيد بن مرة العجلى. واقتتل المسلمون والعجم ومعهم من ناصرهم من العرب قتالاً شديداً، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ. المجوس يشد من أزرهم أملهم فى أن يصل إليهم بهمن جاذويه، وخالد يدخر كمينه ويستبطئه حتى ينهك عدوه فيخرج عليه وقد بلغ منه الجهد مبلغه، فإنه إذا خرج عليهم وهم فى أوج نشاطهم لأمكنهم، استناداً إلى وفرة عددهم، أن يواجهوه من الخلف كمايواجهون خالداً من الأمام، فإنه من أصعب الأمور على ا لتصور وأشقها فى التنفيذ أن تحصر قوة صغيرة قوات أكبر منها فى أرض منبسطة مفتوحة. أماإذا أجهدوا، فإن التصور الطبيعى المتوقع أن ترتبك صفوفهم وأن يفقدوا توازنهم وأن يعمدوا إلى الفرار. وما دامت قوات خالد صامدة متماسكة فلا ضير أن ينتظر.



خريطة ١٤ – معركة الولجة

وأخيراً حين اطمأن إلى أن خطته نضجت على النار، أطلق خالد فرقتي الكمين من وجهين؛ من خلف ميمنته ومن خلف ميسرته. ودارت كل فرقة منهما حول جناح العجم المواجه لها لتطلع عليه من خلفه... من حيث كانوا ينتظرون المدد. وأذهلت المفاجأة الفرس وحلفاءهم فبدأت الهزيمة في صفوفهم ثم عمدوا للفرار. وشدد عليهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم واختلط أمرهم حتى لم ير رجل منهم مقتل صاحبه، وفرّ أندرزغر من الميدان ومضى في هزيمته نحو الصحراء حتى مات عطشاً.

وقام خالد يخطب المسلمين ويرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب. قال: «ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب (كثير التراب)، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء (الدعوة) إلى الله عز وجل إلا المعاش، لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه». إشارة إلى من تخلف عن الخروج معهم للجهاد.

وسار في الفلاحين بسيرته السابقة فلم يقتلهم أو يحركهم عن أرضهم، ودعاهم إلى الجزية والذمة فأجابوا. وسبى ذرارى المقاتلة ومن أعانهم. وكان ممن قتل يومئذ ابن الجابر بن بجير وابن لعبد الأسود من زعماء نصارى بكر بن وائل، من العرب الذين أعانوا المجوس وانضموا إليهم.

وفي يوم الولجة قال القعقاع[1] بن عمرو يفخر بالمسلمين:

ولم أر قوماً مثل قوم رأيتهم … على ولجات البر أحمى وأنجبا
وأقتل للرواس من كل مجمع … إذا ضعضع الدهر الجموع وكبكبا

(١) ولجات: فتحات، وهي أيضاً اسم المكان «الولجة» - الرواس: الرؤساء - كبكب: كبها على وجهها (مختار الصحاح).

أليس ونهر الدم[1]

٢٥ صفر ١٢هـ - ٦ مايو (آيار) ٦٣٢م

عرب مع المجوس

أعان نصارى بكر بن وائل من عرب الحيرة المجوس على المسلمين في الولجة وقُتل بعضهم. وكان فيمن قُتل اثنان من أبناء زعمائهم هما جابر بن بجير وعبدالأسود. فلما وقع ذلك غضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الفرس وكاتبهم الفرس واجتمع العرب في أُلَيَّس وعليهم عبدالأسود العجلي ومعهم بعض العجم.

وكتب أردشير[2] إلى بهمن جاذويه وكان مازال في قسياثا أن يسير بجيشه إلى أليس حتى ينضم إلى من اجتمع بها من العجم ونصارى العرب. فقدم بهمن مقدمته وعليها جابان وأمره بالإسراع، ولكنه أوصاه في الوقت نفسه أن يكف نفسه وجنده عن قتال المسلمين حتى يلحق به إلا أن يبدؤوه.

سار جابان إلى أليس وهي على صلب الفرات من ناحية البادية، بينما عاد بهمن جاذويه إلى المدائن لمقابلة أردشير في أمور أراد أن يحدثه فيها فوجده مريضاً فبقي إلى جانبه وترك جابان وما أرسله فيه.

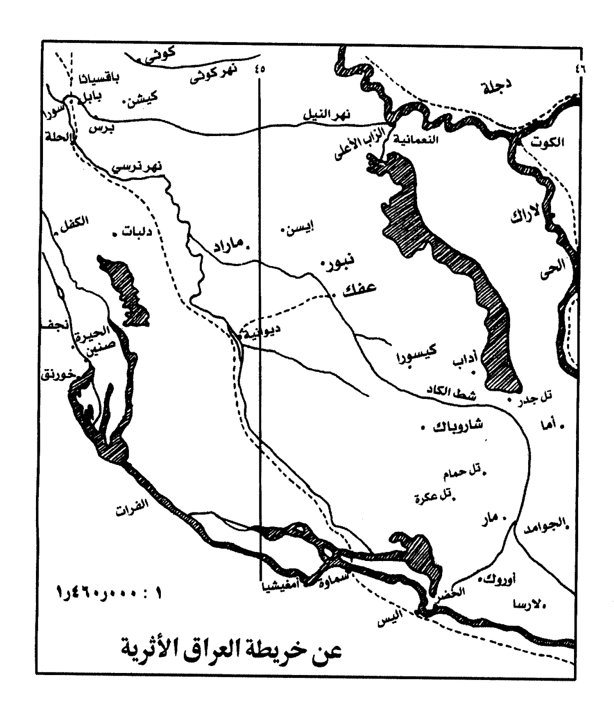
نزل جابان أليس واجتمع إليه فيها مع جيشه جميع القوات الأخرى التي كانت بها من العجم ومن العرب، عليهم عبدالأسود في نصارى العرب من بني عجل، وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة. وكان جابر بن بجير نصرانياً وموتوراً مثله فساند عبدالأسود وانضم إليهم زهير ومالك ابن قيس (من قبيلة جذرة) من العرب.

---

(١) الطبري ٤ / ٩، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد بن طلحة، عن أبي عثمان وطلحة بن الأعلم، عن المغيرة بن عتيبة.

س ش س، عن محمد بن عبدالله، عن أبي عثمان، وطلحة بن الأعلم، عن المغيرة بن عتيبة.

(٢) هكذا في الطبري. وفي كريستنسن أن أردشير ولي ١٨ شهراً، وكان طفلاً.



خريطة رقم (١٥) - أليس وأمغيشيا

علم خالد بتجمع عرب الضاحية فسار إليهم. وكان تحرك العجم من قسياثا سريعاً - وربما قريباً - فلم يعلم خالد بقدوم جابان حتى التقى به. فلما طلع خالد بنفس تعبئته التى كان عليها على جابان فى أليس كان المجوس يستعدون للغداء، فقالوا الجابان: «أنعاجلهم أم نغدى الناس ولا نريهم أننا نحفل بهم ثم نقاتلهم بعد الفراغ؟!» ورأى جابان أن المسلمين على تعبئة، فقال: «إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا، ولكن ظنى أنهم سيعجلونكم

ويعاجلونكم عن الطعام». فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة ودعا بعضهم بعضاً وتوافوا إليها.

هجوم سريع من خالد

وانتهى خالد إليهم فوقف وأمر بحط الأثقال، فلما وضعت وكل بنفسه حوامى يحمون ظهره حتى لا يتكرر ما حدث من هرمز فى كاظمة، وخرج أمام الصف فنادى: «أين أبجر؟ أين عبدالأسود؟ أين مالك بن قيس؟» فجبنوا جميعاً إلا مالك فقد خرج إليه. قال له خالد: «يا ابن الخبيثة ما جرأك عليّ من بينهم وليس فيك وفاء[1]!» ثم تقدم إليه فضربه ضربة قتلته، ثم زحف عليهم، وكانوا قد جلسوا للطعام، فأقامهم وأجهضهم عنه قبل أن يطعموا. قال جابان: «ألم أقل لكم يا قوم؟ أما والله ما دخلتنى من رئيس (رئاسة) وحشة قط حتى كان اليوم». فقالوا تجلداً: «ندعها - يعنى الطعام - حتى نفرغ منهم ونعود إليها!» قال جابان: «وأيضاً أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون، فالآن أطيعونى وسمّوها فإن كانت لكم فأهون هالك، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتم شيئاً وأبليتم عذراً». قالوا: «لا اقتدار عليهم!».

عجيب أمر جابان هذا. قائد فى معركة يرى الرأى، ثم يكون من الضعف والهزال أن يعجز عن إنفاذه فى جنده! وفى ماذا؟ فى وجبة طعام... وجند متهافتون على الطعام لا يطيقون تأجيل وجبة أو أن يصبروا عليها بحضرة عدوهم القائم على رؤوسهم بالسلاح، فيجدون فى ضعف قائدهم مندوحة تسمح لهم بالخروج على رأيه. كان جيشاً من عناصر مختلطة من العرب والعجم ينقصه الضبط.

جعل جابان المجوس فى القلب، وجعل عبدالأسود ومن معه من العرب فى الميمنة، وأبجر ومن معه من العرب على ميسرته. وكان خالد على نفس تعبئته فى المعارك السابقة، المثنى على المقدمة، وعاصم بن عمرو على الميمنة، وعدى بن حاتم على الميسرة.

نهر من الدم

واقتتلوا قتالاً شديداً أشد من أى قتال سبق، واشتدت مقاومة العجم ومن معهم بما يتوقعون

---

(١) يعنى لو قتلتك لا تفى بما أريد.

من قدوم بهمن جاذويه، فصبروا وصمدوا للمسلمين، وظل المسلمون يشدون عليهم حتى شق عليهم الأمر، فنذر خالد وقال:

«اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم».

وكان المسلمون من بكر بن وائل أشد الناس على نصارى بكر بن وائل الذين جاءوا يناصرون المجوس، وكان المثنى بن لاحق أشد مسلمى بكر بن[1] وائل فى ذلك. وبدأت صفوف جابان تتضعضع، فانكشفوا للمسلمين ومنحهم الله أكتافهم، فأمر خالد مناديه فنادى فى الناس: «الأسر الأسر.. لا تقتلوا إلا من امتنع»، فأقبلت خيول المسلمين بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سوق الأنعام. فجمعهم خالد، وقد حبس الماء عن النهر فوكّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم فى النهر يوماً وليلة على رجاء أن يجرى النهر بدمائهم. وخرج المسلون لمطاردة الهاربين يطلبونهم فى اليوم التالى والذى بعده، حتى انتهوا إلى النهرين، ومقدار ذلك من كل جوانب أليس حيث تفرقوا. فكانوا يأتون بهم وتضرب أعناقهم فى النهر ،والنهر لا يجرى دماً حتى قال القعقاع بن عمرو وبشير بن الخصاصية وأمثال لهما لخالد: «لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم. إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نهيت عن السيلان ونهيت الأرض عن نشف الدماء، فأرسل عليها الماء تبر يمينك». وأعيد الماء إلى النهر فجرى أحمر قانياً، فسمى لذلك نهرالدم وعرف بذلك إلى قرون بعدها. وكانت على النهر طواحين تدار بالماء، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوت العسكر - ثمانية عشر ألفاً أويزيدون - ثلاثة أيام.

رجع المسلمون من المطاردة ودخلوا معسكر الحلفاء، فوجدوا الطعام على البُسُط ووقف خالد عليه وقال:

«قد نفلتكموه فهو لكم، كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نَفَّلَه، وقد نفل الناس يوم خيبر الخبز والطبيخ والشواء وما أكلوا غير ذلك فى بطونهم غير متأثِّليه[2]».

فقعد المسلمون عليه لعشائهم بالليل فى مثل حفل سمر، وجعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول: «ما هذه الرقاع البيض؟!» فيجيب من قد عرفها مازحاً:

---

(١) الإصابة ٨٣٦٤.

(٢) التأثل اتخاذ أصل المال، يعنى أكلوا ما شاءوا دون أن يحملوا منه شيئاً.

«هل سمعتم برقيق العيش؟»

فيقولون: «نعم».

فيقولون: «هو هذا».

ولذلك سمي الرُّقاق، وقد كانت العرب تسميه قبل ذلك للقِرَى.

وبلغت قتلى العجم وحلفاؤهم في أليس سبعين ألفاً جلهم من أمغيشيا (وتسمى أيضاً منيشيا). وبعث خالد بالخبر مع دليل من بني عجل يدعى جندلاً، فقدم على أبي بكر بالخبر وبفتح أليس وبقدر الفيء وعدة السبي وبما حصل من الأخماس وبأهل البلاء من الناس. وأعجب أبو بكر بصرامته وثبات خبره فأمر له بجارية من ذلك السبي.

أمغيشيا[1]

٢٨ صفر ١٢هـ - ١٤ مايو (آيار) ٦٣٣م

مصر كبير

كانت أمغيشيا مصراً كبيراً كالحيرة على الفرات، تبعد نحواً من ٤٠ كيلو متراً عن أُلَيْس. ولم تكن بأمغيشيا معركة ولم يقع فيها قتال، إنما كانت فيئاً بغير خيل. ذلك أن خالداً بعد أن فرغ من معركة أليس أراد ألا يمنح العجم فرصة، ومن مبادئ الحرب المطاردة لمتابعة استغلال النجاح. وكان من أهم ما يميز خالداً خفة حركته وقدرته على التحرك السريع. فنهض من أليس فأتى أمغيشيا، وكان كثير من أهلها قد قتل في أليس، قتل منهم حوالى أربعين ألفاً على الأقل. فلما تحرك خالد نحو أمغيشيا أعجل أهلها عما فيها فهجروها وجلوا عنها متفرقين في السواد، وقد تركوا بها جل متاعهم. ومن يومئذ صار في السواد «مهاجرون» و«لاجئون».

فتح بلا قتال

وأراد خالد أن يرهب أعداءه ويهون شأن سلطانهم في أعين أهل السواد فأمر بهدم أمغيشيا، وكل شيء كان في حيِّزها وقد كانت كبيرة الحجم وإليها ينتهي نهر فرات بادقلى، وكانت أليس من مسالحها (مواقعها المسلحة). وأصاب المسلمون في أمغيشيا ما لم يصيبوا مثله من قبل. ولم يصب المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا، فقد بلغ سهم الفارس ١٥٠٠ درهماً سوى النفل الذى نفله أهل البلاء. وبلغت أخبار أمغيشيا إلى أبي بكر فقال: «يا معشر قريش عدا أسدكم (يعني خالد) على الأسد (يعني فارس) فغلبه على خراذيله (أشلائه). أعَجَزَت النساء أن ينشئن مثل خالد؟!».

ألم يكن من الأجدى على العجم – وقد سبقوا إلى المكان وكان يسعهم أن يختاروا – أن يجعلوا معركتهم في أمغيشيا بدلاً من أليس؟ مادامت أمغيشيا كانت مصراً كبيراً كالحيرة،

---

(١) الطبرى ٤ / ١١، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد، عن أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة. س ش س عن بحر بن الفرات العجلي، عن أبيه.

وكانت بالمنطقة التى التقى بها الجيشان، فلا شك أن تحصنهم فى الدور والطرقات كان أوفق لهم من الخروج فى عراء، وقد رأوا مصائر من قبلهم.

أيـــام

ذكرت المصادر تواريخ تلك المواقع بالشهر دون اليوم. وقد وجدنا المذار والولجة وأليس وأمغيشيا كلها فى صفر، فقدرنا أيامها كالآتى على أساس ما جاء فى وصف كل موقعة، وبعدها عما قبلها وما بعدها.

محرم خرج خالد من النباج إلى كاظمة - حوالى ٥٠٠ كيلو متر.

محرم موقعة ذات السلاسل فى كاظمة.

١ صفر موقعة المذار - حوالى ٢٥٠ كيلو متراً من كاظمة.

٥ صفر بلغ خبر هزيمة المذار إلى المدائن - حوالى ٤٠٠ كيلو متراً.

١٤ صفر وصل أندرزغر إلى الولجة قادماً من المدائن - حوالى ٣٥٠ كيلو متراً.

١٧ صفر علم خالد وهو بالمذار بتقدم جيش إلى الولجة فسار إليهم.

٢٢ صفر هزم خالد العجم فى الولجة بعد أن سار إليهم حوالى ٣٥٠ كيلو متراً من المذار عن طريق أسفل دجلة.

٢٤ صفر علم خالد بتجمع نصارى العرب فى أليس. قبل موقعة الولجة أرسل أردشير بهمن جاذويه فى أثر أندرزغر من المدائن. فأرسل بهمن جابان إلى أليس - حوالى ٣٠٠ كيلو متراً من المدائن، ٤٠ كيلو متراً من الولجة.

٢٥ صفر سار إليه خالد وهزمه فى أليس ثم مكث يومه وغده واليوم التالى لغده يضرب أعناق العجم حتى ٢٧ صفر.

٢٨ صفر سار خالد ٤٠ كيلو متراً إلى أمغيشيا وهدمها.

٢٩ صفر سار خالد من أمغيشيا إلى الخورنق التى تبعد ١٥٠ كيلو متراً.

معركة المقر(١)

ربيع أول ١٢هـ - أواخر مايو (أيار) ٦٣٣م

الطريق النهرى إلى الحيرة

كان آزاذبه مرزبان الحيرة . وكان ممن بلغ نصف الشرف فقلنسوته من فئة الخمسين ألفاً . وكان نظام الحكم فى الدولة نظاماً مركزياً إلى أبعد حد ، والسلطة كلها فى المدائن ، فلم يكن أحد يمد الآخر أو يعينه إلا بأمر من الملك . فلما خرّب خالد أمغيشيا وعاد أهلها لاجئين لدى دهاقين القرى ، علم آزاذبه أنه غير متروك وأن الدور عليه ، فقد تبين حينئذ مسار الغزو واتجاه خالد ، فأخذ آزاذبه عدته وجمع جنده وتهيأ للحرب .

ونقلت عيون آزاذبه إليه أن خالداً يجمع السفن لينقل فيها جيشه . ذلك أن خالداً لم يشأ أن يعطل زحفه باجتياز أرض امتلأت بالأنهار والبطائح ، لاسيما وقد كان الفصل ربيعاً حيث يفيض النهران : دجلة والفرات ، وتغرق مياههما الأراضى ويشق السير على الإبل ، فجمع السفن فى أمغيشيا ليحمل عليها مشاته على أن تسير الخيل قريباً منها على الأرض . وقدم آزاذبه ابنه على رأس تجريدة من الخيل وأمره بسد الفرات حتى يمنع جريان الماء فيه ، ثم خرج فى أثره حتى عسكر خارج الحيرة .

أقام الابن(٢) على فم نهر فرات بادقلى وقام بسده ، وكانوا يستخدمون لذلك التراب والقصب (وهو البوص والغاب والأكياب) وفتح مسالك أخرى ليسلكها الماء ، وبعث طلائع متقدمة ، فأقامت بالمقر على فم نهر العتيق .

وحمل خالد مشاته على السفن فى فرات بادقلى مع الأنفال والأثقال ، فما بدأ مسيره حتى فوجىء بالسفن تجنح فى النهر ، فارتاع المسلمون لذلك ، وأكثرهم لم يركب السفن من قبل . وعلل الملاحون - وهم من أهل البلاد - ما حدث بأن العجم فجروا الأنهار ، فسلك الماء غير سبيله ، وأن الماء لا يعود إلى هذا المجرى الذى هم فيه إلا بسد الأنهار التى فتحوها .

---

(١) الطبرى ٤ / ١١ س ش س ، عن محمد ، عن أبى عثمان وطلحة ، عن المغيرة .

(٢) لم تذكر المصادر اسمه ، وقد ذكرت بعد ذلك ابنين لآزاذبه هما : آزاذمرد وشيرزاذ . ونذهب إلى أن هذا غيرهما .

وخرج خالد بنفسه من فوره فى خيل لشن غارة، هدفها إعادة المياه إلى مجراها. اتجه شمالاً بغرب بحذاء فرات بادقلى حتى بلغ المَقْر[1] عند فم العتيق، فوجد خيلاً من طلائع ابن آزاذبه، وكان طلوع خالد عليهم مفاجأة غير متوقعة، فدهمهم وهم آمنون فأبادهم. ثم لم يتوقف وإنما سار من فوره حتى لا تسبقه الأخبار إلى القوة الأساسية لابن آزاذبه حتى وجدها على فم فرات بادقلى والتحم معهم حتى هزمهم. وسد خالد الأنهار وفجر الفرات، فعاد الماء يسلك سبيله، فأرسل إلى أصحابه أن يلحقوا به، وعادت السفن إلى المسير، بينما استمر هو بمن معه من الفرسان السريعة قاصداً الحيرة، حتى نزل بين الخورنق والنجف[2] وهى مسافة تمتد حوالى عشرين كيلو متراً. وكان الخورنق قصراً (حصناً) للنعمان بن المنذر، بناه مهندس رومى يقال له: سنمّار فى عشرين سنة، فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه فقتله، حتى لا يبنى[3] مثله لغيره، فذهبت مثلاً «جزاء سنمار». ويذهب كريستنسن إلى أن هذه القصة خرافة، وأن القصر أقدم من زمن النعمان[4]. وأن حصن الخورنق من القرميد والسَّكْب، والقرميد: آجر أو شىء يشبهه، وقيل: كل شىء كالجص يطلى به. وقيل: حجارة محرقة أو خزف مطبوخ، والسكب: النحاس أو الرصاص.

مرزبان الحيرة ومعركتها

كان معسكر آزاذبه بين الغريين والقصر الأبيض. فما بلغ خالد الخورنق حتى كان آزاذبه قد انسحب بعسكره إلى ما وراء الفرات من غير قتال، متأثراً بمصاب ابنه وبموت أردشير ملك

---

(١) فى معجم البلدان أن المقر من ناحية البر من جهة الحيرة.

(٢) النجف على نحو أربعة أميال من غرب الكوفة (بلدان الخلافة الشرقية)، وتبعد النجف عن جسر الكوفة ٩ كيلو مترات، وعن كربلاء ٨٥ كيلو متراً. وهى قائمة على رابية مرتفعة فوق أرض رملية فسيحة. وكانت النجف قديماً مصيفاً ومتنزهاً للمناذرة ملوك الحيرة، هواؤها فى الصيف حر يابس، وفى الشتاء برد قارس، وحين تشتد الحرارة وتهب الرياح اللافحة «السموم» يلجأ سكان النجف إلى سراديب منحوتة يبلغ متوسط عمق الواحد منها عشرين متراً (العراق قديماً وحديثاً ١٠٦ - ١٠٧).

(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١/٢١٣.

(٤) ويذهب البلاذرى إلى ان قصر الخورنق بناه النعمان بن امرىء القيس لبهرام بن يزدجرد ابن بهرام بن سابور ذى الاكتاف، وكان بهرام جور فى حجره، ولم تكن للخورنق قبة حتى أحدثها إبراهيم بن سَلمة أحد دعاة العباسيين فى خلافة أبى العباس (فتوح البلدان ٧٢٧)، وفى رحلة ابن بطوطة أنه خرج من النجف يريد البصرة فنزل الخورنق وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات.

فارس، فلم يكن هناك من ينجده ويبعث إليه بالجيوش. انسحب آزاذبه تاركاً إقليم الحيرة يواجه مصيره، ويدافع أهله من العرب بأنفسهم عن أنفسهم.

إن التصرف الذى اتبعه آزاذبه يستوقف النظر لما يتصف به من غباء وتواكل. فبالرغم من أن خالداً قد خاض فى العراق خمس مواقع قبل المقر، فإن ذلك المرزبان كان متخلفاً عن إدراك طبيعة خصمه. وإن اعتبار منع جريان الماء هو كل الخطة الدفاعية سذاجة ما بعدها سذاجة، وإنما كان يصلح كخطوة لعرقلة التقدم ليس إلا. ولئن كان ذلك يمنع فى حالة نجاحه خالداً من استخدام السفن، فلم يكن ليمنعه من وصوله بالمسلمين إلى الحيرة. ولنفترض أن خالداً قد رضخ لإجراء آزاذبه، فأنزل جنده من السفن إلى البر ثم سار بهم نحو الحيرة، فأى دفاع آخر أعده المرزبان فى هذه الحالة؟ لئن كان يئس من الاحتفاظ بالحيرة، فهو لم ينظر إليها على أنها معركة فى حرب وحلقة فى سلسلة، وأن واجبه نحو وطنه كان يحتم عليه استمرار المقاومة حتى ولو كانت المعركة خاسرة، ففى الحرب يلزم أن ينزل بعدوه أكبر خسارة، وأن يعرقله أكثر ما يستطيع، وأن يحتفظ بأرضه وموارده أطول ما يمكن، وأن يعمل على توسيع رقعة المقاومة والاحتفاظ ما أمكن بالمعاقل. آزاذبه لم يفعل شيئاً من ذلك، وإنما كان يريد من الملك أن يحميه دون أن يقدم هو شيئاً، وترك نصارى الحيرة لمصيرهم المحتوم يدافعون عن أنفسهم إن استطاعوا ولم يكونوا مستطيعين. كان بالحيرة أربعة حصون متقاربة ينظر بعضها إلى بعض، فكانت أنسب مكان لجيش أن يثبت وأن يناوش، لاسيما وقد غمر الفيضان الأرض فوحلت.

وفى يوم المقر وما قبله قال أبو مفزر الأسود بن قطبة[1]:

لقينا يوم أُلَيْسٍ وأمْغَى ... ويوم المقر آناء النهار
ولم أرَ مثلها فضلات حرب ... أشد على الجحاجحة الكبار
قتلنا منهم سبعين ألفاً ... بقية حربهم نخب الأسار
سوى من ليس يحصى من قتيل ... ومن قد غال جَوَلانُ الغبار

---

(١) فضلات: انتصارات، الجحاجحة: جمع جحجاح وهو السيد، النخب: الخلاصة وهو ما ينتخب، الأسار: الأسرى.

الباب التاسع

فتح الحيرة

ربيع الأول ١٢هـ - مايو (أيار) ٦٣٣م

إمارة الحيرة

نشأت إمارة الحيرة[١] فى تقديرات تتراوح بين عام ١٦٥م وبين عام ٢١٢م مع قيام الدولة الساسانية فى إيران. كانت بلداً رقيقة الهواء عذبة الماء صافية الجو، ارتفع مكانها عن عمق أرياف العراق وانخفض عن ارتفاع ما جاورها من صحراء، واتصلت بالمزارع والجنان والمتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البر على مرفأ سفن البحر الواردة من الصين والهند وغيرهما، كانت على حافة سواد العراق وحافة البادية، وكان فيها من مبانى العرب الجاهليين قصور عظيمة منها قصر الخورنق[٢]. وكان القصر والحصن إسمان لمسمى واحد. وبلغت الحيرة من الأهمية فى ذلك العصر أن كان بالمدائن كاتب مختص بالشئون العربية، كما كان بها مترجم يؤجر من عرب[٣] الحيرة. وكان عرب الحيرة ينزلون ما بين الحيرة والأنبار وهيت ونواحيهما وعين التمر وأطراف البرارى، الغمير والقطقطانة وحفية، فهم ينتشرون غربى الفرات فى البادية.

كان بين الحيرة وبين موضع الكوفة نحو فرسخ[٤]. وكان الجزء المهم من الحيرة على الشاطىء الغربى من الفرات فى حدود البادية جنوبى موضع الكوفة، وآثارها ترى إلى الآن إلى الجنوب الشرقى من مشهد على بالنجف[٥]. وكانت جماعة من قبيلة تنوخ قد نزحت من اليمن لانهيار سد مأرب، وانضموا إلى قوم يسمون: العباد، كانوا يقيمون بالعراق، واشتركوا جميعاً فى بناء حصن عسكروا حوله، وحفروا حول الحصن ومعسكرهم خندقاً،

---

(١) الخريطة التى أثبتناها فى الجزء الأول برقم ٦ أمدتنا بها مشكورة مديرية الآثار العراقية ببغداد. وقد لاحظنا أن موقع الحيرة بها يختلف عن موقعها فى خريطة العراق الأثرية الصادرة عن نفس المديرية. واستناداً إلى المصادر التاريخية التى حددت موقعها بأنها كانت على فرسخ (أو على ثلاثة أميال) من الكوفة - ولم تكن الكوفة قد بنيت حين غزا خالد الحيرة - أخذنا بموقعها الوارد فى الخريطة الأثرية وهو ما وجدناه يتفق مع الروايات ويطابقها. وقد أضفنا إلى الخريطة هنا (رقم ١٦ - ص ٢٠٠) نهر البويب وخندق سابور.

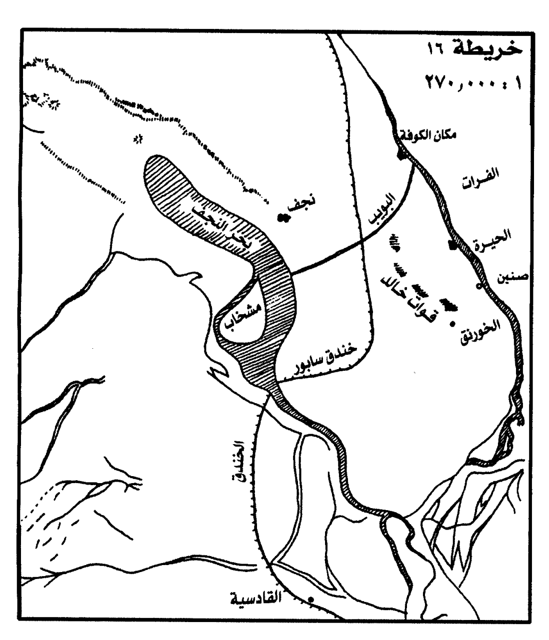
(٢) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١ / ٢١٣.

(٣) كريستنسن ١٢٤.

(٤) المسالك والممالك - الاصطخرى، ص٥٨.

(٥) الجغرافيا التاريخية الإسلامية - حسونة.

وهكذا نشأت الحيرة على ضفاف الفرات، وكانت تتخللها فروع منه، وصارت الحيرة عاصمة العرب اللخميين. وانتشرت المسيحية بين عرب الحيرة قبل الإسلام، ووقع الخلاف بين مسيحييها كما وقع بين مسيحيي الحبشة والشام ونجران، بين مؤلهي المسيح ومؤلهي مريم وبين مخالفيهم. وقد أرسل النبي ﷺ إلى الحارث الغساني ملك الحيرة يدعوه إلى الإسلام فيمن أرسل إليهم من الملوك والأمراء.



خريطة رقم (١٦) - فتح الحيرة

لحق جيش المسلمين بخالد ومن معه من طلائع، فتقدم بهم من الخورنق حتى نزل بالموضع الذى كان به آزاذبه وعسكره فيما بين الغريين[1] والقصر الأبيض. وتحصن أهل الحيرة فى حصونهم وكانت أربعة. فقسم خالد قواته لحصارها وقتال أهلها وهم من نصارى العرب الموالين للمجوس العجم.

فحاصر ضرار بن الأزور الأسدى القصر الأبيض، وفيه إياس بن قبيصة الطائى. ضرار كانت له مواقفه مع خالد فى حروب الردة.

وحاصر ضرار بن الخطاب الفهرى قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى بن المقتول. وضرار بن الخطاب أيضاً رفيق قديم لخالد بن الوليد فى مواقعه، كان فى كتيبة خالد مع المشركين يوم أحد، وقتل ضرار يومها من المسلمين سويبق بن حاطب الأنصارى وعمرو بن معاذ بن النعمان، وكان ضرار من فرسان قريش فى غزوة الخندق الذين يجيلون خيلهم ويرمون المسلمين شأن خالد وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص وأبى سفيان. ثم أسلم يوم فتح مكة ولم يكن أخاً لعمر ابن الخطاب إلا فى الإسلام.

وحاصر ضرار بن مقرن المزنى أحد الإخوة العشرة قصر بنى مازن وفيه حيرى بن أكال.

وحاصر المثنى بن حارثة الشيبانى قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبدالمسيح. هذا الحصن هو الذى قال فيه السجستانى.

لقد بَنَيتَ للحدثان قصراً ... لو أن المرء تنفعه الحصون
رفيعَ الرأس أقعسَ[2] مُشْمَخِراً ... لأنواع الرياح به حنين

وأمر خالد كل أمير أن يدعو أهل الحصن الذى يحاصره إلى واحدة من ثلاث: (الإسلام أو الجزية أو القتال) وأن يمهلوهم يوماً. وأوصاهم فقال: «لا تمكنوا عدوكم من آذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم. ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم». وأبى أهل الحيرة أن يقبلوا واحدة من الثلاث ولَجُّوا فناوشهم المسلمون.

---

(١) «الغريين» بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر على بن أبى طالب. وقيل الغرى الحسن وإنما سميا الغريين لحسنهما فى ذلك الزمان، صنعهما المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء. والغرى نصب كان يذبح عليه. (معجم البلدان).

(٢) فى المنجد، الأقعس من خرج صدره ودخل ظهره فهو ضد الأحدب، فكأن جدران الحصن كانت مقوسة.

فلما انتهت المهلة، نشب القتال مع كل الحصون، وكان أول من أنشبه ضرار بن الأزور الأسدى مع أهل القصر الأبيض، فقد أصبح الصباح وأهله مشرفون من أعلى الحصن فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فاختاروا القتال، وصاح بعضهم ببعض: «عليكم بالخزازيف». وسمع ضرار ومن معه صياحهم، فأمر جنده أن يبتعدوا عن مرمى الحصن وقال لهم: «تنحوا لا ينالكم الرمى حتى ننظر فى الذى هتفوا به».

وما لبث رأس الحصن أن امتلأ بالرجال معلقى المخالى، يرمون المسلمين بالخزازيف وهى المداحى من[1] الخزف. وأمر ضرار المسلمين أن يرشقوهم، فدنوا منهم ثم قصفوهم بالنبل، وكانوا من مهارة الرمى وإصابة الهدف بحيث أنهم ألجأوا عدوهم أن يخفضوا رؤوسهم حتى أعروا رءوس الحيطان.

استسلام الحيرة

مثل ذلك حدث فى الحصون الأخرى إذ صبَّح أمير كل فرقة أصحابه بمثل ذلك، وشنوا الغارات على ما فى خارج الحصون، فافتتحوا الدور والأديرة وأكثروا القتل. وخرج القسيسون والرهبان من أديرتهم، فنادوا أهل الحصون وقالوا لهم:

«يا أهل القصور... ما يقتلنا غيركم».

وأدرك أهل الحصون أن لا جدوى من المقاومة واستمرار القتال، وقد جلا الأعاجم وانتسف المسلمون ما حول حصونهم. فنادوا المسلمين وقالوا: «يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً».

وكان أولهم فى ذلك عمرو بن عبدالمسيح. ثم تبعته أهل الحصون الأخرى.

خرج إياس بن قبيصة وأخوه من القصر الأبيض إلى ضرار بن الأزور، وقيل: كان قبيصة بن إياس بن حية الطائى، وكان كسرى قد أمره على الحيرة بعد النعمان بن المنذر.

وخرج عدى بن عدى وزيد بن عدى من قصر العدسيين إلى ضرار بن الخطاب. وخرج عمرو بن عبدالمسيح من قصر ابن بقيلة إلى المثنى بن حارثة الشيبانى. وخرج حيرى ابن أكال من قصر بنى مازن إلى ضرار بن مقرّن.

---

(١) الخزف ما عمل من طين وشوى بالنار فصار فخاراً، والمداحى من الخزف ما كوّر منها. والذى نفهمه أنهم كانوا يقذفونها بالمقلاع أو ما يشبهه.

فأرسل كل أمير من خرج إليه إلى خالد ومع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن: بينما ظلوا هم على مواقفهم محاصرين تلك الحصون.

ولم يجمعهم خالد وإنما خلا بأهل كل حصن منهم دون الآخرين، ثم جمعهم بعد أن فرغ من كل فريق منهم على حدة. وكان الذى بدأ بهم عدى ومن معه، فلما أدخلوا على خالد فسطاطه قال لهم:

خالد - ويحكم.. ما أنتم؟ أعرب فما تنقمون من العرب؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟!

عدى - بل عرب عاربة وأخرى متعربة.

خالد - لو كنتم كماتقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا.

عدى - ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية.

خالد - صدقت. أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم إن نهضتم وهاجرتم (جاهدتم) وإن أقمتم فى دياركم. فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فالمنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم[1].

عدى - بل نعطيك الجزية.

قبيصة - ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية.

(لقد خرج المسلمون من ديارهم هداة، ولم يخرجوا جباة. وكان أحب إلى نفوسهم وقلوبهم لو أن عرب الحيرة قد أسلموا، غير أنهم اختاروا البقاء على دينهم مع أداء الجزية).

خالد - ويحكم إن الكفرَ فلاةٌ (مفازة) مضلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى.

فصالحوه جميعاً على مائة وتسعين ألف[2] درهم وأهدوا له هدايا. وبعث خالد بالفتح وبالهدايا إلى أبى بكر رضى الله عنه مع الهذيل الكاهلى. وقبل أبو بكر الهدايا على أن

(1) الطبرى ٤ / ٣، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن اسحق، عن صالح بن كيسان.

(2) وفى فتوح البلدان ٢٠٣ أنهم صالحوه على مائة ألف درهم، ويقال على ثمانين ألف، وعلى أن يكونوا عيوناً للمسلمين، وأن لا يهدم لهم بيعة ولا قصراً.

وفى الطبرى ٤ / ٣ بالاسناد السابق أنها كانت تسعين ألف درهم.

تحسب من الجزية، وكتب إلى خالد أن يحسب لهم هديتهم من الجزية إلا أن تكون هي من الجزية فعلاً. وقد كان من عادة العجم جباية «هدايا» مرتين كل[1] سنة، في النوروز وهو عيد دخول الصيف، وفي المهرجان وهو عيد دخول الشتاء. وكان فتح الحيرة في شهر مايو (أيار) موسم النوروز، وكان عندهم أفضل من المهرجان، فكان الاحتفال به يمتد ستة أيام تبدأ من اليوم الأول لشهر «أفريدون ماه» وهو أول شهور سنتهم. كما أمر أبو بكر خالداً أن يأخذ منهم بقية ما عليهم ليقوى بها أصحابه.

وكانت الجزية[2] على القادرين على القتال، ولا جزية على النساء والصبيان والمسنين، وعلى حسب أحوالهم فكانت بين ٤٨ درهماً أو ٢٤ درهماً أو ١٢ درهماً في السنة، وقد روى البلاذري[3] أن جزية الحيرة فرضت على ستة آلاف رجل، على كل رجل أربعة عشر درهماً وزن خمسة، فبلغ ذلك أربعاً وثمانين ألفاً وزن خمسة. فإذا أردنا أن نخمن تعداد الحيرة من هذا، نستطيع القول بأنه كان نحواً من ثلاثين أو أربعين ألف نسمة. ولكن قتلى أمغيشيا - التي كانت مصراً كبيراً كالحيرة - كانوا يزيدون عن مثل هذا الرقم، وهذا يجعلنا نميل إلى تقدير الحيرة بأكثر مما يسلمنا إليه تقدير تعدادها بحساب الجزية.

صلح الحيرة

وكتب خالد معاهدة الصلح مع أهل الحيرة:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١- هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد

عدياً وعَمْراً ابني عدي

وإياس بن قبيصة

وحيري بن أكال

وهم نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به.

٢- عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم[4] في الدنيا (استسلاماً)، رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد (قوة) حبيساً عن

(١) الخراج في الدولة الإسلامية ١٨٠.

(٢) الخراج - أبو يوسف ١٥١.

(٣) فتوح البلدان ٦٠٥.

(٤) في مختار الصحاح - اليد: الذلة والاستسلام، واليد: القوة.

الدنيا تاركاً لها وسائحاً تاركاً للدنيا.

٣- وعلى المنعة. فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم.

٤- وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة.

كتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة».

وأعطاهم خالد الكتاب.

وبعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه انتقض أهل السواد وذلك بعد خروج خالد من العراق إلى الشام، وعادوا إلى ولائهم لفارس إلا أهل بانقيا[1]. فلما أعاد المثنى افتتاح الحيرة بعد ذلك، أرادوا الاحتكام إلى هذه المعاهدة، فطالبهم المثنى بالكتاب فوجدهم استخفوا به وضيعوه، فلم يجبهم إلى طلبهم وكتب معهم معاهدة أخرى بشروط جديدة، فلما غلب المثنى على البلاد، عادوا إلى كفرهم وأعانوا العجم واستخفوا بكتابه وأضاعوه أيضاً. فلما فتح سعد بن أبى وقاص الحيرة، أراد أهلها الاحتكام إلى ما سبق من معاهدات فطالبهم سعد بأى من الكتابين، فلم يجيئوا بهما، فوضع عليهم ما يرى أنهم مطيقون، أربعمائة ألف درهم سوى الخَرْزَة التى كانوا يؤدونها إلى آل كسرى.

رواية من فتح الحيرة[2]

كان عمرو بن عبدالمسيح (ابن بقيلة) أرجحهم عقلاً، وقد اشتهر بينهم بالحكمة، ولعله كان أكبرهم[3] سناً، فكانوا يترددون عليه ويقدمونه فى حوائجهم حتى صار كمندوب اتصال بين أهل الحيرة وخالد بن الوليد، قال له خالد:

- كم سنك؟

أجاب عمرو:

- عَظْم.

خالد - ابن كم أنت؟

عمرو - ابن رجل واحد.

---

(١) الطبرى ٤ / ٢١ س ش س، عن محمد وطلحة وأصحابهما.

(٢) الطبرى ٤ / ١٣ س ش س، عن الغصن بن القاسم، عن رجل من بنى كنانة، ويونس بن أبى اسحق.
٤,٤، عن هشام بن الكلبى، عن أبى مخنف، عن حمزة بن على، عن رجل من بكر بن وائل. فتوح البلدان ٤٠٦، عن أبى مخنف، عن أبى المثنى الوليد بن القطامى وهو الشرقى بن القطامى الكلبى.

(٣) قيل إنه كان يومئذ ابن ثلاثمائة وخمسين سنة (البيان والتبيين ٢ / ١٤٧).

- كم أتى عليك من الدهر ؟
- لو أتى عليّ شيء لقتلني .
- كم أتت عليك سنة ؟
- مئو سنين (أو قال خمسون وثلاثمائة) .
- فما أعجب ما رأيت ؟

- رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة ، تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيفاً .
(ومن المعلوم أن بين دمشق والحيرة صحراء السماوة) . فتبسم خالد وقال :

- هل لك من شَيَخك إلا عقلة ! خَرِفت والله يا عمرو .

(وظن خالد أن الرجل قد ذهبت السنون بعقله ، بينما كان ابن بقيلة يستعرض نفسه) .
والتفت خالد إلى أهل الحيرة وقال :

- ألم يبلغني أنكم خَبَثَة خَدَعَة مَكَرَة ؟ فما لكم تتناولون حوائجكم بَخَرِفٍ لا يدرى من أين جاء ؟

(وتجاهل ابن بقيلة ما في قول خالد من حط لشأنه ، وأراد أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله) فقال :

- وحقك أيها الأمير إني لأعرف من أين جئت .
- فمن أين جئت ؟
- أقرب أم بعد ؟
- ما شئت .
- من بطن أمي .
- فأين تريد ؟
- أمامي .
- وما هو ؟
- الآخرة .
- فمن أين أقصى أثرك ؟
- من صلب أبي .
- ويحك ، على أي شيء أنت ؟

– على الأرض.
– ففيم أنت؟
– في ثيابي.
– فحرب أنت أم سلم؟
– سلم.
– فما بال هذه الحصون؟
– بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجيء الحليم فينهاه.
– أتعقل؟
– إي والله وأُقَيِّد.
– إنما أسألك.
– وأنا أجيبك.

(فلم يكن عمرو على السطحية التي ظهر بها أول الأمر، ووجده خالد عويصاً حين استكشفه، وكان أهل قريته أعلم به) قال خالد:

– قتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها والقوم أعلم بما فيهم.

– أيها الأمير، النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة!

(وكان مع ابن بقيلة خادم له يحمل كيساً يعلقه في وسطه. فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه في راحته) ثم قال:

– ما هذا يا عمرو؟
– هذا وأمانة الله سم ساعة.
– ولم تحتقب السم؟
– خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت وقد أتيت على أجلي والموت أحب إليّ من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي.

– إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، بسم الله خير الأسماء رب الأرض ورب السماء الذي ليس يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم.

(ثم وضعه – أي خالد – في فمه، وبادروه ليمنعوه ولكنه سبقهم فابتلعه).

عمرو – والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القرن[1].

(١) هكذا في الأصل، ولم نفهم لها معنى.

(وأقبل على أهل الحيرة يقول) :

- لم أر كاليوم أمراً أوضح إقبالاً .

وقد رجعنا إلى أهل الاختصاص فى الطب والصيدلة نلتمس الرأى والإيضاح لهذا الأمر ، فنفوا نفياً باتاً أن يكون ذلك ممكناً إذا كانت المادة التى يقال أن خالداً قد ابتلعها من السميات التى تقتل عادة . ونحن ننتهى إلى أنه ليس فى الإسلام مايتعارض وسنن الكون التى وضع الله لعباده ولما خلق ، ولا نستبعد مع ما لخالد من شخصية فذة يندر مثلها فى التاريخ أن ينسج الرواة حوله من الأساطير مثل هذه القصة .

انتزاع الحيرة من ملك بنى ساسان ودخولها فى طاعة المسلمين لم يكن حدثاً صغيراً ، ولم يكن ليمر دون أن تجرى به ألسنة الشعراء العرب فى حينها ، ولقد كان ابن بقيلة[١] أبرزهم فى ذلك فقال :

أبعد المُنذرين أرَى سَواماً[٢]	تُرَوَّح[٣] بالخورنق والسَّدير
وبعد فوارس النعمان أرعَى	قَلُوصاً[٤] بين مُرَّة والحَفير
فصرنا بعد هُلك أبى قُبَيْس	كجَرب[٥] المعز فى اليوم المطير
تُقَسِّمُنُا القبائل من مَعَدٍّ	علانية كأيسَار[٦] الجَزُور[٧]
وكنا لا يُرام لنا حريم	فنحن كَضَّرة[٨] الضرع الفَخور[٩]
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى	وخرج من قُرَيْظة والنضير
كذاك الدهر دولته سِجَالٌ	فيومٌ من مساءَة أو سرور

ومع فتح الحيرة وصل جرير بن عبدالله ومعه قيس بن أبى حازم إلى خالد ، سيرهما إليه أبو بكر - لم يشهدا شيئاً مما كان بالعراق قبل الحيرة إلا ما كان بعدها ، كذلك لم يشهدا شيئاً مما

(١) الطبرى ٤ / ١٣ س ش س ، عن محمد ، عن أبى عثمان وطلحة ، عن المغيرة .
(٢) السوام المال : الراعى ، سامت الماشية رعت .
(٣) تروح = تراح ، تستريح (مبنى للمجهول) . فى معجم البلدان ، السدير : نهر بالحيرة ، وقيل قصر قريب من الخورنق .
(٤) القلوص : النوق الشابة .
(٥) الجرب :الجمع ، الجماعة .
(٦) أيسار : جمع يسير وهو الهين .
(٧) الجزور من الإبل ، يقع على الذكر والأنثى .
(٨) الضرة : حلمة الضرع .
(٩) الفخور : الممتلىء .

كان فيه خالد من حروب الردة. بلغا الحيرة فوجدا خالداً متوشحاً قد شد ثوبه فى عنقه يصلى وحده صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلم فيهن ثم انصرف من الصلاة فقال: «لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدى تسعة أسياف، ثم صبرت فى يدى صفيحة يمانية فما زالت معي، وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس».

روى الطبراني: «قال حزيم سمعت رسول الله ﷺ يقول هذه الحيرة ورفعت لى، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة (متعممة) بخمار أسود... (وذكر حديثاً طويلاً) فقلت: يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما هى فهى لى؟ قال: هى لك. قال: فشهدت الحيرة مع خالد بن الوليد فكان أول من تلقانا الشيماء، فتعلقت بها فسلمها لى خالد». وأخرج البخارى عن خزيم بن أوس بن حارثة بن لام الطائى قال: «اقتتلنا يوم الحيرة فكان أول من تلقانا الشيماء نفيلة الأزدية فتعلقت بها فقلت: هذه وهبها لى رسول الله ﷺ فدعانى خالد عليها بالبينة فأتيته بها، وهى محمد بن مسلمة[1] ومحمد بن بشير الانصاريان فسلمها لى». وأخرجه ابن منده أيضاً من نفس الوجه. وقد روى عنه أنه قال: «هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرفه من تبوك. وكان معه فى قدومه هذا أخوه جرير».

وفى أيام الحيرة قال القعقاع بن عمرو[2]:

سقَى الله قتلى بالفرات مُقيمةً ... وأخرى بأثْباج[3] النِّجاف الكوانف[4]
فنحن وَطِئْنا بالكواظِم هُرمُزاً ... وبالثِّنْى[5] قَرْنَى قارنٍ بالجَوارِف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت ... على الحيرة الرَّوْحَاء[6] إحدى المصارِف
حَطَطْناهُمُ منها وقد كاد عرشُهم ... يميلُ به فعلَ الجَبان المخُالف
رمينا عليهم بالقُبُول وقد رَأوا ... غَبُوقَ[7] المنايا حول تلك المحارِف[8]
صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا ... إلى الريف من أرض العُرَيبِ[9] المقَانِف[10]

---

(١) ترجمة محمد بن مسلمة فى آخرالكتاب.
(٢) الطبرى ٤ / ١٥، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف.
س ش س، عن الغصن بن القاسم الكنانى، عن رجل من بنى كنانة ويونس بن أبى اسحق.
(٣) الثبج: الظهر.
(٤) الكوانف، المحيطة، المجاورة. الكنف: الجوار.
(٥) الثنى: النهر، والمقصود هنا موقعة المذار.
(٦) الروحاء، اسم يطلق على الحيرة.
(٧) الغبوق: الشرب بالعشى.
(٨) المحارف: الجوانب، الحرف: الجانب.
(٩) العريب: الفاسد. فى المنجد عرب فسدت معدته، وعرب الجرح تورم وتقيح.
(١٠) المقانف: المتشققة. فى المنجد، قنف المكان: تشقق طينه.

أثار فتح الحيرة

الحيرة ماديا ومعنويا

كان لفتح الحيرة أثار بعيدة. فقد كانت الحيرة أول عاصمة من عواصم الأقاليم التى يحكمها بنو ساسان تسقط فى أيدى المسلمين، وحاضرة متقدمة فى الطريق إلى المدائن. لم يكن عامة سكانها من العجم ولكن هذا لا يقلل من أهميتها وأهمية فتحها، فهى مثلاً كهونولولو إحدى ولايات الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، فسقوطها كان له الأثر المعنوى الذى يناسبه فى نفوس الفرس والمسلمين على السواء. فضلاً عن ذلك فهى قاعدة تموينية تمد جيش المسلمين بكل ما يلزمه من لحوم وألبان وتمور وحبوب وعلف. هذا بالإضافة إلى ما للحيرة من ميزة استراتيجية نظراً لموضعها من العراق. فهى موطىء قدم مناسب لقفزة هجومية أخرى نحو الهدف الأكبر فضلاً عن ميزتها التى يمنحها لها موضعها من تخوم الصحراء، فهى طريق انسحاب وخط رجعة إذا لزم الأمر.

معاهدات صلح

كان الدهاقين ينتظرون ما يصنع خالد مع أهل الحيرة، فما أن استقام ما بينه وبينهم وتم صلحهم وعرفت شروطه وبلغت أخبار ذلك إلى ما وراء الفرات، حتى أراد أهل تلك الجهات أن يجنبوا قراهم ويلات الحرب، فأتى دهاقين الملطاط وقُس الناطف وما حولهما إلى خالد، وقد أقام فسطاطه فى عسكره بالحيرة، يطلبون الصلح، فجاء صلوبا بن نسطونا بن بَصْبَهْرَى دهقان قس الناطف، وزاذ بن بُهَيْش دهقان فرات سريا - وهؤلاء كانوا من العجم ولم يكونوا من العرب - فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هُرْمُز جرد فى جنوب كسكر بأطراف العراق على ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم وقيل على ١٫٠٠٠٫٠٠٠ ثقيل، وأن للمسلمين ما كان لال كسرى من الخرزة. وقد وردت أكثر من رواية عن معاهدة الصلح مع تلك الجهات ولا نرى ما يمنع أن يكون خالد قد كتب معهم أكثر من معاهدة.

الأولى وهى صلح مع أهل قُس الناطف[١]

«بسم الله الرحمن الرحيم

١- هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، ومنزله بشاطئ الفرات.

٢- إنى قد عاهدتكم على الجزية.

٣- والمنعة على كل ذى يد، بانقيا وبسما جميعاً (على حوالى ٨٠ - ٩٠ كيلو متراً من الحيرة).

٤- على عشرة آلاف دينار سوى الخَرْزَة[٢]. القوى على قدر قدرته والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة.

٥- وأنك قد نقبت[٣] على قومك وأن قومك قد رضوا بك. وقد قبلت ومن معى من المسلمين، ورضيت ورضى قومك. فلك الذمة والمنعة. فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم.

٦- شهد هشام بن الوليد (أخ خالد بن الوليد) والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبدالله الحميرى وحنظلة بن الربيع.

كتب سنة اثنتى عشرة فى ربيع الأول[٤]».

والثانية عن بلدان أخرى مما بين دجلة والفرات.

«بسم الله الرحمن الرحيم

١- هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بهيش وصلوبا[٥] بن نسطونا

---

(١) جمعنا بنود هذه المعاهدة من الروايات الآتية:
الطبرى ٤ / ٣، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن اسحق، عن صالح بن كيسان.
الطبرى ٤ / ١٧ س ش س، عن محمد بن عبدالله، عن أبى عثمان، عن ابن أبى بمكنف، وطلحة، عن المغيرة وسفيان، عن ماهان. وعن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد، عن أبى عثمان وطلحة، عن المغيرة.

(٢) ما كانوا يؤدونه إلى كسرى، وكانت أربعة دراهم على كل رأس - (وفى رواية ابن اسحق أن خالداً صالحهم على ألف درهم).

(٣) نقبت، أى أنت نقيب على قومك.

(٤) فى الأصل شهر صفر. ولكننانرى استحالة ذلك من حيث كان صلح الحيرة - وهو قبل هذا - فى ربيع الأول. فضلاً عن ان فتح أمغيشيا كان وفق تقديرنا فى ٢٨ صفر، مما يتعذر معه أن يتسع شهر صفر لأكثر من ذلك.

(٥) فى رواية البلاذرى أنه بصبهرى بن صلوبا - وفى رواية الطبرى ٤ / ٣ أنه صلوبا السوادى، عن ابن اسحق.

السوادى ومنزله بشاطئ الفرات.

٢- إنك آمن بأمان الله وإن لكم الذمة.

٣- إذ حقن دمه بإعطاء الجزية فعليكم الجزية.

٤- وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط، وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان فى قريتيك بانقيا وباروسما. (وفى رواية، وأنتم ضامنون حرب من نقبتم عليه).

٥- على ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ألفى ألف درهم[1] تقبل فى كل سنة. ثم كل ذى يد سوى ما على بانقيا وبسما.

٦- وأنكم قد أرضيتمونى والمسلمين، وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقباذ الأسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط.

٧- على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم عن المقام فى داره فلم يدخل فى الصلح.

٨- شهد هشام بن الوليد والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبدالله الحميرى وبشير بن الخصاصية وحنظلة بن الربيع.

كتب فى سنة اثنتى عشرة فى ربيع الأول[2]».

هؤلاء الشهود رجال ذوى أقدار. فهشام أخو خالد والقعقاع نائب القائد العام فى جيشه، وجرير الحميرى صحابى من الفرسان الكماة كان على قضاعة فى هذا الزحف منذ سار من اليمامة. وبشير كان اسمه زحم، فوفد على رسول الله ﷺ فأسماه بشيراً، وكانت امرأته جهدمة فسماها النبى ليلى وقد روت عنه حديثين أو ثلاثة وكذلك روى بشير أحاديث. قال قتادة: «هاجر من بكر بن وائل أربعة رجال: رجلان من بنى سدوس، أسود بن عبدالله من أهل اليمامة وبشير بن الخصاصية، وعمرو بن تغلب من النمر بن قاسط، وفرات بن حيان من بنى

(١) فى الطبرى ٤ / ٣، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن اسحق، عن صالح بن كيسان أن الجزية كانت تسعين ألف درهم على الحيرة والقريات التى صالح عليها ابن صلوبا.

(٢) البهقباذ الأسفل خمسة طساسيج (نواحى)، فرات بادقلى والسيلحين وتستر وروذمستان وهرمزجرد، ويقال إن روذمستان وهرمزجرد ضياع متفرقة من طساسيج عدة (المسالك والممالك - ابن خرداذبة ٨). والبهقباذ الأوسط كورة من أربع طساسيج، الجبة والمداة، وسورادبربيسما، وباروسما، ونهر الملك (ابن خرداذبة ٨ و١١ - وقدامة بن جعفر ٢٣٦).

عجل». وسيأتي لبشير ذكر كثير مع الفتوح. وحنظلة بن الربيع من بني تميم، كتب للنبي ﷺ مرة كتاباً فسمي حنظلة الكاتب، وكانت الكتابة في العرب قليلة، كان من الفرسان القادة وله رواية عن النبي، وقد أرسله إلى الطائف[1].

وفي أعماله بالحيرة كتب خالد[2]:

«... إني دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب، فقالوا: لا حاجة لنا بحربك، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في إعطاء الجزية.

وإني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميزتهم (فرزتهم) فوجدت من كانت به زمانة (كبر في السن) ألف رجل، فأخرجتهم من العدة، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف، فصالحوني على ستين ألفاً، وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل ألا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ولا يدلوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، إن أخذه أشد ما أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة، وإن خالفوا فلا ذمة لهم، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا.

وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم.

وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه إلى صاحبه.

ولهم كل ما لبسوا من الزى إلا زى الحرب من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم. وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك. فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب.

وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه إلى بيت المسلمين، عمالهم منهم. فإن طلبوا عوناً من المسلمين أعينوا به، ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين».

(١) الاستيعاب ١ / ٢٧٨ - الإصابة ١٨٥٩.

(٢) عبقرية خالد ١٥٢ ولم يذكر المصدر ولا مناسبة الخطاب ولا المرسل إليه، ونعتقد أنه كان موجهاً إلى أبي بكر.

بذلك انفتح للمسلمين ما وراء الحيرة وما وراء الفرات حتى شاطئ دجلة، وبدأ خالد يمارس سلطاته الجديدة الحربية منها والمدنية، فقد كان من مقتضى تلك المعاهدات القيام بأمرين، حماية المستفيدين من أهل الصلح ضد سلطان الفرس، وجباية الجزية منهم. ولذلك بعث خالد بعمال للجباية وبحاميات تحمى أهل الذمة. فكان:

١- عبدالله بن وثيمة النصرى، فنزل فى أعلى العمل (شماله) بالفلاليج[١] على المَنَعَة (الحماية) وقبض الجزية.

٢- جرير بن عبدالله البجلى على بانقيا وبسما[٢].

٣- بشير بن الخصاصية على النهرين، فنزل الكويفة فى بانبودا.

٤- سويد بن مقرن المزنى على تُستَر[٣] (شرقى دجلة) فنزل العَقْر فهى تعرف باسمه وتسمى عقر سويد إلى قرون بعدها.

٥- أُط بن أبى أُط (واسم أبيه سويد) إلى روز مستان، فنزل منزلاً على نهر سمى به ويقال له نهر أُط[٤] إلى قرون بعدها.

هؤلاء الخمسة كانوا عمال خالد بن الوليد على خراج ما فتح من أرض العراق. أما أمراء الثغور الذين هم قواد الحاميات فكانوا:

١- ضرار بن الأزور الأسدى ببانقيا[٥].

---

(١) الفلاليج: جمع فلوجة، وهى القرية. وفلاليج السواد: قراها. والفلوجة الكبرى، والفلوجة الصغرى: قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (معجم البلدان)، وفى الصحاح الفلوجة الأرض المصلحة للزرع.

(٢) فتوح البلدان ٦٠٧، عن أبى مسعود الكوفى، عن ابن مجالد، عن ابيه، عن الشعبى.

(٣) تستر: مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة وأبراج بالأهواز، وكانت أعظم مدينة بخوزستان. ذكر بعض الرواة أن سويد بن مقرن المزنى افتتحها عام ١٢هـ من قِبل خالد بن الوليد، وحين تحدث عنها ابن بطوطة فى رحلته قال: «هى قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد». ولكننا بالنظر إلى موقعها وحصانتها نستبعد أن يكون فتح تستر قد تم ضمن أعمال هذه الحملة، ونقطع بأنها لم تفتح إلا ضمن عمليات فتح الأهواز على ما سيأتى مفصلاً فى موضعه إن شاء الله.

(٤) فى الطبرى ٤ / ١٧ أن أط رجل من بنى سعد بن زيد مناة، فهو على هذا من تميم. وفى الإصابة ٤٧٧ أنه رجل من بنى سعد بن بكر، فهو على هذا من هوازن من قيس عيلان.

(٥) فى فتوح البلدان ٦١٢، عن أبى عبيد، عن أبى مريم، عن السرى بن يحيى، عن حميد بن هلال، قال لما نزل خالد الحيرة، قال ضرار بن الأزور:

أرقت ببانقيا ومن يلق مثل ما لقيتُ ببانقيا من الجرح يأرقِ

٢- ضرار بن الخطاب الفهرى.

٣- المثنى بن حارثة الشيبانى تجاه المدائن.

٤- ضرار بن مقرّن المزنى.

٥- القعقاع بن عمرو التميمى.

٦- بسر بن أبى رهم الجهنى.

٧- عتيبة بن النهاس العجلى.

كما أرسل عاصم بن عمرو على قوة إلى كربلاء.

وذكر ابن حجر العسقلانى أن ربيعة[١] بن عتيك كان من أمراء خالد بن الوليد على الحيرة.

فنزلوا على السُيب فى عُرض سلطانه. وأمرهم خالد أن يغيروا وأن يمعنوا فى أرض العراق إلى عمق كبير، فمخروا ما وراء الفرات حتى شاطئ دجلة. ولم يعد للعجم فيما بين الحيرة ودجلة أمر، وليست لأحد من أهل السواد ذمة إلا الذين كاتبوا خالداً وصالحوه. أما سائر[٢] أهل السواد فهم واحد من ثلاث، محارب أو متحصن قد حبس نفسه فى حصنه لا يخرج منه، وإما جلاء جلوا عن بلادهم فصاروا مهاجرين ولاجئين فى أماكن أخرى.

هكذا، وقد استبقى خالد رؤوس الرساتيق الذين صالحوه وضمنوا له جباية الجزية رهائن فى يديه حتى يتم تحصيلها وتوريدها. وقد جبيت فى خمسين ليلة، وتسلمها خالد فقوى بها المسلمون على أمورهم وصارت لهم «مالية». وكتب عمال الخراج براءات «إيصالات» من صورة واحدة لأهل الخراج.

«بسم الله الرحمن الرحيم[٣]

براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التى صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد.

وقد قبضت الذى صالحهم عليه خالد.

---

(١) الإصابة ٢٦١٢.

(٢) الطبرى ٤ / ١٨، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد بن نويرة، عن أبى عثمان. س ش س، عن محمد بن عبدالله، عن أبى عثمان.
والمهلب بن عقبة وزياد بن سرجس، عن سياه الأحمرى وسفيان الأحمرى، عن ماهان.

(٣) المصدر السابق.

وخالد والمسلمون لكم يد على من بدَّل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكففتم. أمانكم أمان وصلحكم صلح، نحن لكم على الوفاء.

شهود: هاشم بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجابر بن طارق، وجرير ابن عبدالله، وبشير بن عبيد الله بن الخصاصية، وحنظلة بن الربيع، وأزداذ والحجاج بن ذى العنق ومالك بن زيد.

كما كتب[1] أهل الحيرة كتاباً - تعزيزاً لذلك «إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد العبد الصالح، والمسلمون عباد الله الصالحون على أن يمنعونا وأميرهم البغى (العدوان) من المسلمين وغيرهم».

استتب الأمر لخالد على ما فتح من أرض السواد عنوة أو صلحاً، ولكن مازال الفرس هناك فى عاصمتهم المدائن على ضفتى دجلة. ومات أردشير واختلف آله وساسة الفرس على الملك من بعده، غير أنهم جميعاً كانوا مجتمعين على حرب المسلمين الغزاة متساندين لذلك، وقد أنزلوا بهمن جاذويه فى بهر سير على الضفة الغربية لدجلة جنوبى المدائن. كان بهمن فى جيش كأنه مقدمة وكان معه فيه آزاذبه مرزبان الحيرة الهارب وأشباه له من مرازبة السواد الهاربين.

رسائل إلى العجم

وأمر خالد[2] صلوبا فأحضر له رجلاً اسمه هزقيل. فأرسله برسالة إلى الفرس، كماأرسل رجلاً آخر من أهل الحيرة اسمه مرة برسالة أخرى. إحدى الرسالتين لملوك الفرس بالمدائن والثانية لمرازبتهم.

كتب فى الأولى:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس.

أما بعد. فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم. ولو لم يفعل ذلك

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبرى ٤ / ١٧ س ش س، عن محمد بن عبدالله، عن أبى عثمان، عن ابن أبى مكنف. وطلحة عن المغيرة، وسفيان عن ماهان.

وعن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن محمد، عن أبى عثمان وطلحة، عن المغيرة.

بكم كان شراً لكم.

فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم. وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غَلبَ، على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

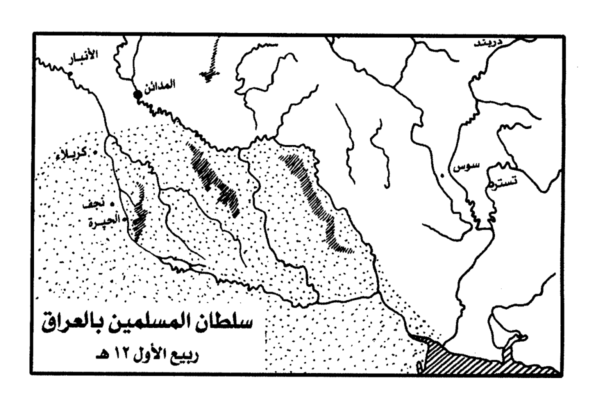
كان ذلك بعد ثورة شهر براز، وقتل أردشير الثالث، وهذا واضح من صيغة الرسالة. لم يوجهها إلى ملك مسمى باسمه، وهو يذكر فيها حل نظامهم ووهن كيدهم... (يرجع إلى الباب الرابع) كذلك انتهزها خالد فرصة لتوجيه رسالة مباشرة لمن هم دون الملوك.

وكتب في الثانية:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس.

أما بعد. فأسلموا، تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر».



خريطة رقم (١٧) - سلطان المسلمين بالعراق

ووجه خالد كل رسول وجهته وأمرهما أن يوافياه بالخبر .

وأقام[1] خالد بالحيرة عاماً فجعلها قاعدته، يصعّد منها ويصوّب . فكان ممن بعث بشير بن سعد الأنصارى (والد النعمان بن بشير الأنصارى) إلى بانقيا، فلقيته خيل الأعاجم عليها فَرُّخْبُنداذ وحمل عليهم بشير فهزمهم وقُتل فَرُّخْبُنداذ . ثم انصرف بشير وبه جراحة مات منها بعد ذلك .

وبلغ خالداً أن جابان فى جمع كبير بتستر، فوجه إليه المثنى بن حارثة الشيبانى وحنظلة بن الربيع بن رياح الأسيدى من بنى تميم، فلما اقتربا منه انسحب إلى داخل البلاد، فلم يتبعاه .

هذا والفرس مشغولون فى المدائن بخلع ملك وتولية آخر، فقد كان لديهم أزمة، ذلك أن شيرويه بن كسرى قتل كل من كان يناسبه إلى كسرى ابن قباذ (كسرى أنو شروان) . ثم ثار الفرس بعده وبعد ابنه أردشير، فقتلوا كل من كان بين كسرى بن قباذ وبين بهرام جور . ثم بقوا بعد ذلك فى أزمة ملوك لا يجدون من يملكونه عليهم من بيت ساسان . وكانوا حينذاك لا يملكون إلا الدفاع عن بهرسير فحسب حيث كان بها بهمن جاذويه فى جيش كبير . ثم ولىَّ الفرس فرخزاذ بن بندوان من غير بنى ساسان من رجالات فارس إلى أن يجتمع آل كسرى على رجل إن وجدوه .

(1) الطبرى ٤ / ١٨، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عبدالعزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت، عن ابن الهذيل الكاهلى .
س ش س، عن عبدالعزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت، عن ابن الهذيل الكاهلى .

الباب العاشر

خالد يقوم بمهمة عياض



سنة نساء[١]

تم كل ذلك لخالد، فى زمن انحصر بين أواخر محرم ١٢هـ إلى أوائل ربيع الأول من نفس العام، يعنى فى حوالى أربعين يوماً تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً. أنفذ المطلوب منه كأروع ما يكون الأداء، ولكنه أقام بعد ذلك بالحيرة ينتظر أن يفرغ عياض بن غنم من أمر دومة الجندل، وقد كانت أول موقع عليه أن يفرغ منه ثم يدخل العراق من شماله إلى الجنوب مبتدئاً بالمصيخ حتى يصل إلى الحيرة، فيبقى بها مؤخرة واحتياطياً لخالد وحامياً له حتى يقتحم المدائن. وما أسلم الخطة لولا أن أحد فكى الكماشة توقف ولم يطبق فاختلف التوقيت.

انتهى خالد مما وكل إليه بأسرع مما يتوقع إنسان. بينما أبطأ المطلوب من عياض عن كل ما توقع إنسان، وصمدت له دومة الجندل فى أول طريقه إلى المصيخ فلم يفتحها. وأمر الخليفة صريح وواضح. ألا يقتحم المسلمون أرض العجم وخلفهم للفرس جنود وحصون. ولقد كان مازال للفرس بعين التمر عسكر وحصون وبالأنبار عسكر وحصون وبالفراض عسكر ثالث، تشكل جميعها خطراً على ميسرة ومؤخرة أى جيش يتقدم من الحيرة إلى داخل العراق.

وسئم المسلمون بالعراق من طول ما انتظروا - ولعل خالداً نفسه كان أكثرهم سأماً ومللا، فقد قال للمسلمين:

«لولا ما عهد إلىّ الخليفة لم أستنقذ عياضاً، وما كان دون فتح فارس شىء. إنها لسنة كأنها سنة[٢] نساء!!»

إعادة تنظيم

إذ ذاك عزم خالد على أن يقوم بنفسه بعمل عياض. ويستلزم هذا أن يقوم بعمليات يفض

---

(١) الطبرى ٤ / ١٩، عن عبيد الله، عن عمه، عن سيف، عن عمرو والمجالد، عن الشعبى.

(٢) فرغ خالد من الحيرة وعقد صلحها وسائر الصلح مع الدهاقين فى ربيع الأول، وسنرى فيما بعد أنه بلغ الفراض فى رمضان، وكان قبلها قد فتح الأنبار وعين التمر ودومة الجندل وحصيد والخنافس والمصيخ والثنى والزميل والرضاب. وإذن فقد تحرك إلى هذه العمليات على الأكثر فى رجب. وحينئذ لا يكون قد أقام بالحيرة أكثر من أربعة أشهر وليس سنة. ولذلك نرى أن مقالة خالد هذه إنما كانت بعد ذلك بعد أن قام بعمل عياض، وكان ضيقه أن لم يزحف إلى المدائن، فاعتبرها، رغم كل ما قام به من عمله هو وعياض، أنها سنة نساء إذ لم يفتح المدائن.

بها حصون الفرس ويصفى قواتهم الواقعة على الفرات شمالى الحيرة. فأدخل خالد على تنظيم قواته وأمرائه على الثغور وعلى الجباية بعض التعديل - وكانت الجباية قد تمت. فقسم ما فتح من أرض العراق إلى أحد عشر قسماً، سبعة بالحيرة وأربعة بالأبلة، على كل قسم أمير من المسلمين.

فكان أمراءالحيرة[1]:

١- جرير بن عبدالله الحميرى.

٢- بشير بن الخصاصية.

٣- خالد بن الواشمة.

٤- الحجاج بن ذى العنق.

٥- أط بن أبى أط.

٦- سويد.

٧- ضرار.

وكان أمراء الأُبُلَّة:

١- سويد بن مقرّن المزنى.

٢- حسكة الحنظلى[2].

٣- الحصين بن أبى الحر.

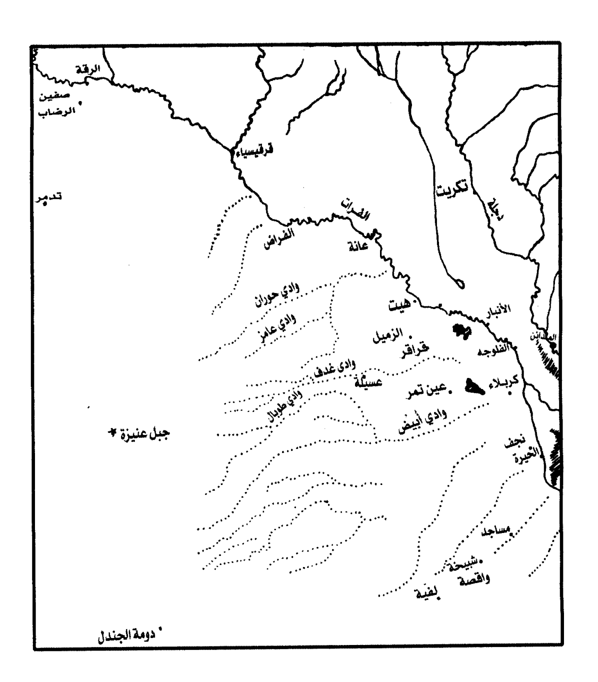
٤- ربيعة بن عسْل.

وطوال هذه المدة، قبل خروج خالد فى عمل عياض، وبعد خروجه، لم يكف أمراء الثغور عن مناوشة العجم والإغارة على شتى جهات السواد حتى شواطئ دجلة، حتى يشغلوهم دائماً، وحتى يغنموا منهم ما يستنزف مواردهم وما يتعيشون هم به.

---

(١) الطبرى ٤ / ١٩ س ش س، عن محمد بن عبدالله، عن أبى عثمان.
وطلحة عن المغيرة، والمهلب عن سياه، وسفيان عن ماهان.

(٢) فى الطبرى حسكة الحبطى، وفى الإصابة الحنظلى، ونذهب إلى أنه الصواب حيث أننا لم نقف فى قبائل العرب على ما يمكن أن ينسب إليه لفظ الحبطى، وحنظلة كانت بطناً من تميم.



خريطة رقم (١٨) - دومة الجندل

خالد يتحرك

استخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو التميمى - وكان يحتل مكانة الرجل الثانى فى جيش خالد، أو نائب القائد العام - ثم خرج لإغاثة عياض وليقضى ما بينهما. كان عياض فى دومة الجندل التى تقع فى قلب الصحراء على مسافة تبعد حوالى خمسمائة كيلو متر إلى الجنوب الغربى، ولكننا نجد خالداً يتجه شمالاً فى طريق الفلوجة حتى نزل بكربلاء على حوالى مائة كيلو متر شمالى الحيرة، وكان على حاميتها يومذاك عاصم بن عمرو التميمى.

فلو أن خالداً اتجه نحو دومة الجندل مباشرة لترك ظهره فى الحيرة مكشوفاً لأن يضربه العجم والعرب الموالون لهم من مسالحهم التى سبق ذكرها . كان خالد يعلم أن الخط المستقيم ليس دائماً أقصر الخطوط فى الحرب . إنه تحرك لا يختلف فى طبيعته عن تحركه المرغوب نحو المدائن . وهو ما يتلافى خالد أن يفعله فى حين تكون قاعدته ومؤخرته فى الحيرة مهددة غير آمنة . بذلك أمر الخليفة أبو بكر رضى الله عنه . ولذلك كان لابد من الفراغ من تلك المواقع الكائنة إلى الشمال قبل التحرك فى أى اتجاه آخر .

إن الإنسان ليعجب اليوم من تلك النظرات الحربية التى هدى إليها رجل موفق مثل أبى بكر ! لم يكن لديه أركان حرب يشيرون عليه ولم يدرس الحروب فى كلية أو أكاديمية ، ولم يكن بين يديه خرائط للعراق ينظر فيها ويرسم . . لا شىء من هذا . ولكنه مع ذلك كان يضع لعلم الحرب أصولاً وقواعد وهو جالس على رمال المدينة فى مسجد الرسول . ذلك الرجل الفذ ، الأبيض الذى تخالطه الصفرة ، الحسن القامة النحيف الأحنى ، الخفيف العارضين الذى لا يستمسك إزاره يسترخى عن حِقْوَيْه ، الرقيق ، العتيق ، معروق الوجه ، غائر العينين ناتىء الجبهة ، عارى الأشاجع ، (بارز عروق ظاهر الكف) الأقنى ، حمش الساقين ممحوص الفخذين يخضب شعره بالحناء والكتم[1] .

تقدم[2] خالد شمالاً ، وقد جعل على مقدمته الأقرع بن حابس التميمى . وكان أمير مقدمته قبل ذلك حتى فتح الحيرة المثنى بن حارثة الشيبانى . غير أن المثنى الآن على ثغر متقدم من الثغور تجاه المدائن . ومن الآن فصاعداً سيكون الأقرع[3] هو قائد مقدمة خالد بن الوليد المتحركة بدلاً من المثنى الذى تولى قيادة المقدمة المتقدمة جداً للقاعدة الثابتة بالحيرة .

وأقام خالد بكربلاء أياماً ، لعله كان يستطلع أخبار عدوه وما أقبل عليه . وكان الذباب بكربلاء كثيراً جداً ضايق المسلمين ، فشكا عبدالله بن وثيمة النصرى ذلك إلى خالد ، فقال له خالد :

---

(١) الطبرى ٤ / ٤٩ ، عن الحارث ، عن ابن سعد ، عن محمد بن عمر ، عن شعيب ، عن طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبى بكر ، عن أبيه ، عن عائشة .

الأقنى : الذى ارتفع وسط قصبتى أنفه وضاق منخراه . حمش الساقين : دقيقهما . ممحوص الفخذين : نحيفا . والكتم : نبات يخضب منه الشعر ويصنع منه المداد .

(٢) الطبرى ٤ / ١٩ س ش س ، عن أبى روق ، عمن شهدهم .

(٣) راجع ترجمة الأقرع بن حابس فى آخر الكتاب .

«اصبر فإني أريد أن استفرغ المسالح التي أُمر بها عياض فنسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم، وتجيؤنا العرب أمنة وغير متعتعة (مترددة) وبذلك أمرنا الخليفة، ورأيه يعدل نجدة الأمة».

ما أشد تقدير خالد لكفاءة أبي بكر العسكرية. وأيضاً ما أشد تقدير أبي بكر لكفاءة خالد.

وكدأب العرب نجد أخبارهم في أشعارهم، فقد سجل الضيق من إقامة المسلمين وسط ذباب كربلاء رجل من أشجع فقال:

لقد حُبست في كربلاء مَطيَّتي	وفي العَين حتى عاد غثّاً سمينُها
إذا رَحَلَتْ من مَبْرَك رجَعَتْ له	لَعَمْرُ أبيها إنني لأهينُها
ويمنعها من ماء كلِّ شريعة[1]	رفاقٌ من الذُّبَان[2] زُرْقٌ عيونها

(١) الشريعة: مورد الماء.
(٢) الذبان: كثير الذباب.

معركة بالأنبار[1]

٤ رجب ١٢هـ - ١٤ سبتمبر (أيلول) ٦٣٣م (تاريخ تقديري)

خرج خالد من كربلاء نحو الأنبار على الشاطئ الشرقي للفرات على ١١٠ كيلو مترات شمالاً، وقد قدم أمامه مقدمته، وأميرها الأقرع بن حابس. فلما اقتربت المقدمة ونزلت المنزل الذى يسلمها إلى الانبار ولدت[2] لقوم من المسلمين إبلهم، فلم يستطيعوا الإقامة ولم يجدوا بداً من الإقدام ومعهم بنات مخاض مولودات تتبعهم. فلما نودى بالرحيل صَرُّوا[3] الأمهات واحتملوا المولودات لأنها لم تطق السير، فبلغوا الانبار ركباناً وقد تحصن أهلها وخندقوا عليهم وأشرفوا من حصنهم.

كان شيرزاذ حاكم ساباط هو قائدهم. وكان أعقلهم وأسودهم وأقنعهم، سواء فى العجم أو فى العرب الموالين لهم. فلما طلعت مقدمة خالد على الحصن تصايح العرب المتحصنون فيه وقالوا:

«صبّح الأنبار شرٌّ. جَمَل يحمل جُمَيْلَة وحمْلٌ تُربُه عوذٌ»

وسأل شيرزاذ عن معنى ذلك الصياح فترجم له، قال:

«أما هؤلاء - يعنى عرب الحصن - فقد قضوا على أنفسهم، وذلك أن القوم إذا قضوا على أنفسهم قضاء، كاد يلزمهم. والله لئن لم يكن خالد مجتازاً (يجتازه ويمشى معه) لأصالحنه».

---

(١) الطبرى ٤ / ٢٠ س ش س، عن محمد وطلحة وأصحابهما

قال ابن خرداذبه: إن كورة العالى كانت أربعة طساسيج (نواحى): الأنبار ومسكن وقطربل وبادوريا (المسالك والممالك ٧)، وكذلك ذكر قدامة بن جعفر فى الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٣٥.

(٢) تلد الإبل فى شهر سبتمبر (أيلول). ومن هنا أقتنا ميقات الأنبار. ويطابق ذلك بلوغ خالد إلى الفراض فى رمضان نوفمبر (تشرين الثانى) بعد ثمانية مواقع، ويؤيد ما ذهبنا إليه أيضاً، ما جاء فى أبيات عاصم بن عمرو، من أنهم انتظروا حتى رأوا حصاد الزرع، ونعتقد أنه كان يعنى حصاد القمح. يقول عاصم:

لزمنا جانب الملطاط حتى   رأينا الزرع يقمع بالحصاد

الملطاط: ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة.

(٣) صَرّ الناقة: شد عليها الصرار، وهو خيط يشد فوق الخِلف والتودية لئلا يرضعها ولدها.

ثم أقبل خالد، فأطاف بالخندق، ثم أسرع فأنشب القتال، وكان دائماً سريعاً إليه قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به. تقدم خالد إلى رماته فأوصاهم وقال لهم:

«إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب، فارموا عيونهم لا توَخَّوا غيرها، فارموا رِشْقاً واحداً ثم تابعوا».

واصطف الرماة صفاً، وقد وضعوا سهامهم فى أوتار أقواسهم وشدوها إلى صدورهم بأيمانهم فى وضع استعداد. ثم صدر الأمر فانطلقت السهام كثيفة كسرب من الطير فى نزع واحد سريعة إلى أهدافها فوق رءوس جدران الحصن ولها أزيز. ثم تتابع الرمى.

ففقىء ألف عين من أهل الحصن يومئذ، ولذلك سميت تلك الموقعة ذات العيون. وتصايح أهل الحصن وقد شملتهم الفوضى وشغلوا بمن أصيب وقالوا:

«ذهبت عيون أهل الأنبار»

فسأل شيرازاذ عما يقولون فترجموه له فصاح بالفارسية «آباذ آباذ». ثم راسل خالداً فى الصلح على أمر - لم تذكره المصادر - ولم يرضه خالد، فرد الرسل.

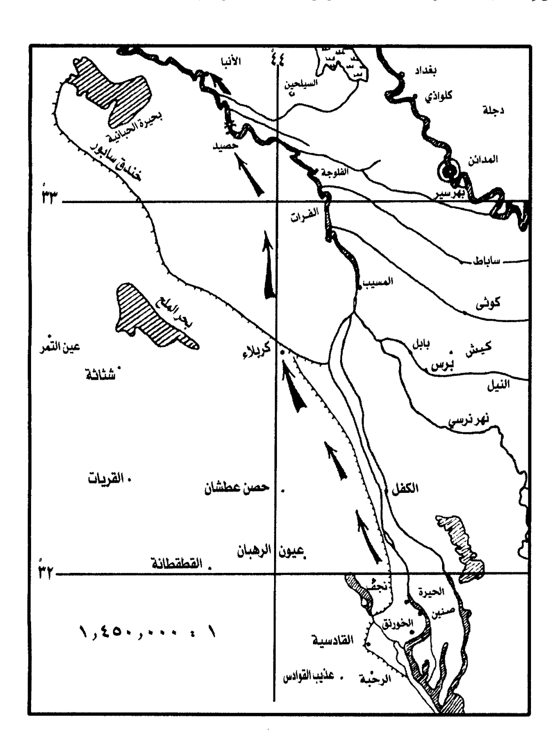
استسلام

وجاء خالد على أضيق مكان بالخندق، وأتى برزايا الجيش من الإبل العجاف فنحرها ثم رمى بها فيه، فملأه وصنع منها جسوراً اقتحم عليها الخندق واجتمع المسلمون وأعداءهم فى الخندق وانحاز القوم إلى حصنهم، فأرسل شيرازاذ إلى خالد بقبول شروطه فى الصلح على أن يخليه ويبلغه مأمنه فى تجريدة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء، وقبل خالد.

خرج شيرزاذ من الأنبار إلى المدائن، فلما قدم على بهمن جاذويه لامه على استسلامه فشرح له شيرزاذ الأمر، وقال:

«إنى كنت فى قوم ليست لهم عقول وأصلهم من العرب - وكان الفرس يحتقرون العرب - فسمعتهم مقدمهم علينا يقضون على أنفسهم، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم. ثم قاتلهم الجند ففقؤا فيهم وفى أهل الأرض ألف عين، فعرفت أن المسالمة أسلم».

ولما اطمأن خالد والمسلمون، وأمن أهل الأنبار وظهروا، رآهم يكتبون العربية ويتعلمونها. فسألهم خالد عن أنفسهم، فقالوا إنهم قوم من العرب نزلوا على قوم من العرب سبقوهم إلى هناك أيام بختنصر حين أباح العرب ثم بقوا بها. قال: «ممن تعلمتم الكتاب؟» قالوا: «تعلمنا الخط من إياد» (قبيلة عربية سكنت الجزيرة بشمال العراق).



خريطة رقم (١٩) – فتح الأنبار

وصالح خالد مَن حول الأنبار وبدأ بأهل البوازيج. كما بعث إليه أهل كلواذى[1] على الشاطئ الشرقى لدجلة شمالى المدائن بحوالى ٢٥ كيلو متراً ليعقد لهم ذمة، فكاتبهم على ذلك وكانوا عيبته من وراء دجلة. هذا وقد نقض أهل الأنبار وما حولها عهدهم بعد ذلك فيما كان يحدث بين المسلمين والمجوس من تداول السيطرة مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء على تلك المناطق، ما عدا أهل البوازيج فإنهم ثبتوا كما ثبت أهل بانقيا .

(١) كلواذى: بالقرب من الأنبار من البوازيج، وهى قرب بغداد، وناحية الجانب الشرقى من جانبها، وناحية الجانب الغربى من نهر بوق، وهى الآن (فى عصر ياقوت الحموى - توفى ٦٢٧هـ)، خراب أثرها باق بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر - معجم البلدان.

عين التمر

١١ رجب ١٢هـ - ٢١ سبتمبر (أيلول) ٦٣٣م. (تاريخ تقديرى)

عجم خبثاء وعرب عملاء

لما فرغ خالد من الأنبار واستتب له الأمر فيها وفيما حولها، استخلف عليها الزبرقان بن بدر التميمى. ثم اتجه نحو عين التمر، وهى حصن بالصحراء اجتمع به مهْرَان بن بهرام جوبين فى جمع كبير من العجم، وعَقَّة بن أبى عقة[1] - وكان أحمق مغروراً - فى جمع كبير من العرب من قبائل النمر[2] وتغلب وإياد ومن اجتمع إليهم.

وسمعوا باقتراب خالد. قال عقة لمهران:

«إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً».

ووافق هذا هوى مهران فانتهزها وقال:

«صدقت! لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم مثلنا فى قتال العجم... دونكموهم (يعنى نتركهم لكم) وإن احتجتم الينا أعنّاكم».

فلما مضى عقة نحو خالد قال العجم لمهران:

«ما حملك من أن تقول هذا القول لهذا الكلب؟»

قال: «دعونى، فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم. إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفَلَّ حدكم، فاتقيته بهم. فإن كانت لهم على خالد فهى لكم، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا، فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم ضعفاء».

فوافقوه على ذلك واعترفوا له بفضل الرأى.

---

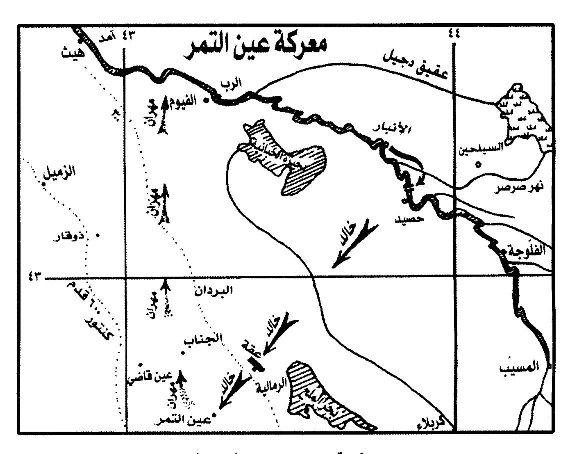
(١) الطبرى ٤ / ٢١ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب وزياد.
وعين التمر كانت من كورة بهقباذ الأعلى وهى ستة طساسيج (نواحى) وهى: بابل وخطرنية والفلوجة العليا والفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر. (ابن خرداذبه ٨ وقدامة بن جعفر ٢٣٦)، وكان هناك طريق من عين التمر إلى بصرى بالشام (ابن خرداذبه ٩٧)، ولا تزال أطلال حصن عين التمر باقية، وقد أطلق عليه فيما بعد قصر الأخيضر (الفتح العربى للعراق والجزيرة ١١٣). وقد أخذناموقعها على الخريطة من خريطة العراق الأثرية.

(٢) فى فتوح البلدان ٦١٩، أنه عقة بن القيس بن البشر النمرى.

بقى مهران مع الأعاجم فى الحصن بعين التمر . وتقدم عَقَّة بالعرب فنزل لخالد على طريق الكرخ (كرخ بغداد - وهو الطريق إلى بغداد) كالخفير للعجم . وقد جعل على ميمنته بجير بن فلان أحد بنى عبيد بن سعد بن زهير ، وعلى ميسرته الهذيل بن عمران . وكانت بين عقة وبين مهران روحة أو غدوة (نصف يوم أى حوالى ٢٢ كيلو متراً) وربما كان ذلك بالمكان المعروف بالرمالية أو قريباً منه . وقدم خالد فوجد عقة على تعبئة ، فعبأ جنده وقال لمجنبتيه :

«اكفونا ما عنده فإنى حامل عليه» .

ووكل بنفسه حماة يحمون ظهره ثم نظر فوجد عقة يقيم صفوفه . وتقدم له خالد ثم فاجأه بما لم يكن فى حسبانه ، لم يبارزه ولم يقاتله ، وإنما هجم عليه فاحتضنه ثم حمله وعاد به أسيراً . ولم يفاجأ عقة وحده بل فوجئت جميع قواته فولت الأدبار منهزمة من غير قتال . حينئذ هجم المسلمون عليهم يقبضون عليهم فأكثروا فيهم الأسر . وفر بجير والهذيل قائدا الميمنة والميسرة ، واتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون .



خريطة رقم (٢٠) - سقوط عين التمر

وبذلك فشلت خطة مهران. فقد تبدد العرب الموالون له وانتصر المسلمون ولم يفقدوا واحداً من جنودهم. وجاءت هذه الأخبار إلى مهران فى حصنه ففتت فى عضده وأثرت فى معنويته فآثر الهرب وانسحب فى جنده تاركين حصن عين التمر. وأغلب ظننا أنه انسحب شمالاً حتى عبر الفرات وانضم إلى قاعدته. فإنه بطبيعة الحال لم ينسحب إلى الطريق الذى جاء منه خالد، ولم يكن لينسحب فى اتجاه كربلاء وفيها عاصم بن عمرو بحامية من المسلمين، كما أننا لم نجد له ولا لقواته ذكراً فى المعارك التالية فى المُصَيَّخ والثنى والزميل.

وجاءت فلول عقة فدخلت الحصن الخاوى واعتصمت به. وجاء وراءهم خالد والمسلمون، ونزل خارج الحصن وعقة أسير معه ورجل آخر من كبرائهم اسمه عمر بن الصعق. وقد ظن أهل الحصن أن يكون خالد كمن كان قبله ممن يغير من العرب وينصرف - فكذلك كانت حروبهم من قبل - فلما رأوا أنه يحاولهم ويريدهم سألوه الأمان، ولكن خالداً كان يريد تطهير المنطقة تماماً ليتجه إلى دومة الجندل وكيف يأمنهم على ظهره إذا آمنهم، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه دون قيد أو شرط. فاستسلموا للأمر الواقع وفتحوا له الحصن فقبض عليهم أجمعين. ثم أمر فضربت عنق عقة وألقاه على الجسر. ورأى الأسرى جثته فيئسوا من الحياة. ثم أمر بعمرو بن الصَعْق فضربت عنقه أيضاً. ثم تتابع على ذلك فضرب أعناق أهل الحصن أجمعين وسبى كل من حوى الحصن وغنم ما فيه. ووجد فى كنيستهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل، عليهم باب مغلق فكسره عنهم وأجابوه بأنهم رهائن فاعتبرهم خالد من السبى وقسمهم فى أهل البلاء[١].

واستشهد بعين التمر بشير[٢] بن سعد الأنصارى، انتقض جرحه الذى ذكرنا أنه جرحه فى بانقيا فى التحامه مع فَرُّخْبُنْدَاذ فمات ودفن بعين التمر ودفن إلى جانبه عمير بن رئاب (بن مهشم بن سعيد بن سهم بن عمرو) وكان أصابه سهم بعين التمر فاستشهد.

لعلنا نذكر الوليد بن عقبة حين بعثه خالد بأخماس الأبلة إلى أبى بكر. حينذاك وجهه

(١) كان منهم أبو زياد مولى ثقيف، ونصير أبو موسى بن نصير صاحب المغرب، وسيرين أبو محمد بن سيرين، وعلاثة، وقد صار إلى المعنى بن حارثة، وحريث، وكان لرجل من بنى عباد. وحمران بن أبان بن خالد النمرى، وحمران مولى عثمان، وكان للمسيب بن نجبة الفزارى فاشتراه منه فأعتقه، وأبو عمرة جد عبدالله بن عبدالأعلى الشاعر. ويسار جد محمد بن اسحق صاحب السيرة وهو مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، ومرّة أبو عبيد، جد محمد بن زيد بن عبيد بن مرة، ونفيس بن محمد بن زيد بن عبيد بن مرة صاحب القصر عند الحرة، وأبو فروة عبدالرحمن بن الأسود، وقيل ذلك لفروة كانت عليه حين سُبى، وقيل كان ولاؤه وولاء نصير أبى موسى لبنى ضبة (الطبرى والبلاذرى).

(٢) ترجمة بشير بن سعد الأنصارى فى آخر الكتاب.

أبوبكر إلى عياض[١] مدداً له، فقدم الوليد إلى دومة الجندل وعياض محاصرها وأهلها محاصروه وقد أخذوا عليه الطريق فأتعبهم وأتعبوه. قال له الوليد:

«الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف.. ابعث إلى خالد فاستعن به».

وأخذ عياض بمشورة الوليد فأرسل إلى خالد. وجاء رسول عياض إلى خالد فور فراغه من عين التمر[٢]، فكتب من فوره إلى عياض:

«من خالد إلى عياض. إياك أريد

لبث قليلاً تأتك الجلائب[٣] يحملن آساداً عليها القاشب[٤]

كتائب يتبعها كتائب

---

(١) انظر ترجمة عياض بن غنم فى آخر الكتاب.

(٢) الطبرى ٤ / ٢٢ س ش س، عن محمد وطلحة وأبى سفيان طلحة بن عبدالرحمن والملهب ابن عقبة.

(٣) الجلائب: الخيل. وفى مختار الصحاح جلب على خيله صاح من خلفه واستحثه للسبق. وقرئت أيضاً الحلائب: جمع حلبة، وهى خيل السباق تجمع من كل أوب وناحية لا من اسطبل واحد.

(٤) القاشب: السيف الصقيل المجلو.

فتح دومة الجندل [1]

٢٤ رجب ١٢هـ - ٤ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٣م

السير إلى دومة الجندل

فرغ خالد من عين التمر فاستخلف عليها عويم بن الكاهل الأسلمى. وخرج فى تعبئته التى كان عليها وعلى مقدمته الأقرع بن حابس التميمى. وسبقت الأخبار خالداً فعلم أهل دومة أنه يسير إليهم، وقد اجتمع بدومة قبائل من كلب وبهراء عليهم وديعة الكلبى ويسانده ابن وبرة بن رومانس، والضجاعم عليهم ابن الحدرجان، وطوائف من غسان وتنوخ عليهم ابن الأيهم. وقد أرسلوا إلى أحزابهم ليأتوهم بأمداد جديدة. كانت دومة الجندل موقعاً حصيناً بين المدينة ودمشق، وكان بها من المبانى العظيمة حصن مارد الذى كان للسموءل بن عاديا، وكان مبنيا من حجارة سود نحسبها من البازلت. وكان للسموءل حصن آخر بتيماء هو المعروف بالأبلق الفرد، وكان من حجارة سود وبيض وفيهما قالت الزَّبَّاء: «تمرد مارد وعز الأبلق». وكان لدومة الجندل أهمية كبرى تحتم العمل على الاستيلاء عليها، فقد كانت جزيرة العرب تقع إلى جنوبها فى حين كان للمسلمين جيوش فى العراق وفى الشام، وكانت دومة الجندل عند ملتقى الطرق إلى الجهات الثلاث، وكانت على ثلاث عشرة مرحلة من المدينة وعلى عشر مراحل من الكوفة وعلى عشر مراحل من دمشق [2].

وكان على أهل دومة الجندل رئيسان: أحدهما أكيدر بن عبدالملك، والثانى الجودى بن ربيعة. فلما بلغهم سير خالد إليهم اختلفوا. قال أكيدر:

«أنا أعلم الناس بخالد. لا أحد أيمن طائراً منه ولا أَحَدَّ فى حرب. ولا يرى قوم وجه خالد أبداً، قلّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه. فأطيعونى وصالحوا القوم».

ولا شك أن هذا الرأى كان عين العقل ولكنهم أبوا. وكان أكيدر مقتنعاً بما يقول واثقاً به، فقد كان له مع خالد تجربة سابقة حين أرسل الرسول خالداً من تبوك إلى دومة الجندل، فعاد

---

(١) الطبرى ٤ / ٢٢ س ش س، عن محمد وطلحة وأبى سفيان طلحة بن عبدالرحمن، والمهلب ابن عقبة. والتاريخ تقديرى بين ما كان قبل ذلك من أحداث، وما كان بعد.

(٢) المسالك والممالك - ابن خرداذبه ١٢٩.

بأكيدر أسيراً بعد أن قتل أخاه حسان بن عبدالملك. أبى أكيدر أن يمالىء قومه على حرب خالد فتركهم وشأنهم وخرج يريد الرجوع إلى موطنه. كان موطنه الأصلى دومة العراق بالقرب من عين التمر فكأنه سلك طريقاً قريباً من الطريق الذى يجىء منه خالد. ومن الأمور العجيبة التى تستوقف النظر أن يعلم خالد بذلك وهو بالطريق، فبعث عاصم بن عمرو ليعترض طريق أكيدر فأسره عاصم. قال له أكيدر: «إنما تلقيت[1] الأمير خالداً».

فلما أتى به لم يقبل منه خالد وأمر به فضربت عنقه وأخذ ما كان معه. ومضى خالد إلى دومة الجندل، وكان رؤساء أهلها:

١- الجودى بن ربيعة.

٢- وديعة الكلبى. - على كلب وبهراء.

٣- ابن رومانس الكلبى. - على كلب وبهراء.

٤- ابن الأيهم على غسان وتنوخ.

٥- ابن الحدرجان على الضجاعم.

وكانت الأمداد كثيرة العدد من النصارى فلم يحتملهم الحصن بالإضافة إلى أهله فبقوا خارجه محيطين به.

تميم تجير كلباً

ولما اطمأن خالد من رحلته خرج أهل دومة الجندل وحلفاؤهم لقتال المسلمين. وزحف الجودى ووديعة نحو خالد بينما زحف الحدرجان وابن الأيهم إلى عياض، واقتتلوا جميعاً. وانتصر خالد على الجودى وأخذه أخذاً فأسره. كذلك أخذ الأقرع بن حابس وديعة، ولجأت سائر كلب إلى الحصن منهزمة فدخله بعضهم حتى امتلأ بهم، ثم لم يحتمل الباقين فأغلق من فى داخل الحصن أبوابه دون من هم بخارجه فبقوا بالعراء، وأقبلت سيوف المسلمين تحصدهم. وكانت تميم وكلب حلفاء فى الجاهلية، فصاح عاصم بن عمرو التميمى: «يا بنى تميم.. حلفاؤكم كلب.. آسروهم وأجيروهم فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها» ففعلوا. وكانت وصية عاصم لقومه سبب نجاة بنى كلب يومئذ.

كذلك هزم عياض من خرج إليه. وأمعن المسلمون فيهم قتلاً. وشدد خالد هجومه على

---

(١) خرجت لاستقباله.

الذين لجؤوا إلى الحصن، فأكثر القتل فيهم حتى سد بهم باب الحصن. وأتى بالجودى فضرب عنقه ثم بباقى الأسرى فضرب أعناقهم إلا أسرى كلب الذين أجارهم عاصم والأقرع وبنو تميم فأطلقهم خالد وهو يقول: «ما لى ولكم؟ أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟» فأجابه عاصم: «لا تحسدهم العافية ولا يحوزهم الشيطان».

سقوط الحصن

وفرغ خالد ممن كان خارج الحصن وواصل هجومه على بابه حتى اقتلعه واقتحمه على من فيه. فقتلوا المقاتلين وسبوا الشَّرْخَ[1] (الشباب). ثم أقام مزاداً علنياً لبيعهم لمن يزيد. فاشترى خالد ابنة الجودى وكانت مشهورة بجمالها موصوفة به. ثم رد خالد الأقرع بن حابس إلى مقدمته فى العراق، بينما أقام هو فى دومة الجندل أياماً قبل أن يرجع إلى الحيرة، وفى عزمه وقد فرغ من عمل عياض كله أن يزحف إلى المدائن.

وممن استشهد من المسلمين فى فتح دومة الجندل نافع بن غيلان بن سلمة الثقفى الذى أسلم مع أبيه وإخوته يوم فتح الطائف، فرثاه أبوه بأبيات[2] كثيرة منها:

ما بال عينى لا تغمض ساعة	إلا اعترتنى عبرة تغشانى
يا نافع من للفوارس أحجمت	عن شدة مذكورة وتعانى
لو أستطيع جعلت منى نافعاً	بين اللهاة وبين عقد لسانى

وقد عوتب أبوه على كثرة بكائه عليه فقال: «دعونى أبكى فسينفد دمعى».

حشود معادية بالعراق

ولاحظ الفرس غياب خالد بجانب من جيشه من العراق وظنوا به الظنون. وكان عرب الجزيرة قد كاتبوهم غضباً لما أصاب عقة فى عين التمر، وقد أصبح لهم جميعاً مصلحة مشتركة فى النيل من المسلمين. وخرج جيش فارسى من بغداد - وكانت قرية شمالى المدائن - يريد الأنبار. هذا الجيش كان عليه زرمهر ومعه روزبة. فاتجه روزبة إلى حصيد واتجه زرمهر إلى الخنافس. وكان الزبرقان بن بدر عامل خالد على الأنبار منتبهاً إلى ما يحدث فكتب به إلى القعقاع، وهو يومئذ خليفة خالد بالحيرة.

---

(١) الشارخ: الشاب، والجمع شرخ. وفى الحديث «اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم» - مختار الصحاح.
(٢) الاستيعاب ٣ / ١٨٧ - ٥١١ - الإصابة ٦٩٢٦ - ٨٨٦٥.

القعقاع يتحرك

كان القعقاع من مدرسة خالد في الحرب ولابد أن يكون قد تأثر بمزاملته في معارك العراق السابقة واصطبغ بصبغة خالد كثيراً. فما أن بلغ القعقاع خبر التحرك الجديد للمجوس حتى بعث أعبد بن فدكي[1] السعدي إلى الحصيد كما بعث عروة بن الجعد البارقي[2] إلى الخنافس، ومنحهما حرية التصرف إن وجدا إلى ذلك سبيلاً وكان أمره لهما: «إن رأيتما مقدماً فأقدما». فخرجا من الحيرة سراعاً فحالا بين زرمهر وروزبة وبين مقصديهما وأغلقا عليهما الطريق. ولما رأى الفرس ذلك لم يبادروا إلى القتال وإنما انتظروا اجتماع من كاتبهم من عرب ربيعة. وهنا نجد مثالاً حياً لسرعة المسلمين في اتخاذ قراراتهم وفي تحركهم لتنفيذها وتباطؤ الفرس ومن مالأهم من العرب. فمنذ خروج الفرس من بغداد بلغ خبرهم إلى الزبرقان بالأنبار ثم إلى القعقاع بالحيرة، يعني أن الخبر قطع أكثر من ٢٥٠ كيلو متراً، فأرسل القعقاع أعبد وعروة إلى مواقع تبعد أكثر من ١٧٠ كيلو متراً، كل هذا ولما يبلغ الفرس الأنبار التي تبعد عن بغداد أقل من خمسين كيلو متراً.

خالد يعود

ورجع خالد من دومة الجندل إلى الحيرة على الظهر (وهو طريق الصحراء إلى الكوفة) ومعه عياض بن غنم وجيشه. وقدم له القعقاع تقديراً للموقف. وكره خالد أن يتقدم إلى المدائن لما في ذلك من مخالفة لأصول الحرب ومخالفة لأوامر أبي بكر. فإن التحرك الجديد للعجم يجعل لهم قوة تهدده إذا تورط بالتقدم نحو المدائن. ولذلك قرر خالد أن يصفي هذا الموقف الجديد أولاً.

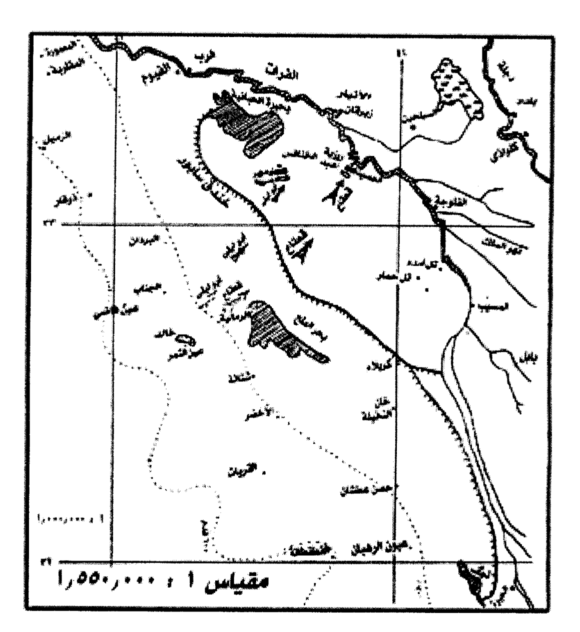
بعث خالد القعقاع بن عمرو التميمي وأبا ليلى بن فدكي السعدي إلى روزبة وإلى زرمهر فسبقاه إلى عين التمر. وفي نفس الوقت كان نصارى العرب الموالون للفرس قد تجمعوا وتحركوا، فعسكر الهذيل بن عمران بالمصيخ، وعسكر ربيعة بن بجير بالثنى والبشر يريدان الالتقاء بزرمهر وروزبة. وكتب امرؤ القيس[3] الكلبي بذلك إلى خالد.

(١) أعبد بن فدكي بن المنقري، كان أبوه فارس بني سعد.

(٢) عروة بن الجعد، هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وكان محباً للخيل. قال شبيب بن غرقدة: «رأيت في دار عروة بن الجعد ستين (وفي رواية سبعين) فرساً مربوطة». واستخدمه عمر لقضاء الكوفة... الاستيعاب ٣ / ١١١ - الإصابة ٥٥٢٠.

(٣) لا ندري من هو. وهو من مخابرات المسلمين.

استخلف خالد على الحيرة عياض بن غنم. وهو اختيار موفق يصادف محله. فإن عياضاً وجيشه وفدوا حديثاً على العراق، وكان من الطبيعى أن يلزمهم بعض الوقت حتى يعرفوا أرضه وأهله ويدرسوه، كما كان من الأوفق أن يصادم خالد الفرس بمقاتلين قاتلوهم من قبل وهزموهم مراراً وتكراراً ولهم عليهم جرأة. وخرج خالد وقد جعل على مقدمته الأقرع بن حابس، كما كان، فسلك نفس طريق القعقاع وأبى ليلى حتى قدم عليهم بعين التمر فجعلها قاعدة له. ثم بعث القعقاع إلى الحصيد وفيها روزبة. وجعل القعقاع أميراً على الفرقتين، كما بعث أبا ليلى بن فدكى إلى الخنافس وفيها زرمهر، وطلب منهما أن يستدرجا الفرس ليجتمعوا جميعاً مع العرب الموالين لهم إذا أمكنهم ذلك وإلا فليقاتلاهم. لقد كان خروج تلك القوات المجوسية من بغداد - كما ذكر الرواة - تحركاً موجهاً ضد الأنبار. ولكننا لا نجد منها هجوماً على الأنبار، وإنما نجدها تعبر الفرات وترابط على شاطئه الغربى وفى صحراء العراق. وليس لدينا الآن مبرر من الروايات لذلك، ولا نعتقد أن ذلك كان إلا بغرض من اثنين. الأول: أنه كان بقصد ضرب حصار حول الأنبار والوقوف على طريق أى مدد من جيش خالد حتى تهاجمها قوات أخرى من العجم أو من عرب الجزيرة، والثانى: أن ذلك التحرك كان بقصد الالتقاء مع حلفائهم من نصارى العرب الذين كاتبوهم واتفقوا معهم، ونحن نرجح هذا الفرض الأخير. ولقد بنى خالد خطته على استدراجهم جميعاً إلى الاجتماع فى معركة واحدة. ولكن كلا من المجوس العجم والنصارى العرب أبوا إلا المقام كل فى مكانه، ونحسب ذلك لم يكن عن خطة وإنما كان عن خوف وجبن.



خريطة رقم (٢١) - الحصيد والخنافس

حصيد[1]

١٠ شعبان ١٢هـ - ٩ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٣م

لما رأى القعقاع أن زرمهر وروزبة لايتحركان سار نحو حصيد، وكان قد قدم إليها أعبد بن فدكى قبل رجوع خالد من دومة الجندل. ولما رأى روزبة أن القعقاع قاصد إليه استغاث بزرمهر، فأمده بنفسه، واستخلف مهبوذان على عسكره. والتقوا فى حصيد فاقتتلوا وانتصر المسلمون وقتلوا من المجوس عدداً كبيراً (لم تحدده المصادر). وقتل القعقاع زرمهر، وقتل عصمة بن عبدالله الضبى (أحد بنى الحارث بن طريف) روزبة. وكان عصمة من البررة[٢]. وغنم المسلمون يوم حصيد غنائم كثيرة. ولجأت فلول حصيد إلى الخنافس فاجتمعوا مع من بها. وقال القعقاع[٣]:

ألا أبلغا أسماء أن حليلها	قضى وطراً من روزمهر الأعاجم
غداة صبحنا فى حصيد جموعهم	بهندية تفرى فراخ الجماجم

(١) الطبرى ٤ / ٢٤ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.

والتاريخ اجتهادى تقديرى. والحصيد واد بين الكوفة والشام (معجم البلدان).

(٢) كل فخذ هاجرت بأسرها تدعى: البررة، وكل قوم هاجروا من بطن يدعون: الخيرة. فكان المسلمون خيرة وبررة.

(٣) شعر الفتوح الإسلامية ١٢٩، عن معجم البلدان.

الخنافس[1]

١١ شعبان ١٢هـ - ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٣م

كان عروة بن الجعد البارقى قد سيره القعقاع إلى الخنافس قبل رجوع خالد إلى الحيرة، فلما رجع خالد أرسل إليها أبا ليلى بن فدكي، وسار أبو ليلى بمن معه ومن قدم عليه نحو الخنافس وقد لجأت اليها فلول حصيد. وكان لوصولهم إلى الخنافس أثر سيء على نفسيات من بها. فملكهم الرعب حتى أن مهبوذان ومن معه خرجوا فراراً إلى المصيخ وبه الهذيل بن عمران. ودخل أبو ليلى الخنافس دون قتال. وبعث المسلمون إلى خالد فى عين التمر بخبر حصيد وخبر الخنافس. وفى الخنافس[2] قال أبو ليلى بن فدكي السعدى:

وقالوا ما تريد؟ فقلت أرمى	جموعاً بالخنافس بالخيول
فدونكمو الخيول فألجموها	إلى قوم بأسفل ذى أنول
فلما أن أحسوا ما تولوا	ولم يغررهموا ضبح الغيول
وفينا بالخنافس باقيات	لمهبوذان فى جنح الأصيل

(١) المصدر نفسه. وفى معجم البلدان الخنافس قرب الأنبار من ناحية البردان.

(٢) معجم البلدان ٣ / ٨٦٤.

المصيخ[1]

١٩ شعبان ١٢هـ - ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٣م

ما أن بلغ خالداً خبر ما كان بحصيد والخنافس حتى رسم خطته، وكتب بها إليهم. فحدد موعداً لهم جميعاً، القعقاع بن عمرو وأبى ليلى بن فدكى وأعبد بن فدكى وعروة بن الجعد، ساعة معينة من ليلة محددة يجتمعون فيها إلى المصيخ، وهو مكان بين حوران والقلت كان لبنى البرشاء، ويعرف بمصيخ بنى البرشاء، وتذكره بعض المُصَادر باسم المُضَيَّح.

وبالرغم من حدوث بعض العمليات الليلية الناجحة، فإن معظم مشاهير القادة العظام حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى كانوا ينفرون من القتال الليلى ويذهبون إلى عدم جدواه. ويقرر فردريك الأكبر أنه يستبعد دائماً التفكير فى القيام بأى عملية ليلية نظراً لما ينشأ عنها من اضطراب وانحلال فى الضبط بين صفوف الجنود، نتيجة لتعذر الرؤية بين الضباط ورجالهم بمجرد حلول الظلام، ويقرر بلوفر أنه يخشى العمليات الليلية أكثر من طلقات العدو[2]. ولعل القتال الليلى لم يأخذ مكانه المرموق فى علم التكتيك إلا بعد استخدام اللاسلكى. ولكن خالداً قرر أن يهجم بليل تحقيقاً للمفاجأة واطمئناناً إلى المستوى القتالى لقواته ورجاله وثقة بهم.

خرج خالد من عين التمر قاصداً المصيخ على الإبل ويسحب الخيل، فقطع المسافة على ثلاثة منازل ثم أغار فى الرابع. خرج من عين التمر فنزل الجناب، ثم خرج من الجناب فنزل البردان، ثم خرج من البردان فنزل الحنى. ثم جنب الإبل وركب الخيل من الحنى.

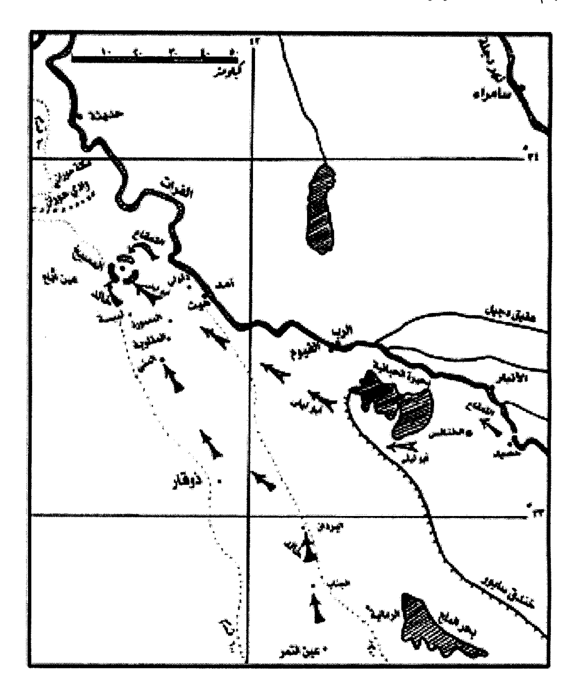
فى هذا التاريخ تغرب الشمس بعد الخامسة بعشر دقائق بتوقيت عصرنا، ويخيم الظلام بحلول العشاء فى السادسة والنصف، بينما لا يشرق القمر إلا قبيل العاشرة مساء، ويستمر طوال الليل حتى ظهيرة اليوم التالى، ويكون فى حجم لا بأس به. فحالة القمر وموعد شروقه بالنسبة لموعد غروب الشمس مناسبة جداً للعملية، إذ يتيح للمسلمين أن يتحركوا فى الجزء الأول من الليل لاتخاذ مواقفهم فى نقاط الانطلاق التى يبدؤون منها هجومهم، فيقتربون إلى

---

(١) الطبرى ٤/ ٢٤ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.

(٢) مجلة القوات المسلحة عدد ١٩ – صلاح مشرف.

أكثر المواقع تقدماً من عدوهم فى ستر من الظلام، حتى إذا حان وقت الهجوم استطاعوا أن يستعينوا بضوء القمر على تبين أهدافهم بأكثر وضوح ممكن. وربما كان خالد قد أقت موعد هجومه على هذا الأساس. وكان القوم فى المصيخ يتوقعون زحف المسلمين إليهم، وحذرهم رجل منهم اسمه حرقوص ابن النعمان من بنى نمر فلم يستمعوا لنصحه. والعجيب فى هؤلاء أن يجتمعوا للحرب ثم لايهاجمون، بل يتجمعون ثم ينتظرون أن يهجم عليهم، وكأن اجتماعهم كان حصاد ثرثرة عقيمة.



خريطة رقم (٢٢) - معركة المصيخ

وفى الساعة المحددة من الليلة المقررة اجتمع المسلمون حول المصيخ - ولم يشعر بهم أهلها - واتفقوا جميعاً ثم أغاروا على الهذيل ومن معه وهم نائمون من ثلاثة أوجه فأمعنوا فيهم القتل. وأفلت الهذيل فى قلة منهم، فلجأ إلى الزميل حيث كان عتاب بن فلان بالبشر فى عسكر ضخم فانحاز إليه.

وامتلأت أرض المصيخ بجثثهم حتى شبهوا بغنم مُصَرَّعَة. وكان عدى بن حاتم من رواة هذه العملية مما يفيدنا اشتراكه وبنى طىء فيها. ومضى فارسنا القعقاع بن عمرو كعادته يدندن بشعره:

سائل بنا يوم المصيخ تغلباً	وهل عالم شيئاً وآخرُ جاهلُ
طرقناهم فيها طروقاً فأصبحوا	أحاديث أفناءِ تلك القبائل

حدث فى هذه الغارة

تزوج حرقوص بن النعمان، وكان يعرس بعروسه أم تغلب من بنى هلال، وقد جلس معها وحوله بنوه قد أحاطوا بجفنة خمر وهم عاكفون عليها يشربون وهم يقولون له: «ومن يشرب فى هذه الساعة من آخر الليل؟» قال: «اشربوا شرب وداع فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها، هذا خالد بعين التمر وجنوده بحصيد، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا»، ولم يكن بعد يشعر بوصولهم. ثم أنشد يقول:

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر	بُعَيْدَ انتفاخ القوم بالعَكَر[1] الدَّثْر
وقبل منايانا المصيبة بالقدر	لحين لعمرى لا يزيدُ ولا يَحْرِى[2]
ألا فاسقيانى قبل جيش أبى بكر	لعل منايانا قريب ولا ندرى
ألا فاسقيانى بالزجاج وكررا	علينا كُمَيْتَ اللون صافيةً تجرى
أظن خيول المسلمين وخالداً	سَتَطْرُقُكُم عند الصباح على البشر
فهل لكم بالسير قبل قتالهم	وقبل خروج المعصرات من الخدر
أرينى سلاحى يا أميمة إننى	أخاف بيات القوم أو مطلع الفجر

وبينما هو كذلك يشرب ويرفع عقيرته وقد أخذت الخمر برأسه دهمته الخيل، فأطاح

---

(١) العكر: الإبل الكثيرة، والدثر: المال الكثير.

(٢) يحرى: ينقص.

سيف برأسه فسقط في جفنته، وقُتلت عروسه وقتل أبناؤه، وأخذت بناته[1] سبياً . كذلك قتل عبادة بن البشر وامرؤ القيس بن بشر وقيس بن بشر وهم بنو الثورية من بنى هلال .

وأصاب جرير بن عبدالله يوم المصيخ من بنى النمر، عبدالعزى بن أبى رهم بن قرواش أخا أوس مناة، كما أصيب لبيد بن جرير، وكانا قد أسلما ومعهما من أبى بكر كتاب بإسلامهما . قال عبدالعزى - وقد سماه أبو بكر عبدالله - ليلة الغارة :

أقول إذا طَرَق الصباحُ بغارةٍ سبحانك اللهم ربَّ محمد
سبحان ربى لا إلهٌ غيرُهُ رب البلاد ورب من يَتَوَرَّد

وبلغ أبا بكر قول عبد العزى وعلم بمصابه ومصاب لبيد، فحزن عليهما ودفع ديتهما وقال : «أما إن ذلك ليس عليَّ إذ نازلا أهل الحرب، كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب في ديارهم» . وأوصى بأولادهما . وقد أخذ عمر هذه على خالد كما أخذ عليه قتل مالك بن نويرة .

(١) الطبرى ٤ / ٢٥ س ش س، عن عطية، عن عدى بن حاتم .

الثنى والزميل [1]

٢٣ شعبان ١٢هـ - ٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ٦٣٣م

حين نزل الهذيل بالمصيخ، نزل ربيعة بن بجير التغلبى بالثنى وبالبشر (فى الزميل)، وذلك غضباً لمصرع عقة فى عين التمر وطلباً لثأره. وكان ربيعة والهذيل على اتفاق ومكاتبة مع روزبة وزرمهر. فلما هزم خالد أهل المصيخ قدم القعقاع بن عمرو وأبا ليلى بن فدكى، فارتحلا أمامه وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للغارة على أهل الثنى من ثلاثة أوجه كما فعل بأهل المصيخ. وفى هذا التاريخ تغرب الشمس بعد الخامسة بقليل بتوقيت عصرنا، ويخيم الظلام بحلول العشاء فى حوالى السادسة والنصف بينما لا يشرق القمر إلا فى حوالى منتصف الليل، ويستمر طوال الليل ويكون فى حالة تربيع. لقد كانت غارة المصيخ تجربة أولى، وهذه هى الثانية بنفس التكتيك والخطة، اعتماداً على المفاجأة بغارة ليلية بالخيل فى موعد واحد متفق عليه من ثلاثة أوجه تحصر القوم وهم نائمون.

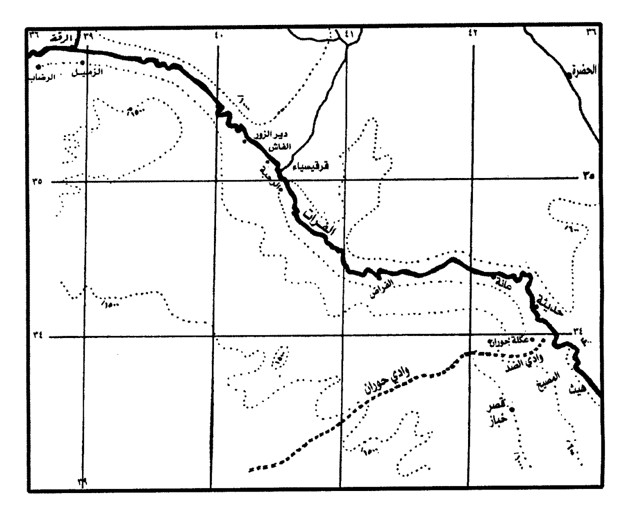
وخرج خالد من المصيخ فقطع المسافة على أربعة منازل، فنزل حوران. ثم خرج منهما فنزل الرنق. ثم خرج منها فنزل الحماة. ثم خرج منها فنزل الزميل (وهو البشر) والثنى معه فى المنزل.

وبدأ خالد بالثنى فاجتمع حولها مع أصحابه، ثم شنوا الغارة من ثلاث جهات وجردوا السيوف على من وجدوه فلم يفلت منهم أحد. وسبى خالد الشرخ (الشباب) وبعث بالخمس إلى أبى بكر رضى الله عنه بالمدينة مع النعمان بن عوف بن النعمان الشيبانى.

---

(١) الطبرى ٤ / ٢٥ س ش س، عن عطية، عن عدى بن حاتم.

خريطة هذه المنطقة (ص ٢٤٧) أخذناها عن خريطة العراق الأثرية، مقياس واحد إلى مليون التى أصدرتها مديرية الآثار العراقية. وقد وجدنا موقع الزميل بها كما أثبتناه فى الخريطة رقم (٢١)، غير أن الطبرى يذكر أن الزميل هو البشر والثنى معه، وهما شرقى الرصافة. وفى معجم البلدان أن الرصافة (المقصودة هنا) بناها هشام بن عبدالملك غربى الرّقة. والرضاب: كانت موضع تلك الرصافة. وبناء على ذلك فقد حددنا موقع الرضاب مكان الرصافة، وموضع الزميل: إلى الشرق منها. كما حددنا مكان المصيخ على أربعة مراحل من عين التمر، هى التى نص عليها الطبرى فى رواياته وهى مسافة تبلغ نحواً من ١٧٥ كيلو متراً، فهى إذن من الصحراء بنواحى هيت.



خريطة رقم (٢٣) – الزميل والرضاب، مقياس ١ / ٤ مليون تقريباً

وبمجرد أن أباد خالد أهل الثنى لم يتوان حتى لا تسبقه الأخبار إلى الزميل. وقد ساعده على ذلك أن لم يفلت من الثنى أحد، فقد كان أداؤها وتنفيذها خيراً من أداء موقعة المصيخ. وزحف خالد من الثنى إلى الزميل، وكان بها عتاب بن فلان فى جمع كبير، وكان معه الهذيل منذ فر من المصيخ. وكان خالد قد أقسم يميناً من قبل ليبغتن تغلباً فى دارها، فوفى بيمينه يومذاك. وأعاد نفس التكتيك الناجح والخطة التى نفذها مرتين، فى المصيخ وفى الثنى، فشن عليهم الغارة فى نفس الليلة – التى شن فيها غارته على الثنى – من ثلاثة أوجه أيضاً، فقتل منهم كثيراً وأصاب وجيشه منهم ما شاؤوا. ثم بعث بالأخماس إلى أبى بكر مع الصباح بن فلان المزنى، وكانت فيها الصهباء بنت ربيعة بن بجير الثعلبية وتكنى أم حبيب فصارت[1] إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه. وفى رواية أنها كانت من سبى عين التمر وأنها ولدت لعلى عمر الأكبر ورقية.

---

(١) الطبرى ٣ / ٢٦١.

وعلم خالد أن هلال بن عقة في جمع آخر بالرُّضاب[١]، غير أنه ما بلغها حتى كانت الأخبار قد سبقته فانفض عن هلال أصحابه ونزح هلال عنها، فلما وافاها خالد لم يجد بها شيئاً. إلى هنا وكان خالد قد ابتعد عن الحيرة بحوالى ثمانمائة كيلو متر فبدأ يعود، وفي ذلك قال:

طلبنا بالرُّضاب بني زهير ... وبالأكناف أكناف الجبال
فلم تزل الرضاب لهم مقاماً ... ولم يؤنسهم عند الرمال
فإن تشقف أسنَّتنا زهيراً ... لكف شريدهم أخرى الليالي[٢]

---

(١) الرضاب: موضع الرصافة التي بناها هشام بن عبدالملك فيما بعد غربي الرّقة، وهي إلى الغرب من البشر والثنى، ويتحدد موقع الرضاب تبعاً لذلك بتحديد موقع الرصافة. قال ابن خرداذبه: من الرقة إلى الرصافة أربعة وعشرون ميلاً (٤٤ كيلو متراً)، ثم إلى الزراعة أربعون ميلاً... وذكر بعد الرصافة مائة وثلاثين ميلاً (٢٤٠ كيلو متراً) إلى حمص (المسالك والممالك ٩٨) كما ذكر الرصافة من كور قنسرين (٧٥). وقال قدامة بن جعفر: من الرصافة إلى الرقة ثمانية فراسخ (٤٤ كيلو متراً) (الخراج وصنعة الكتابة ٢١٧ و٢١٨).

(٢) معجم البلدان.

الفراض[1]

١٥ ذى القعدة ١٢هـ - ٢١ يناير (كانون الثانى) ٦٣٤م

والفراض إلى الجنوب الشرقى فى طريق العودة على تخوم الشام والعراق والجزيرة. والشام والجزيرة كانتا فى قبضتى الروم، وقد كان إيغال خالد حتى الرضاب توغلا فى أرض يحكمها الروم. وفى الفراض اجتمع خالد بباقى قواته التى خلَّفها فى اندفاعته نحو الزميل والرضاب. وأدركه شهر رمضان[2] وهو بالفراض فأفطر والمسلمون. فلما تمت جموع المسلمين بالفراض ونما علمهم إلى الفرس والروم وعرب تغلب وإياد والنمر بدأ تجمعهم. والظاهر أن الروم هم الذين تبنوا هذه الموقعة، فقد اغتاظوا حين مخر خالد تلك التخوم مخترقاً حدودهم، واستعانوا بمن بجهتهم من الحاميات الفارسية كما كتبوا إلى من والاهم من العرب شرقى الفرات، فقدمت أمدادهم عليهم وتحركوا تجاه خالد حتى إذا كان الفرات بينهم، هم تجاه الجزيرة وخالد تجاه صحراء السماوة، قالوا له: «إما أن تعبر إلينا أو نعبر إليكم». قال خالد: «بل اعبروا إلينا». ولا شك أن عبورهم كان أفضل لخالد حيث ينقطع عليهم خط الرجعة. فطلبوا من خالد أن يتنحى حتى يعبروا. قال: «لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا».

وكان من الروم والعجم من له إدراك وتمييز للأمور. فقال بعضهم لبعض: «احتسبوا ملككم! هذا رجل يقاتل عن دين وعقل وعلم. والله لَينُصرنَّ ولنُخذلنَّ».

ومع ذلك فقد عبروا أسفل من خالد بهذه الروح المشبعة بالهزيمة. ثم طلبت الروم أن يتميز كل جند حتى تظهر مواقفهم، فتميز الروم عن الفرس عن العرب. ثم التحموا واقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً واجه فيه خالد لأول مرة وآخر مرة قوات مشتركة من العجم والروم والعرب، وبدأت الكفة تميل فى غير صالح الحلفاء وبدأوا يتضعضعون. وأصدر خالد أمره:

---

(١) الطبرى ٤ / ٢٥ س ش س، عن عطية، عن عدى بن حاتم. ويذكر الطبرى: أن الشعراء أكثروا النظم فى الفراض وما كان قبلها.

(٢) تنص الروايات على أن شهر رمضان أدرك خالداً والمسلمين بالفراض، ومن هنا أقتنا مواقيت ما كان قبلها بين الأنبار (التى كان فى سبتمبر (أيلول) - رجب) إلى الفراض، وهى فترة قصيرة كثرت فيها الوقائع المتباعدة المسافات، الأمر الذى ييسر علينا تقدير مواقيت لها قريبة من الدقة. ثم تنص رواية ظفر بن دهى والمهلب بن عقبة، أن خالداً أقام بالفراض بعد الموقعة عشر أيام ثم أذن فى الرحيل لخمس بقين من ذى القعدة، فكأنما حددا تاريخ الموقعة بالخامس عشر من ذى القعدة ١٢هـ.

«ألحُوا عليهم ولا تُرَفِّهُوا عنهم».

فكان فرسان المسلمين يحشرون الزمرة (الجماعة) منهم بالرماح فإذا جمعوهم قتلوهم. فقتل المسلمون يوم الفراض فى المعركة وفى المطاردة بعدها مائة ألف[1] فى رواية جميع المؤرخين.

وفى الفراض قال القعقاع بن عمرو:

لقينا بالفراض جموع رومٍ	وفُرسٍ غَمَّها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا	وبَيَّتنا بجمع بنى رزام
فما فتئت جنود السلم حتى	رأينا القوم كالغنم السوام

ثم أقام خالد بعد المعركة عشرة أيام بدأ بعدها رحلة العودة. بدأها فى ٢٥ ذى القعدة ١٢هـ - ٣١ يناير (كانون الثانى) ٦٣٤م إلى الحيرة. فأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالناس وجعل شجرة بن الأعز على المؤخرة. وأظهر خالد للناس أنه فى المؤخرة. ولكنه أضمر أمراً.

---

(١) الطبرى ٤ / ٢٦ س ش س، عن محمد وطلحة.

وشاركهم (فى الرواية) عمرو بن محمد، عن رجل من بنى سعد، عن ظفر بن دهى والمهلب بن عقبة. وقد كان ظفر بن دهى دليلاً من أدلاء تلك الصحارى، ونذهب من روايته لأخبار هذه المعارك أنه كان ممن شهدها.

الباب الحادى عشر

ختام مرحلة



خالد يحج

(٢٥ ذى القعدة ١٢هـ - ٢٣ ذى الحجة ١٢هـ)
٣١ يناير (كانون الثانى) ٦٣٤م - ٢٨ فبراير (شباط) ٦٣٤م

سار الجيش من الفراض نحو الحيرة وعليه عاصم بن عمرو التميمي، ومن وراء الجيش سارت مؤخرته وعليها شجرة بن الأعز، وجميع من بالجيش يعلم أن خالداً يسير مع المؤخرة. ولكن خالداً لم يكن فى المؤخرة ولا كان فى الجيش كله، وإنما خرج من العراق سالكاً طريقاً هو أكثر الطرق استقامة من الفراض إلى مكة ليدرك الحج!

لقد أسلم خالد فى العام الثامن للهجرة، وفى نفس العام كان فتح مكة، ولكن رسول الله ﷺ لم يحج من عامه ذاك وإنما عاد إلى المدينة، وحج بالناس عتاب بن أسيد. وفى العام التاسع أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج ولم يحج هو بنفسه، ولكنه حج فى السنة العاشرة حجة الوداع. ولم نقف على ما يدلنا إن كان خالد قد حج إحدى هاتيك الحجج، ولكننا ندرك ونحس أنه حين يحج رسول الله ﷺ، فإن أكثر صحابته يحجون معه، وإذا لم يحج كان المتخلفون أكثر. فمن الجائز ألا يكون خالد قد حج فى العام الثامن أو التاسع، ولكننا نرجح أن يكون قد أدى الحج فى العام العاشر. أما العام الحادى عشر فمن المؤكد أنه لم يحج فيه، إذ كان مشغولاً حينذاك بأمر مسيلمة وردة بنى حنيفة. وأيًّا ما كان فالظاهر أن خالداً كان يتجه فى عبادته لله نحو الجهاد أكثر مما كان يتجه نحو المناسك والشعائر، وبالرغم من أن ذلك هو ما كان يتفق مع ميوله واتجاهاته، يبدو أنه لم يكن راضياً عن ذلك تمام الرضى، فقد صلى إماماً بالمسلمين فى الحيرة، فقرأ القرآن من سور شتى ثم سلم، والتفت إلى الناس يبرر لهم ذلك ويعتذر[1] عنه، فقال: «شغلنى الجهاد عن كثير من قراءة القرآن». أما فى هذا العام الثانى عشر، فإنه أول موسم حج بعد خروجه إلى العراق وبعد ما فتح الله عليه، أفلا يحمد الله ويشكره ويتقرب إليه بأداء فريضة الحج؟ كان خروج خالد من الفراض فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، والوقوف بعرفات بعد أسبوعين لا أكثر، هما كل فرصته لبلوغ مكة وإدراك الموسم، وإن مكة لعلى مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلو متراً من الفراض،

---

(١) عبقرية خالد.

ولكنه خالد وقد عزم، فجد السير، ولابد أن ذلك كان بالخيل. قال الرواة[1]: «يعتسف[2] البلاد حتى أتى مكة بالسمت[3]، فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا ريبال[4]. فسار طريقاً من طرق أهل الجزيرة، لم يُر طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه، فقطع طريق الفراض، ماء العنبرى، ثم مِثْقَباً[5]، ثم انتهى إلى ذى عِرْقٍ فشَرَّق منها، فأسلمه إلى عرفات من الفراض، وسمى ذلك طريق الصد».

ومن حيث أن وادى الصد (وهو وادى حوران)، يبدأ من شمالى هيت عند خط عرض ٣٤ شمالاً من غرب الفرات، ويوغل فى صحراء السماوة جنوباً بغرب نحو الشام، فإننا نعتقد أن خالداً قد اتجه فى رحلته تلك من صحراء العراق إلى صحراء الشام عبر ذلك الوادى، ثم انحدر منهاجنوباً إلى الحجاز. يؤيد هذا، أنه فى نهاية الرحلة طلع على عرفات من غربها فشَرَّق إليها، ولو اتجه من العراق جنوباً إلى نجد لكان طلع على عرفات من شرقها، فكان هذا أول عبور لخالد من العراق إلى تخوم الشام قبل عبوره الشهير بجيشه الذى عبر فيه بادية السماوة فى مغامرته المعروفة.

ولم يكن خالد وحده، وإنما كان فى عدد من أصحابه، وقد تكتموا الخبر عن كل الناس إلا من أخبره خالد بذلك من مؤخرة الجيش. حتى أبو بكر رضى الله عنه لم يعلم به، ولم يخبره خالد ولم يستأذنه!

وقطع خالد ما بين الفراض إلى عرفات فى أسبوعين على أكثر تقدير، ولابد أن يكون قد عاد من مكة إلى الحيرة فى أقل من ذلك، حيث الحيرة أقرب إلى مكة من الفراض. وبذلك تكون غيبته عن العراق لا تتجاوز الشهر. فما وصل آخر الجند إلى الحيرة (حوالى ٥٠٠ كيلو متراً من الفراض) حتى كان خالد قد وافاها ودخلها مع شجرة بن الأعز، وخالد وصحبه محلقون رؤوسهم.

---

(١) الطبرى ٤ / ٢٦ نفس السند.

(٢) العسف: الأخذ على غير الطريق - مختار الصحاح.

(٣) السمت: الطريق - مختار الصحاح.

(٤) الريبال: الأسد الشجاع.

(٥) قيل: طريق العراق من الكوفة إلى مكة، يقال لها: مثقب. وقيل: طريق ما بين اليمامة والكوفة - معجم البلدان.

تصرف غريب من خالد . اعتبره بعض الناس غروراً ومغامرة ليس لها ما يبررها . وليس بوسعنا أن نقر خالداً على ما فعل ، ولكن التصرف على كل حال قد دل على ثقة خالد[1] برجاله ، كما دل على ثقته بنفسه ، فقد كان يعلم أن في جيشه رجالاً من أمثال القعقاع والمثنى وجرير والأقرع وعاصم ومذعور وعدى . . . فيه رجال صقلتهم التجارب وصهرتهم المعارك وعاشوا على ظهور الخيل وتحت ظلال السيوف والرماح ، فاطمأنت نفسه أن يخرج ليحج ثم يعود . كان هذا - بحق - هو رأى خالد فى جنده ، وهو الذى وصفهم للفرس فقال : «جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» ، وحين أدرك أن الفرس يدمنون الخمر ويحبونه قال : «جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر» .

هذا من جانب . ومن جانب آخر ، نظن أن قائداً مثل خالد بما قام من أعمال وفتوح ، كانت تحتاج فى كثير من مواقفها بل فى كل خطوة من خطواتها إلى قدر كبير جداً من القدرة على التصرف والمسئولية ، علمته هذه المواقع أن يتصرف ، ثم علمته أن يتصرف ، فنمت فيه حرية التصرف والقدرة عليها وترعرعت ، حتى يكون لنا أن لا نفاجأ من مثله أن يمنح نفسه حرية التصرف فى مثل هذا الحج مع ما صاحبه من اطمئنان إلى رجال كانوا أهلاً لكل ثقة . كان أستاذهم فى الميدان وهو أدرى بهم ، وكان وهو بالعراق يعتمد عليهم بعيداً عنهم . وقد تركهم مرة قبل هذه حين خرج إلى دومة الجندل ، وغاب عنهم نحواً من شهر أيضاً .

بطبيعة الحال ، لقد عرف أبو بكر فيمابعد بما فعل خالد دون أن يستأذنه ودون أن يلقاه فى الحج ، وقد كان أبو بكر على الموسم . لكن خالداً اندس وأصحابه بين الناس حتى قضوا مناسكهم ، ثم انفلتوا راجعين . وكلم عمر بن الخطاب أبا بكر ليعزل خالداً . وما كان لأبى بكر أن يعزل خالداً ، وقد حقق الله على يديه من النصر ما قد تحقق . كان أبو بكر رضى الله عنه - وقد جمع إلى مواهبه جميعاً مواهب حربية - كان شديد الإعجاب بخالد .

قال : «لا أشيم[2] سيفاً سله الله على الكفار» .

---

(١) عبقرية خالد .

(٢) شم سيفك : اغمده . وشمت السيف : سللته ، فهو من الأضداد - الكامل للمبرد ١ / ١٤٦ .

مفاجأة لخالد

ماذا في الميدان الغربي

لعلنا لم ننس أن أبا بكر حين استعمل خالد بن الوليد قائداً لجيشه الأول من جيوش قمع الردة، استعمل خالد بن سعيد قائداً للجيش السادس ووجهه إلى الحمقتين من مشارف الشام. ولقد عرضنا فيما سبق لخطوات خالد بن الوليد منذ فرغ من أمر الردة ودخل العراق. وفي نفس الوقت الذى كان خالد بن الوليد يلج أبواب العراق كان خالد بن سعيد يتقدم بجيشه على أرض الشام، غير أنه تورط فيما يجهل من أرضها فانقض الروم على جيشه على غرة منه وهزموه وارتدت فلوله نحو بلاد العرب. فأرسل أبو بكر بدلاً منه أربعة جيوش أخرى.

كان عمرو بن العاص بقضاعة على طريق الشام فأرسله إلى أيلة وهى مكان إيلات اليوم (العقبة).

وأرسل يزيد بن أبى سفيان إلى الشام فى الاتجاه الذى كان موكولاً إلى خالد بن سعيد.

وأرسل شرحبيل بن حسنة إلى الأردن.

وأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح إلى حمص وجعله أميراً على الجيوش كلها إذا اجتمعت.

هذا الترتيب فى اتجاه كل جيش من الجيوش الأربعة هو المعروف اليوم باسم حركة مروحة (بينما كانت خطة أبى بكر لغزو العراق على أساس حركة كماشة). كل جيش من هؤلاء بلغ سبعة آلاف.

وجمع الروم مائتين وأربعين ألفاً لملاقاتهم.

وجهوا تسعين ألفاً منهم بقيادة تيودريك إلى عمرو بن العاص.

ووجهوا ستين ألفاً بقيادة فيقار إلى أبى عبيدة.

ووجهوا أربعين ألفاً بقيادة دراكس إلى شرحبيل.

ووجهوا خمسين ألفاً بقيادة جورج تدرا (تيودور) إلى يزيد بن أبى سفيان.

وجعل هرقل مركز قيادته فى حمص.

وشق الأمر على المسلمين، فأشار عمرو بن العاص باجتماعهم - وهو بهذا الرأى يلغى استراتيجية المروحة - وجاءهم كتاب من أبى بكر بنفس رأى عمرو. وتجمعت قوات المسلمين على

الضفة اليسرى لليرموك، بينما تجمعت قوات الروم قبالتهم على الشاطىء الأيمن يقودهم تيودريك على حوالى ستين كيلو متراً من التقاء اليرموك بنهر الأردن. واتخذت قوات الروم مكانها فى أرض منبسطة تحيط بها الجبال الشاهقة من ثلاث جهات عند واقوصة. ثم عبر المسلمون إلى الضفة اليمنى لليرموك، فنزلوا أرضاً منبسطة تقفل الطريق المفتوح لجيش الروم فحصروهم بين الجبال. وأقام الفريقان على ذلك شهرين كاملين حتى طلب المسلمون المدد من أبى بكر.

وعلى أثر انصراف خالد من الحج إلى الحيرة، كتب إليه أبو بكر(1) رسالة جاء فيها:

«... أن سر بنصف الناس حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا (تعبوا وأتعبوا).

وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يُشْجِ الجموعَ من الناس بعون الله شجيك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك.

فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة. فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتخذل وإياك أن تُدلّ (تغتر) بعمل، فإن الله له المن وهو ولى الجزاء.

دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه، ثم امض مخففاً فى أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين.

وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة. واستخلف على العراق المثنى بن حارثة فى النصف الباقى. ولا تأخذن نجداً إلا خلفت له نجداً. فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ثم أنت على عملك.

والسلام عليكم ورحمة الله».

كتبه فى صفر ١٣هـ - أبريل (نيسان) ٦٣٤م.

احتياج الشام إلى خالد

سحب أبو بكر خالداً من العراق إذن ووجهه إلى الشام فى الوقت الذى أوشك فيه أن يزحف إلى المدائن، وقد فض جميع حصون الفرس وفرّق جموعهم وبدد جيوشهم فى كل

(1) - الطبرى ٤ / ٤٢ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.
- عرجون ٢٣١.

مكان غربى دجلة، ولم يبق إلا عبور دجلة. فهل نقل أبو بكر خالداً من العراق عقاباً له على فعلته ليحرمه شرف فتح المدائن؟

هذا ما تقوله بعض الروايات:

« ... وكانت عقوبته إياه أن صرفه إلى الشام».

« ... يقاربه ويباعده ....».

ولكن هل يضر الخليفة بمصالح المسلمين وقد صار وشيكاً أن تقع المدائن فى قبضتهم من أجل عقاب شخص مهما كان وضعه ومهما كانت منزلته؟ بعبارة أكثر صراحة، من أجل عقاب خالد؟ لا يسعنا أبداً أن نصدق هذا. ولكننا نرى أن الحالة فى الميدان الغربى بالشام كانت فى حاجة إلى خالد بن الوليد. على الأقل كان الشام أحوج إليه من العراق. ففى العراق اتصلت العمليات من نصر إلى نصر.. لم يخسر المسلمون معركة واحدة. واستتب لهم ما بين مدينة الرسول إلى ما يقرب من مدائن كسرى. أما فى الشام فالموقف جد مرتبك وليس لجيوش المسلمين فيه حيلة. وإذن فإن الشام فى حاجة إلى مدد جديد وإلى عقل جديد...

فى حاجة إلى ذهن حربى جديد...

فى حاجة إلى قائد ذى فكر وعلم بالحرب...

فى حاجة إلى من؟.. إلى خالد بن الوليد.

إذ ذاك قال أبو بكر: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».

وكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح فى الشام:

«سلام الله عليك. أما بعد. فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع، فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيراً منه، ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيراً والسلام».

نستبعد إذن الرأى الذى ذهب إلى أن الأمر كان عقاباً لخالد. ولو كان عقاباً لخالد فهل كان عقاباً أيضاً لنصف جيش المسلمين بالعراق؟ إنما اكتفى أبو بكر من العقاب بتوجيه اللوم فى الرسالة التى ذكرنا. ولو كان الأمر عقاباً لما أمر أبو بكر خالداً أن يرجع إلى العراق بعد أن يفرغ من فتح الشام، ولما كتب له تلك الرسالة التى يفيض كل حرف فيها بالتقدير لخالد والاعجاب به .

رحيل ورحلة[1]

صفر ١٣هـ - أبريل (نيسان) ٦٣٤م

إعداد للرحيل

بدأ خالد يستعد للرحيل عن العراق، فبعث غنائم المعارك الأخيرة إلى أبى بكر مع عمير بن سعد الأنصارى[٢]، وأيضاً بأخبار مسيره إلى الشام. ودعا خالد أدلة الطريق وشرع يقسم الجيش إلى شطرين كأمر أبى بكر، شطر يخرج معه وشطر يبقى مع المثنى. وبدأ بأصحاب رسول الله ﷺ فاستأثر بهم، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة. ثم نظر فيمن بقى فاستأثر بمن كان قدم على النبى ﷺ وافداً أو غير وافد، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة. ثم قسم الجند بعد ذلك نصفين.

ونظر المثنى إلى قسمة خالد ثم رفضها وقال لخالد:

«والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم، فكيف تعرينى منهم؟» كان خالد يعلم أن هذا أمر أبى بكر، ولكنه تلكأ عسى أن يتهاون المثنى فى ذلك. وما دام قد قبل بعض النصف من الصحابة وقد كان من حقه النصف كاملاً، فلعله أن يقبل مزيداً من التنازل. غير أن المثنى أصر على ذلك فترك له خالد نخبة منهم حتى أرضاه. وكان فيمن عوضه بهم فرات[٣] بن حيان العجلى، وبشير بن الخصاصية والحارث بن حسان الذهليان، ومعبد بن أم معبد الأسلمى، وهو الذى ثبط أبا سفيان يوم أحد أن يعود إلى المسلمين، وعبدالله بن أبى أوفى[٤] الأسلمى، والحارث بن بلال المزنى وعاصم بن عمرو التميمى. وكان ممن خرج مع خالد إلى الشام: القعقاع بن عمرو التميمى، وعدى بن حاتم الطائى[٥]، وضرار بن الخطاب، وضرار بن الأزور

(١) الطبرى ٤ / ٤٢ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.
(٢) ترجمة عمير بن سعد الأنصارى فى آخر الكتاب.
(٣) ترجمة فرات بن حيان العجلى فى آخر الكتاب.
(٤) ترجمة عبدالله بن أبى أوفى الأسلمى فى آخر الكتاب.
(٥) سير أعلام النبلاء - الذهبى. قال: قدم الشام من العراق مع خالد بن الوليد، ثم وجهه خالد بالاخماس إلى أبى بكر. وأسد الغابة ٣٦٠٥.

الأسدى، وعياض بن غنم، وهاشم بن عتبة بن أبى وقاص، وجرير بن عبدالله الحميرى (من قضاعة)، وجرير بن عبدالله البجلى، وحنظلة بن الربيع التميمى الكاتب. كما كان معه من أبطال التابعين أمثال مرثد بن نجبة وأخوه المسيب بن نجبة الفزاريان (من ذبيان) ومعاوية بن قرمل المحاربى (من عبدالقيس)، والربيع بن مطر بن بلخ التميمى.

وكان فى هذا الجيش:

٢٠٠ من بجيلة أكثرهم من أحمس.

١٥٠ من طىء.

٢٠٠ من دينار (من بجيلة).

٣٠٠ من المهاجرين والأنصار.

الخروج

بعد أن تمت هذه القسمة خرج خالد مع جيشه فمضى لوجهه. وقد اختلفت الروايات اختلافاً طفيفاً فى موعد ذلك، فمنها ما جعله فى شهر[١] ربيع الأول ١٣هـ، ويطابق ذلك ما ذكره الطبرى من أن مكث خالد بالعراق كان سنة وشهرين. ولكننا نرجح الرواية الثانية التى تذهب إلى أن خروجه من العراق كان فى صفر سنة ثلاث وعشر للهجرة، وبتحديد أدق أنه كان فى أوائل صفر، وقد أخذنا بذلك لما يؤيده من رواية أخرى[٢] تقول إن خالداً حين بلغ الشام أتى مرج راهط، فأغار على غسان فى يوم فصحهم، وبالبحث عن ذلك الفصح وجدناه كان يوم الأحد ٢٤ أبريل (نيسان) ٦٣٤م الموافق ١٩ صفر ١٣هـ، وإذاً فقد خرج خالد فى صفر ١٣هـ.

لم يستصحبوا معهم نساءهم وذراريهم وإنما أعادوهم إلى مواطنهم[٣] على غير عادتهم. ولا شك أن العمل العظيم الذى جمع بينهما عاماً وبعض عام قد ألف بين قلبيهما وأقام بينهما من الأواصر ما لابد كان، فخرج المثنى مع خالد يشيعه من الحيرة حتى قُراقر، فمن يدرى لعله لا يلقاه بعدها أبداً، وهذا ما حدث بالفعل إذ كان ذلك آخر لقاء بين القائدين العظيمين من صحابة رسول الله ﷺ. سار معه حتى قال له خالد: «ارجع رحمك الله إلى سلطانك غير

---

(١) فتوح البلدان ٣٠٦، عن أبى مسعود الكوفى، عن محمد بن مروان.

(٢) الطبرى ٤ / ٣٩.

(٣) الطبرى ٤ / ٤٤، عن ابن حميد، عن سلمة، عن محمد بن اسحق، عن صالح بن كيسان.

مقصِّر ولا وانٍ». فتركه وعاد إلى الحيرة ليعيد تنظيم قواته التى صارت نصف ما كانت. ويعتقد أنها كانت نحواً من عشرة آلاف، فقد كان أصل الجيش ثمانية عشر ألفاً انضم إليه جيش عياض بن غنم الذى لا نعرف عدده، ولكنه على أى افتراض لم يكن ليقل عن ألفين، ولم تكن خسائر المسلمين فى المعارك كبيرة، إذاً فقد صار جيش خالد فى العراق نحواً من عشرين ألفاً قسمه نصفين، نصف سار معه إلى الشام، ونصف بقى مع المثنى بالعراق.. ولابد أن يكون المثنى قد أحس بفراغ كبير كان عليه أن يملأه ومن بقى معه... ويا لها من مسئولية.

الطريق

أراد خالد أن يتحرك بسرعة، وأن يكسب الوقت فعبر مفازة السماوة وهى الصحراء الفاصلة بين العراق والشام، ذلك العبور المشهور الذى اتسم بالجسارة والجرأة. هذا الطريق الذى سلكه خالد بجيش المسلمين كان محل اختلاف الكتاب والباحثين. فبعضهم يرى أن خالداً خرج من الحيرة شمالاً إلى عين التمر ثم إلى قراقر، ومنها عبر صحراء السماوة إلى سُوَى على طريق الشام فيكون نزلها من شمالها. وبعضهم يقول إنه اتجه إلى عين التمر[1] ثم إلى دومة الجندل ومنها إلى الشام، فيكون دخلها من جنوبها، هؤلاء يضعون قراقر على طريق الشام من دومة الجندل ويضعون سوى فى صحراء الشام.

ونرى أن هذا الطريق الأخير هو الطريق الطبيعى بين جنوب العراق وبين الشام، ولو اتبعه خالد لما أثار من التعليق ما أثار، ولما وصف بالجرأة والجسارة. وهو طريق طويل، وما دفع خالداً إلى سلوك طريق خلاف المألوف سوى عجلته، ومن المؤكد أن خالداً سلك طريقاً غير المألوف وغير الطرق الطبيعية، فهو إذن ليس طريق دومة الجندل. ونرى أن القائلين بسلوك خالد طريق دومة الجندل قد استندوا إلى رواية أوردها الطبرى[2] تقول: «... ودعا خالد الأدلة فارتحل من الحيرة سائراً إلى دومة، ثم طعن فى البر إلى قراقر، ثم قال: كيف لى بطريق أخرج

(١) كان هناك طريق من عين التمر بالعراق إلى بصرى بالشام، ذكره ابن خرداذبه فقال: من عين التمر إلى الاخدمية إلى الخفية إلى الخلط إلى سوى إلى الاجيفر إلى الغربة إلى بصرى (المسالك والممالك ٩٧).
هذا الطريق لم يكن ينطبق على الطريق الذى سلكه خالد بجيشه من العراق إلى الشام حيث أن فيه من المواقع ما لم يرد ذكر مرور خالد عليه، كما جاء بالطريق الذى سلكه خالد ما لم يرد له ذكر فى هذا الطريق الذى سجله ابن خرداذبه.

(٢) الطبرى ٤ / ٤٠ س ش س، عن عمرو بن محمد، عن اسحق بن إبراهيم، عن ظفر بن دهى (وكان دليلاً).
ومحمد بن عبدالله، عن أبى عثمان. وطلحة، عن المغيرة.
والمهلب بن عقبة، عن عبدالرحمن بن سياه الأحمرى.

فيه من وراء جموع الروم فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين. . . ، ثم ركبوا من قراقر مفوزين إلى سُوَى وهي على جانبها الآخر من جهة الشام. . .» ساروا أربعة أيام وبعض الخامس، في اليوم مسيرة يومين (٤×٢×٤٥= ٣٦٠ كيلو متراً من قراقر إلى سوى) . هذه الرواية هي المعتمدة التي أدت إلى القول بسلوك خالد عن طريق دومة الجندل ، لا نراها حجة في هذا الشأن ، بل نراها على العكس من ذلك - فهي تقول : «ارتحل من الحيرة سائراً إلى دومة» ، ولم تقل إلى دومة الجندل . . . والفارق بين دومة الجندل وبين دومة فرق بين مكانين . فدومة الجندل هي القرية ذات الحصون على خط عرض ٣٠ شمالاً ، وحوالي خط طول ٤٠ شرقاً ، التي تشرف على ملتقى طرق الحجاز إلى الشام بطرق العراق إلى الشام ، وهي التي بعث رسول الله ﷺ خالداً إليها من تبوك ، والتي أعاد خالد فتحها أثناء حروبه في العراق . هي دومة الجندل ذات الشهرة في التاريخ الإسلامي ، وهي التي انصرفت إليها الأذهان خطأ في طريق خالد من العراق إلى الشام فحولته من الشمال إلى الجنوب . أما دومة فهي مكان آخر بصحراء العراق ، ورد ذكره مرتبطاً بالأكيدر الكندي الذي كان صاحب دومة الجندل . وننقل هنا عبارة «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب صفحة ٢١١» في وصفه لبقاع بلاد العرب . قال :

« . . . ومنها دومة الجندل ، كان رجل اسمه الأكيدر في بلدة قرب عين التمر في العراق تسمى دومة ، وكان يزور أخوالاً له من بني كلب في أطراف الشام ، فبينما هو يسير في بعض الطريق ، إذ ظهرت له مدينة منهدمة لم يبق منها إلا بعض حيطانها ، وكانت مبنية بأرض تسمى الجندل ، فأعاد الأكيدر بناءها وغرس فيها الشجر ، وسماها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة العراق ، وكان بنو كلب ينزلونها . . وفي دومة الجندل من المباني العظيمة مارد وهو حصن للسموءل كان مبنياً من حجارة سود . . . إلخ» .

وفي رواية الواقدي[1] قال : «سمعت بعض أهل الحيرة يذكر أن أكيدر واخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة ، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم ، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل . فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل» .

وحين فتح خالد دومة الجندل في غضون فتوحه في العراق عام ١٢هـ وقع أكيدر بن عبدالملك في أسره فضرب عنقه . وفي رواية أخرى أن خالداً أرسله إلى المدينة فظل بها أسيراً

---

(١) فتوح البلدان ١٩٦ .

حتى أطلق عمر سراحه فى خلافته، فذهب إلى العراق وأقام على مقربة من عين التمر بمكان اسمه دومة[1]. نخلص من هذا إلى أنه كان هناك مكان اسمه دومة بنواحى عين التمر خلاف دومة الجندل المشهورة فى التاريخ الإسلامى. دومة هذه هى التى عناها الرواة القدماء بلا ريب فى سير خالد من العراق إلى الشام وليست دومة الجندل. وهناك رواية أخرى أوردها البلاذرى[2] عن الواقدى، قال:

«لما شخص خالد من العراق يريد الشام مر بدومة الجندل ففتحها وأصاب سبايا..»

فهو بهذا يجعل فتح دومة الجندل فى طريق خالد من العراق إلى الشام، ولم يضعها فى موضعها من عمليات استنقاذ عياض بن غنم وإنجاز مهمته، وهى فيما نذهب إليه رواية مرجوحة منقوضة. ويزيدنا الواقدى إيضاحاً عن وجهة نظره فى خط سير خالد فيقول: «إنه خرج من سوى إلى الكواثل، ثم قرقيسياء (على الفرات عند التقاء الخابور به) فخرج إليه صاحبها فى خلق فتركه وانحاز إلى البر ومضى لوجهه، وأتى أركة وهى أرك فحاصرها ثم فتحها صلحاً، ثم أتى دومة الجندل ففتحها، ثم أتى قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاعة، ثم أتى إلى تدمر فتحصن أهلها ثم طلبوا الأمان، فأمنهم على أن يكونوا ذمة، ثم أتى القريتين فقاتله أهلها، فظفر وغنم، ثم أتى حَوَّارين من سنِّير فأغار على مواشى أهلها فقاتلوه، وجاءهم مدد أهل بعلبك وأهل بصرى وهى مدينة حوران فظفر بهم، ثم أتى مرج راهط فأغار على غسان يوم فصحهم وهم نصارى، فسبى وقتل ووجه بسر بن أرطأة العامرى من قريش وحبيب بن مَسْلمة الفهرى إلى غوطة دمشق فأغارا على قرى من قراها، وسار خالد إلى الثنية التى تعرف بثنية العُقاب بدمشق فوقف عليها ساعة ناشراً رايته... ثم سار حتى انتهى إلى المسلمين وهم بقناة بصرى، ويقال إنه أتى الجابية وبها أبو عبيدة فالتقيا ومضيا جميعاً إلى بصرى[3]».

خط السير هذا نراه غير معقول بالمرة، وهو أبعد عن العقل من الخط الذى نفيناه سابقاً. وفى الخريطة رقم (٢٤) أثبتنا الخط الأول الذى لم نأخذ به - وقد أخذ به الدكتور محمد حسين هيكل، ثم نقله عنه اللواء الركن محمود شيت خطاب وتناقله المؤلفون - كذلك أثبتنا بها خط السير الذى نراه. ويؤيد وجهة نظرنا:

---

(١) الفتح العربى للعراق وفارس ٩٩.
(٢) فتوح البدان ١٩٥.
(٣) فتوح البلدان ٣١٠.

- أن الرواية التى يعتد بها بين أيدينا تقول دومة ولم تقل دومة الجندل.

- أن دومة الجندل تقع على الطريق الطبيعى المألوف إلى الشام. ومن المقطوع به أن خالداً قد تجنب ذلك الطريق.

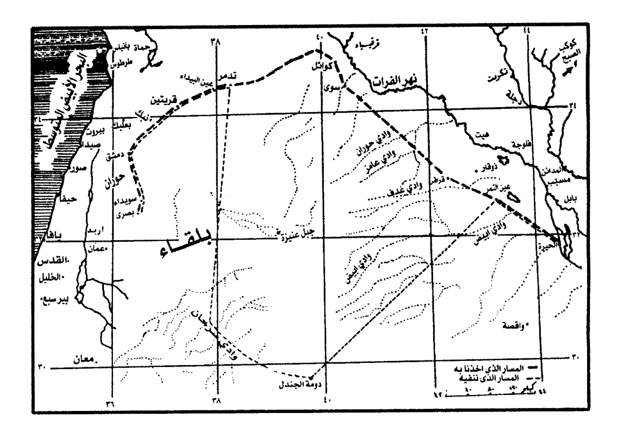
- أن من يريد أن يتخذ طريقه من الحيرة إلى دومة الجندل لا يتجه شمالاً إلى عين التمر (انظر الخريطة) ثم إلى قراقر وهو واد بالسماوة من ناحية العراق. قال السكونى[1]: «قراقر، وحنو قراقر، وحنو ذى قار، وذات العجرم، والبطحاء كلها حول ذى قار». ومن المؤكد أن ذى قار بنواحى العراق وليست بنواحى دومة الجندل. ونقدر الموقع التقريبى لقراقر على خط طول ٤٢ وخط عرض ٣٣.

- أن خط السير من الحيرة إلى عين التمرإلى دومةالجندل إلى تدمر، هذا الطريق حتى تدمر يزيد عن ألف ومائتى كيلو متراً طولاً، ولا خلاف فى أن خالداً بلغ نواحى تدمر فى خمسة أيام، بمعنى أنه سار فى اليوم الواحد مائتين وأربعين كيلو متراً على هذه الرواية، وهو رقم لا يقبله عقل إذ أن مسيرة الإبل فى اليوم أربعاً وأربعين كيلو متراً، وقد ورد أن خالداً سار فى اليوم قدر يومين يعنى حوالى ثمانية وثمانين كيلو متراً، وهذا أقصى ما يمكن للعقل أن يقبله.

- كان طريق جيوش المسلمين بالشام إلى جزيرة العرب والى دومة الجندل طريقاً مفتوحاً متصلاً، ولو أخذ به خالد لما قال: «.. كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين..» وإنما يدلنا هذا القول على أن خالداً سلك طريق الشمال إذ كانت الجزيرة تابعة للروم وبهاحصون لهم وقواعد، ولقد مر بنا سابقاً اشتراكهم فى معركة الفراض، وكان الطريق المألوف من الشمال بين العراق والشام يحاذى نهر الفرات ويصعد معه إلى قرقيسياء ثم يتجه منها إلى تدمر، فأراد خالد أن يتلافى أى التحام بهؤلاء قد يخرجه عن هدفه ويعطله عن بلوغ المسلمين بالشام قبل المعركة المرتقبة، ولذلك قرر الابتعاد عن طريق الفرات واجتياز المفازة.

---

(١) معجم البلدان. وقال قراقر: المستوى من الأرض الأملس الذى لا شيء فيه وهو واد لكلب بالسماوة.



خريطة رقم (٢٤) - عبور السماوة

دليل من السماء

هذا ما ارتأى لنا من أدلة من حيث مطابقة الروايات على المواقع الجغرافية وعلى الأيام والتواريخ. ولقد ترك لنا الرواة من الروايات ما نستطيع به أيضاً أن نتطلع إلى السماء بحثاً عن مزيد من الأدلة التى تدعم وجهة نظرنا. فبين أيدينا روايتان، إحداهما نقلاً عن الطبرى والثانية عن ابن الأثير.

الرواية الأولى تقول إن مُحرز بن حريش المحاربى (أحد أدلة خالد) قال له: «اجعل كوكب الصبح على حاجبك الأيمن ثم أُمَّه[1] تفض إلى سوى» فكان أدلهم[2]. والرواية الثانية تقول إن محرز بن حريش قال لخالد لما أراد أن يسلك المفازة من العراق إلى الشام: «اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ثم أُمَّه حتى تصبح». فجرب ذلك فوجده حقاً[3].

---

(١) اتخذه إماماً لك فى سيرك ودليلاً.

(٢) الطبرى ٤ / ٤١ س ش س، عن عبيد الله بن محفز بن ثعلبة، عمن حدثه من بكر بن وائل، أن محرز بن حريش قال...

(٣) الإصابة ٨٣٦٩، قال: ذكر أبو إسماعيل الأزدى فى فتوح الشام...

ما كوكب الصبح هذا؟

وهل نستطيع اليوم أن نعرف أى كوكب كان؟

وإذا عرفناه فهل نستطيع أن نتعرف على وقت شروقه، واتجاهه فى سماء العراق بالنسبة لمن يراه من قراقر بنواحى عين التمر فى التاريخ الذى انطلق منها خالد بجيشه؟

إذا عرفنا ذلك فسوف نستطيع الإفادة منه، وأن نبنى عليه الكثير.

كتبنا بذلك إلى دائرة المعارف البريطانية نسألها، فأجابتنا مشكورة بالآتى:

«إن كوكب الصبح هو كوكب الزُّهرة. وأنه فى عام ٦٣٤م كان يُرى فى اتجاه الشرق فى برج الثور لمدة ساعتين قبل شروق الشمس. وأنهم حصلوا على هذه المعلومات من المختصين بمرصد أدلر بشيكاغو بعد أن لم يجدوا شيئاً فى مراجعهم عن الموضوع».

وأردنا المزيد من التفصيل فاتصلنا بالمسئولين بمرصد حلوان، فتفضل السادة المختصون به[١] بمقابلتنا وشغلنا من وقتهم أكثر من ساعة فى تفاهم وتدارس كانت حصيلته أنهم ابتداء يؤيدون ما جاء بخطاب دائرة المعارف البريطانية، ثم أضافوا التفاصيل الآتية:

إذا افترضنا أن خالداً بدأ رحلته من قراقر فى الثالث عشر[٢] من أبريل (نيسان) ٦٣٤م الموافق ٨ صفر ١٣هـ، فإن كوكب الصبح الذى هو الزهرة يشرق من نقطة تقع شمالى مشرق الشمس بحوالى سبع درجات، وأن الشمس تشرق فى ذلك اليوم فى اتجاه يقع شمالى الشرق الجغرافى بحوالى ست درجات[٣]. ثم لفت الأساتذة علماء مرصد حلوان نظرنا إلى عامل له أثره على تلك الاتجاهات فى الزمن الطويل وينبغى أخذه فى الاعتبار، وهو تغير موضع القطب السماوى الأمر الذى تتغير معه زاوية شروق الشمس وكافة الكواكب. ولما قمنا بحساب ذلك[٤] وجدنا أنه يضيف إلى الزوايا السابقة حوالى ٢٤ درجة فى اتجاه شمال الشرق، بمعنى أن يكون شروق كوكب الصبح فى ذلك التاريخ على حوالى زاوية ٥٣ فى اتجاه الشمال

---

(١) الدكتور محمود خيرى مدير المرصد، والدكتور حسن عبدالرحيم، والدكتور بليغ.

(٢) استناداً إلى أنه وصل إلى ماء غسان بالشام فى عيد الفصح ٢٤ أبريل (نيسان) ٦٤٣، وهو بين القريتين ودمشق (انظر الخريطة رقم ٢٤).

(٣) إذا علمنا أن اتجاه الشمال الجغرافى هو زاوية صفر وتنطبق على ٣٦٠°، وأن اتجاه الشرق هو ٩٠°، والجنوب ١٨٠°، والغرب ٢٧٠°، فإن شروق الشمس بناء على ما ذكرنا أعلاه يكون فى اتجاه زاوية ٨٤°، وشروق الزهرة يكون فى اتجاه زاوية ٧٧°، وذلك قبل أن نأخذ فى اعتبارنا حساب تغير موضع القطب السماوى.

(٤) رجوعاً إلى ما جاء عن حركة الأرض بمجلة المعرفة - العدد الثامن.

الشرقى (الشمال الشرقى الجغرافى ٤٥ْ).

بناء على ذلك، إذا أخذنا برواية ابن الأثير التى تجعل الزهرة على الجانب الأيمن، يكون خالد قد سار متجهاً إلى غرب الشمال بحوالى سبع وثلاثين درجة، يعنى فى الاتجاه الذى تقيسه البوصلة المغناطيسية اليوم برقم ٣٢٣ْ إلى الشمال الغربى. وهو اتجاه معقول يطابق المسار الذى حددناه سابقاً ورسمناه على الخريطة. هذا الدليل الفلكى جعلنا نميل إلى تحديد موقع قراقر داخلة فى الصحراء شرقى خط طول ٤٢ بجهة ذى قار (كما ذكر السكونى)، ويؤيدنا فى هذا قول الرواة[1]: «... ثم طعن فى البر إلى قراقر»، وهو تعبير فيه معنى الإيغال داخل الصحراء من عين التمر إلى قراقر. ويتفق هذا مع بعض أجزاء رواية الواقدى التى ذكرناها سابقاً، إذ يقرر أن خالداً خرج من سوى إلى الكواثل، ثم أتى قرقيسياء، فخرج إليه صاحبها فى خلق فتركه وانحاز إلى البر، ومضى لوجهه وأتى أرك... إلخ، فإن الاستدلال السابق بكوكب الصبح يقودنا بالفعل إلى ناحية قرقيسياء.

أما إذا أخذنا برواية الطبرى التى تجعل كوكب الصبح على الحاجب الأيمن، فإن هذا يقودنا إلى أن يكون خالد قد سار متجهاً إلى شرقى الشمال بزاوية قدرها ٤٠ْ، وهذا يقوده إلى داخل العراق، وليس إلى الشام. ولذلك نرى لزاماً أن نستبعد هذه الرواية، وأن نعتبر رواية «الجانب الأيمن» هى الصحيحة، وأن رواية «الحاجب الأيمن» تصحيف لها أخرجها عن صوابها.

وهناك شاهد آخر قد لا يرقى إلى درجة الدليل، ولكنه قرينة لها دلالتها فى هذه الرواية، وهى أن محرز بن حريش يقال له المحاربى، فهو ينسب إلى بنى محارب، وهم من بنى ربيعة، وقد كانت منازل بنى ربيعة بشرقى شبه الجزيرة من سواحل الخليج جنوباً إلى نحو هيت بشاطئ الفرات شمالاً، فإذا وجدنا الدليل محرز بن حريش من أهل تلك المنطقة، فهو أمر طبيعى ومنطقى ويساير ما ذهبنا إليه. ولكنه من غير الطبيعى ولا المنطقى أن يستخدم خالد دليلاً من ربيعة فى رحلة تمر بدومة الجندل التى تبعد كثيراً عن ديارهم.

إلى هنا، ونترك خالداً فى طريقه نحو ميدانه الجديد بالشام، ونتناول نحن بشىء من النقد والتحليل هذه الحملة الموفقة التى قادها خالد لفتح العراق .

---

(١) الطبرى ٤ / ٤٠ س ش س، عن عمرو بن محمد، عن اسحق بن إبراهيم، عن ظفر بن دهى، ومحمد بن عبدالله بن أبى عثمان، وطلحة عن المغيرة والمهلب بن عقبة عن عبدالرحمن بن سياه الأحمرى.



الباب الثانى عشر

هذه الحملة



تحليل ونقد

مفاجأة استراتيجية

كانت الحروب التى اتصلت بين الفرس والروم تتخذ مساراتها بين الدولتين من خلال شمالى العراق، وقد وقعت به بعض معاركها. ومن قبل عهد بنى ساسان بقرون، كانت جميع الحملات عبر المنطقة تتخذ نفس المسار الاستراتيجى، فهو الذى عبره قمبيز من فارس إلى الشام، ثم إلى مصر بعد ذلك فى القرن السادس قبل الميلاد ٥٢٥ ق.م، وهو الذى سلكه الإسكندر الأكبر فى طريقه من مصر إلى الشام، إلى شمالى العراق، إلى فارس، نحو الهند فى القرن الرابع قبل الميلاد ٣٣٤ - ٣٢٧ ق.م[1]. وفى الحقيقة أنه لم يكن لهم سبيل سواه. وإذًا، فقد سجلت حملة خالد بن الوليد أنها أول حملة فى التاريخ لغزو العراق من جنوبه.

ويرجع ذلك إلى الطبيعة الجغرافية للمنطقة، فلا يقع جنوبى العراق إلا شبه جزيرة العرب والخليج الفارسى. أما بلاد العرب فلم تكن فى يوم من الأيام قبل الإسلام دولة حتى يكون لها تهديد لجيرانها، وأقصى ما كان يطمع فيه بعض أهلها أن ينزل أرض العراق تابعاً للحكم القائم فيه، وما وقع بين العرب والفرس قبل الإسلام فى ذى قار لم يكن غزواً وإنما كانت معركة من أجل الدفاع عن العصبية والشرف، فقد انتصر العرب بالفعل دون أن يكون لذلك أى أثر استراتيجى فى المنطقة، إذ اكتفوا باعتبار أنهم غسلوا العار عن شرفهم وانتصروا لعصبيتهم، ثم عادوا بعدها إلى منازلهم. وأما الخليج فكانت سواحله فارسية أو عربية خاضعة للفرس، فهو خليج مؤمن، السلطان فيه لفارس وحدها دون منازع.

لذلك نعتقد أن حملة خالد بن الوليد كانت مفاجأة استراتيجية كبرى، إذ تركزت كل القلاع والحصون القوية إلى الشمال والشمال الغربى من العراق فى حين لم يكن فى الجنوب من الدفاعات الثابتة إلا ما قد أنشىء لصد غارات العرب الرحل مثل حصن المرأة وحصن الرجل وخندق سابور وحصون الحيرة، وهو نقص كبير بالنظر إلى أساليب الدفاع التى سادت فى القرون الوسطى والقديمة والتى كانت تعتمد أساساً على الأسوار والقلاع والحصون القوية المستعدة لحصار طويل تفقد فيه القوات المهاجمة حماسها واندفاعها وتستنزف مواردها المادية

(١) Oxford University - The Middle East.

والمعنوية. هذا النقص إنما أدى إليه اعتبار الجنوب منطقة أمان لعدم قيام دولة به، ولعدم حدوث أى تهديد سابق من هذه التخوم.

مفاجآت تكتيكية

كذلك أمسك خالد بزمام المفاجأة التكتيكية. والمفاجأة فى تعريفها الحربى هى فعل ما لايتوقعه العدو بما يوقع الارتباك فى صفوفه ودفاعاته وفى تفكيره، فيشل ذلك التفكير أو يدفع صاحبه إلى أن يقدم على تصرفات غير مدروسة، مثال ذلك أن يستخدم تكتيكاً غير متوقع، أو بتطوير أسلوب القتال، أو استخدام سلاح جديد، أو تطوير استخدامه. وقد تتحقق المفاجأة بالزمان أو المكان، أو العدد، أو كشف أسرار العدو، أو بالخداع أو بالمبادرة، أو بالسرعة والمرونة، أو باختيار الهدف. والمفاجأة تكون استراتيجية أو تكتيكية. ولقد كانت حملة خالد فى حد ذاتها مفاجأة للفرس، فبالرغم من أن المثنى قد بدأ مناوشتهم والاشتباك معهم قبلها، ولكن يبدو أن حشد خالد لقواته قد تم دون انتباه الفرس، إذ إنه حين زحف نحو الأبلة وبعث إلى هرمز بخطابه، خرج هذا الأخير للقائه على عجل فى «سرعان خيله» بشكل يوحى بأثر المفاجأة عليه، ولعله من أثر ذلك لم تتح له فرصة استكمال قواته. ثم نجد مفاجآت تكتيكية من خالد لعدوه فى كمين الولجة، وفى اقتحام خندق الأنبار بردمه بالإبل العجاف، وفى مفاجأته عقّة فى عين التمر باحتضانه وحمله إلى صفوف المسلمين أسيراً، فهذا أسلوب فى القتال لم يكن مألوفاً، وفى الهجوم الليلى على عدوه وكبسه فى المصيخ، وفى الثنى، وفى الزميل فى سرعة وخفة حركة لم تدع لهم فرصة أو مجالاً للتصرف أو القتال.

هذا ومن أعنف المفاجآت أن ترتد المفاجأة التى أعدها العدو بنفسه إلى نحره. ولقد استطاع خالد أن يفعل ذلك فى كاظمة، حين طلب هرمز مبارزته مبيتاً الغدر، فأحبط خالد تدبيره بتدريبه العالى ولياقته البدنية التى لم يحسب هرمز حسابها. وكذلك فى المقر، حين فاجأ المجوس المسلمين بحجز الماء عن الفرات حتى جنحت سفنهم، فتحرك خالد من فوره وفاجأ القوة التى كانت تحرس حجز الماء، وأعاد جريانه ثم واصل سيره، فكان من أثر ظهوره المفاجىء على أبواب الحيرة أن انسحب آزاذبه دون قتال نحو المدائن.

يقول العقاد: «لم يخفَ على خالد قط مقتل العدو من قوته الأدبية حينما عمل إلى هذا المقتل فى منازلاته للمستبدين والطغاة. فإنهم فى جيوش الأمم التى طال عهدها بالظلم يرتفعون إلى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم إلى مقام القطيع السائم. فإذا أصيب

القائد فى الجولة الأولى، فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات[1]».

تأمين الحملة

إن استيفاء أسباب الأمن عنصر هام من أهم مبادىء الحرب التى يؤدى إهمالها إلى كوارث محققة للجيوش. فمن واجب القائد ألا يترك ثغرة تتيح لعدوه أن يناله منها. ومن الأخذ بعنصر الأمن تعمية عيون الأعداء وحرمان عملائهم من أن ينبثوا بين صفوفه أو يعرفوا شيئاً من أخباره أو أن يتبينوا أهدافه، وأن يتحرى أخبار عدوه بكل وسيلة. وإن تدمير الطيران اليابانى للأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر فى الحرب العالمية الثانية مثال واضح لغفلة الأمريكيين التى أفقدتهم عنصر الأمن فى تلك المعركة.

هذا وقد يكون لاختيار الهدف أثره على عنصر الأمن أو نتيجة للأخذ به، وعلى سبيل المثال يرى بعض المحللين الحربيين أن هتلر تجنب الأخذ بعنصر الأمن بمهاجمته روسيا فى الحرب العالمية الثانية، وأنه لو كان اختار الشرق الأوسط وركز عليه جهوده لكان حقق لجيوشه الأمن ولكسب الحرب فى رأى الكثيرين. وقد يكون اختيار الهدف للهدف ذاته، وقد يكون لما بعده، كتحقيق الأمن للقوات أو للوصول إلى أهداف أخرى تالية كما حدد أبو بكر هدفه الأول بالحيرة كخطوة نحو هدفه الأكبر وهو المدائن.

ولقد كان واجب الحملة أن تغزو العراق ابتداء من الأبلة إلى الحيرة فى حين يغزوه عياض من المصيخ إلى الحيرة، وحينئذ يتم تطهير غرب الفرات من كل قوات فارسية أو موالية للفرس، وتكون جيوش المسلمين قد وقفت على حدود لا تبعد عن المدائن سوى خمسين كيلو متراً، فيقوم أحدهما بعبور شبكة الأنهار إلى المدائن على أن يكون الجيش الثانى عوناً له وحامياً لظهره. وتحرك خالد من النباج فى العروض نحو الأبلة، فكانت أولى معاركه فى الكواظم. ومع ذلك فقد كانت طبيعة أرض العراق المليئة بالأنهار والمستنقعات والبطائح دفاعات طبيعية قوية كموانع مائية لم يألف المسلمون من قبل العمل خلالها، وإن كبرى الجيوش حتى الحديثة منها بما جهزت به من معدات خاصة وسلاح للمهندسين لتهاب التورط فى معارك العوائق المائية. وقد كان من الممكن للفرس أن يستفيدوا منها لو أن قادتهم قد فطنوا لذلك، ولكنهم لم يفطنوا، فاستطاع خالد فى كل معاركه أن يستدرجهم إلى القتال

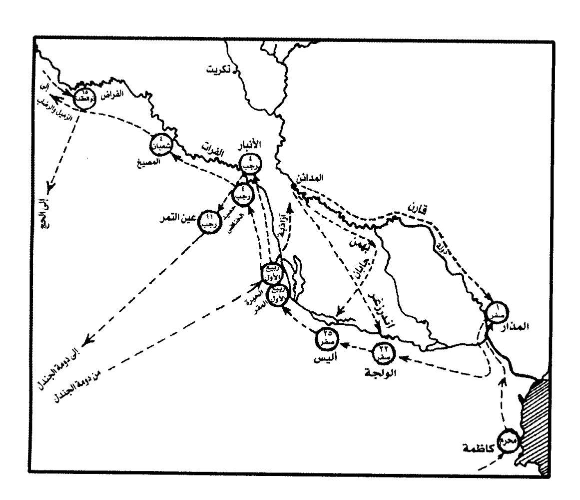
---

(١) عبقرية خالد ١٨٣.

خارج هذه الموانع، ودارت كل معاركه - فيما عدا المذار - على أرض الصحراء أو على حافتها.

وإذ شرع خالد في الزحف نحو الحيرة، كان عليه وهو يشن هجومه أن يؤمن جيشه من أن يؤتى من أى اتجاه، سواء من أمامه أو من خلفه أو عن يمينه أو عن شماله. ذلك ما يعبر عنه خبراء الحروب بعنصر الأمن. استطاع خالد أن يتحكم فيه فأمن قواته فى كافة عملياته، فى حين عجز قواد الفرس عن تحقيقه، فأتاحوا له أن يتمكن منهم المرة تلو المرة.

فمن حيث ما هو أمامه، كان دائماً يقدم مقدمة سريعة وقوية من الفرسان تسبقه فى المسير كرأس حربة، هذه المقدمة كانت من بنى شيبان عليها المثنى بن حارثة وذلك حتى الحيرة، ثم كانت من بنى تميم عليهم الأقرع بن حابس بعد الحيرة. وفى نفس الوقت حمى ظهره باستخلاف سويد بن قطبة الذهلى وقطبة ابن قتادة وشريح بن عامر وسويد بن مقرن على أسفل دجلة وشط العرب، وليكون يقظاً لما قد يحدث فى تلك الجهات إن حدث شيء.



خريطة رقم (٢٥) - عمليات خالد بالعراق، مقياس ١ / ٦ر٩٠٠ر٠٠٠ تقريباً

ولقد بعث خالد بالمثنى بعد الكواظم لا لمطاردة الفلول فقط، بل ولتطهير الجناح الأيمن للتقدم، وما كان لقائد أن يواصل السير من جنوب العراق إلى وسطه وشماله وجناحه الأيمن مكشوف، فكانت موقعة المذار. كانت المذار شرقى دجلة، وصل إليها المسلمون بعبور دجلة من موضع فوق شط العرب، فهى لم تكن على محور الأبلة - الحيرة المرسوم للتقدم، غير أنها لم تكن خروجاً على استراتيجية الفتح التى وضعها أبو بكر والتزمها خالد، وإنما كانت من صميمها حيث كان عليه أن يوفر عنصر الأمن لجيشه المتقدم من أن يُضرب من جانبه الأيمن، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فلما أتم عمله بالمذار شعر بخطر استمرار وجوده بها وجيوش الفرس تحاول أن تحصره وتأخذ عليه السبل، حيث لا مخرج، وتطبق عليه بفكى كماشة قوية من أمامه ومن خلفه، وهو محصور عن يمينه بالمستنقعات الناتجة عن مياه دجلة وبعض أنهار الأهواز، وعن شماله بأنهار العراق وبطائحه. كان أمامه جيش بهمن جاذويه فى حين كان أندرزغر يدور بجيشه خارجاً من السواد، فلو اختار خالد الالتحام ببهمن، أو لو بقى فى المذار على سبيل الغفلة عما يجرى أوالتردد عما يتخذ حياله لكانت كارثة. إن خطأ واحداً فى وضع حساس أو موقف حاسم يتوقف عليه مصير جيوش ومصائر أمم، ولذلك تعنى الدول أكثر ما تعنى باختيار قادتها الذين تضع بين أيديهم أمانة الحفاظ على جيوشها وزهرة رجالها وصنع تاريخها. وكان خالد يدركها بسليقته الحربية، فبادر بالخروج من ذلك الموضع قبل أن يتحول إلى ورطة. وهذا ما لم يدركه خالد بن سعيد وهو يتقدم بالمسلمين فى الشام فتبدد جيشه. فإذا تساءلنا عن السبب فى أن الفرس لم يستطيعوا أن ينالوا من جيش خالد كما كان ينال منهم، وجدنا الجواب فى أن خالداً كان يؤَمن قواته فى كل خطوة حتى يحول دون وقوع ما لا يريد هو، فى حين فات ذلك قادة المجوس.

مخابرات يقظة

إن الحصول على المعلومات يحقق هدفين، هدفاً مباشراً وهو وضع خطة ضد العدو، وهدفاً غير مباشر هو توفير الأمن لجيوشنا ضد تحركاته وخططه، وبالتالى تجنب الوقوع فى المفاجآت، فالمعلومات ركن هام من أركان الأمن.

وقد كان خالد يتحرك ويضع خططه دائماً على أساس معلومات مسبقة تدل على نشاط مخابراته واستكشافاته فى الميدان. والذى يظهر لنا فى أكثر من موضع، أن هذه المخابرات قد قام بتنظيمها القائد الفذ المثنى بن حارثة، ولعله كان أقدر قادة الفتح على ذلك، ليس فقط

لألمعيته وقدرته الفائقة على التنظيم، وإنما أيضاً لانتمائه إلى بنى شيبان من بكر بن وائل الذين كانت منازلهم بتخوم العراق وحوض الفرات وتمتد شمالاً إلى هيت، فكانوا بحكم مساكنهم واتصالاتهم مادة صالحة لأن يكونوا عيوناً. فماوجدنا تحركاً لجيش من جيوش الفرس إلا وكان علمه عند المثنى فى الوقت المناسب، بل ومن بدء خروجه من المدائن، وما من شاردة ولا واردة فى بلاط فارس إلا وكان يعلمها فى وقتها.

كذلك كان خالد يعتمد على استخباراته فى الميدان. وكمثال لذلك حين اقترب من حصن الأنبار فقال: «إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها..» من أين لخالد أن القوم لا علم لهم بالحرب وهم مازالوا فى حصنهم لم يلقهم؟ لم يذكر الرواة لنا شيئاً عن ذلك، والذى نحسبه أنهم وقفوا فوق أسوارهم معرضين أنفسهم لأن تنالهم سهام المسلمين بدلاً من أن يستتروا خلف المزاغل. ولا يكاد النظر يسعفنا باستنتاج بديل. هذه الظاهرة لفتت نظر خالد فاستنتج منها معرفة وبنى عليها خطة، ثم أمر جنده« .. فارموا رشقاً واحداً ثم تابعوا..» رشقاً واحداً حتى ينالهم بأكثر إصابات قبل أن يتداركوا أمرهم. ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يفقأ لأهل الأنبار ألف عين.

مبادرة ومبادأة

وكان خالد يحرص حين يجد الفرس يقذفونه بالجمع تلو الجمع، أن يبادر بالالتحام مع كل جمع على انفراد قبل أن يتم لقاؤهم، ومن هنا كانت كثرة المعارك، فكانت كاظمة، ثم المذار، ثم الولجة، ثم أليس، ثم المقر، ثم الحيرة. وكانت الأنبار، ثم عين التمر. وكانت حصيد، ثم الخنافس، ثم المصيخ، ثم الثنى، ثم الزميل، ثم الفراض. ومع كثرة المعارك، ومع الكثرة العددية الساحقة للفرس وعملائهم من العرب الذين التحم بهم خالد، لم يفلحوا قط أن يحصروه أو أن يوقعوه فى مأزق، ولم يمكنهم هو أبداً من ذلك بفضل مبادرته ومبادأته والتزامه الهجوم دائماً. كان أسداً إذا احتاج الأمر إلى تأسد، ثعلباً إذا احتاج إلى ثعلبة. وهكذا الحرب مكر وقوة، خطة وتنفيذ. وإلى هذا يلفت رسول الله ﷺ نظر المسلمين إذ يقول: «الحرب خدعة».

فالعمل الهجومى الناجح يؤدى إلى الحصول على المبادأة وحرية العمل وفرض الإرادة على العدو. والهجوم فى حد ذاته، يساعد على رفع الروح المعنوية للمهاجم. قال نابليون: «لا تتخير الدفاع إلا فى حالة عدم توفر ميزة المبادأة لديك، وإذ أجبرت على الدفاع فيجب أن

يكون دفاعك لكسب الوقت أو تركيز احتياطيك وإخراج العدو من قاعدة عملياته، على أن يكون هدفك دائماً هو الهجوم». وكذلك كان خالد. كان أسلوبه أن يمسك بالفعل، وأن يترك لعدوه رد الفعل. ووفقاً لرأى أكثر رجال الحرب أن الضربة الأولى تحقق ٥٠٪ من النصر، فإذا تمكن بها من شل قوى العدو ومنعه من الضربة الثانية، فقد اقترب من ١٠٠٪.

توفير الحشد والمرونة والسرعة

ولقد أظهرت هذه الحملة المقدرة الفائقة لخالد على الحشد، والحشد هو إعداد كل الوسائل المعنوية والمادية من رجال وعتاد، فى الزمان والمكان المناسبين لتوجيهها إلى المعركة. لقد كان خالد فى ألفين حين نزل النباج، وكان مع المثنى وأمراء الجند الذين انضموا إليه ثمانية آلاف، فصاروا عشرة آلاف، واستطاع خالد أن يحشد ثمانية آلاف أُخَر من ربيعة ومضر قبل أن يسير إلى كاظمة. هذه المقدرة على الحشد من أهم عوامل النجاح فى الحروب، ويظهر ذلك من المقابلة بين ما فعل خالد وما كان من أمر عياض بن غنم، فإن عياضاً لم ينجح فى أن يزيد قواته، فاستعصت عليه حصون دومة الجندل حوالى سبعة أشهر حتى استعان عليها بخالد.

ولم يكن الأمر قاصراً على الرجال، وإنما شمل وسائل الحملة أيضاً. وقد اتبع خالد الاستخدام التبادلى للخيل والإبل (يرجع إلى فصل الخيل من الجزء الأول)، وقد ساعده على ذلك خفة المؤونة الإدارية (يرجع إلى بحث المطعم والمسكن من الجزء الأول). وقد منحه هذا ميزة كبيرة على عدوه فى خفة الحركة وسرعة تحريك القوات. وهذا العنصر - خفة الحركة - يكمل فى الحرب الخاطفة عنصر المفاجأة، فإن تأثير المفاجأة يكون وقتياً، أما لكى يتم ويستمر فلابد من تحريك قوات أكثر فاعلية إلى الميدان الجديد للالتحام التالى قبل أن يفيق العدو من المفاجأة ويتخذ الموقف المناسب. وتتوقف خفة الحركة على سرعة القوات وحسن قيادتها وإدارتها وقدرتها على المناورة. ويؤثر على هذا نوع الوسائل ومناسبتها للسير فى كل أنواع الأراضى.

ولولا مرونة خالد لما تحقق له كثير مما نجح فى تحقيقه من حشد. ومن المرونة سرعة اتخاذ القرار المناسب وفقاً لتطور الموقف، وهنا نجد أنه لا يكون ثمة فائدة من سرعة حركة الجيش إذا لم تقترن بمرونة القائد. ولولا سرعة حركة جيشه لما استطاع خالد أن يحشد أقصى ما لديه من قوى فى الزمان والمكان المطلوبين. وأخيراً لولا ذلك كله مجتمعاً لما أمكنه أن يمسك بزمام

المفاجأة. ولهذا نرى بحق أن خالداً هو أول من ابتكر عمليات الصاعقة وأول من نظم واستخدم جيش الصاعقة، وربما كان أيضاً أول من حقق الحرب الخاطفة بفضل ما اجتمع له من مرونة قيادته وخفة حركة جيشه، بالإضافة إلى مبادرته المستمرة، وهذا كله أتاح له أن يحشد أقصى ما لديه من قوى ضد أهدافه.

اختيار التكتيك

يعد اختيار الهدف والمحافظة على الغرض من أهم مبادىء الحرب. ويتعلق باختيار الهدف تحديد الزمان والمكان والتكتيك المتبع للوصول إليه.

وقد نجح خالد نجاحاً باهراً فى استخدام تكتيك التطويق فى كمين الولجة، وفى عين التمر، وفى فتح دومة الجندل، وفى المصيخ، وفى الثنى، وفى الزميل، بحيث يحول بين عدوه وبين الإنسحاب من الميدان حين يكون ذلك الإنسحاب فى صالحه.

هل كان كمين الولجة وحى الخاطر وتفكيراً مفاجئاً هبط على ذهن خالد دون مقدمات تؤدى إليه؟ هذا جائز ولاسيما من قائد مثل خالد ذى ذهن خصب لا تنفد له أساليب وحيل. ولكن مادام أن العجم كانوا يعدون له كميناً ليطوقوه فيه، وقد بادر بالخروج منه، فالذى يغلب على ظننا ويهدينا إليه الفكر والتخمين، أن فكرة التطويق بكمين فى ذلك الحين بالذات إنما استوحاها من تدبير أعدائه، التقط الفكرة منهم بليل فصبحهم بها وهم أبعد ما يكونون ظناً أن يفعلها بهم وهم يريدون أن يفعلوها به. يدعم ذلك أن خالداً لم يستخدم تكتيك الكمائن قبل الولجة قط.

لقد كان خالد يعرف دائماً ما هو أنسب تكتيك لما هو بسبيله فى كل معركة خاضها. فحين تقدم نحو الأبلة لا شك أنه كان يدرك أن دوران المعركة على أسوارها وفى طرقاتها ليس فى صالحه لأنه يتيح لعدوه أن يقاتل من وراء جدر، فكانت رسالته إلى هرمز مخرجة له من مدينته، وما كان لهرمز أن تصله رسالة كتلك، ثم ينتظر الغزو داخل مدينته. ولم تكن عنجهيته الفارسية لتسمح له بذلك، فكان من شأن تلك الرسالة من خالد إليه أن جعلته يسعى إلى حتفه بظلفه فى عجلة من أمره... جعلت هرمز يفعل ما هو صالح لخالد. هذا الذى يقال له: فرض أرض المعركة.

استغلال النجاح

يقرر العسكريون المطاردة كأصل من أصول الحرب، ويفسرونها بأنها متابعة استغلال النجاح. ذلك أن النصر فى معركة يضع العدو فى مركز أضعف مما كان عليه قبلها مادياً ومعنوياً، مما يتيح فرصاً أكبر لتوجيه مزيد من الضربات الفعالة. ولما كان الغرض من المعركة غالباً هو سحق قوات العدو، فإن أول واجب للقوات المنتصرة بعد انكسار العدو هو القيام بعملية تشطيب (تمشيط) Finishing لقواته المنهزمة والإيغال فى أرضه وتخريب منشآته أو الاستيلاء عليها ما أمكن، وذلك قبل أن يتمكن من إعادة تنظيم قواته وتعويض خسائرها والتقاط أنفاسه، فإن النجاح يمهد للنجاح كما وأن الفشل يفتح باب الفشل.

وفى هذه الحملة نجد قائدها يأخذ بهذا الأصل من أصول الحرب فى ذات السلاسل وفى أليس وتخريب أمغيشيا، وفيما بعد فتح الحيرة وفى حصيد وفى الثنى من بعد المصيخ. وبالجملة فهذا واضح من السرعة التى كان خالد يكتسح بها أرض العراق، فقد قطع ما بين كاظمة والحيرة فى أربعين يوماً، وكانت جميع عملياته فى العراق فى نطاق أربعة عشر شهراً ليس إلا، متضمنة فترة انتظار عياض وفتح دومة الجندل والخروج إلى عرفات لأداء فريضة الحج.

القيادة والإدارة

كان خالد محباً لجنوده مقدراً لصفاتهم وميزاتهم عارفاً لها، مقراً لهم بأفضالهم منصفاً لهم، وفى هذا ما فيه من رفع معنوياتهم والاستحواذ على محبتهم وإحقاق العدالة فيما بينهم. وما أشد اعتزاز هذا القائد العظيم بجنده العظام إذ يصفهم لهرمز بقوله: «.. فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»، وقد أعادها فى رسالة إلى ملوك الفرس، كما وصفهم فى رسالة ثالثة إلى مرازبتهم بأنهم: «.. يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر». ويظهر هذا الاعتزاز أيضاً حين بلغ كاظمة، فقال لهم والماء فى أيدى المجوس. «ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين». مثل هذا الكلم الطيب من قائد عن جنده فى الميدان لابد وأن يكون له أثر السحر. ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها. نقول الحق، لقد كان خالد عميقاً فى علم النفس العسكرى قبل أن يخط أى أستاذ متخصص حرفاً فى هذا العلم بقرون.

وليس هذا فحسب. لقد كان أيضاً آخذاً بعلم الإدارة بمفهومه الحديث. ما هو علم الإدارة؟

هو علم استخدام الموارد والوسائل المتاحة بأعلى كفاءة للحصول على أكبر نتيجة. ولقد رأينا كيف استخدم خالد كل ما استطاعت يداه أن تصل إليه، تارة بالإبل وتارة بالخيل وتارة بالسفن، وتارة بالنبال وتارة بالحرب النفسية وأخرى بالمخابرات، والأهم من ذلك بمعاونيه. كل وسيلة فيما تصلح له وحين يحتاجها الموقف. رأينا من ذلك ما يغنينا عن إعادة ذكره. الإدارة هي فن تشغيل الغير لا مقدار ما يقوم به المسئول بنفسه. فالمسئول الفاشل هو الذى يحاول أن يقوم بعمل كل شيء بنفسه، أو أن يتصور أنه يستطيع ذلك. ولا يتحقق الرقى فى الإدارة إلا بمنح السلطة للمرؤسين، وهو ما يسميه علم الإدارة الحديث «التفويض» وذلك بعد أن يتأكد من أن معاونيه يسيرون فى الطريق السليم، وبذلك يتاح له الوقت الكافى للتفكير والتدبير والتوجيه والإشراف والمراجعة. ومن الصفات الهامة الواجب توافرها فى شخص المسئول - قائداً كان أو مديراً أو وزيراً أو سوى ذلك - أن يكون قادراً على تفويض السلطة دون أن يفقد السيطرة. ولا يكفى فى هذا مجرد الاقتناع به بل يلزم المقدرة على القيام به وقليل من يستطيعه.

ومن أسباب الفشل فى ذلك:

١ - عدم ثقة المسئول فى مرؤسيه.

٢ - عدم استعداد المسئول تحمل المخاطر.

٣ - الخوف من أن يظهر المعاونون كفاءة تفوق كفاءة القائد.

ولم يكن خالد واحداً من هؤلاء. فحيث لا يوجد رجل ثان لا يوجد رجل أول، والعمل الناجح هو الذى لا يشعر بغياب مديره وقائده. هذا ما يقرره علم الإدارة فى أحدث ما وصل إليه، وهذا ما فعله خالد بن الوليد.

كان خالد مدرسة فى فن الحرب، حرص على أن ينقل فنه وعلمه وتجربته إلى تلاميذه، وكان يسرّه أن يراهم يتخرجون من كليته الحربية، فنجد فى معارك العراق كثيراً من الأسماء التى أبرزها خالد وأضفى عليها نوراً تضيء به. لقد لقنهم دروسه فوجد منهم من استوعبها وهضمها، فرشحهم لقيادات ومنحهم من ثقته وأتاح لهم الفرصة ليثبتوا حسن رأيه فيهم، بل لقد ترك لهم الميدان كاملاً شهراً فى خروجه إلى دومة الجندل، وشهراً آخر فى خروجه إلى مكة لأداء فريضة الحج. دعنا من القيادات التى ظهرت وبرزت مستقلة عن تكوينه وتربيته، مثل المثنى والقعقاع وعاصم بن عمرو، ولابد أن يكونوا أيضاً قد تأثروا به، فعملهم معه جزء

هام من تجربتهم، ولكننا نعني أمثال أبي ليلى وأعبد ابني فدكي السعديين والأقرع بن حابس وبسر بن أبي رهم الجهني وسعيد بن مرة العجلي وضرار بن الأزور الأسدي وضرار بن الخطاب الفهري وعدي بن حاتم الطائي وعروة بن الجعد البارقي وعصمة بن عبدالله الضبي. لقد كان بعض هؤلاء بارزين مشهورين كزعماء في أقوامهم ولكنهم لم يشتهروا كقادة حرب حتى أبرزهم خالد، فساهم مساهمة فعالة مجدية في تخريج فوج من القادة العظام يعتمد عليه أعظم اعتماد في استطراد الفتوح. يضع المؤرخون الحربيون في صفات القائد الناجح شرطاً، أن يكون ذا ماض ناصع مشرف، وقد جعل خالد لهؤلاء من أعمالهم معه هذه السوابق التي يعتد بها وأعطاهم شهادات التخرج كقادة عظام.

خالد والقسوة في الحرب

وبعد فيطيب للبعض أن يعيب على خالد شدته وقسوته و«إيغاله في سفك الدماء» ويسوقون الشواهد من أليس وعين التمر ودومة الجندل. وينسى هؤلاء أنها الحرب، وللحرب في بعض الأحيان ضروراتها. لقد كانت أعداد كبيرة من الأسرى التي لم يكن خالد مستعداً بجيشه قليل العدد والموارد لإيوائهم إذا ما اختار الإبقاء عليهم والاحتفاظ بهم كأسرى، ثم لم يكن ليطلق سراحهم ليعودوا إلى قتاله وهم أعداء وخصوم، والحرب بينه وبينهم مازالت قائمة. لقد كان في عجلة من أمره، والزمن عنصر له خطره في الحروب، فكان حريصاً على أن ينتقل من معركة إلى أخرى على وجه السرعة، ولم يكن من الحكمة أن يوقف زحفه أو يعطله من أجل الحفاظ على أرواح أعداء، من مبدئهم ألا يبقوا على أحد من المسلمين ظفروا به. فليس عيباً أن كان خالد حازماً، ولم نسمع على مدى التاريخ عن قائد آثر أرواح أعدائه في الميدان على أرواح قومه. ولقد رأينا معاملته لأهل الحيرة وكل من صالحه، لم يمسس منهم شعرة لأنهم سالموه، فلم يكن خالد يقتل في الحرب إلا وفقاً لضرورات الحرب.

وأين ما فعله خالد من قنبلة القرن العشرين الذرية التي ألقتها الولايات المتحدة الأمريكية على هيروشيما وناجازاكي في السادس والتاسع من أغسطس (آب) ١٩٤٥ دون مبرر جدي، حيث كانت اليابان مستعدة فعلاً للاستسلام وتعرضه، هذا الحدث الهمجي في تاريخ البشرية يستحق أن ينصب له مأتم إلى أبد الدهر، والعجيب أن يسبغ على ذلك ثوب البطولة والفضيلة. أدى قس الفرقة الجوية ٥٠٩ للطيارين الأمريكيين، هذه الصلاة قبل أن تقلع بهم الطائرة الحاملة لأول وحش ذرى محا هيروشيما ومن عليها من الوجود:

«أيها الأب القوى يا أب الرحمة، فلترع هؤلاء الرجال.

سيطيرون الليلة، احمهم واحفظهم وجنبهم لعنات السماء واشملهم بعنايتك، ولتحفظ أجسادهم وأرواحهم، وردهم إلينا سالمين، هبنا الشجاعة والقوة فى هذه الساعات التى نحن فيها، وكافئهم على جهودهم.

أيها الأب، هب عالمك السلام، ودعنا نسلك طريقاً فى ثقتك وهديك.«إنك موجود الآن وإلى أبد الآبدين. آمين[1]»

إن تعذيب الأسرى للحصول على معلومات أو للانتقام والتشفى تقليد مؤسف معمول به من فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، وذلك بالرغم من اتفاقية جنيف الدولية التى تقضى بتحريمه. وفى آثار مصر القديمة نقوش لتحتمس الثالث يقبض بيسراه على أسراه ويضربهم بيمينه، ولغير تحتمس من فراعين مصر الأقدمين، وللملوك فى كافة بقاع الأرض فى كل العصور. ومع ذلك فإن هذا التقليد الهمجى لم يعرفه تاريخ الفتح الإسلامى ولم يمارسه قط القادة المسلمون المنتصرون، ولم يفعله خالد بن الوليد أو غيره منهم لا فى مجال الحرب والمخابرات، ولا فى مجال نشر الدعوة الإسلامية. وقد حرم الإسلام ذلك كما حرم التمثيل بالقتلى. فإذ سايرنا بؤس الإنسانية عبر التاريخ حتى قرننا العشرين وجدنا التعذيب قد صار علماً وفناً!! وجدنا السفاح بافلوف قد ابتدع ما عرف بغسيل المخ، فوضع لتعذيب البشر بدنياً ونفسياً قواعد وإرشادات يشيب لها الوليد، وذلك بعد تجارب أجريت على الحيوانات ثم على الناس. غسيل المخ هذا، تمارسه الآن دول تغطى رقعتها أكثر من نصف السطح المعمور من الأرض. والحقيقة التى لا ينكرها إلا مكابر، أن التاريخ لم يعرف غزاة أرحم من الفاتحين المسلمين الأوائل.

رأى المؤلف

ذكر إدوارد[2] عطية رأيه فى أسباب نجاح حملات الفتح الإسلامى فقال: «كان لدى العرب ثلاثة أصول رئيسية:

١- المعنوية العالية لأمة جديدة بعثتها عقيدة جديدة، ولاسيما بعد انتصاراتها الأولى، فقد عرفت فى نفسها داود يواجه جالوت القابل للإنكسار.

---

(١) جريدة الأهرام ٦/٨/١٩٧٠.

(٢) Eduard Atiyah - The Arabs. p.34

٢- عبقرية أهم قائدين - خالد وعمرو - اللذين كانت حملاتهما المذهلة فى سوريا والعراق ومصر، جديرة بالوقوف إلى جوار أعظم الإنجازات الحربية لنابليون والإسكندر.

٣- استخدامهم لتكتيكات واستراتيجية جديدة مناسبة بصورة مثيرة للإعجاب للوسط الذى تحركوا خلاله للانقضاض على أعدائهم - ونعنى بها الصحراوات غير المطروقة. وقد اشتملت تكتيكاتهم على استخدام فعال للفرسان التى لم يعرفها قط الرومان والبيزنطيون، بينما لعب الجمل فى استراتيجيتهم دوراً فى منتهى الأهمية فى حمل الوحدات عبر مسافات طويلة فى زمن قصير نسبياً، حتى كانوا يتمكنون من الظهور فى نقاط حاسمة، على غير توقع، ظهوراً يغير الموقف تماماً - كما حدث حين استجاب خالد لطلب العرب الذين كانوا يهاجمون دمشق، فعبر إليها من العراق ووصلها فى أيام قليلة بالتعزيزات المطلوبة. ويضاهى الأستاذ برنارد لويس استخدام العرب للصحراء باستخدام البريطانيين للبحر. فالصحراء كانت هى الوسط الطبيعى للعرب وكانوا يعرفون طريقهم فيها حيث كان عدوهم يجهل ذلك. كانوا قادرين على أن يبزغوا فجأة من خلال قفارها للقيام بهجمة، وأن يتلاشوا خلالها كما ظهروا للإفلات من التعقب. وكانت الوحدات التى أنشئوا منها قوتهم فى المناطق التى غزوها بمثابة تجهيزات استراتيجية على أهداب الصحراء معادلة لمواقع جبل طارق ومالطة وسنغافورة فى التاريخ البريطانى». أ هـ.

الإستراتيجية والتكتيك الفارسي

عجز المخابرات

إذا ألقينا النظر على الجانب الفارسي، فأول ما يلفت النظر هو عجز المخابرات الفارسية عن إمداد حكومتها بما يلزمها. فبالإضافة إلى سلطان الفرس على الحيرة كان لهم نوع من النفوذ في البحرين وفي اليمامة، وكان لهم في كل منهما «مندوب سام» ولقد بعث خالد برسالته إلى هرمز مع أحدهما الذي وصف بأنه «أبو الزباذبة الذين باليمامة». ولكن من المؤكد أن القضاء على الردة في البحرين وفي اليمامة ودخولهما في سلطان المسلمين قد قضى على النفوذ الفارسي فيهما، وبالتالي لم تعودا من مراكز الاستطلاع وجمع المعلومات، ولم يبق للفرس من هذه المراكز سوى الحيرة، يمكنهم أن يجدوا من أهلها العرب عيوناً لهم، وهؤلاء كان شأنهم شأن الفرس أنفسهم إذ فوجئوا جميعاً بالاندفاع السريع والاكتساح الخاطف Blitz Kreig الذي وصل به خالد بن الوليد إلى الحيرة ثم تجاوزها. وفي الواقع أنه يمكن التماس العذر لهذا العجز، فلم يكن لأي مراقب أن يتوقع ما حدث! كيف وقد كانت جزيرة العرب إلى أيام قليلة قد لا تتجاوز عدد أيام الشهر تشتعل ناراً بحرب أهلية داخلية كانت أخبارها تصل إلى الفرس بلا ريب، ثم تتحول هذه النار من حرب أهلية إلى غزو خارجي لعملاقين من أكبر جيران شبه الجزيرة.. إنه عمل مبهر، يعجز الفرس عن فهمه، وهم ليسوا مسلمين، لم يكونوا فهموا ما الإسلام ولا عرفوا المسلمين ولا واجهوا خالداً ولا فهموا أبا بكر.

ولقد وصلت رسالة خالد إلى هرمز قبل أيام قليلة من وصول خالد نفسه، فكانت مفاجأة تامة، يقول الرواة: إن هرمزاً بعث بالخبر إلى المدائن وخرج في «سرعان خيله» لملاقاة خالد وكأنما لم يستكمل حشد قواته. فإذا كان للفرس عيون بعد ذلك فلقد كان خالد يسبقها دائماً، كان جباراً في سرعة حركته حتى «يسبق الأخبار» فيكون هو نفسه الخبر قبل أن يصل الخبر، فأي أثر نفسي يحدثه ظهور الغزاة فجأة قبل أن يصل خبر عنهم! ولقد كان خالد حريصاً على ذلك، فنجده يشترط على من يدخل في ذمة المسلمين «أن لا يدلّوا العجم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه.. وإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان...» هذا ومن الجائز أن عيون الفرس في ذلك الوقت كانت أكثر نشاطاً في مجال السياسة الداخلية

حيث المؤامرات تحاك والدسائس تدار والانقلابات تدبر فى تنازع على السلطة، فمن وصل إليها انشغل بمراقبة معارضيه وزجهم فى السجون وصب العذاب عليهم.

المواجهة المباشرة

اللفتة الثانية أنه من الواضح أن خالداً أفقد الفرس عنصر المبادأة فلم تعد لهم استراتيجية معينة يواجهون بها الفتح، وصار قصارى ما يمكنهم صنعه أن يوجهوا قواتهم إلى حيث يتجه خالد فى مواجهة مباشرة، والمواجهة المباشرة هى أكثر أساليب الحروب خسائر وأبهظها تكلفة وضحايا. لقد كان تقدم خالد يتخذ محور الأبلة الحيرة، وكان التصدى له فى مواجهته هو أكثر الخطط إغراقاً فى العجز، وكان من الأوفق ولا شك أن يحاول الفرس ضرب ذلك التقدم من مؤخرته أو من أجنابه بتسيير جيوشهم نحو الأبلة، ولو حدث هذا قبل سقوط الحيرة لاضطر خالد إلى التراجع. غير أن الفرس لم يفعلوا ذلك إلا بالنسبة لجيش قارن الذى اشتبك به خالد فى المذار، وحتى هذه كانت لقاء بالمواجهة، إذ كان خالد حينذاك فى كاظمة. ولا ريب أن خالداً هو الذى شل تفكير الفرس بتقدمه السريع، ومن المؤكد أنه كان يفطن إلى هذا الاحتمال، يدلنا على ذلك تركه حاميات بأسفل دجلة أثناء تقدمه. إلا أن الذى يهمنا إثباته هنا من زاوية الاستراتيجية الفارسية أنها حينذاك كانت استراتيجية مسيرة موجهة لا خيار لها.

من هنا يظهر الترابط الوثيق عند خالد فى الأخذ بمبادىء الحرب، فإمساكه بالمبادرة كان يتيح له اختيار أهدافه من نقاطها الضعيفة.. من الخلف أو من الأجناب. وضياع المبادرة من الفرس كان يفوت عليهم فرصة اختيار أهدافهم من نقاطها الضعيفة واضطرارهم تبعاً لذلك إلى المواجهة من الأمام... من أقوى النقاط عند عدوهم.

سوء التوقيت

وتوقيت الهجوم على هدف يتفرع من مبدأ اختيار هذا الهدف. فإذا كان الهدف هارباً كان التكتيك مطاردة، وإذا كان الهدف سائراً فكمن له، كان التكتيك كميناً، وإذا أحيط بالهدف من جوانبه كان التكتيك تطويقاً، وإذا فرضت على الهدف أرض معينة كان التكتيك استدراجاً، وإذا كان ضرب الهدف من جوانبه أو من خلفه كان التكتيك مواجهة غير مباشرة، وهكذا تتعدد الأساليب والتكتيكات طبقاً لاختيار القائد وكل هذا تأسيساً على ا ختيار

الهدف. وفى كل هذا لابد من أخذ التوقيت فى الاعتبار. وقد يكون التوقيت سليماً فى الخطة، ولكن يكون الجيش غير مؤهل بوسائله لتنفيذ هذا التوقيت، إما لسوء تدريبه وكفايته وإما لضعف وسائله وإما لغير ذلك.

وإذا نظرنا إلى التكتيك باعتباره فن تحريك القوات فى المكان والزمان المناسبين، نجد أن سوء التوقيت كان من السمات الواضحة للتكتيك الفارسى، فقد عنصر إحكام الزمان كما فقد حسن اختيار المكان. فلقد كانت خطة بهمن جاذويه لتطويق جيش خالد فكرة جيدة لا بأس بها، وقد أعد لها فكى كماشة، إلا أنه لم يؤقت لكل فرع من هذين الفرعين الوقت الذى يتواجد فيه فى مكان مختار محدد ومدروس يأخذ فى اعتباره تحرك خالد وسرعته المحتملة، وقد أتاح هذا النقص لخالد أن يخرج إلى المكان المناسب له وأن ينفرد بكل فك من فكى الكماشة فيكسره على حدة. ولقد كان إلتحام أندرزغر بخالد فى الولجة جموداً وإصراراً على خطة بدأ فشلها قبل المعركة بتغير الأوضاع التى وضعت على أساسها. وكان على أندرزغر حينذاك أن يغيّر من خطته، ولو أنه اعتصم بشبكة المسالك والمسطحات المائية بوسط السواد لكان خيراً له بدلاً من الاستمرار فى إلتحام تكتيكى ليس له استراتيجية معينة. كذلك رأينا الفرس «ينتهزون» فرصة خروج خالد إلى دومة الجندل ليشنوا هجوماً مضاداً على المسلمين بالعراق، فماذا فعلوا فى هذا الانتهاز؟ تباطؤوا فى اتخاذ القرار وتلكأوا فى السير ولم يعنوا بتاتاً بوضع توقيت لخططهم تكفل لهم الفراغ منها قبل رجوع خالد. تلكأوا حتى تم لخالد فتح دومة الجندل والرجوع إليهم فقضى على القوات التى حشدوها واحتشدت لهم لهذا الغرض فى أربعة مواقع كل على حدة.

معنوية منهارة

ورابع ما يلفت النظر، أن الروح المعنوية فى المعسكر المجوسى كانت فى الحضيض، ولو كان تحت الحضيض درك لكان لها، الجند والقادة فى ذلك سواء. ولقد رأينا كيف انسحب آزاذبه من الحيرة فسقطت فى يد خالد دون معركة، لأن المرزبان لم يكن يتوقع معاونة عاجلة من المدائن، فى حين كان يمكنه الاعتماد على نفسه وعلى موارده وإمكانياته المحلية، أو على الأقل يحاول ذلك، غير أنه لم يحاول. كما رأينا صلح شيرزاذ لخالد على أن يترك له الأنبار وينسحب فى خيله إلى المدائن، ومهما كانت مبررات ذلك الانسحاب من وجهة نظر صاحبه فإنه لم يعن كثيراً أو قليلاً بأمن ووضع القوات الفارسية المرابطة فى حصن عين التمر والتى

كان سقوط الأنبار يؤثر عليها تأثيراً خطيراً يعزلها عن قاعدتها. كذلك وجدنا مهران ينسحب بالحامية الفارسية من عين التمر دون قتال لمجرد انهزام العرب الموالين له وكأنما صار شعار كل منهم أن ينجو بنفسه. يقول المعلق الحربى الشهير ليدل هارت:

«إن التحرك فى الاتجاه المتوقع يحفظ للعدو توازنه فيزداد قدرة على المقاومة والدفاع. وفى الحرب كما فى المصارعة، حتى إذا تسنى لك إلحاق الهزيمة بعدوك دون زحزحة أقدامه والإخلال بتوازنه، فإنما يكون ذلك باستهلاك قواك أنت استهلاكاً لايتناسب مع الضغط الواقع عليه. وحينئذ لا يتأتى النصر إلا إذا كانت قوتك تفوق قوة عدوك تفوقاً كبيراً بوجه من الوجوه، وقد تكون النتيجة مع ذلك ضعيفة. أما التاريخ العسكرى فى كافة عصوره فيقول عكس هذا. يقول إنه فى جميع المعارك الحاسمة تقريباً يكون الإخلال بالتوازن النفسى والمادى للعدو هو المقدمة الحتمية للإجهاز عليه».

ولا شك أن التوازن النفسى كان مختلاً لدى العجم ومن حالفهم من العرب.

فقدان التجانس

أما خامس اللفتات فهى أن الجيوش الفارسية كانت تتكون من عناصر ضعيفة من حيث معدنها. فكما رأينا نماذج من ضعف الفكر الحربى عند القيادات، كذلك لمسنا ضعف القائد فى قيادته وقدرته على إنفاذ ما يرى فى جنده. ولقد كان جابان فى أليس مثالاً لذلك. كما ظهر فى جنود الفرس ضعف التدريب وفقدان الروح المعنوية وتنوع الفئات والمواطن. فكان منهم أهل الأهواز (شرقى أسفل دجلة وشط العرب) وأهل فارس (مما وراء الأهواز من بلاد إيران) وأهل الجبل (شرقى دجلة من أوسطه إلى أعلاه) وأهل جيلان (ما جاور بحر قزوين من جهة دجلة) وأهل السواد (ما بين دجلة والفرات) وأهل الحيرة وأهل الجزيرة من نصارى العرب. ولم يكن بين هؤلاء جميعاً روابط وألفة، بل لقد كانت لغاتهم تتباين وتختلف، ولسنا نقصد بذلك اختلاف الفارسية عن العربية، بل إن لكل فئة ممن ذكرنا من العجم لغته. وكان الفرس يحتقرون حلفاءهم من العرب، فكان جيشاً تنقصه وحدة العقيدة أو حتى الوحدة القومية أو أى وحدة أخرى من أى صنف. هذا فى حين كان جيش المسلمين الذى يواجههم، لا نجد فى وصفه خيراً من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[1]. كان المسلمون جد فرحين بوحدتهم التى بها

(1) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

صاروا يقاتلون عدواً مشتركاً بعد أن كانوا يضرب بعضهم وجوه بعض.

خلاصة القول أنه كان هناك امتيازات فى صالح الفرس. كانوا الأكثر عدداً الأفضل عدة، كان بيدهم سلاح تكتيكى لم يكن لدى المسلمين مثله ونعنى به الأفيال.. كانوا يحاربون على أرضهم، وهى أرض ذات ميزات دفاعية ممتازة. ولكنهم مع هذا كانوا جنوداً جبناء ضعفاء غير مدربين.. وكانت قياداتهم قيادات هزيلة لا فكر لها ولا عقيدة ولا شجاعة، وكانوا يجهلون المزايا الدفاعية لأرضهم الشديدة التعقيد بشبكات المسالك والمسطحات المائية. ثم كانوا يواجهون عدواً قليلاً عدده غير أنه كان شديداً صعب المراس .

اليرموك

اجتمع للروم باليرموك مائتان وأربعون ألفاً، وكان المسلمون أربعين ألفاً في جيوشهم جميعاً. كان لكل من هذه الجيوش استقلاله وانفصاله عن سواه حتى كان لكل جيش أذانه وصلاته، فكان أول أعمال خالد أن اعترض على ذلك في اجتماع لأمرائها واتفقوا على توحيدها. ثم أجرى عملية تنظيم سريع لجيشه، فقسمه إلى ثمانية وثلاثين كردوساً، جعل ثمانية عشر منها في القلب يقودها أبو عبيدة بن الجراح، وعشرة في الميمنة يقودها عمرو بن العاص، وعشرة في الميسرة يقودها يزيد بن أبي سفيان، كما جعل للجيش مقدمة عليها قُباث بن أشْيَم.

وأمر باهان قائد الروم جيشه بإنشاب القتال فهجموا هجوماً عنيفاً على المسلمين حتى أزاحوهم عن مواقفهم وبلغوا فسطاط خالد بفرسانهم، بينما كانت مشاتهم مازالت في الخلف تحاول أن تلحق بالفرسان المتقدمة. ووجد خالد فرصته لتحويل نصر الروم إلى هزيمة، فأدخل قواته بين فرسان الروم ومشاتهم، وأفسح لتلك الفرسان طريقاً خلال صفوف المسلمين، فأخرجهم من خلفهم بينما شد على المشاة الروم الذين صاروا بدون فرسان فردهم، واستمر يزيحهم حتى ألقى بهم من شاهق في خور اليرموك العميق. وفر باهان، وقتل من الروم مائة ألف على الأقل، واستشهد من المسلمين ثلاثة آلاف. وانتهت أخبار الهزيمة إلى هرقل وهو في حمص، فخرج منها وهو يقول:

«سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده».

في أثناء ذلك توفي أبو بكر وولي الخلافة عمر، وجاء البريد إلى جيش المسلمين بذلك وبعزل خالد وتولية أبي عبيدة. وفي أقرب الروايات إلى التصديق، أن رسالة عمر بذلك جاءت إلى أبي عبيدة والمعركة دائرة، فأخفاها ولم يعلنها حتى تم النصر للمسلمين. وفي يوم اليرموك فقد خالد قلنسوته، فقال أطلبوها فلم يجدوها فلم يزل حتى وجدوها فإذا هي خلقة (بالية)، فسئل عن ذلك[1] فقال: «اعتمر النبي ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره

(١) الإصابة ٢٢٠١.

فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهى معى إلا تبين لى النصر، وما وجهت فى وجه إلا فتح لى».

عزل خالد لأسباب إدارية

اختلفت آراء الكتّاب والمؤرخين حول السبب فى عزل خالد. ولن نعرض هنا لهذه الآراء اكتفاء برأينا الذى نذهب إليه.

ذكرنا فى موضعه قتل خالد لأناس من بنى جذيمة بعد فتح مكة، وهو الذى برئ منه رسول الله ﷺ . وحدث فى حروب الردة أن قتل خالد مالك بن نويرة من بنى تميم بعد أن دخل فيما دخل فيه الناس من إسلام، ثم حدث أن تزوج خالد أمرأة مالك، مما أثار ثائرة عمر، فطلب من أبى بكر أن يعزله، غير أن أبا بكر أبى ذلك بعد أن استجوب خالداً، فأمره أن يطلقها ولم يعزله وقال: «هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد». ومرة أخرى حين أغار خالد على المصيخ حدث أن قتل رجلين من المسلمين هما: عبدالعزى بن أبى رهم ولبيد بن جرير، وكان معهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما، وقد حزن أبو بكر لمقتلهما، وعاد عمر يطلب من أبى بكر أن يعزل خالداً، ولكن أبا بكر التمس العذر لخالد إذ إن القتيلين قد ساكنا أهل الشرك ونزلا معهم فى دار الحرب. ثم حدث بعد موقعة الفراض بشمال العراق أن انفلت خالد سراً دون إذن من الخليفة إلى مكة حيث أدى فريضة الحج، ثم عاد سراً كما جاء، ولما بلغت هذه الأخبار المدينة عاد عمر يطلب من أبى بكر أن يعزل خالداً، فقال أبو بكر: «ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين». من هذه الحوادث، كان عمر يرى أن خالداً لم يكن لديه الاحتراز الكافى والواجب فى الدماء، وأنه تورط فى دماء لم تكن لتحل، وفى ذلك قال لأبى بكر:

«إن فى سيف خالد رهقاً وحق عليه أن يقيده.»

كان هذا هو رأى عمر فى خالد، فما أن ولى الخلافة حتى عزله عن قيادة جيش الشام.

سبب آخر. ذلك أن خالداً كقائد فى الميدان كان يحب أن تكون له أوسع الزوايا فى حرية التصرف، ولقد رأيناه فى خلافة أبى بكر يسير على هذا النهج فيمنح نفسه أوسع السلطات، فيخرج من العراق إلى دومة الجندل لنجدة عياض، ثم يخرج من العراق إلى الحج دون إذن من الخليفة، ونجده فى اليرموك يوحد الجيوش التى أرسلها الخليفة مستقلة عن بعضها. ولقد أعرب خالد عن منهجه ذاك فى العمل فى صراحة، حين فرغ من ردة بنى أسد واتجه إلى بنى

تميم إذ قال : « ... ولو أنه لم يأتني له – من الخليفة – كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى انتهزها ... » لم يكن هذا نهج عمر في السياسة والحرب والحكم والإدارة . إنما كان يحب أن يرجع إليه في كل تصرف ، وسنرى من ذلك الشيء الكثير حين بعث سعد ابن أبي وقاص لفتح العراق ، وفي سيرته مع أبي عبيدة في فتوح الشام بعد ذلك .

وإذن فقد كانت طبيعة عمر وطبيعة خالد طبيعتين لا تتفقان . وكثيراً ما نلحظ في مجال الأعمال ، أن شخصاً على أعلى مستويات الكفاية ، وأن شخصاً اخر مثله في ذلك ، ولكنهما لايصلحان معاً في عمل مشترك أبداً . مثل ذلك كان بين عمر وخالد ، ولم يكن بين أبي بكر وخالد . كان خالد يوزع مكافآت سخية على أبطال المعارك ، فقال عمر لأبي بكر : « اكتب إلى خالد لا يعطي شيئاً إلا بأمرك » . فكتب إليه أبو بكر بذلك ، فظهرت طبيعة خالد في إجابته :

« إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك » .

فأشار عمر على أبي بكر بعزل خالد ، فقال أبو بكر : « فمن يجزي عني جزاء خالد ؟ » قال : « أنا » قال أبو بكر : « فأنت » . وتجهز عمر للخروج حتى مشى الصحابة إلى أبي بكر وقالوا له : « ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ، وما لك عزلت خالداً وقد كفاك ؟ » قال : « فما أصنع » ؟ قالوا : « تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله » . ففعل .

هذان العاملان نراهما سبب ما كان بين عمر وخالد . ما كان من أمر الدماء ، وعدم اتفاق طبيعتي الرجلين .

وفي المدينة يبدو أن عزل خالد لم يحدث أثراً يذكر ، ولكن حين زار عمر جيش الشام بالجابية خطب يعتذر عن عزل خالد[1] فقال :

« إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد . إني أمرته أن يحبس هذا المال على المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، فنزعته وأثبت أبا عبيدة بن الجراح » .

فقام أبو عمرو أحمد بن حفص بن المغيرة فقال :

« والله ما عدلت يا عمر ، لقد عزلت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ ، وغمدت سيفاً سله رسول الله ﷺ ، ووضعت لواء نصبه رسول الله ﷺ ، ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم » .

فقال عمر : « إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك » .

---

(١) أسد الغابة ٤٢ .

والظاهر أن عزل خالد لم يثر من الاحتجاج إلا الشيء اليسير مثل هذه الواقعة، وذلك لعلم رجال الصحابة أن عمر وخالداً لن يتفقا، وأن هذا هو الاتجاه القديم لعمر.

أما في الميدان فقد خاطب خالد جند المسلمين فقال:

«بعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ يقوله».

فقال أبو عبيدة:

«سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة».

بعد اليرموك

تجمع فرار اليرموك في فحل. وقاد أبو عبيدة المسلمين وخالداً معهم، فخرج يريد هذه الجموع، فبلغه أن هرقل أمد دمشق بقوات من حمص فأرسل إلى عمر يستشيره في أمره.. أيتقدم إلى دمشق أو إلى فحل؟ هذا التصرف من أبي عبيدة يتفق وما يرضى عنه عمر ومع منهجه في سياسة عماله، ولو كان خالد مكانه لكان من المؤكد أن نظر هو في الأمر وأعمل فكره واختار وتحرك، ثم كتب بما كان إلى أمير المؤمنين. وجاء جواب عمر «ابدأوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم. واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، وضَعْ شرحبيل وعمرا بالأردن وفلسطين».

فتح دمشق

وبعث أبو عبيدة قوة تجاه فحل، فأطلق الروم مياه بحيرة طبرية ونهر الأردن، فأوحلت الأرض من حولهم وحالت بين الفريقين، فظل المسلمون يحاصرونهم دون أن يقتحموا عليهم حتى يفرغ أبو عبيدة من دمشق. وتحرك أبو عبيدة والمسلمون وخالد معهم إلى دمشق، وكانت مدينة حصينة تحيط بها أسوار يزيد سمكها عن ثلاثة أمتار وترتفع إلى ستة أمتار بها مزاغل تحتمي وراءها الرماة، وأحيط السور بخندق يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار اتصل بنهر بردى[1] فامتلأ بالماء. ولم يكن مناص من حصار المدينة المتحصنة، ولم يفت المسلمين أن

(١) سيف الله خالد ١٥٩.

يبعثوا بقوة شمالاً لتقف على طريق حمص للحيلولة دون قدوم أى قوة رومية من حمص حيث مقر هرقل. كما أرسلوا بقوة أخرى جنوباً على طريق فلسطين لمنع أى جيش رومى أن يأتى من تجاهها. ووجد أبو عبيدة للمدينة خمسة أبواب، فوكل بكل باب قوة من جيشه، وكان الباب الشرقى من نصيب خالد. واستمر الحصار زمناً اختلف الرواة فيه بين سبعين يوماً وأربعة أشهر وستة أشهر.

وفى ذات ليلة نمى إلى علم خالد أن بطْريق دمشق أوْلَم لحاميتها وليمة ضخمة بمناسبة مولود ولد له، وأن الجند مشغولون بالأكل والشراب. وكان خالد قد أعد سلالم من الحبال فى آخرها أوهاق (الوهق حبل يجعل فى طرفه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ونواتىء الجدران) فعبر الخندق ومعه زميله بطل حروب الردة والعراق القعقاع بن عمرو التميمى، وفى رواية أنه كان معه أيضا مذعور بن عدى العجلى، بخلاف رواية أخرى أن مذعوراً بقى مع المثنى بالعراق. وقذفوا بأوهاق الحبال فأثبتوها بأعلا الأسوار ثم تسلقوها حتى ارتقوا جدران الحصن وسحبوا وراءهم الحبال فثبتوها من الداخل، وجند الروم مشغولون بوليمتهم منصرفون إليها. وأقام خالد رجالاً بأعلا السور ثم تدلى ومن معه إلى الداخل وأسرعوا إلى الباب ففاجئوا حراسه من الداخل وقتلوهم وفتحوا الباب وكبّر الرجال من فوق الحصن، وكان ذلك إشارة متفقاً عليها فعبر المسلمون الخندق ودخلوا دمشق، بعضهم من الباب وبعضهم متسلقاً الأسوار، وأعملوا السيوف فيمن وجدوا، واستسلمت دمشق فأوقف القتال.

فِحل

وترك أبو عبيدة فى دمشق حامية بقيادة يزيد بن أبى سفيان وسار إلى فِحْل، وحينئذ انفصل عن جيش الشام جيش خالد الذى جاء معه من العراق، عاد إليه بقيادة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وبه جنود خالد ولكن بدون خالد. فقد بقى مع أبى عبيدة... أية محنة عاطفية لقائد فى الميدان. وفى فحل دخل جيش المسلمين منطقة قيادة شرحبيل، فأرسل قوة لحصار طبرية وجعل خالداً على مقدمة جيشه وأبا عبيدة على الميمنة وعمرو بن العاص على الميسرة وضرار بن الأزور على الفرسان. وكان شرحبيل على حذر من بيات الروم، فبات ليلة على تعبئة. وظن الروم أنهم يفاجئون المسلمين فهجموا ليلاً، واقتتلوا قتالاً مريراً. ثم ارتدت قواتهم فى الظلام والمسلمون يتبعونهم حتى حصروهم فى الطين وقتلوا منهم ثمانين ألفاً.

وعاد أبو عبيدة وخالد إلى دمشق فجاءهم أمر عمر بفتح حمص.

سقوط حمص

وفى الطريق إلى حمص التقى أبو عبيدة بقوتين للروم: إحداهما يقودها تيودور والثانية يقودها شنس. فاتجه أبو عبيدة إلى شنس بينما اتجه خالد إلى تيودور وباتت الجيوش فى انتظار الصباح، فلما انبلج لم يجد خالد الجيش الذى أمامه، فأدرك أنه اتجه إلى دمشق لاستردادها فى فرصة ابتعاد جيوش المسلمين، فأسرع من فوره إلى دمشق. وعلم يزيد بن أبى سفيان وهو فى دمشق بقدوم الروم فأغلق أبواب المدينة وتحصن بأسوارها. وجاء خالد فحصر الروم بينه وبين أسوار دمشق، وكبّر فسمع المسلمون بدمشق التكبير وأخذوا الروم من الجهتين. وفرغ خالد من هذه الموقعة وعاد إلى أبى عبيدة فى مرج الروم فوجده شتت فرسان شنس وانطلق خلفهم فى مطاردة إلى حمص، ولحق بهم خالد فكان على المقدمة. وطال حصار حمص حتى وقع بها زلزال أفزع أهلها، فطلبوا الصلح.

اللاذقية ثم قنسرين

وبعد حمص سار أبو عبيدة وخالد معه إلى حماه فصالحه أهلها، ثم إلى اللاذقية فتحصنت خلف أسوارها، وكانت ثغراً على البحر الأبيض يأتيها منه المدد، ووجد أبو عبيدة أن الحصار لا يفيد، فأمر جنده فحفروا حفراً تستر الفارس على جواده، ثم انصرف عنها أمام أعين حاميتها، غير أنه استتر بالظلام وعاد ليلاً فخبأ جيشه فى تلك الحفر. وطلعت شمس الصباح، وقد اطمأن أهل اللاذقية ففتحوا أبوابها، فخرج عليهم المسلمون فى هجوم خاطف فاقتحموها فطلب الصلح. وبعد اللاذقية فتحت المعرة، ومنها وجه أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين فى أقصى شمال الشام ففتحها بعد حصار قال فيه للروم:

«لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا».

عجباً لهذه الروح الفتية.. إنه رغم عزله كان كيوم قال فيه للفرس:

«لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

وطلبت قنسرين الأمان، فأبى خالد إلا أن يخرب المدينة عقاباً لها على مقاومتها.

يموت على فراشه

تم فتح الشام، فأقام خالد فى مدينة حمص مع أهله وأولاده، ولكن الموت لاحقهم الواحد تلو الآخر، حتى لقد روى أنه مات منهم أربعون فى عام الطاعون. والعجب أن تختلف الروايات حول تاريخ وفاة خالد، ولكن أكثرها على أنه توفى فى العام الحادى والعشرين

للهجرة، ولم يجاوز الخامسة والخمسين من عمره. فلما توفى ذلك القائد العظيم الذى نشأ فى سعة من العيش، وقاد الجيوش، وفتح البلاد وهز التيجان والعروش وأدال الدول، لم يترك من الدنيا إلا فرساً وغلاماً وسلاحه التى شهد به المشاهد. وعلم عمر بذلك فقال[1]:

«رحم الله أبا سليمان. كان على غير ما ظننا به.. كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة».

وحزن عليه حزناً شديداً. وبكته بنات عمه، فقيل لعمر أن ينههن، فقال: «دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة.. على مثل أبى سليمان تبكى البواكى».

كان خالد مزواجاً[2]. وكان طويلاً ضخماً بعيد ما بين المنكبين، واسع الهيكل عريض اللحية فى وجهه أثر جدرى. وكان أشبه الناس خَلْقاً بعمر.

مات خالد على فراشه، وحين حضرته الوفاة وأدرك ذلك، بكى وقال: «ما من عمل أرجى عندى بعد لا إله إلا الله، من ليلة شديدة الجليد، فى سرية المهاجرين، بتُّها وأنا متترس والسماء تنهل علىّ، وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار، فعليكم بالجهاد. لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء. لقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى».

وأوصى خالد أن يقوم عمر على وصيته، ولعله أراد بذلك أن يتأكد عمر أنه مات نظيفاً لم يترك وراءه من الدنيا تركة تذكر.

يروى أن لبابة أم خالد خرجت فى جنازته تقول:

أنت خـيـر من ألف ألف من القـو ... م إذا مـا كنت فى وجـوه الرجـال

فقال عمر: «صدقت والله إن كان لكذلك». فاستمرت تقول:

أشـجـاع؟ فـأنت أشـجع من ليث ... ضـمـر[3] بن جـهم أبى أشـبـال

أجـواد؟ فـأنت أجـود من سـيل ... أتى بتـسـفل من الجـبـال

فقال عمر: «من هذه؟» فقيل: أمه.

قال: «أمه والإله، أمه والإله، أمه والإله، وهل قامت النساء عن مثل خالد؟» هذه الواقعة مما يؤيد به القائلون بأن خالداً مات بالمدينة وجهة نظرهم. ولكنه على الأرجح مات بحمص، وقد

(1) سيف الله خالد ١٨٥.
(2) قادة الفتح العربى للعراق ١٤٥، عن فتوح الشام ١ / ١٥ وعن الأغانى والطبرى وابن الأثير.
(3) الضمر: الضامر، كناية عن خفة حركته ونشاطه. جهم: عبوس (المنجد) كناية عن شدته فى الحرب.

تكون هذه الواقعة وقعت بالمدينة فى غير جنازته .

قال لها عمر : «يا أم خالد ، أخالد وأجره ترزئين؟ عزمت عليك ألا تبيتى حتى تسودى يديك من الخضاب» .

صفاء مع عمر

بالرغم من أن عمر لم يستعمل خالداً بعد أن عزله ، إلا أنه من الواضح أن نفس كل منهما قد صفت تجاه الآخر . وكما رأينا شعور عمر نحو خالد كذلك كان شعور خالد نحو عمر . عاد أبو الدرداء خالداً فى مرضه الذى توفى فيه ، فقال له خالد : «يا أبا الدرداء لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها» .

فقال أبو الدرداء : «وأنا والله أرى ذلك» .

قال خالد : «كنت قد وجدت عليه فى نفسى فى أمور لما تدبرتها فى مرضى هذا وحضرنى من الله حاضر ، عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل . كنت وجدت عليه فى نفسى حين بعث إلىّ من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ومن شهد بدراً . وكان يغلظ علىّ ، وكانت غلظته على غيرى نحواً من غلظته علىّ . وكنت أدل عليه بقرابة ، فرأيته لا يبالى قريباً ولا لوم لائم فى غير الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه . وكان يُكْثر علىّ عنده وما كان ذلك إلا على النظر ، كنت فى حرب ومكابدة وكنت شاهداً وكان غائباً ، فكنت أعطى على ذلك ، فخالفه ذلك من أمرى» .

ولما بلغ عمر موت خالد قال[1] :

«قد ثلم فى الإسلام ثلمة لا ترتق . كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة» .

وسمع عمر راجزاً يذكر خالداً فقال : «رحم الله خالداً» . فقال له طلحة بن عبيد الله معاتباً :

لا أعـــرفنك بعـــد الموت تندبنى ... وفى حـــيـــاتى مـــازودتنى زادى

قال عمر : «إنى ما عتبت على خالد إلا فى تقدمه وما كان يصنع فى المال» .

رحم الله خالداً ورحم الله عمراً . وصدق رسول الله ﷺ : «أصحابى كالنجوم» .

ولقد تزوج عمر بن الخطاب[2] فاطمة أخت خالد بعد أن توفى عنها زوجها وابن عمها الحارث ابن هشام بن المغيرة .

(١) قادة الفتح العربى للعراق ١٤٦ عن ابن عساكر ٧١٤ .

(٢) أسد الغابة ٩٧٩ فى ترجمة الحارث بن هشام .

الجزء الثالث



الباب الثالث عشر

حملة أبي عبيد

عود إلى العراق

بعد وداعه لخالد عاد المثنى إلى الحيرة يعيد تنظيم قواده وقواته ويملأ الأماكن التى شغرت من قادة رحلوا.

رحل خالد فكان المثنى مكانه.

وخلا مكان المثنى فى الحامية التى كانت بالسيب فوضع مكانه أخاه المعنى بن حارثة.

وخلا مكان ضرار بن الخطاب فوضع مكانه عتيبة بن النهاس العجلى. وخلا مكان ضرار بن الأزور فوضع مكانه أخاه الثانى مسعود بن حارثة. وفى رواية أنه وضع مذعور بن عدى العجلى فى بعض تلك الأماكن.

وهكذا سد أماكن كل من خرج من الأمراء برجال أمثالهم ممن يغنى عنهم ممن بقى معه.

وبعد خروج خالد بقليل - على رأس سنة[1] من دخوله الحيرة - آل ملك فارس إلى شهربراز[2] بن أردشير بن شهريار الذى كان يتصل نسبه إلى كسرى ثم إلى سابور. واستتب له الملك فوجه إلى المثنى جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة هرمز جاذويه، ومعهم فيل من أفيال القتال. فكتبت مسالح المسلمين بذلك إلى المثنى.

---

(١) كان دخوله الحيرة ربيع الأول ١٢هـ، وكان خروجه إلى الشام فى صفر ١٣هـ - أبريل (نيسان) ٦٣٤.

(٢) شهر براز بالفارسية، معناها خنزير الدولة.

معركة بابل [1]

أواخر ربيع الأول ١٣هـ - أواخر مايو (أيار) ٦٣٤م.

خرج المثنى من الحيرة للقاء هذا الجيش، واختار ميدان المعركة فى سواد ما وراء الفرات، ولعله أراد بذلك الدفاع عن باروسما وبانقيا والفلايج التى صالحت المسلمين على الجزية والمنعة، فأصبح الدفاع عنها مما يلزم المسلمين. لقد مضى حول من يوم قبض خالد الجزية منهم. ولم نجد ما يفيدنا إن كان المسلمون قد قبضوا جزية العام التالى. وحشد المثنى قواته فضم إليه مسالحه، وعبأ جيشه، فجعل على ميمنته أخاه المعنى، وعلى ميسرته أخاه مسعوداً. وفى هذا دلالته على أن النسبة العددية لقوم المثنى من بنى شيبان ومن بكر بن وائل قد غلبت من سواهم على تعداد جيش المثنى بالعراق. وتقدم المثنى فأقام بجيشه فى بابل. وزحف هرمز جاذويه تحفزه روح التحدى والغرور، وقد جعل على ميمنته كوكبذ، وعلى ميسرته خوكبذ. وبعث إلى المثنى برسالة جاء فيها:

«من شهربراز إلى المثنى. إنى قد بعثت إليك جنداً من وخش [2] أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم»!.

فأجابه المثنى:

«من المثنى إلى شهربراز. إنما أنت أحد رجلين، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك. وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليه. فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير».

وكما رأينا من قبل، وسنرى من بعد أن الفرس كانوا أهل تفاؤل وتشاؤم وتنجيم، فلما رأوا جواب المثنى جزعوا منه وتشاءموا، وقالوا: «إنما أُتِيَ شهربراز من شؤم مولده ولؤم منشئه (وكان يسكن ميسان - منطقة العمارة) وبعض البلاد شين على من يسكنه، وقالوا له: جرأت علينا عدونا بالذى كتبت به إليهم، فإذا كاتبت أحداً فاستشر».

والتقى الجيشان ببابل فاقتتلوا بالجانب الأدنى من نهر الصراط قتالاً شديداً. وكان مع

---

(١) الطبرى ٤ / ٤٢ س ش س، عن محمد وطلحة والمهلب.

(٢) وخش الناس: أسقاطهم ورذائلهم - المنجد.

الأعاجم فيل من أفيال القتال، جال يفرق بين صفوف المسلمين، فتداوله المثنى وناس من أبطال المسلمين حتى أصابوا منه مقتلاً. وبمقتله انهزم المجوس وشرعوا فى الفرار، واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى جازوا بهم مسالحهم فأقاموا فيها، وأوغلوا فى مطاردتهم حتى انتهوا إلى المدائن(١). وفى هذه المعركة قال الفرزدق:

فمنهن بيت الحوفزان الذى به ... تفلل به بكر حد نبل المناضل
وبيت المثنى عاقر الفيل عنوة ... ببابل إذ فى فارس ملك بابل

---

(١) كان الشاعر المجيد المخضرم عبدة بن الطبيب السعدى التميمى ممن شهد هذه الموقعة. ذكره ابن حجر العسقلانى باسم عبدة بن الطيب، واسم الطيب يزيد بن عمرو بن على بن أنس بن عبدالله بن عبد تميم بن جشم بن عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم. خرج فى هذه الحملة لمهاجرة حليلة له إلى جهة بابل فلما آيسته رجع إلى البادية وقال:

هل حبلُ خولة بعد البين موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
وللأحبّة أيام تذكرها ... وللنوى قبل يوم البين تأويل
حلت خُوَيْلَة فى حى عهدتهم ... دون المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ضاحية ... منهم فوارس لا عزل ولا ميل

وفيها:

والمرء ساع لشىء ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

ويبدو من هذا ومن رسالة شهربراز أن المنطقة كانت كثيرة الدجاج والدواجن والخنازير... إلخ.
ولقد كان عمر يعجب من شعر عبدة. وهو الذى رثى قيس بن عاصم التميمى بأرثى بيت قالته العرب:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

ولما كبر عبدة وأسن جمع بنيه وأنشأ قصيدته التى يوصيهم فيها ويقول:

ولقد علمت بأن قصرى حفرةٌ ... غبراء يحملنى إليها شَرْجَعُ
فبكت بناتى شجْوَهن وزوجتى ... والأقربون إلىّ ثم تصدعوا
وتُركت فى غبراء يُكره وِرْدُها ... تسفى علىّ الريح حين أُوَدَّعُ

(الشرجع: هو سرير الميت)، قيل لخالد بن صفوان: إن عبدة لا يحسن أن يهجو فقال: «لا بل كان يترفع عن الهجاء». وقد عاد عبدة إلى حرب العراق مرة أخرى، يقول الجاحظ: «إنه كان فى جيش النعمان بن مقرن الذى حارب الفرس بالمدائن» (البيان والتبيين) ١ / ١٢٢.

فتنة فى البلاط الفارسى

ومع انهزام هرمز جاذويه مات شهربراز، قتله الحرس بعد أن ظل ملكاً أربعين[1] يوماً. وعاد الفرس إلى اختلافهم فى أزمة الملوك. وبقى ما دون دجلة وبرس من السواد فى أيدى المثنى والمسلمين. ثم ملكت دُخْت زنان ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر، فخلعت. وملك سابور بن شهربراز بن أردشير بن شهربراز. وقام بأمره فَرُخْزَاذ بن بنْدَوان فسأل سابور أن يزوجه آزر[2] ميدخت بنت كسرى فقبل. ولكن آزر ميدخت غضبت، وقالت: «يا ابن عم أتزوجنى عبدى!؟».

وقال: «استحى من هذا الكلام ولا تعيديه علىَّ فإنه زوجك».

ولم تكن آزر ميدخت تقبل ذلك الزواج، فبعثت إلى واحد من فتّاك العجم يدعى سياوخش الرازى، وشكت إليه الذى تخاف. فقال لها: «إن كنت كارهة لهذا فلا تعاوديه فيه، وأرسلى إليه وقولى له فليقل له فليأتك، فأنا اكفيكه. ففعلت وفعل، واستعد سياوخش.

فلما كان ليلة العرس أقبل فرخزاذ حتى دخل فطلع عليه سياوخش وقتله ومن كان معه، ثم خرج بها إلى سابور فحصروه، ثم دخلوا عليه فقتلوه. وملكت آزر ميدخت بنت كسرى، وتشاغل الفرس بذلك عن المسلمين.

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين.

(٢) آزر ميدخت، معناها الفتاة الطاهرة - إيران فى عهد الساسانيين ٣١٢.

أبو بكر يحتضر[1]

مشروع جديد للمثنى

لم يكن المثنى جاهلاً بأحوال الفرس وما يجرى فى بلادهم وبلاطهم، وكان يعلم أن الهدنة التى أتاحها له القدر لن تدوم، وكان يدرك أيضاً أنه لا يستطيع أن يحتفظ بما فتح له من أرض، فضلاً عن أن يفتح غيرها بتسعة آلاف فقط. لذلك استخلف المثنى على المسلمين بالعراق بشير بن الخصاصية، ووضع مكانه فى المسالح سعيد بن مرة العجلى. وخرج المثنى على أكثر تقدير فى ١١ جمادى الآخرة ١٣هـ ١٢ أغسطس (آب) ٦٣٤م فى أشد قيظ الصيف نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين والفرس ويشرح له حقيقة الوضع وتفاصيله، وليقدم له مشروعاً جديداً للتعبئة العامة، يستأذنه بمقتضاه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة، وقد كانوا حتى ذلك الوقت ممنوعين من المشاركة فى هذه الفتوح، وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط منهم إلى قتال فارس وحربها ومعونة المجاهدين. رحم الله المثنى، فكما كان يزن عدوه ويحسب قواته، كذلك كان يدرك إمكانيات المسلمين ويقدرها. ولم يكتف بمجرد تقديم الطلب وإنما قدم أيضاً مصادر تنفيذه.

وبلغ المثنى المدينة وأبو بكر مريض مرض الموت - خمسة عشر يوماً - وصادف قدوم المثنى صحوته وكان أبو بكر قد استخلف عمر بن الخطاب. وجلس المثنى إلى أبى بكر رضى الله عنه وأفضى إليه بما جاء من أجله. قال أبو بكر لمن حوله: «علىَّ بعمر».

وفاة أبى بكر

وجاء عمر فخاطبه أبو بكر رضى الله عنه، قال:

«اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به. إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا - وكان ذلك يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة ١٣هـ ٢٢ أغسطس (آب) ٦٣٤م - فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى. وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى، ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم. وقد رأيتنى مُتَوَفَّى

---

(١) الطبرى ٤ / ٤٣ عن السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب.

رسـول الله ﷺ ومـا صنعت، ولم يصب الخلق بمثله. وبالله لو أنِّى أَنِىَ عن أمـر الله وأمـر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً. وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم».

قال عمر: «كان أبو بكر قد علم أنه يسوؤنى أن أؤمر خالداً على حرب العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وتركه».

لقد كان فى نية أبى بكر حين وجه خالداً إلى الشام أن يعيده إلى العراق، ولكن ما دامت الخلافة ستؤول إلى عمر، ولعمر مآخذ على خالد فمن الحكمة إذاً أن لا يحرج أبو بكر عمر فى أمر لا يرضاه، ومن حسن السياسة أن يكون أعوان الخليفة وقادة جيوشه ممن يرضى عنهم تجنباً لما عسى أن ينشأ نتيجة عدم الانسجام بين الرجلين خاصة فى ظروف الحرب.

وقد كان توفى ذلك الرجل العظيم أبو بكر رحمه الله مع الليل بين المغرب والعشاء وكان يوماً من أيام الصيف، فدفنه عمر ليلاً إلى جوار رسول الله ﷺ، وذلك بعد أن صلى عليه فى المسجد، وسوى على الصديق القبر.

أبو عبيد فى العراق

دعوة إلى الجهاد

ما أن فرغ عمر رضى الله عنه من دفن أبى بكر حتى دعا الناس إلى التطوع لحرب الفرس مع المثنى بن حارثة، وكان ذلك فى آخر الليل، الذى توفى فيه أبو بكر. نادى عمر: «الصلاة جامعة»، فاجتمع الناس، فدعاهم إلى التطوع، ولكنهم تفرقوا على غير إجابة. ثم صلى عمر والمسلمون الفجر، وبايعه الناس على الخلافة، وعاد يطلب تطوعهم لحرب العراق. واستمر على ذلك ثلاثة أيام، ولا يتطوع أحد، فقد كان قتال الفرس من أكره الوجوه إلى العرب وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم[1].

فلما كان اليوم الرابع، بدأت عملية دعاية للتطوع، فقام المثنى فى مسجد رسول الله ﷺ وقال:

«أيها الناس. لا يعظمن عليكم هذا الوجه.. فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد، وشاطرناهم ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها».

ثم قام عمر فى الناس فقال:

«إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجْعَة[2]، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين الطُّرَّاء[3] المهاجرون عن موعود الله؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: «ليظهره على الدين كله» والله مظهر دينه ومعز ناصره، ومولى أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون؟!»

استجابة

وأحدثت هذه الصيحة المؤمنة أثرها، فصاح رجل «أنا لها» والتفت الناس، فوجدوا أن أول

---

(١) الطبرى ٤ / ٦١ س ش س، عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد.
(٢) النجعة: طلب الكلأ - مختار الصحاح.
(٣) اطرأه: بالغ فى مدحه - المنجد.

من تطوع، كان أبو عبيد بن مسعود[1] الثقفي. ثم قام سعد بن عبيد الأنصاري، حليف بني فزارة فقال: «أنا لها»، وذلك لفعلة فعلها، أراد أن يتقرب إلى الله ويكفر عنها. ثم كان ثالث من تطوع سليط بن قيس. ثم تتابع الناس على ذلك، حتى اجتمع ألف رجل من المدينة وماحولها[2]. أكثرهم من ثقيف قوم أبي عبيد، ومن الأنصار أوسيهم وخزرجهم.

كيف تقاعد المسلمون عن التطوع ولم يبادروا إليه، إلا بعد أن خطب المثنى، وأغلظ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنهما فى حثهم، وحتى لجأ عمر إلى التلويح لهم بالدنيا، حين أشار إلى أن الحجاز لن تكون إلا دار من يقنع بالكلأ، وحتى أشار المثنى إلى ريف فارس، وخير أرض سوادهم! لماذا تثاقلوا، وليس هذا عهد التاريخ بهم؟.

نظن والله أعلم، أن خير المسلمين كانوا قد سبقوا فى الخروج إلى جيش العراق الأول الذى قاده خالد بن الوليد، وإلى جيوش الشام التى تتأهب للمعركة الفاصلة فى اليرموك. وهى جيوش تبلغ فى جملتها نحواً من خمسين ألفاً من خيار المسلمين، وأبطالهم الذين ثبتوا على إسلامهم حين ارتد الناس. بل إن جيش فتح العراق كما رأينا، كان بعض جيوش قمع الردة، استطرد فى عملياته بعد أن فرغ من مهامه فى شبه الجزيرة.

كذلك ربما كان لوفاة أبى بكر، أثرها المحزن فى نفسيات أهل المدينة، الأمر الذى لا يساعد أحدهم أن يتخذ قراراً سريعاً فى أمر خطير كهذا، لا سيما وأن الخليفة من بعده عمر، وقد كان معروفاً عنه الشدة. دخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر قبل وفاته فقال: «استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف إذا خلا بهم، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك؟»، وكان أبو بكر مضطجعاً فقال: «أجلسونى» فأجلسوه، فقال لطلحة: «أبالله تخوفنى؟ إذا لقيت الله ربى، فساءلنى، قلت استخلفت[3] على أهلك خير أهلك».

وجاء على بن أبى طالب على عجل بعد وفاة أبى بكر، فوقف ببابه وهو يبكى ويقول: «رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً

---

(١) هو أبو عبيد بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف (فتوح البلدان). قال ابن عبدالبر: «كان من جلة الصحابة» (الاستيعاب ١٢٤ كنى) ولكن يبدو أنه كان من الصحابة بمعناها الواسع، وهو كل من لقى الرسول مؤمناً به ولو مرة. ولا يعلم له شىء من رواية الحديث.

(٢) الطبرى ٤ / ٦١ بنفس السند.

(٣) الطبرى ٤ / ٥٤ عن أسماء بنت عميس (زوجة أبى بكر).

وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله ﷺ وأحدبهم على الإسلام، وأحماهم عن أهله، وأنسبهم برسول الله خلقا وفضلاً وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله، وعن المسلمين خيراً. صدّقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وسماك الله فى كتابه صديقاً فقال: «والذى جاء بالصدق وصدق به(١)» يريد محمداً ويريدك. كنت والله للإسلام حصناً، وللكافرين ناكباً. لم تضلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف. كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً فى بدنك قوياً فى دينك، متواضعاً فى نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً فى الأرض، كبيراً عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوى، والقوى عندك ضعيف، حتى تأخذ الحق من القوى وتأخذه للضعيف. فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك».

وقال عمر: «يا خليفة رسول الله، لقد كلفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نصباً، فهيهات من شق غبارك، فكيف اللحاق بك».

وبكت النساء، وعلا نواحهن فقال عمر: «قال رسول الله ﷺ: «إن الميت يعذب ببكاء الحى». ونهاهن عن النوح فأبين. فقال عمر لهشام بن الوليد أخى خالد بن الوليد: «قم فأخرج النساء». فقالت عائشة: «أخرج عليك؟!» فقال عمر: «ادخل فقد أذنت لك». فقالت عائشة: «أمخرجى أنت يا بنى؟»، قال: «أما لك قد أذنت» فجعل هشام يخرجهن امرأة امرأة، حتى خرجت أم فروة بنت أبى قحافة(٢).

كان المسلمون فى مصيبة عامة شاملة، لابد أن يكون لها أثرها النفسى والعاطفى عليهم.

هفوة عظيم

اجتمع لعمر ألف من المتطوعين، وبقى أن يختار القائد. ونعجب هنا من عدم توليته للمثنى، وقد استعمله أبو بكر على من خلف خالد بالعراق، وقد كانت وصيته قبل وفاته إلى عمر أن يندب الناس مع المثنى. قيل لعمر: «أمر عليهم رجلاً له صحبة من السابقين، من المهاجرين والأنصار». ولكن عمر كان شديد التأثر من امتناعهم أول الأمر عن التطوع. قال: «لا والله لا أفعل.. يا أصحاب النبى لا أندبكم فتنكلون، وينتدب غيركم فأؤمركم عليهم..

(١) سورة الزمر، الآية ٣٣.
(٢) الإصابة ٨٩٧٦ فى ترجمة هشام بن الوليد.

إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو . فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء . فإذا فعل فعلهم قوم واثاقلوا ، كان الذين ينفرون خفافاً وثقالاً أولى بها منهم . والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً » .

ثم دعا أبا عبيد وسليطاً وسعداً[1] . فقال لسليط وسعد :

« أما أنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها ما لكما من القدمة » .

فأمّر أبا عبيد على الجيش وقال له :

« اسمع من أصحاب النبى ﷺ وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين . إنه لم يمنعنى أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب ، وفى التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان . . والله لولا سرعته لأمّرته ، ولكنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف[2] » .

ما من عظيم إلا وله خطأ وأخطاء . وحسب المرء فخراً أن تحصى أخطاؤه وأن تعد معايبه . ولقد قالها عمر نفسه رضى الله عنه فى إحدى القضايا : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . وليس لمثلنا جرأة الحكم على مثل عمر ، ولكنه كان حكم الأحداث والتاريخ الذى قال كلمته . قال : إن عمر أخطأ الاختيار . إن كان أراد الصحابة ، فكان لديه الصحابة . . وإن كان أراد السبق ، فقد كان المثنى أسبق . . وإن كان أراد الأعلم بالحرب ، فلم يكن أبو عبيد هو الأعلم بها . إن

---

(١) سعد بن عبيد الأنصارى حليف بنى فزارة ، شهد بدراً مع النبى صلى الله عليه وسلم . قيل هو أبو زيد الذى جمع القرآن على عهد رسول الله ، وقيل أبو زيد غيره . ولكنه كان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهد النبى ، وكان يسمى سعد القارىء ، ولم يكن أحد يسمى القارئ غيره . وكان يؤم المسلمين فى الصلاة بمسجد قباء فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمن أبى بكر وعمر .
(الاستيعاب ٢ / ٣٨ - الإصابة ٣١٧٦) .
أما سليط بن قيس من بنى عدى بن النجار من الخزرج ، فقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما كتب رسول الله إلى ملوك الآفاق ، وكتب إلى كسرى والنجاشى والمقوقس ، كتب أيضاً إلى هوذة بن على الحنفى سيد بنى حنيفة ، وإلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الإسلام ، وأنفذ كتابه ذلك مع سليط بن قيس . وربما كان لذلك بعثه أبو بكر ردءاً (مؤخرة) لخالد بن الوليد فى حرب مسيلمة باليمامة ١١هـ حتى لا يؤتى من خلفه . وقد تطوع لحرب العراق وتطوع معه أخوه المنذر وكان ممن شهد أحداً والمشاهد مع رسول الله .
(الاستيعاب ٢ / ١١٧ - الاصابة ٣٤٢٥ و ٧٢٢٢٨) .

(٢) الطبرى ٤ / ٦١ عن السرى بن يحيى عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد . فتوح البلدان ٦٢٤ .

اختيار قواد الجيوش مسئولية جسيمة وخطيرة، كيف لا؟ وهم يوضع بين أيديهم تاريخ الأمة ومكانتها وسمعتها ومستقبلها ومصائر خير بنيها، يتصرفون فيهم بما يرون ويكونون طوع بنانهم ورهن إشارتهم. فإذا كان ذلك الاختيار سيئاً بيّن السوء، فلا شك أن مسئولية ما يحدث من أخطاء ذلك القائد، إنما تقع على عاتق الحكومة أو السلطة التى اختارته وهى التى تسأل على أى أساس اختارته. قال أبو بكر حين حضرته الوفاة فى حديث طويل:

«... وودت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام، كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله[1]». بهذا يلفت أبو بكر النظر إلى ضخامة هذه المسئولية وجسامتها، حين يتمنى وهو يحتضر لو أنه كان استعمل على جيش المسلمين بالعراق الرجل الذى استخلفه على أمة الإسلام. وقال عمر بن الخطاب فى بعض المناسبات: «رحم الله أبا بكر، كان أعرف بالرجال منى».

وصية عمر

وأرسل عمر المثنى حتى لا يغيب عن جيشه. وقال له:

«النجاء حتى يقدم عليك أصحابك».

وانطلق المثنى مسرعاً، يطوى الطريق من المدينة إلى الحيرة، بسرعة تجاوز المائة كيلو متر فى اليوم على ظهر فرسه، حتى بلغها فى عشرة أيام، فبلغها فى حوالى الخامس من رجب ١٣هـ الموافق ٤ سبتمبر (أيلول) ٦٣٤م. ثم راح عمر يستكمل الحشد، فندب أهل الردة، وكأنما كانوا على أحر من الجمر، وفى ضيق ليس كمثله ضيق من حرمانهم من الفتوح، فأقبلوا سراعاً من كل أوب، فرمى بهم عمر إلى الشام، وإلى العراق. وأوصى عمر أبا عبيد فقال:

«إنك تقدم على أرض المكر والخديعة، والخيانة والجبرية، (الجبروت). تقدم على قوم قد جرأوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون. وأخزن لسانك، ولا تفشين سرك، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة[2]».

---

(١) الطبرى ٤ / ٥٣ عن يونس بن عبد الأعلى عن يحيى بن عبدالله بن بكير عن الليث بن سعد، عن علوان عن صالح بن كيسان عن عمر بن عبدالرحمن بن عوف عن أبيه.

(٢) الطبرى ٤ / ٦٦ س ش س عن محمد وطلحة ومجالد وزياد والنضر بإسنادهم.

وكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح قائد جيوش الشام:

«إنك على الناس، فإن أظفرك الله فاصرف أهل العراق إلى العراق، ومن أحب من أمدادكم إذا هم قدموا عليكم».

فى بلاط فارس[1]

وفى هذه الأثناء كانت الفتنة مشتعلة فى بلاط فارس. وكانت بوران بنت كسرى برويز، من أكثر أهل فارس عقلاً وغيرة على صالح دولتها. كما كان لها من مواقفها وشخصيتها ما جعل ساسة فارس يلجئون إليها ويأتمرون بأمرها، حتى يصطلحوا وتهدأ الفتنة. فلما قتل فرخزاذ بن بندوان فى المدائن وهو يطمع فى الملك بزواج آزرميدخت، كما قتل سابور بن شهربراز، كان رستم بن فرخزاذ حاكم خراسان فثار رستم لمقتل أبيه، وأرسلت بوران إليه واستحثته بالسير، فزحف من خراسان إلى المدائن، لا يلقى جيشاً لآزرميدخت إلا هزمه، ثم حاصر المدائن ودخلها، وقتل آزرميدخت بعد أن فقأ عينيها، وقتل سياوخش، وعادت بوران عدلاً بين الناس، حتى نصبوا يزدجرد الثالث. وشكت بوران إلى رستم تضعضع فارس وإدبار أمرها، ودعته إلى القيام بالأمر فى البلاد على أن تُمَلِّكَه وتطلق يده فى السلطة عشر سنوات يكون الملك بعدها فى آل كسرى، إن وجدوا من رجالهم أحداً، وإلا ففى نسائهم.

قال رستم: «أما أنا فسامع مطيع غير طالب عوضاً ولا ثواباً. وإن شرفتمونى وصنعتم إلى شيئاً، فأنتم أولياء ما صنعتم. إنما أنا سهمكم وطوع أيديكم». قالت بوران: «أغد علىَ غداً».

وفى اليوم التالى غدا عليها، وكانت قد عقدت اجتماعاً لمرازبة فارس، فكتبت له: «إنك على حرب فارس، ليس عليك إلا الله عن رضى منا وتسليم لحكمك. وحكمك جائز فيهم، ما كان حكمك فى منع أرضهم وجمعهم عن فرقتهم». وتوَّجَتْه وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا. فدانت له فارس بعد قدوم أبى عبيد إلى الحيرة. وقد بلغها بعد المثنى بشهر (حوالى ٣ شعبان ١٣هـ - أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤م).

وكان رستم منجماً عالماً بالنجوم، فقال له قائل: «ما دعاك إلى هذا الأمر وأنت ترى ما ترى؟» قال: «الطمع وحب الشرف[2]».

---

(١) الطبرى ٤ / ٦٢ س ش س عن محمد وطلحة بإسنادهم، وعن عمرو عن الشعبى وأبى روق.

(٢) الطبرى ٤ / ٦٤ س ش س، عن الصلت بن بهرام عن أبى عمران الجعفى.

تقدير الموقف

١- ثار رستم بخراسان لمقتل أبيه، وزحف نحو المدائن فأسقط آزرميدخت، ثم ولته بوران شئون الحرب، ومنحته أوسع السلطات.

٢- توفى الخليفة أبو بكر بالمدينة، وولى الخلافة عمر، فحشد حشداً جديداً لإمداد جيش العراق. وولى القيادة أبا عبيد بن مسعود الثقفى.

٣- عاد المثنى من المدينة إلى الحيرة، ولحق به أبو عبيد فى الجموع الجديدة.

٤- جمهور جند المسلمين بالحيرة. وجانب من سواد العراق تحت سلطانهم ومسالحهم بالسيب، وغاراتهم متصلة تنتهى إلى شطآن دجلة. ودجلة حاجز بينهم وبين الفرس. جيش المسلمين بالعراق حوالى ٩٠٠٠ قبل المدد الذى بلغ حوالى ١٠٠٠ أكثرهم من الأنصار (الأوس والخزرج) ومن ثقيف قبيلة أبى عبيد، فكان جيش المسلمين بالعراق نحواً من عشرة آلاف.

انتهاء الهدنة

استقرت الأحوال داخل فارس واستكمل المسلمون استعدادهم فلم يعد للهدوء مجال. وما أن مضى على عودة المثنى من المدينة خمس عشرة ليلة حتى بدأ رستم يتحرك، فكتب إلى دهاقين السواد يحرضهم ويأمرهم أن يثوروا بالمسلمين. ودس فى كل رستاق رجلاً ليثور بأهله. فبعث جابان إلى البهقباذ الأسفل، وبعث نرسى - وكان ابن خالة كسرى - إلى كسكر، وكانت كسكر إقطاعية له يزرع فيها نباتاً اسمه النرسيان (لم ندر ما هو) فكان حكراً عليهم لا يغرسه ولا يطعمه بشر غيره سوى ملك فارس أو من أكرموه بشىء منه، فكان ذلك الثمر من حماهم. فقال رستم وبوران لنرسى: «اذهب إلى قطيعتك فاحمها من عدوك وعدونا وكن رجلاً!!» وحدد رستم لرجاله ساعة يبدأون بعدها، وأراد أن يشجعهم فعهد إليهم أن الأمير عليهم أول من يثور. كما بعث جيشاً لمصادمة المثنى فى الحيرة.

معركة النمارق[1]

٨ شعبان ١٣هـ - ٧ أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤م

انسحاب

خلق الإنسان من طينة هذه الأرض، فهو دائماً يحنَ إليها، وتنشأ بينه وبين ما ينزل منها من العواطف والمحبة والتعلق ما لا يقل عن تعاطف الناس مع من يحبون. وفي الحروب كثيراً ما يورد هذا أصحابه موارد التهلكة حين يتشبثون بأرض الدفاع عنها عسير غير مجد، ومن شاء فليسأل التاريخ عن نابليون وعن هتلر. أما المثنى فكان من أهل البادية، عاش حياته في بيوت الشعر يتنقل بها عمره كله من مكان إلى آخر، فساعده ذلك على التخلص من هذا النوع من حب الأرض، وكان رجل حرب يعرف الصواب فيها من الخطأ، كما كان يدرك أنه لا يحارب من أجل أرض، وأن الأرض حتماً لمن غلب.

كان المثنى يلحظ كل ما يحدث لدى الفرس، فبادر إلى سحب مسالحه من جميع أرض العراق وضم إليه جنده. وتعجل جابان فكان أول من ثار بفرات بادقلي، ونزل في جنده موقعاً متقدماً في النمارق[2] بين الحيرة والقادسية، وقد اجتمع إليه جمع كبير. ثم ثار نرسي، ونزل زَنْدَوَرْد. وثارت جميع الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله. وانسحب المثنى دون اشتباك فنزل بالمسلمين في خفان حتى لا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه، حتى قدم إليه أبو عبيد بمن معه في حوالى ٣ شعبان، فأقام أياماً بخفان ليستجم أصحابه من وعثاء الطريق - وخفان موضع بتخوم الصحراء أسفل من القادسية - وأراد جابان ونرسي مزيداً من الاطمئنان، فطلبا من المدائن تعزيزات لقواتهما.

المعركة

وخرج أبو عبيد وعبأ قواته، فجعل المثنى على المجردة، وجعل على ميمنته والق بن جيدارة،

---

(١) الطبري ٤ / ٦٣ - ٦٤ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد باسنادهم. وعن الصلت بن بهرام عن أبي عمران الجعفي.

(٢) نعتذر عن عدم تحديد موقع النمارق على خرائطنا إذا لم نجد في هذا المجال سوى أنها بين الحيرة والقادسية، وهي مسافة تبلغ حوالى ٣٠ كيلو متراً.

وعلى ميسرته عمرو بن الهيثم بن الصلت بن حبيب السلمى. وعبأ جابان قواته، فجعل على ميمنته جشنس ماه فى مقابلة عمرو ابن الهيثم، وعلى ميسرته مرد انشاه فى مقابلة والق بن جيدارة. وزحف المسلمون من خفان نحوالنمارق ونزلوا على جابان، فاقتتلوا قتالاً شديداً. ودارت الدائرة على الفرس لصالح المسلمين. وبصر مطر بن فضة وأبىّ برجل عليه حلىَ فشدا عليه فأخذاه أسيراً، فوجداه شيخاً كبيراً. فزهد فيه أبى ورغب مطر فى فدائه فاصطلحا على أن سلبه لأبى، وأن فداء إساره لمطر. وأخذ أبى ما عليه. فلما خلص به مطر قال له الرجل: «إنكم معاشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمننى وأعطيك غلامين أمردين خفيفين فى عملك وأعطيك كذا وكذا؟» قال: «نعم» قال: «فأدخلنى على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه». فأدخله على أبى عبيد فأجاز أبو عبيد ذلك، وتم للرجل ما أراد وهم لا يعرفونه. ثم عرفه قوم من ربيعة فقالوا: «هذا الملك جابان، وهو الذى لقينا بهذا الجمع». وأشاروا بقتله. وقام أبىَ فقال: «أسرته أنا وهو على غير أمان»، ولكن أبا عبيد وفى لجابان بعهده، وقال: «ما ترونى فاعلاً معاشر ربيعة! أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا؟ معاذ الله من ذلك. إنى أخاف أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم. المسلمون فى التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلهم!» قالوا: «إنه الملك» قال: «وإن كان. لا أغدر». فأطلقه أبو عبيد.

وأسر أكتل بن شماخ العُكْلى مردانشاه فضرب عنقه. وقسم أبو عبيد الغنائم وكان فيها عطر كثير، يدل على حرص الفرس على ترفهم حتى فى معاركهم. وبعث بالأخماس مع القاسم[1]. وقال المثنى[2]:

غلبنا على خفان بيضا مشيحة ... إلى النخلات السمر فوق النمارق
وإنا لنرجو أن تجول خيولنا ... بشاطىء الفرات بالسيوف البوارق

---

(١) لم يذكر رواة الطبرى اسمه كاملاً - وربما كان القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى، فقد كان بنو ثقيف مع أبى عبيد كثير وكان يعتمد عليهم. ولم نجد فى الإصابة من بنى ثقيف قاسماً غيره. (الإصابة ٧٠٥٢).
(٢) المثنى بن حارثة ٩٩.

معركة السقاطية[1]

١٢ شعبان ١٣هـ - ١١ أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤م

مطاردة

اتجهت الفلول الهاربة على غير انتظام من النمارق نحو كسكر لتلجأ إلى نرسى وجيشه الذى كان بزندورد. فأرسل أبو عبيد مجردته (فرسانه) من بنى شيبان وبنى تميم يقودها المثنى لمطاردتهم فيما بين النمارق إلى بارق وإلى درتا وقال لهم:

«اتبعوهم حتى تدخلوهم عسكر نرسى أو تبيدوهم».

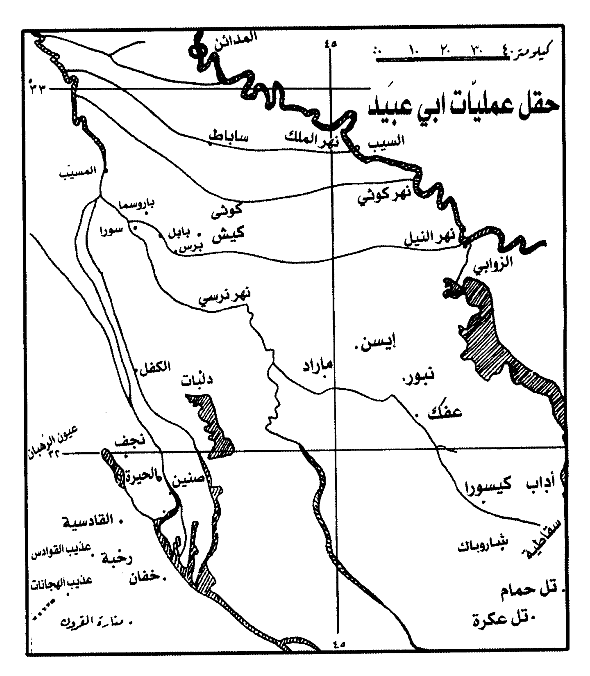
انطلقت الفرسان ونادى أبو عبيد فى سائر الجيش بالرحيل فى أثرها نحو كسكر. وفى هذه المطاردة، قال عاصم بن عمرو فارس بنى تميم:

لَعَمْرى وما عمرى عَلَىَّ بهَيِّنٍ	لقد صُبِّحَتْ بالخزى أهل النمارق
بأيدى رجال هاجروا نحو رَبِّهم	يجوسونهم ما بين دُرْتا وبارق
قتلناهم ما بين مرج مُسْلِحٍ	وبين الهوافى من طريق البَذَارِق

وكان نرسى مرابطا جنوب كسكر والمسلمون بنفس تعبئتهم التى قاتلوا بها جابان. المثنى على المجردة، والق على الميمنة، عمرو على الميسرة. وقد عبأ نرسى قواته، فجعل على أجنابه ابنى خاله وهما ابنا خال كسرى، فكان بِنْدَوَيْه بن بسطام على ميمنته فى مقابلة عمرو، وكان أخوه تيرَوَيْه بن بسطام على ميسرته فى مقابلة والق. وضم نرسى إلى جيشه حشوداً من أهل باروسما ونهر جوبر والزوابى (أو الزاب بأسفل إقليم بابل).

---

(١) الطبرى ٤ / ٦٤ - ٦٦ عن السرى بن يحيى عن شعيب بن إبراهيم عن سيف بن عمر عن محمد وطلحة وزياد. وقال أبو عبيد.



خريطة رقم (٢٦) - السقاطية، باروسما

مبادرة من أبي عبيد

ووصلت أخبار هزيمة جابان إلى بوران وإلى رستم بالمدائن، فكلفا جالينوس أن يخرج على جيش آخر ليدرك المعركة، وأرسلا بذلك إلى نرسى فتمنى لو يلحق به قبل المعركة، غير أن أبا عبيد لم يمهله إذ زحف إليه وكان أسرع من عدوه، فالتقوا بالسقاطية جنوب كسكر قريباً من مدينة واسط[1]، فاقتتلوا فى صحارى ملس قتالاً شديداً انتصر فيه المسلمون على الفرس،

(١) الفتح العربى للعراق وفارس ١٢٨ - وفى معجم البلدان، السقاطية أسفل من كسكر فى صحارى ملس.

وهرب نرسى وغلبه أبو عبيد على عسكره وأرضه فأخرب ما كان حول معسكرهم من أرض كسكر. وجمع الغنائم فرأى من الأطعمة شيئاً عظيماً. فبعث فيمن قرب منه من المسلمين فحملوا منه ما شاءوا، وأخذ المسلمون خزائن نرسى فلم يكونوا أفرح بشيء مما خزن منهم بالنرسيان بسبب أنه كان يحتكره ويمنعه الناس ويمالئه ملوك الفرس على ذلك. اخذوه فاقتسموه وصاروا يطعمونه الفلاحين الذين طالما حرموه. وبعثوا بخمسه إلى عمر وكتب أبو عبيد إليه:

«إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها واحببنا أن تروها، ولتذكروا أنعام الله وأفضاله».

وقال عاصم بن عمرو[1]:

ضربنا حماة النرسيان بكسكر   غداة لقيناهم ببيض بواتر
وفزنا على الأيام والحرب لاقح   بجرد حسان أو ببرد غوابر
وظلت بلاد النرسيان وتمره   مباحا لمن بين الديار الأضافر
أبحنا حمى قوم وكان حماهم   حراما على من رامه بالعساكر

مطاردة

أقام أبو عبيد بكسكر بعد المعركة وبعث قوات المطاردة. فسرح المثنى إلى باروسما. وبعث والق وكذلك عروة بن زيد[2] الخيل الطائى إلى الزوابى. (قال كريستنسن[3] لم تكن الزوابى إلا ولاية استان من السواد الذى يحوى اثنى عشر ولاية، وهى ناحية من إقليم بابل الأسفل، تخترقها القنوات المسماة بالزاب). وبعث عاصماً إلى نهر جوبر[4]. فوجدوا فلولا

---

(١) شعراء الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام ١٣٠ عن معجم البلدان.

(٢) فى فتوح البلدان ٦٢٤ أن أبا عبيد أرسل عروة، وفى الطبرى أنه ارسل والقا إلى الزوابى. ولقد كان عروة محارباً قديماً شهد بعض الحروب مع أبيه فى الجاهلية وهو غلام، قال عروة:

جلبنا الخيل من أجا وسلمى   تخب نزائعاً خبب الذئاب
جلبنا كل طرف أعوجى   وسلهبة كخافية العقاب

(٣) إيران تحت حكم الساسانيين ٢٦١ و ٥٠٠.

(٤) قال ياقوت الحموى عن نهر جوبر: «هو نهر من سواد العراق بالبصرة دخل فى نهر الأجانة» (معجم البلدان) بينما عده ابن خرداذبه من سقى الفرات غربى دجلة، قال كورة أردشير بابكان خمسة طساسيج (نواحى)، طسوج بهرسير ،والرومقان، وكوثى، ونهر درقيط، ونهر جوبر (المسالك والممالك ٧) وطابقه على ذلك قدامة بن جعفر (الخراج وصنعة الكتابة ٢٣٦) وهذا هو المعقول لموافقته لمسرح العمليات.

تتجمع فهزموها وأخربوا ما وجدوا وسَبَوا. وقد كانت هذه المناطق مما صالح أهلها خالد بن الوليد، ثم نقضوا عهدهم وثاروا ضد المسلمين حين دعاهم رستم إلى الثورة، فكانت هذه الإغارات من قبيل الإجراءات التأديبية. وكان مما أحرب المثنى وسبى أهل زندورد وبسريسى، وكان ممن أسر عاصم أهل بيتيق من نهر جوبر، وممن اسر والق أبو الصلت.

وخرج اثنان من الدهاقين إلى المثنى يطلبان أداء الجزية والدخول فى ذمة المسلمين دفعا عن أرضهم. أحدهما فروخ عن باروسما والثانى فَرْوَنْدَاذ عن نهر جوبر، فأرسلهما المثنى إلى أبى عبيد فصالحاه عن كل رأس أربعة دراهم - كما تم مثل هذا الصلح من أهل الزوابى وكسكر، وضمنا لهم رجالهم وصاروا صلحاً وذمة.

هدايا من الأطعمة

وجاء فروخ وفرونداذ إلى أبى عبيد بآنية فيها أنواع من الأطعمة الفارسية من الألوان والأخبصة وغيرها، فقدماها إليه وقالوا: «هذه كرامة أكرمناك بها وقِرى[1] لك». قال: «أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله؟» قالوا: «لم يتيسر ونحن فاعلون». وإنما كانوا يتقربون من أبى عبيد ويخشون قدوم جالنوس وما يصنع بهم. فرفض أبو عبيد الطعام وقال: «فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند»، ورده ورفض أن يؤثر نفسه بشىء على سائر المسلمين.

كما جاءه[2] اندرزغر بن خوكبذ بمثل ما جاء به فروخ وفرونداذ فقال لهم: «أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم؟» قالوا: «لا». فرده وهو يقول: «لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد أن صحب قوماً من بلادهم أهراقوا دماءهم دونه، أو لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشىء يصيبه. لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم».

---

(١) القِرَى: ما يقدم إلى الضيف.

(٢) الطبرى ٤ / ٦٦ س ش س، عن النضر بن السرى الضبى.

معركة باقسياثا[1]

١٧ شعبان ١٣ هـ - ١٦ أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤م

خرج أبو عبيد من السقاطية نحو باروسما، فبلغه مسير جالنوس، وقد اجتمعت إليه فلول جابان. لقد كان مكلفاً أن يدرك نرسى قبل المعركة، غير أنها كانت أسرع منه فلم يدركها، ولم يدع له أبو عبيد فرصة الوصول إلى كسكر إذ زاحفه. فنزل جالنوس فى باقسياثا من أرض باروسما والتقوا، أبو عبيد فى جيش المسلمين المنتصر فى النمارق والسقاطية، وجالنوس، فى جيش ضم أعداداً كبيرة من الفلول المنهزمة من المعركتين، وقلما يفلح مهزوم فقد معنويته. حالة كهذه كانت تستلزم من المجوس استبعاد العناصر التى منيت بالهزيمة من قبل مرات ومرات. ودارت المعركة، فانتصر المسلمون، وعمد جالنوس إلى الفرار، وأقام أبو عبيد فى قرية من قرى باروسما، وقد غلب على تلك البلاد.

وعاد الدهاقين يداهنون المسلمين، ويصنعون لهم الطعام. فلما قدموا الطعام إلى أبى عبيد قال: «ألم أعلمكم أنى لست آكلاً إلا ما يسع من معى ممن أصبتم بهم؟ ما أنا بالذى آكل هذا دون المسلمين».[2] فقالوا له: «كل فإنه ليس من أصحابك أحد إلا وهو يؤتى فى منزله بشبعه بمثل هذا وأفضل». فأكل، فلما رجعوا إليه سألهم عن طعامهم فأخبروه بما جاءهم. وأخبره الدهاقين أنهم إنما كانوا قصروا من قبل تربصاً ومخافة عقاب الفرس لهم.

وجلس أبو عبيد ليطعم، وقد أرسل يدعو أناساً من المسلمين كانوا يأكلون معه أضيافاً عليه ليشاركوه. وكانوا قد أصابوا شيئاً من نزل فارس (أطعمتهم وتموينهم)، فظنوا أنه يدعوهم إلى مثل ما كان يدعوهم إليه من غليظ العيش، وكرهوا ترك ما أتوا به من ذلك، فقالوا للرسول الذى جاء يدعوهم: «قل للأمير إنا لا نشتهى شيئاً مع شىء أتتنا به الدهاقين». فأرسل إليهم الرجل الكريم أبو عبيد وقد كره أن يطعم وحده: «إنه طعام كثير من أطعمة الأعاجم لتنظروا أين هو مما أتيتم به، إنه قَرْو ونجم وجَوْزَل وشواء وخردل..» وعدد لهم أسماء الأطعمة. وفى ذلك قال عاصم بن عمرو وأضيافه عنده فى سمر واحتفال بالنصر:

(١) الطبرى ٤ / ٦٦ س ش س، عن النضر بن السرى والمجالد. وعن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

(٢) الطبرى ٤ / ٦٥ س ش س، عن النضر بن السرى ومجالد بإسنادهم. وعن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

إن تك ذا قَــرّو ونجم وجَـــوْزَل	فـعند ابن فَـروُّخ شـواء وخَـرْدَلُ
وقـروٌ رقـاقٌ كـالصـحـائف طُوِّيَتْ	على مُـزَع فـيـهـا بقـولٌ وجَـوْزَلُ

كما قال:

صَبحْنا[1] بالبَقَايِس رهط كسرى	صَبُـوحـاً ليس من خَـمـر السَّـوادِ
صَبَحْناهُمْ بكل فتى كَمـيٍّ	وأجـرَدَ سـابِحٍ من خـيـلِ عـادِ

بعد ذلك نجد أبا عبيد يرتحل راجعاً إلى الحيرة، وقد جعل المثنى بن حارثة على مقدمته وسار على تعبئته. لا ندرى هنا لماذا رجع أبو عبيد إلى الحيرة. من المحتمل أن يكون قد بلغته أنباء الاستعداد العظيم الذى يعده الفرس، فآثر الركون إلى مكان أكثر أمناً حتى ينظر مسارهم. وتقديرنا أنه وصل الحيرة فى ١٩ شعبان ١٣هـ.

النمارق والسقاطية وباقسياثا، هذه المعارك الثلاث لم يكن للفرس فيها من تخطيط إلا الاعتماد على الكثرة العددية، والإلقاء إلى الميدان بجند كبير بعد جند كبير، وجمع كثيف بعد جمع كثيف. وهو أسلوب فى الحرب ساذج ينقصه الفكر والتخطيط، كأن لم يدرك الفرس بعد أن الحرب علم وفهم وفطنة. لقد كان المسلمون يدركون ذلك، ولقد قرأنا فى كتاب أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى أبى عبيدة بالشام يعلمه بتأمير خالد بن الوليد على جيوش الشام، يقول فيه: « .. ولكنى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك!» وقد قابل المسلمون استراتيجية الفرس بكثرة تحريك قواتهم القليلة، ودوام نشاطها لملاقاة هذه الجيوش الجرارة والمبادرة بالالتحام بكل جمع قبل أن يلتقى بالجموع الأخرى. فإذا كانت الكثرة العددية هى ميزة الفرس التى امتازوا بها فى معاركهم، فقد كانت المهارة هى ميزة المسلمين التى قابلوا بها كثرة الفرس، والقلة الماهرة المدربة تغلب الكثرة الساذجة الجاهلة. وقد كان من الأفضل لهم أن تتحول هذه التحركات العشوائية البلهاء إلى خطة تطويق لجيش المسلمين، جيش جابان من جهة وجيش نرسى من جانب آخر، وجيش جالنوس من جانب ثالث، غير أن جابان تعجل الالتحام، ونرسى « عمد إلى المرابطة فى جنوب كسكر إلى جانب أراضيه وزروعه وممتلكاته، وبذلك كلفه رستم وبوران. وجالنوس أبطأ عن إدراك المعركتين. كان بوسعهم جميعاً أن ينتظروا مقدم أبى عبيد ليحيطوا به من ثلاث جهات، ولكنهم لم يفعلوا،

---

(١) الصبوح: شرب الخمر صباحاً، والغبوق: شربها عشياً. والمقصود فى البيتين أننا سقيناهم صباحاً لا كما كانوا يشربون من خمرهم، ولكن سقيناهم الموت من أيدى الكماة الأبطال على الجياد الأصيلة.

واستمروا على استراتيجية المواجهة التى فشلت أمام حملة خالد بن الوليد. من المؤكد أنه لم يكن بالمدائن من ينظر ويفكر ويتدبر ويتعلم ثم يصدر عن فكر وخطة. ولكن كان بالمدينة أبو بكر وعمر.

معركة الجسر(1)

وتعرف أيضاً بالمروحة، والقرقس، والقسّ، وقسُ الناطف
٢٣ شعبان ١٣هـ - ٢٢ أكتوبر (تشرين أول) ٦٣٤م(٢)

تجهيز كبير

في الواقع أن اسم «المروحة» هو أكثر الأسماء مناسبة لشكل هذه المعركة وطبوغرافيتها، ولكن اشتهارها باسم الجسر أكثر، وهي من أشهر معارك فتح العراق. عاد جالنوس ومن أفلت معه من باقسياثا إلى المدائن، فوقف موقف المساءلة. وليس أشق على نفس قائد منهزم من أن يقف موقف الحساب أمام رؤسائه. وقد غضب منه رستم غضباً شديداً وحمله مسئولية

---

(١) الطبرى ٤ / ٦٧ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.
وعن المجالد وسعيد بن المرزبان وعطية والنضر.
وعن النضر بن افسرى عن الأغر العجلى.
وعن رجل عن أبى عثمان النهدى.
وعن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن محمد بن عبدالرحمن بن الحصين.

(٢) توفى أبو بكر رضى الله عنه فى ٢١ جمادى الآخرة ١٣هـ= ٢٢ / ٨ / ٦٣٤م. وبعد وفاته كانت اليرموك على روايتين ذكرهما الطبرى. فعن محمد وطلحة وعمر والمهلب (الطبرى ٤ / ٣٢) أنها كانت بعد وفاة أبى بكر بعشر ليال. وعن محمد وطلحة وزياد باسنادهم (الطبرى ٤ / ٦٣) أنها كانت بعد وفاته بعشرين ليلة. فى حين كانت معركة الجسر - فيما يروى محمد وطلحة وزياد باسنادهم - بعد اليرموك بأربعين ليلة، ولا نعلم أحداً خالفهم فى ذلك. وإذن فمعركة الجسر كانت بعد وفاة أبى بكر بخمسين ليلة أو بستين ليلة.
فإذا أخذنا بأن وفاة أبى بكر سبقت اليرموك بعشر ليال، تقع معركة الجسر فى ١٣ شعبان ١٣هـ. أما إذا أخذنا بأنها سبقتها بعشرين ليلة فإن الجسر تقع فى ٢٣ شعبان ١٣هـ.
ومن حيث أن المثنى برح المدينة فى اليوم الرابع أو الخامس لوفاة أبى بكر أى فى ٢٦ جمادى الآخرة ١٣هـ. بمجرد أن بدأ التطوع، وأنه بلغ الحيرة فى عشرة أيام أى فى ٦ رجب ١٣هـ. وان أبا عبيد لحقه بعد شهر أى فى ٥ أو ٦ أو حتى ٣ شعبان، ثم أقام أياماً يستجم فى خفان، من هنا نرى ان الفترة بين بلوغ أبى عبيد إلى الحيرة وبين ١٣ شعبان أحد التاريخين المحتملين لمعركة الجسر تقصر أن تتسع لأربعة معارك كبرى هى النمارق والسقاطية وباقسياثا والجسر، وتفصل بينها مسافات انتقال تجاوز ٥٠٠ كيلو متر.
ولذلك اتجهنا إلى الأخذ بالرواية الثانية القائلة بأن اليرموك كانت بعد وفاة أبى بكر بعشرين ليلة، وأن الجسر بعد اليرموك بأربعين، فيكون يوم الجسر هو ٢٣ شعبان ١٣هـ. وفيما بين تقديرنا لوصول أبى عبيد إلى خفان فى ٣ شعبان وبين تقديرنا ليوم الجسر فى ٢٣ منه قدرنا المواقع التى توسطت ذلك =

الهزيمة. ثم سأل رستم: «أىّ العجم أشد على العرب فيما ترون؟» قالوا: «ذو الحاجب بهمن جاذويه». وقد سمى ذا الحاجب لأنه كان يعضب[1] حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً. فأمَره رستم على قتال المسلمين ومنحه فى هذه الحملة من الإمكانيات ما لم يجهز به جيش سبق لقتال المسلمين. فقد أراد رستم أن يكسب من المسلمين معركة تعيد إلى دولته موازنة فى الموقف وتعيد إلى حكومته هيبتها وتعيد لجيوشها روحها المعنوية وثقتها فى نفسها وفى قيادتها. فمنذ بدأت عمليات المسلمين الحربية فى العراق وهم يفوزون فى كل موقعة ولم ينتصر الفرس قط. ولذلك فحاجتهم ماسة أن يكسبوا من المسلمين معركة.. أى معركة.

بعث رستم بهمن جاذويه لقتال أبى عبيد، ورد معه جالنوس وجعله على المقدمة. وقال رستم لبهمن: «فإن عاد لمثلها فاضرب عنقه». وأخرج معه راية فارس الشهيرة درفش كابيان، وكانوا لا يخرجونها إلى مع ملوكهم وفى معاركهم الحاسمة، وأمده بأفيال القتال المدربة فيها الفيل الأبيض وهو أكبرها، وتقلده سائر الأفيال عليه سعف النخل، وأفيال سود. وكان فى العجم المجوس يومئذ أربعة الاف دارع يقودهم مردانشاه بن بهمن[2].

وتقدم بهمن من المدائن نحو الحيرة، وعلم أبو عبيد بذلك فخرج من الحيرة فى ٢٢ شعبان (وكنا قدرنا رجوعه إليها من باقسياثا فى ١٩ منه) وتقدم حتى انتهى إلى بابل، ثم انحاز وعدل عن ذلك فجعل الفرات بينه وبين المجوس. وإذ ذاك وقف بهمن بقواته على شاطىء الفرات بقس الناطف وعسكر بالمروحة (موضع برج بابل والعاقول)[3].

=على أساس تقريبى بأن النمارق فى الثامن والسقاطية فى الثانى عشر وباقسياثا فى السابع عشر، إذا أخطأنا فيها أو فى احداها، فلن يكون الخطأ كبيراً. وقد جاء فى فتوح البلدان ٦٢٦ أن موقعة الجسر كانت يوم السبت فى آخر شهر رمضان ١٣هـ، وبه أخذ صاحب الاستيعاب فى أسماء الأصحاب ولعله نقله عنه قال: «وذلك فى آخر شهر رمضان أو أول شوال من سنة ثلاث عشرة»، وهذا يتعارض مع ما ذهبنا إليه بالحساب ويتعارض مع وقوع الموقعة التالية فى البويب فى رمضان كما ذكر رواة الطبرى، وهى رواية يؤيدها أمر المثنى للمسلمين أن يفطروا من الصيام يوم البويب. ولذلك نرجح ما ذهبنا إليه على رواية البلاذرى فى هذا الشأن. وأياً ما كان فالفرق بينهما سبعة وثلاثون يوماً. وقد ذهب ابن الأثير (أسد الغابة ٤٧) إلى أن اليرموك كانت فى الخامس من رجب ١٥هـ، وهو تقدير بعيد جداً عما نحن بسبيله.

(١) فتوح البلدان ٦٢٥ - يعضب يعنى يشق أو يفرق. وفرق الحواجب لا يرفعهما عن العينين، وربما كان الأصل يعصب يعنى يربطهما بعصابة. ولابد أن حاجبيه كانا كثين إلى الدرجة التى تسمح بذلك.

(٢) الاستيعاب ١٢٤ كُنى.

(٣) ذكر ابن خرداذبه دير العاقول فى الطريق من المدائن إلى البصرة، قال من المدائن إلى دير العاقول، ثم إلى جرجرايا، ثم إلى جُبل، ثم إلى فم الصلح، ثم إلى واسط... إلخ (المسالك والممالك ٥٩).

وأرسل بهمن جاذويه أحد رجاله مردانشاه الخصى رسولاً إلى أبى عبيد فقال له: «إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا نعبر إليكم». فقال المسلمون: «لا تعبر يا أبا عبيد»، «ننهاك عن العبور»، «قل لهم فليعبروا». وكان من أشد الناس عليه فى ذلك سليط بن قيس. ولكن أبا عبيد ترك الرأى وأصر على العبور ولجّ فى ذلك وقال: «لا يكونوا أجرأ على الموت منا، بل نعبر إليهم»! فناشده سليط ووجوه المسلمين، وقالوا: «إن العرب لم تلق مثل جنود فارس اليوم مذ كانوا. وإنهم قد[1] حفلوا لنا (اجتمعوا واحتشدوا) واستقبلونا من الزهاء[2] والعدة بما لم يلقنا به أحد منهم، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرّة إلى كرّة». قال أبو عبيد: «لا أفعل! جبنت والله يا سليط» قال سليط: «أنا والله أجرأ منك نفساً، وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم».

ونسى أبو عبيد وصية عمر إذ بعثه. نسى تحذيره له من أرض المكر والخديعة، ونسى قوله «وأخزن لسانك ولا تفشين سرك، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإن ضيعه كان بمضيعة». نسى ذلك كله، فدارت هذه المناقشات حول العبور وعدمه أمام الخصى الفارسى مردانشاه رسول بهمن جاذويه، فأدرك أهمية الموقع وخصائصه، وكان مكيراً، فأراد أن يستدرج أبا عبيد فقال: «إن أهل فارس قد عيروكم بالجبن»! وأنَّى له علم ذلك وهو لم يبرح مكانه؟ فازداد أبو عبيد مَحَكاً[3] ورد على أصحابه رأيهم فلم يقبله، وحلف ليقطعن الفرات إليهم وليمحصن ما صنع.

تروى الروايات أن دومة، أمرأة أبى عبيد، رأت رؤيا أنها بالمروحة وأن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب من الجنة، فشرب منه أبو عبيد، ثم شرب منه ابنه جبر وسبعة من أهله، كلهم من ثقيف فأخبرت بها أبا عبيد. فقال: «هذه الشهادة». ويبدو أن أبا عبيد كان يطمئن إلى صلاح زوجته وصدق رؤياها إذ أوصى إن هو أصيب، فالأمير فلان فإن أصيب ففلان، وعدد الأسماء التى رأتها دومة فى رؤياها حتى قال: «فإن قتل أبو القاسم فعليكم المثنى».

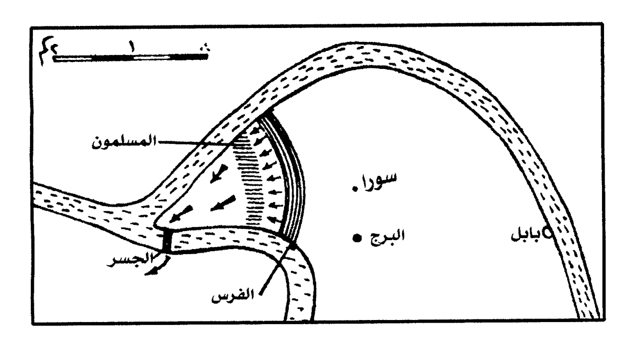
---

(١) الاستيعاب ١٢٤ كنى.

(٢) المنظر الحسن - مختار الصحاح.

(٣) محك الرجل: ثار ونازع فى الكلام وتمادى فى اللجاجة عند المساومة - المنجد.

وجاء ابن صلوبا دهقان قس الناطف، فعقد جسراً عائماً بين الفريقين. ويقال إن ذلك الجسر كان قديماً يعبر عليه أهل الحيرة إلى ضياعهم وكان معتلاً مقطوعاً فأصلحوه[1]، ثم عبر عليه أبو عبيد والمسلمون، وقد ترك لهم بهمن جاذويه منزلاً ضيق المذهب والمخرج يفقدون فيه ميزة المناورة وحرية الحركة، وليس لهم فيه مجال للكر والفر فعبروا إلى أرض ضاقت بهم.



خريطة رقم (٢٧) - ملحمة الجسر

المعركة

والتحم الفريقان، وقد جاءت أفيال الفرس عليها النخل تجوس المسلمين، وأقبلت خيلهم عليها التجافيف (الدروع) والفرسان عليهم شعارات الحرب، فلما نظرت خيول المسلمين إلى ذلك رأت شيئاً لم تكن ترى مثله واستنكرته، فأجفلت منه وانزعجت وهربت مسرعة، فكان المسلمون إذا حملوا على الفرس لم تُقدم خيلهم، وأذا حمل الفرس على المسلمين بالفيلة، وقد علقوا بها أجراس وجلاجل ذات رنين وجلبة، فرت خيول المسلمين وفرقت بين وحداتهم.

وإذ كان المسلمون فى مكان ضيق فقد وجه إليهم الفرس وابلا من سهامهم. يصف الأغر

(١) فتوح البلدان ٦٢٥.

العجلى ذلك المشهد فيقول :

«وخزقهم الفرس بالنُشّاب وعضَّ المسلمين الألم» .

فى حين لم يكن المسلمون يصلون إلى الفرس . إذ ذاك فقدت فرسان المسلمين فاعليتها فى المعركة . فقرر أبو عبيد التخلى عن الخيل ونزل عن جواده وترجل جميع المسلمين ثم مشوا إلى الفرس فى شجاعة نادرة ومع الفرس أفيالهم وفرسانهم ومشاتهم فصافحوهم بالسيوف .

معركة غير متكافئة . . . كانت الفيلة لا تحمل على جماعة الا دفعتهم وألقت بهم . ولم يفقد أبو عبيد والمسلمون شجاعتهم وبسالتهم ورباطة جأشهم . كانوا جيشاً من الفدائيين مليئاً بصحابة رسول الله ﷺ . فنادى أبو عبيد «احتَوِشُوا الفيلة (أحيطوا بها) وقطّعوا بُطُنَها (أحزمتها التى تحت بطونها) واقلبوا عنها أهلها» . ثم كان أولهم فى ذلك ، فواثب الفيل الأبيض وهو أضخمها فتعلق بحزامه وقطعه وسقط الهودج الذى فوقه ووقع الذين كانوا عليه . وكان أبو محجن بن حبيب[1] الثقفى مع أبى عبيد فى ذلك وضرب الفيل على عرقوبه . وفعل المسلمون مثل ذلك بالأفيال الأخرى فما تركوا فيلا إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه . ولكن ذلك لم يغير من سوء موقف المسلمين وتفوق الفرس . وأراد أبو عبيد أن يقتل الفيل ورأى أصحابه اجتراءه دون احتراز فقالوا له : «إنا نخاف عليك» فقال : «إن ربى ينصرنى ، ولكن أخبرونى هل لهذا الفيل من مقتل؟» فأجابوه : «إذا قطع خرطومه فهو يموت» فقال : «يا معشر الناس إنى حامل على هذا المخلوق ، فانظروا إن قتلته وهزمت من حوله فأنا اميركم . وان قتلت فأخى الحكم أميركم ، فإن قتل فولدى وهب ، فإن قتل فولدى مالك ، فإن قتل فولدى جبر ، فإن قتل فأبو القاسم ، فإن قتل أبو القاسم فعليكم[2] المثنى» . وفى بعض الروايات أن أبا محجن كان ممن استخلف ، ولكن الثابت أنه لم يستخلف أحداً قبل قتل الذين سماهم قبله وأن آخرهم كان المثنى ، والمثنى لم يقتل ولا أبو محجن . وكان الفرس يرون سوء موقف المسلمين - كما كانت أفيالهم على درجة جيدة من التدريب والكفاية . ولما أراد أبو عبيد أن يقطع خرطوم الفيل الأبيض شن هجومه عليه وهو يقول :

يا لك من ذى أربع ما أكبرك	يا لك فى يوم الوغى ما أنكرك
إنى لعالٍ بالحسام مِشْفرك	وهالكٌ وفى الهلاك لى دَرَك

---

(١) فتوح البلدان ٦٢٥ .

(٢) الفتح العربى للعراق وفارس ١٣٣ .

وأهوى الفيل بخرطومه لأبى عبيد فنفحه[1] بالسيف، ولكن الفيل اتقاه بيده وأبو عبيد يحاول أن يضربه، فأصابه الفيل بيده، فأوقعه على الأرض وخبطه بخرطومه ثم قام عليه وداسه بأقدامه، « . . . فكان قتالهم من الظهيرة إلى[2] حوالى الساعة الرابعة بتوقيت زماننا».

استشهاد أبى عبيد

ورأى الناس أبا عبيد قتيلاً تحت أقدام الفيل فى مشهد بشع فهبطت أنفس بعضهم. وبدأ لواء المسلمين ينتقل من يد إلى يد من الذين أمّرهم أبو عبيد من بعده. فأخذه أخوه الحكم بن مسعود فقاتل الفيل حتى أزاحه عن أبى عبيد، فاجتر أشلاءه إلى المسلمين جثة ممزقة فأحرزوه ولم يتركوه للفرس. ثم عاد يحاول أن يسقط الفيل ولكن الفيل اتقاه بيده، تماماً كما فعل مع أبى عبيد ثم خبطه فأوقعه على الأرض ثم وطئه بأقدامه وقام عليه. وحمل اللواء وَهْب بن أبى عبيد، تقدم[3] وهو ينشد:

لا خـــيـــر فى هلا ولا فى ليتُ ... من طلب الموت فـــهـــذا الموت
ليس لأمـــر الله فـــيك فـــوت ... قـــد سطع النقع ومـات الصـوت

ثم مالك بن أبى عبيد، ثم جبر بن أبى عبيد، تقدم وهو يقول:

قـــد علمت واضـــحـــة التـــرائب ... مـــبـــأســـة بالشـعـر والحـواجب
أنى غـــداة الروع والتـــشـــاغب ... أشـــجع من ذى لبـــدة مـــواثب
قتال أقران مخوف الجانب

---

(١) النفح: هو الضرب من اليسار إلى خارج اليمين.

(٢) عبارة الطبرى « . . . فاقتتلوا يوماً وأبو عبيد فيما بين الستة والعشرة، حتى إذا كان من آخر النهار واستبطأ رجل من ثقيف الفتح . . . إلخ» (٤ / ٦٧). وقد دعت هذه العبارة المبهمة كافة المؤلفين إلى إغفالها إلا ما كان من اللواء الركن محمود شيت خطاب حيث فهمها على أن أبا عبيد قتل وحده من الفرس بين الستة والعشرة (قادة فتح العراق والجزيرة ٢١٨)، ولم نفهم العبارة على ذلك وإنما فهمناها على أنها توقيت، فقد كان معروفاً تقسيم النهار إلى اثنتى عشرة ساعة بطريقة ملائمة من بزوغ الشمس إلى غروبها، (الكون ص ٢٥ - صادر عن مكتبة لايف العلمية، الترجمة العربية طبع مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة). وكان غروب الشمس الساعة الثانية عشر والظهر الساعة السادسة. وقد قاتل أبو عبيد أربع ساعات من السادسة من النهار إلى العاشرة منه بتوقيت زمانهم. وفى ذلك التاريخ يكون شروق الشمس الساعة ٦٫٠١ وغروبها الساعة ٥٫١٨ بتوقيت عصرنا، وعلى هذا قدرنا المواقيت التى ذكرنا. ونعتقد أن هذا يتمشى تماماً مع باقى أحداث الرواية.

(٣) المثنى بن حارثة ١١٣.

وتتابع السبعة من ثقيف كلهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يُقتل، ومضى على هذا النهار حتى آخره. يقول البلاذرى: «إنه لما قتل أبو عبيد أخذ اللواء أخوه فقتل، فأخذه ابنه جبر[1] فقتل».

المثنى يقود المعركة

وانتهى اللواء إلى البطل المغوار الصنديد المثنى بن حارثة وقد بدأ المسلمون يفرون عبر الجسر المعقود وراء ظهورهم. ورأى ذلك أحمق من بنى ثقيف يدعى عبدالله بن مرثد الثقفى فبادر إلى الجسر فقطعه، ووقف يمنع الناس من العبور ويقول: «موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا». وضغط المجوس المسلمين نحو الجسر، وهبطت معنويات الناس فتواثبوا فى النهر، وغرق من لم يصبر بينما أسرع القتل فيمن صبر.

وتلمع بطولات.. فقد بدأت المعركة على خطأ، والآن فى وقت متأخر شرع المثنى حين آلت إليه قيادتها يتجه بها نحو الصواب، فجمع بعض أبطاله ووقف معهم يقوم بأصعب دور وأشقه فى معركة كهذه، وهو حماية المؤخرة لإتاحة الفرصة لأكبر عدد للعبور وقد انقطع الجسر من خلفه. إنها معركة من صنفها معركة دنكرك. وأمسك المسلمون بعبد الله بن مرثد وهو قائم عند الجسر يمنعهم من محاولة العبور فأتوا به المثنى، والمثنى فى شدة الغضب مما فعل فضربه، وقال له: «ما حملك على الذى صنعت؟». قال: «ليقاتلوا». فدعا المثنى عروة بن مسعود أخا أبى عبيد، وقال له: «انطلق إلى الجسر فقف عليه وحل بين العجم[2] وبينه»، ووقف من كل جماعة أشدهم وأصبرهم وأشجعهم يدافعون الفرس فى قتال مرير واستماتة صلبة. وقف فارس بنى تميم عاصم بن عمرو، وفارس بنى عجل مذعور بن عدى، وفارس بنى ضبة الكلج الضبى، وفارس بنى طيء، عروة بن زيد الخيل الذى قاتل قتالاً عدل بقتال جماعة، وسليط بن قيس الأنصارى وغيرهم من فرسان المسلمين وأنصار رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج. ووقف مع كل هؤلاء يقودهم وينظمهم ويقاتل معهم المثنى بن حارثة الشيبانى فكانوا حماة الانسحاب. ونادى المثنى من كان عبر من المسلمين إلى الشاطىء الآخر فجاؤوا بأناس من العجم فضموا إلى السفينة التى قطعت أحبالها وأعادوا ربطها ووصل الجسر، وحماة الانسحاب يقاتلون الفرس أشد قتال فى ثبات وبسالة تفوق حد الخيال ويذودون عن المسلمين تدفق الفرس وضراوتهم.

---

(١) فتوح البلدان ٦٢٥ - الإصابة ٧٣٨ كنى عن أبى بكر بن أبى شيبة فى مصنفه.
(٢) الفتح العربى للعراق وفارس ١٣٥.

وكست الدماء الأرض وكل شيء. وتزاحم المسلمون على الجسر بعد أن أعيد وصله وارتفعت قامة المثنى في الناس وهو في درعه يصيح في المسلمين بصوت ثابت هادئ جهوري لا ينعكس عليه جزع الموقف في كثير أو قليل:

«أيها الناس أنا دونكم فاعبروا على هَيْنَتِكم (مهلكم) ولا تدهشوا (تتحيروا) فإنا لن نزايل (نتحرك من مكاننا) حتى نراكم من ذلك الجانب، ولا تغرقوا أنفسكم».

وكان سليط بن قيس آخر من استشهد من المسلمين عند الجسر وانسحب المثنى بعده وقد سبقه كافة الناس. انسحب بظهره إلى الجسر وهو يقاتل ووجهه إلى الفرس. وأرادهم ذو الحاجب[1] بهمن جاذويه فلم يقدر عليهم، وأفلتوا منه وقرص الشمس يميل للمغيب. في هذه الملحمة جرح المثنى وغرس حلق من درعه في جسده، هَتَكَهُنَّ رمح من رماح الفرس، كما جرح الكلج الضبي، وعاصم بن عمرو.

قتل يومئذ من الفرس ستة آلاف في المراحل الأولى من المعركة، وقتل من المسلمين أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق منهم ثلاثمائة من ثقيف وحدها كان منهم ثمانون رجلاً مسنون قد خضبوا الشيب[2]. فلما عبر المثنى بمن بقى من المعركة انفض عنه أهل المدينة حتى لحقوا بها، وتركها بعضهم خجلاً وحياء فنزل البوادي، وبقى المثنى في أربعة آلاف انسحب بهم تجاه أُلَيْس. وكان ممن قتل يومئذ أبو زيد الأنصاري[3]، أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، وقال أبو محجن[4] بن حبيب الثقفي، يرثي الشهداء، وأبا عبيد:

أنّى تسَرَّتْ نحونا أم يوسف ... ومن دون مَسراها فياف مجاهلُ[5]
إلى فتية بالطَّفِّ نيلَ سَرَاتهم ... وغُودرَ أفراسٌ لهم ورواحل[6]
وأضحى أبو جبر خَلِيّاً بيوته ... وقد كان يغشاها الضعاف الأرامل

---

(١) الإصابة ٢٨٧ كنى، عن المدائني في ترجمة أبي الحكم بن حبيب.

(٢) تقول الروايات: أن أربعة آلاف قتلوا وغرقوا، وهرب ألفان وبقى أربعة آلاف وفي قول آخر ثلاثة الاف مع المثنى.

(٣) فتوح البلدان ٦٢٥ عن أبي مخنف.

(٤) فتوح البلدان ٦٢٦. وشعر الفتوح الإسلامية ١٣٠ عن الأغاني.

(٥) أني: كيف - تسرت: سارت ليلاً.

(٦) الطف: اسم المكان - نيل: نال منهم عدوهم، سراتهم: عظماؤهم ووجوههم، فغادروا افراسهم ورواحلهم.

وأضحت بنو عَمْرو لدى الجسر منهم — إلى جانب الأبيات جود ونائل[1]

وما لمت نفسى فيهم غير أنها — لها أجل لم يأتها وهو عاجل

وما رمت حتى مزقوا برماحهم — إهابى وجادت بالدماء الأباجل[2]

وحتى رأيت مهرتى مزؤورة — لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل[3]

مَررْتُ على الأنصار وسْط رحالهم — فقلت لهم هل منكم اليوم قافلُ[4]

ألا لعن الله الذين يسرهم — رداى وما يدرون ما الله فاعل

الخبر فى المدينة

وبعث المثنى إلى المدينة عبدالله بن زيد بن الحصين الخطمى الأنصارى[5] بالخبر، فكان أول من بلغها من العراق بعد الموقعة. دخل المدينة وعمر على المنبر يخطب، ورآه عمر يدخل المسجد، فنادى عليه: «الخبر يا عبدالله بن زيد.. ما عندك يا عبدالله بن زيد؟» وعبدالله يمر أمام باب أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وهى فى حجرتها تسمع. ولم يشأ عبدالله أن يتحدث فى الناس فأجابه: «أتاك الخبر اليقين». ثم صعد إليه المنبر فأسر فى أذنه بالخبر. قالت عائشة: «فما سمعت برجل حضر أمراً، فحدث عنه، كان أثبت خبراً منه». ثم بدأت فلول المروحة من المهاجرين والأنصار تفد إلى المدينة، ورأى عمر جزعهم.

ونظراً إلى أن كثيراً ممن خرج مع أبى عبيد كان من أهل المدينة ومن حولها، فقد استشهد

---

(١) جود: يجودون بأنفسهم - والنائل: العطاء (مختار الصحاح).

(٢) الأباجل: العظماء المبجلون، التبجيل: التعظيم (مختار الصحاح).

(٣) الشكال: العقال ولا يكون إلا فى الرجل، فكأنما أراد بالشوا كل القوائم.

(٤) قافل: راجع.

(٥) كان فى الصحابة أكثر من واحد باسم عبدالله بن زيد. واشهرهم ابن نسيبة بنت كعب التى شهدت أحداً وقاتلت فيها وجرحت اثنى عشر جرحاً، وليس هو ذاك، وما هو عبدالله بن زيد الذى أُرى الأذان فى العام الثانى من الهجرة. ولكن عبدالله صاحب خبر الجسر هو ابن يزيد بن زيد بن حصن بن عمرو بن الحارث بن خطمة بن جشم بن مالك بن الأوس. شهد الحديبية وهو ابن سبع عشرة سنة، ومعنى هذا أنه يوم الجسر قارب الرابعة والعشرين من عمره. له ولأبيه صحبة وله أحاديث يرويها عن النبى صلى الله عليه وسلم، وكان من أكثر الناس صلاة وكان لا يصوم فى غير رمضان إلا يوم عاشوراء. شهد مع على بن أبى طالب مشاهده فى صفين والجمل والنهروان وكان أميراً على الكوفة، ثم ولى امرة مكة يسيراً لعبدالله بن الزبير. واستمر مقيماً بها ومات فى زمن ابن الزبير. (الاستيعاب ٢ / ٣٨٣ - الإصابة ٥٠٣٤).

فى المروحة كثير من الصحابة، منهم جمع غفير من الأنصار، من الأوس[1] والخزرج الذين آووا رسول الله ﷺ وآزروه ونصروه، ممن شهد معه المشاهد من بدر وأحد والخندق والحديبية وفتح مكة وغيرها.

---

(١) قدمت الأوس من أبنائها شهداء، منهم:

اسعد بن سلامة الأشهلى — الإصابة ٢٩١ - أسد الغابة ٩٩
أنس بن اوس
أنيس بن عتيك بن عامر الأشهلى
ثابت بن النعمان، شهد أحداً والمشاهد بعدها — الاستيعاب ١ / ٢٠١ - الإصابة ٩١٠
الحارث بن مسعود — الاستيعاب ١ / ٢٩٥ - الإصابة ١٤٨١
خالد بن سنان، شهد أحداً — الإصابة ٢١٦٩
سلمة بن أسلم، شهد بدراً والمشاهد كلها مع النبى وهو الذى أرسله النبى مع عمرو بن أمية بعد وقعة بنى النضير ليقاتل أبا سفيان. — الاستيعاب ٢ / ٨٣ - الإصابة ٣٣٦٠
مسلمة بن اسلم، أخو سلمة — الاستيعاب ٣ / ٤٤٥ - الإصابة ٧٩٨٨
عباد بن قيظى. — الاستيعاب ٢ / ٤٥٠ - الإصابة ٤٤٧٧
عبدالله بن قيظى، أخو عباد، شهد أحداً. — الاستيعاب ٢ / ٣٦٦ - الإصابة ٤٩٠٩
عقبة بن قيظى، أخو عباد وعبدالله، شهد أحداً - أسد الغابة ٣٧١٢-الاستيعاب ٢ / ١٠٦-الإصابة ٥٦١٠
عبدالرحمن بن عدى، شهد أحداً — الإصابة ٥١٦٤
عبدالرحمن بن مربع، شهد أحداً والمشاهد بعدها - أسد الغابة ٣٣٨٣ - الاستيعاب ٢ / ٤٠٠ - الإصابة ٥٢٠٠.
عبدالله بن مربع، أخو عبدالرحمن، شهد أحداً والمشاهد مع رسول الله — الاستيعاب ٢ / ٣٢٠ - الإصابة ٤٩٤٤
عمرو بن أوس، شهد أحداً والخندق وما بعدهما مع النبى — الاستيعاب ٢ / ٤٩٦ - الإصابة ٥٧٧٣
نسير بن عنبس الشهير بفارس الجواء (اسم فرس له) شهد أحداً والخندق ومشاهد كثيرة مع النبى واستشهد حفيده عبدالله بن سهل بن نسير بالقادسية. — الاستيعاب ١٠ / ١٥٦ - الإصابة ٧٠١ - ٨٧٠٠ - ٨٧٠١

وقدمت الخزرج من أبنائها شهداء، منهم:

أسعد بن حارثة — أسد الغابة ٩٦
ثابت بن عتيك — الإصابة ٨٩٩
الحارث بن عتيك، أخو ثابت. شهد مع أخيه سهل أحداً والمشاهد مع النبى - الاستيعاب ١ / ٣٠٤ - الإصابة ١٤٤٦
الحارث بن الحباب. شهد أحداً وهو أبو معاذ القارئ شهد معه المروحة. — الإصابة ١٣٩٢
ثعلبة بن عمرو، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع النبى — أسد الغابة ٦٠٧ - ٦٠٩
الحارث بن عدى. شهد أحداً. — الاستيعاب ١ / ٣٠٤ - الإصابة ١٤٤٨
خزيمة بن أوس. شهد بدراً. — الاستيعاب ١ / ٤١٨ - ٤٢٩ - الإصابة ٢٢٥٠
زيد بن سراقة. — الاستيعاب ١ / ٥٣٢ - الإصابة ٢٩٠٣
زيد بن ملحان. شهد أحداً. — الإصابة ٢٩٣٩
عباد بن ملحان، أخو زيد. شهد أحداً. — الاستيعاب ١ / ٤٥٠ - الإصابة ٤٨٨٠
ضمرة بن غزية بن عمرو. شهد أحداً مع أبيه. — الاستيعاب ٢ / ٢٠٤ - الإصابة ٤١٩٢
عبدالله بن صعصعة. شهد أحداً وما بعدها.. — الإصابة ٤٧٥٩=

وقال حسان بن ثابت[1] :

لقــد عظمت فــينا الرزيئــة إننا ... جـلادٌ على ريب الحـوادث والدهر
على الجسر قتلى لهف نفسى عليهم ... فيـا حسـرتى مـاذا لقينا من الجسـر

وتأثر عمر تأثراً بالغاً فقال : «عباد الله لا تجزعوا . اللهم إن كل مسلم فى حل منى . أنا فئة كل مسلم ، من لقى العدو فَفُظِعَ بشىء من أمره ، فأنا له فئة . يرحم الله أبا عبيد ، لو كان عبر فاعتصم بالخيف ، أو تحيز إلينا ولم يستقتل لكنا له فئة» . وكان معاذ القارئ بن الحارث الخزرجى ممن شهد معركة الجسر وفر منها ، فكان إذا قرأ : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بكى ، فيقول له عمر : «لا تبك يا معاذ ، أنا فئتك وإنما انحزت إلىّ» . وكان عمر يقيمه ليصلى التراويح فى شهر رمضان فكان يقنت فيها .

وكان ممن فر فى يوم الجسر ، سعد بن عبيد الأنصارى ثانى من تطوع لجهاد الفرس بعد أبى

=عمير بن كعب - الإصابة ٦٠٦٢

قيس بن السكن (وهو أبو زيد الأنصارى) أحد من جمع القرآن حفظاً على عهد رسول الله .
شهد بدراً ، وكان مع جيش خالد بن الوليد ، واستخلفه على صندوداء ، بعد خروجه من الحيرة .
الاستيعاب ٣ / ٢١٥ - الإصابة ٦٩٣ - ٤٦٠ - الإصابة ٧١٨٣

سليط بن قيس - سبق ذكره . الاستيعاب ٢ / ١١٧ - الإصابة ٣٤٢٥

المنذر بن قيس أخو سليط . شهد أحداً والمشاهد مع النبى الإصابة ٧٢٢٨

كما استشهد من الأنصار أيضًا عائذ بن معاذ بن أنس الذى شهد أحدًا مع ابنه عبد الرحمن .
كما استشهد عبدالرحمن بالقادسية بعد ذلك . الإصابة ٤٤٥٢ - ٥١٤٨

واستشهد من بنى ثقيف قبيلة أبى عبيد ، عدد كبير بلغ الثلاثمائة ، منهم أخوه الحكم بن مسعود الذى حمل اللواء بعده (الإصابة ١٧٩٠) ، وابناؤه وهب ومالك وجبر ، وأخوه عبدالله بن مسعود (الإصابة ٤٩٥٦) ، وحبيب بن ربيعة بن عمرو ، (الأصابة ١٥٨١) وغيرهم .

واستشهد الحتات بشر بن رديح الثعلبى الشاعر ، وكان أبوه حياً ، وهو شيخ كبير قال فى فراقه لما خرج للجهاد ، أبياتاً بلغت الحتات ، فأجاب عليها بقوله :

ألا من مــبلغ عنى رُدَيْحــا ... فـإن الله بعــدك قــد دعـانى
فـإن تسـأل فـإنى مســتقـيـد ... وإن الخــيل قــد عــرفت مكانى

فلما قتل الحتات قال أبوه يرثيه :

أبغى الحـتـات فى الجـياد ولا أرى ... له شـبهــاً مــا دام لله ســاجــدُ
وكـان الحـتـات كـالشـهـاب حيـاته ... وكل شــهـاب لا مــحـالة خـامـد

الإصابة ٧٧٠ - ١٩٥٢ - ٢٤٩٦

(١) شعر الفتوح الإسلامية ١٣٠ عن معجم البلدان .

عبيد، وممن شهد بدراً، وكان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ، فكانت تعرض عليه الوجوه، بعد ذلك فيأبى إلا العراق ويقول: «إن الله عز وجل اعتد عليَّ فيها بفَرَّة فلعله أن يرد عليَّ فيها كرّة»، فكان ممن شهد القادسية بعد ذلك مع سعد بن أبى وقاص، واستشهد بها فاغتمّ عمر لذلك، وقال: «لقد كاد قتله ينغّص عليَّ هذا الفتح!».

وفى رثاء شهداء الجسر قال عمر:

نَعَيْتُ إلى أهل المدينة فتيةً	على مثلهم تبكى النساء الكواعبُ
نعيت إلى الأنصار فتيانَها التى	بها كانت الأحياء طُرّاً تحاربُ

بهذا الإيجاز الحزين نعى عمر شهداء الأنصار ووصفهم. وفى عام ١٧هـ تزوج عبدالله بن عمر صفية بنت أبى عبيد، وقد أصدقها عمر عن ابنه أربعمائة درهم، وزادها عبدالله سراً من أبيه مائة أخرى إكراما لها، وعاشت معه بالمدينة، ولها أحاديث نبوية روتها عن عمر وعن أمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة.

هذا فى المدينة. أما فى المدائن، فمع هذا النصر ثار الناس برستم، ونقضوا الذى بينهم وبينه، وانقسموا فريقين، فريقاً معه وفريقاً مع فيرزان، وأتى خبر ذلك إلى ذى الحاجب، وهو بالمروحة، فرجع بجنده إلى المدائن.

١- فتنة المدائن ودورها

لم يتعرض كاتب لهذه المعركة دون أن يذكر فتنة المدائن باعتبارها المنقذ للمثنى ومن بقى معه بعد المعركة من أن يقوم بهمن جاذويه بمطاردتهم واستئصالهم والإجهاز عليهم. وهذا قول ينقصه الاندماج مع هذه المعارك والعيش فيها من داخلها، وإننا نختلف تماماً مع وجهة النظر هذه، ذلك أن استراتيجية المسلمين قبل هذه الموقعة وبعدها جرت على اعتبار الصحراء موئلاً لهم إذا ساءت الأمور وجرت فى غير صالحهم على غير ما يشتهون، وحينئذ يعجز الفرس عن تعقبهم داخلها. لقد انتهت معركة الجسر مع غروب الشمس وانقطع الجسر وراء المسلمين، فلم يكن فى إمكان بهمن أن يعبر وراءهم من يومه ذاك، وإذن فقد كان مع المسلمين فرصة الليل لينسحبوا فيه إلى صحرائهم التى كانت منهم غير بعيد، وهو ما فعله المثنى بالفعل. بمعنى أنه لم تطلع شمس اليوم التالى إلا وقد بلغوا مأمنهم.

٢- قيمة القيادة

إن موقعة الجسر كانت عملية باسلة، وإن كانت صدمت الجندى المسلم والمسلمين كافة فى حينها إلا أنها أثبتت أن قيادة الميدان كانت فوق مستوى القيادات - تلك القيادة التى تمثلت فى المثنى وأركان قيادته الذين معه مما انعكس أثره ثقة ظاهرة على قبائل شبه الجزيرة فاستمر تدفق متطوعيهم، فلم ينكلوا كما حدث بعد رحيل خالد بن الوليد عن العراق، مع أن الموقف بعد معركة الجسر كان من الناحية الحربية أسوأ بكثير. ولو كان هذا السوء قاصراً على اعتبار أنها أول معركة يفقدها المسلمون أمام الفرس لكفى. لقد كانت معركة الجسر تجربة حية فى حروب المسلمين لإثبات قيمة كفاءة القيادة، فرأوا قيادة تعوزها الكفاية، خسرت المعركة ومزقت الجيش وحطمت الروح المعنوية لأعلى الناس وقمتهم فى المعنوية واستشهدت هى وقتل عدد كبير.. حدث هذا بالرغم من توافر الإيمان والشجاعة.. حتى آل الأمر إلى قيادة المثنى وهى قيادة على أعلى درجات الكفاية، فأنقذت أكثر مما كان يمكن إنقاذه. انقذت ستة آلاف. وعندما تنزل المحن بالجيوش تظهر الميزات الحقيقية والفوارق بين القادة الذين

يستطيعون أن يخرجوا بجيوشهم من تلك المحن أو الذين يسيرون بها إلى مصير مظلم محتوم.

٣- الحماس المجرد

إن الحماس المجرد لا مكان له في المعركة إذا لم تسانده أسس صحيحة ونظر في الحرب. ولقد أفلت من يد أبي عبيد عنصر الأمن بانحصاره في مكان ضيق المخرج وكأنه وضع جيشه في مصيدة دون عذر مقبول. وأفلت من يده عنصر التعاون بين الأسلحة المختلفة بخروج سلاح الفرسان من المعركة، فصارت قواته مشاة دون فرسان وكان عليهم أن يواجهوا مشاة الفرس وفرسانهم وأفيالهم، وفقد عدد كبير من جنوده روحه المعنوية، وفقدت المعركة كفاءة القيادة حتى تولاها المثنى أخيراً بعد سبعة سبقوه. وكما فقد ذلك فقد أيضاً عنصر الحشد بسبب ضيق المكان إذ لا فائدة من أعداد الجند إذا لم تسعفها طوبوغرافية الأرض. كما أنه فقد حسن اختيار الهدف ومايتفرع عنه من اختيار الأرض واختيار طريق الوصول إليه وطريقة ضربه وما إلى ذلك، فوّته على نفسه، بل أتاح لعدوه أن يفرضه عليه.

٤- معنويات مدهشة

وحين نتناول المعنوية وما أصيبت به فإنما نعني بعض المعنوية لا كلها. فمما يثير الدهشة والعجب أنه بالرغم من كل ما حدث لم يتمكن الفرس من الحصول على أسير واحد من المسلمين، ولم يستأسر منهم أحد قط إبقاء على حياته، رغم أن طبيعة المعركة بجريانها في مكان محصور يجعل انتهاءها على أية صورة كانت هذه النهاية دون أسرى، أمراً معجزاً بالغ الغرابة إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الجندى المسلم كان مقاتلاً فريداً في نوعه وأنه احتفظ بميزاته المعروفة عنه حتى في أشد المواقف شدة وبأساً، وأنه إنما ظل يقاتل حتى آخر رمق، وأن ذلك كان دأبهم جميعاً لا يستثنى منهم أحد. ولا يسع المتأمل هنا إلا الإعجاب بهذه البطولة من جميع أفراد هذا الجيش وفي مقدمتهم أبو عبيد نفسه وآله الذين استشهدوا معه.

٥- البطولة لا الفتنة

بطولة المسلمين هذه - فيما نعتقد - كانت هي العامل الفعال الذى حدا بالفرس أن يعودوا أدراجهم. فلئن عزى رجوع بهمن جاذويه إلى المدائن إلى ما وقع فيها من فتنة، باعتباره كان من رجال السياسة كما كان من رجال الحرب، فلقد كان يستطيع أن يعود بشخصه ويبعث

أحد مرؤوسيه على رأس جانب من قواته - وكثيراً ما كانت - للمطاردة، ولكن الذى نحسبه أنه عاد وهو يحمد الله ألف حمد على هذه النتيجة مكتفياً تماماً بما أحرز، ويخشى مغبة أن يعيد التجربة. عاد وكأنه يحسب انتصاره هذا كان نشازاً، ولم يكن فى حدسه ذاك واهماً، فسنرى المثنى فى اليوم التالى للمعركة يخرج للاشتباك ببعض بقايا معركة الجسر من الفرس فيأسرهم.

أما بعد

٦- مما لا شك فيه أنه كان من الممكن أن تدور هذه المعركة بطريقة أمثل لو كان أبو عبيد قد استجاب لنصائح مستشاريه كما أمره بذلك أمير المؤمنين عمر، أو لو كان أكثر فطانة فلم يستجب لاستدراج الخصى مردانشاه.

٧- إن استمرار الفتح صار مستحيلاً بعد ذلك دون دخول إمدادات جديدة إلى المعركة. فإن الآلاف الأربعة التى بقيت بعد معركة الجسر كانت أصغر جيش للمسلمين تواجد على أرض العراق منذ بدأ الفتح، فضلاً عن إثخانه بالجراح.

٨- أضاعت هذه المعركة - إلى حين - مكاسب المعارك السابقة، وجعلت الحرب سجالاً بعد أن كانت سلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات المتعاقبة.



الباب الرابع عشر

قيادة المثنى



أليس الصغرى

٢٤ شعبان ١٣هـ - ٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٤

خرج جابان ومعه مردانشاه الخصى فى بعض خيلهم، وظنهم بالمسلمين أنهم منفضون وأن شوكتهم قد انكسرت. ويبدو أنهم كانوا فى نزهة أو نحوها، فلم يعلموا بالرجوع المفاجىء لبهمن جاذويه. وأتت عيون المثنى تخبره بذلك، فاستخلف على المسلمين عاصم بن عمرو وخرج فى تجريدة خيل - وبه من جراح المروحة ما به - وانطلق يطوى المسافة تجاه البقعة التى أخبر عنها من أليس. ورأى مردانشاه وجابان خيل المثنى وهى مسرعة، فظناهم هاربين من فلول المروحة، واعترضا طريق المثنى وهو يريدهم فأخذهما أسيرين وأخذ من معهما أسرى. وقال لهما المثنى: «أنتما غرَّرتُما أميرنا وكَذَبْتُمَاه واستَفْزَزْتُمَاه» وضرب عنقيهما. وكان أهل أليس قد تواطئوا مع المثنى عليهم وعقد لهم بها ذمة. ثم أخذ الأسرى فضرب أعناقهم ورجع إلى عسكره. وكان أبو محجن الثقفى من الفرسان الذين خرجوا مع المثنى ولكنه انصرف من أليس ولم يرجع معه.

بجيلة وحشود أخرى

كانت[1] بجيلة من قبائل العرب الكبيرة، غير أنها تشتتت أوزاعاً في العرب نتيجة اشتباكها في بعض المعارك في الجاهلية. وكان جرير بن عبدالله[2] من سادة بجيلة وأشرافها. وقد كلم رسول الله ﷺ في شأن بجيلة ليجمعها فوعده بذلك. ولحق النبي بربه ولما يتم في الأمر شيء. ثم خرج جرير مع من خرج إلى الشام مع خالد بن سعيد بن العاص، وإذ شعر جرير بحاجة الجيوش إلى أمداد، استأذن خالداً ليقدم على أبي بكر ليكلمه في قومه ليجمعهم له، فأذن له. وخرج جرير حتى أتى المدينة فقدم على أبي بكر وذكر له وعد النبي ﷺ وأتاه على ذلك بشهود وسأله إنجاز ذلك. غير أن أبا بكر كان مشغولاً بالفتوح، واعتبر الوقت غير مناسب لذلك، فغضب وقال لجرير: «ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين فارس والروم، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عما هو أرضى لله ورسوله!؟ دعني وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر مايحكم الله في هذين الوجهين».

عمر يجمع بجيلة

ونفذ جرير ما أمره به أبو بكر، فسار نحو العراق لينضم إلى خالد بن الوليد وبقي مع خالد حتى خرج معه من العراق نحو الشام. فلما عبروا المفازة وكانوا بِسُوَى استأذنه جرير وحنظلة بن الربيع ونفر في الرجوع، فأذن لهم فقدموا على أبي بكر بالمدينة. فلما ولي عمر ذكر له جرير مسألة جمع بجيلة فطالبه عمر بالبينة فأقامها. فكتب عمر إلى عماله على

---

(١) الطبري ٤ / ١٥ - ١٦ عن عبيد الله عن عمه عن سيف.
س ش س، عن الغصن بن القاسم الكناني عن رجل من بني كنانة.
تفرعت بجيلة إلى عدة بطون، منها قسر وهو مالك بن عبقر بن أنمار وأحمس بن الغوث بن أنمار وعرينة. وكانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في جبال السروات من اليمن والحجاز إلى تبالة. وكانت دارهم جامعة وأيديهم واحدة حتى وقعت حرب بين أحمس بن الغوث وزيد بن الغوث بن انمار، فكادت زيد ان تفني أحمس. وعلى أثر ذلك افترقت بطون بجيلة وتقطعوا في قبائل العرب يجاورونهم في بلادهم، وما زالوا متفرقين حتى أذن عمر بن الخطاب لجرير بن عبدالله أن يجمعهم ليوجههم لحرب الفرس، وكان أكثر بجيلة بالعراق، ولم يكن منهم بالشام إلا عدد قليل.
(٢) ترجمة جرير بن عبدالله البجلي في آخرالكتاب.

القبائل[1]: «من كان فيه أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية وثبت عليه في الإسلام يعرف ذلك فأخرجوه إلى جرير». وواعدهم مكاناً بين العراق والمدينة. فكان ممن أخرج لهم قيس كُبَّة وعَرْينَة وسُحْمَة[2]، وكانوا في قبائل بني عامر بن صعصعة. فلما أعطى جرير حاجته من ذلك وتم له جمع بجيلة، قال له عمر: «اتخذونا طريقاً» فخرج وجهاء بجيلة في وفد منهم نحوه وخلفوا الجمهور. واجتمع بهم عمر فقال لهم: «أي الوجوه أحب إليكم؟»

قالوا: «الشام أسلافنا بها».

قال: «بل العراق، فإن أهل الشام قد قووا على عدوهم وإن الشام في كفاية».

فلم يزل بهم ويأبون عليه حتى أكرههم على ما أراد، وعوضهم عن إكراههم واستصلاحاً لهم، فجعل[3] لهم ربع خمس ما أفاء الله عليهم في غزاتهم هذه بالإضافة إلى نصيبهم من الفيء، لجرير ومن اجتمع إليه ممن أخرج إليه من القبائل.

جرير أمير بجيلة

وجعل عمر عرفجة بن[4] هرثمة على من كان مقيماً من جديلة من بجيلة، وجعل جريراً على من كان من بني عامر وغيرهم. فكانت إمارة عرفجة على أكثر بجيلة وقال لهم أن يسمعوا له وأمر الآخرين أن يسمعوا لجرير. فسأل جرير بجيلة: «هل تقرون بهذا وقد أدخل علينا ما أدخل؟» وكانت بجيلة قد غضبت من قبل على عرفجة في امرأة منهم. فاجتمعت بجيلة ثم أتوا عمر فقالوا: «أعفنا من عرفجة».

---

(١) الطبري ٤ / ٧٠ س ش س، عن محمد بن نوير وطلحة وزياد وعطية.

(٢) بطون من بجيلة - أسد الغابة ٧٣٠.

(٣) نفس المصدر + فتوح البلدان ٦٢٨ عن أبي مخنف وغيره. وقال الشعبي: «الثلث بعد الخمس ٦٢٩».

(٤) كان أبو بكر قد بعث حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير وعرفجة بن هرثمة البارقي من الأزد لقتال أهل الردة، حذيفة إلى عمان وعرفجة إلى مهرة. وأمرهما إذا اتفقا أن يجتمعا على من بعثنا إليه وأن يبدءا بعمان وحذيفة أمير في وجهه على عرفجة، وعرفجة أمير في وجهه على حذيفة. فخرجا متساندين. وكانت عمان بعيدة جداً عن المدينة، فأمرهما أبو بكر أن يجدا السير إذ كان المسلمون بها في بلاء من المرتدين قد هربوا منهم إلى الجبال والبحر، عليهم جيفر وعباد فيمن ثبت على إسلامه يستغيثون أبا بكر. ثم أمر أبو بكر عكرمة بن أبي جهل أن يلحق بهما مدداً لهما حين انهزم أمام مسيلمة. والتقت الجيوش الثلاثة مع مسلمي عمان، ثم التحموا مع المرتدين في معركة عنيفة قتل فيها عشرة آلاف من المرتدين وسبيت الذراري، وعاد عرفجة إلى أبي بكر بالخمس، فكان ثمانمائة رأس غنم والسبي، وغنم المسلمون السوق بما حوت. ولعرفجة بعد ذلك ذكر كثير وبطولات فذة في فتوح العراق.

قال: «لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلاماً، وأعظمكم بلاء وإحساناً».

قالوا: «استعمل علينا رجلاً منا ولا تستعمل علينا نزيعاً فيناً».

فظن عمر أنهم ينفونه من نسبه فقال: «انظروا ما تقولون».

قالوا: «نقول ماتسمع».

فأرسل عمر إلى عرفجة وقال له: «إن هؤلاء استعفونى منك وزعموا أنك لست منهم، فما عندك؟».

قال: «صدقوا، وما يسرنى أنى منهم، أنا امرؤ من الأزد ثم من بارق فى كهف لا يحصى عدده وحسب غير مؤتشب».

فقال عمر: «نعم الحى الأزد يأخذون نصيبهم من الخير والشر».

قال عرفجة: «إنه كان من شأنى أن الشر تفاقم فينا ودارنا واحدة، فأصبنا الدماء ووتر بعضنا بعضاً، فاعتزلتهم لما خفتهم، فكنت فى هؤلاء - يعنى بجيلة - أسُودهم وأقودهم، فحفظوا علىّ لأمر دار بينى وبين دهاقينهم فحسدونى وكفرونى».

قال عمر: «لا يضرك، فاعتزلهم إذ كرهوك».

واستعمل جريراً مكانه، وأظهر لجرير وبجيلة أنه يبعث عرفجة إلى الشام فحبب ذلك العراق إلى جرير. وخرجوا نحو العراق حتى نزلوا ذاقار، ثم ارتحلوا حتى نزلوا بالجُل والمثنى بمرج السباخ.

حشود أخرى

وقدم عصمة بن عبدالله الضبى من بنى حارث فيمن تبعه من بنى ضبة فبعثهم عمر إلى المثنى بالعراق.

وقدم[1] سبعمائة من بنى كنانة والأزد فقال لهم عمر: «أى الوجوه أحب إليكم؟» قالوا: «الشام، أسلافنا أسلافنا» فقال: «ذلك قد كفيتموه، العراق العراق.. ذروا بلدة قد قلل الله شوكتها وعددها واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس».

---

(١) الطبرى ٤ / ٧٢ - ٧٣ س ش س، عن عطية والمجالد بإسنادهما.

فقام غالب بن فلان الليثى وعرفجة بن هرثمة البارقى كل فى قومه فقال:

«يا عشيرتاه أجيبوا أميرالمؤمنين إلى ما يرى وأمضوا له ما يسكنكم». قالوا: «إنا قد أطعنا وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد».

فدعا لهم عمر بخير وقال لهم خيراً وأمّر غالب بن عبدالله[1] على بنى كنانة وبعثه إلى المثنى بالعراق. وأمر عرفجة بن هرثمة البارقى على الأزد، وكان أكثرهم من بارق ففرحوا برجوعه إليهم، وبعثهم إلى العراق. فخرجوا غالب على كنانة وعرفجة على الأزد كل فى قومه حتى قدموا على المثنى.

وخرج هلال بن عُلَّفَة التيمى فيمن اجتمع إليه من الرباب حتى أتى المدينة فأمّره عمر عليهم وبعث بهم إلى المثنى.

وخرج ابن المثنى الجُشَمى، جشم سعد بن بكر من هوازن، حتى قدم المدينة فأمَّرَه عمر عليهم وبعث بهم إلى المثْنى.

وجاء عبدالله بن ذى السهمين[2] الخثعمى فى أناس من خثعم فأمّره عليهم ووجهه إلى المثنى بالعراق.

جاء[3] ربعى فى أناس من بنى حنظلة فأمّره عمر عليهم وبعثهم، فخرجوا حتى قدم بهم على المثنى. وقد رأسهم بعده أبنه شبث بن ربعى.

وقدم أناس من بنى عمرو فأمَّر عمر عليهم ربعى بن عامر بن خالد العنود من أشراف العرب وألحقه بالمثنى.

وقدم قوم من بنى ضبة فجعلهم فرقتين: ابن الهوبر على فرقة، والمنذر بن حسان على الثانية، ووجهم إلى المثنى.

وقدم قُرْط بن جَمَّاح فى عبدالقيس فوجهه عمر إلى المثنى.

فلم يواف أحد عمر فى شعبان من هذا العام إلا أمد به المثنى، فضمهم إلى الآلاف الأربعة الذين ثبتوا معه بعد معركة الجسر.

---

(١) انظر ترجمة غالب بن عبدالله فى آخر الكتاب.

(٢) الطبرى ٤ / ٧٣ س ش س، عن المجالد عن الشعبى وعطية بإسنادهما.

(٣) الطبرى س ش س، عن نحمد وعمر بإسنادهما.

نلاحظ أن معركة المروحة كانت فى ٢٣ شعبان وأن هذه التعزيزات كلها قد بلغت المثنى قبل المعركة التالية فى البويب، وهى التى كانت فى رمضان، ولم تحدد المصادر أى أيام رمضان ولم نستطع الاهتداء إلى ذلك. غير أن الروايات تذكر عن هذه الإمدادات أنها وفدت إلى عمر بالمدينة فى شعبان. فإذا كانت المسافة بين الحيرة والمدينة يقطعها فارس مشهود له مثل المثنى على عجل - كما رأينا - فى عشرة أيام، فلنا أن نفترض أن خبر الجسر لم يبلغ عمر قبل رمضان، وإنما بلغه فى الأسبوع الأول من رمضان. ولذلك نتجه إلى أن وفود المتطوعين ظلت تفد تباعاً منذ تطوع أبو عبيد فى اليوم الرابع لوفاة أبى بكر فى أواخر جمادى الآخرة، وأنه حين اجتمع بالمدينة ألف، أخرجهم عمر مع أبى عبيد حتى بلغ العراق فى نحو الثالث من رجب، وأن القبائل ظلت تفد تباعاً إلى المدينة بعد ذلك، ومنذ ذلك الحين، فيبعث عمر بهم إلى العراق. وقد كان هم عمر الأول أن يحشد المسلمين من كافة بقاع شبه الجزيرة ليلقى بهم فى نحور الفرس.

معركة البويب[1]

رمضان ١٣هـ - نوفمبر (تشرين ثانى) ٦٣٤م

وتسمى أيضاً معركة النُّخَيْلة. سارت كل قبيلة من التعزيزات التى ألقى بها عمر إلى المثنى نحو العراق. وكان المثنى على علم تام بتفاصيل ذلك، فكتب إليهم وهم على الطريق يعلمهم بمكانه، فتوافوا إليه فى جمع عظيم.

جيش الفرس من الفرسان

كذلك كانت عيون الفرس تنقل إليهم أخبار الحشد الجديد، وأدرك رستم وفيرزان أن نصرهم بالمروحة يوم الجسر لم يكن بالنصر الساحق الحاسم الذى يوقف غزو المسلمين لمملكة فارس. وقد رأيا أن فرسانهم كانت من عوامل انتصارهم يوم الجسر، لا سيما بعد خروج فرسان المسلمين منها، أدركا أهميتها واتفقا على أن يخرجا جيشاً من الفرسان يقوده مهران بن باذان الهمذانى وذلك بصفة عاجلة. وقد نشأ مهران مع أبيه باليمن، إذ كان عاملاً لكسرى هناك فنشأ يعرف اللغة العربية ويجيدها.

واستأذن رستم وفيرزان على بوران وكانا إذا أرادا شيئاً دنوا من حجابها حتى يكلماها به، فحدثاها بالذى رأيا واخبراها بعدد الجيش وكان الفرس لا يكثرون البعوث حتى كان من أمر المسلمين ما كان. فلما أخبراها بكثرة عدد الجيش قالت: «ما بال أهل فارس لا يخرجون إلى العرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم؟ وما لكما لا تبعثان كما كانت الملوك تبعث قبل اليوم؟» قالا: «إن الهيبة كانت مع عدونا يومئذ وإنها فينا اليوم». فوافقتهما على ذلك. هذا ما ذكرته المصادر عن هذه المقابلة والذى نذهب إليه أنها إنما كانت لأسباب مالية لتمويل ذلك الجيش الكبير من الفرسان فى المعركة.

تحرك سريع للمثنى

خرج مهران فى الخيول من المدائن متجهاً إلى الحيرة. ووصل خبر هذا الخروج إلى المثنى

---

(١) الطبرى ٤ / ٧١ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.
وعن عبيد الله بن محفز عن أبيه.
وعن أبى اسحق الشيبانى.
وعن عطية عن بن سفيان الأحمرى عن المجالد عن الشعبى.
وعن عمر بإسناده.
فتوح البلدان ٦٣٠.
والنخيلة موضع قرب الكوفة على طريق الشام - معجم البلدان.

وهو بمرج السباخ بين القادسية وخفان، أتت عيونه بالخبر إلى بشير بن الخصاصية وكان يومئذ بالحيرة، وجاءه أيضاً عن طريق كنانة[1] ومادام تحرك الفرس الجديد من الفرسان، فقد قدر المثنى أن زحفهم سيكون سريعاً فقرر أن يتحرك على الفور. وخرج على عجل فيمن معه من مرج السباخ ودخل فرات بادقلى. وأرسل إلى جرير:

«إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب».

وكان البويب مغيضاً للفرات (قناة تصريف) يخرج منه قبيل موضع الكوفة، فيصب أيام الفيضان في الجوف[2] - ونحسبه كان لحماية أراضى الملْطَاط التى كانت من أملاك كسرى من الفيضان - وكتب إلى عصمة ومن معه من بنى ضبة وإلى كل قائد على جمع بمثل ذلك، وحدد لهم محور التقدم فقال لهم: «خذوا على الجوف». فسلكوا القادسية والجوف. وسلك المثنى وسط السواد فطلع على النهرين[3]، ثم على الخورنق. وطلع عصمة ومن سلك معه طريقه على النجف. وطلع جرير ومن سلك معه طريقه على الجوف. وقد خلفوا عيالات من قدم من المدينة بالقادسية، وكان عيالات أهل الأيام قبلهم مقيمين بالحيرة. وانتهت جميع القوات إلى المثنى وهو على البويب. وصدق حدس المثنى.. إذ ذاك كان مهران قد بلغ بحذائهم من وراء الفرات. ومن حيث كانت معركة البويب فى نوفمبر (تشرين أول) فهو زمن تحاريق، نعتقد أن البويب كان جافاً، أو على الأقل كان غير ممتلىء، فهو بذلك كان مانعاً ولكنه غير تام.

جيش المثنى

إذا نظرنا إلى جيش المثنى الذى تجمع فى البويب فى موضع يعرف بدير هند نجده كالآتى:

٤٠٠٠ ممن بقى من يوم الجسر. أكثرهم من بنى شيبان وبنى عجل وبنى تميم.

حنظلة - عليهم شبث بن ربعى - من تميم

عمرو - عليهم ربعى بن عامر - من تميم

الرباب - عليهم هلال بن عُلَّفَة التيمى

ضبة من الرباب-عليهم عصمة بن عبدالله، وابن الهوبر، والمنذر بن حسان - ثلاث فرق.

سعد من بكر بن هوازن - عليهم ابن المثنى الجشمى.

عبدالقيس - من بكر بن وائل - عليهم قرط بن جماح.

٧٠٠ كنانة - عليهم غالب بن عبدالله الليثى.

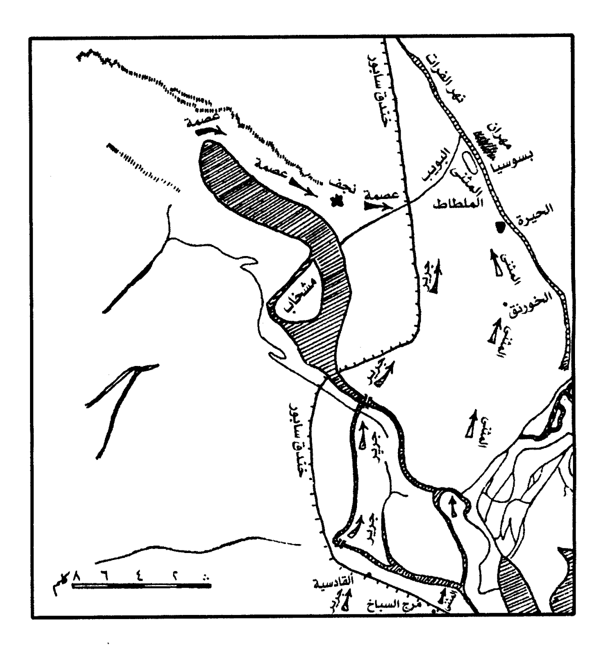
---

(١) لا ندرى من هو.

(٢) معجم البلدان ٢ / ٣١٠ - والطبرى.
فتوح البلدان ٦٣٠.

(٣) فيما نظن أنهما العتيق والخضوض.

٧٠٠ الأزد - أكثرهم من بارق - عليهم عرفجة بن هرثمة.
٢٠٠٠ بجيلة - عليهم جرير بن عبدالله البجلى.
طىء - عليهم عدى بن حاتم الطائى.
خثعم - عليهم عبدالله بن ذى السهمين.



خريطة رقم (٢٨) البويب - ١

وجميعهم ثمانية آلاف. كلهم فيما خلا أصحاب الجسر لم يقاتلوا الفرس من قبل غير أن فيهم من سبقت له ردة ندم عليها وتاب إلى الله وحسن إسلامه، فجاء تدفعه الرغبة فى التقرب إلى الله و التكفير عن ردته. وما أشد أثر المعاصى إذا انقلبت إلى توبة،

ثم كانوا محاربين، فلئن قاتلوا دين الله منذ عامين فلا أقل من أن ينصروه اليوم وأن يشهدوا الله على ذلك.

درس من الجسر

ونظر المثنى إلى الضفة الأخرى من الفرات حيث مهران وعسكره، ثم سأل رجلاً من أهل السواد «ما يقال للرقعة التي فيها مهران وعسكره؟» قال: «بسوسيا»، فقال المثنى: «أكدى مهران وهلك. نزل منزلاً هو البسوس[1]» (الشؤم). وأقام المثنى بمكانه حتى كاتبه مهران «إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم». وكانت أوامر عمر ألا يعبر المسلمون بحراً ولا جسراً إلا بعد ظفر، وما كان للمثنى أن يعيد خطأ أبي عبيد. فقال لهم: «اعبروا».

وعبأ المثنى جيشه بالنخيلة[2]، فجعل على ميمنته بشير بن الخصاصية وعلى ميسرته بسر بن أبي رُهم الجهني، وعلى المجردة (الخيل) أخاه المعنى بن حارثة الشيباني، وعلى المشاة أخاه مسعود، وعلى الطلائع من قبل ذلك اليوم النُّسَير[3] بن ديسم بن ثور العجلي وكان من أشراف بني عجل، وعلى الردء (الاحتياط) مذعور بن عدي[4]. كما عبأ مهران جيشه فجعل على ميمنته ابن آزاذبه مرزبان الحيرة، وعلى ميسرته مردانشاه.

وعبر مهران من بسوسيا فنزل بحذائها على شاطئ الفرات مع المسلمين في الملطاط مما يلي دير الأعور[5] في رقعة تسمى شوميا[6] ومعه ثلاثة أفيال. واصطف الفريقان على شاطىء البويب الشرقي، المسلمون بموضع السكون والفرس في شوميا موضع دار الرزق.

وكانت البويب في رمضان، فقام المثنى في جيشه وقال:

«إنكم صُوَّام، والصوم مُرِقَّة ومُضعفة، وإني أرى من الرأي أن تفطروا ثم تَقَوَّوا بالطعام

---

(١) البسوس امرأة من العرب هاجت بسببها الحرب أربعين سنة بين العرب في الجاهلية، فضرب بها المثل في الشئوم فقالوا أشأم من البسوس. وبها سميت حرب البسوس - مختار الصحاح.

(٢) فتوح البلدان ٦٣٠.

(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة باسم النسير بن ديسم بن ثور العجلي برقم ٨٦٦٠، وذكره مرة أخرى باسم بشير بن ثور العجلي برقم ٧٧٧ ونراهما شخصاً واحداً.

(٤) في رواية محمد وطلحة وزياد بالطبري أن مذعوراً كان على الميمنة والنسير على الميسرة وعاصم على المجردة وعصمة على الطلائع.

(٥) فتوح البلدان ٦٣٠، والملطاط على شاطىء الفرات وكان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولي الفرات منه الملطاط (معجم البلدان).

(٦) شوميا: هي دار الرزق، وهي موضع في بقعة الكوفة (معجم البلدان).

على قتال عدوكم».

فأفطروا وكان يمر بصفوفهم وقد اصطفت كصفوف الصلاة، فأبصر برجل يستوفز ويستنتل[1] من الصف، فقال: «ما بال هذا؟» قالوا: «هو ممن فر من الزحف يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل». فقرعه المثنى بالرمح وقال: «لا أبالك. إلزم موقفك، فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل». قال: «إني بذلك لجدير». ثم استقر ولزم الصف.

مسلمون فقط

وتذكر رواية أنه قدم على المثنى أنس بن هلال النميرى فى نصارى من النمر مدداً للمثنى، وجُلاَّب جلبوا خيلاً، كما قدم ابن مردى الفهر التغلبى فى نصارى من بنى تغلب وجلاب جلبوا خيلاً، وهو عبدالله بن كليب بن خالد. وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم نقاتل مع قومنا. هذه الرواية هى الوحيدة التى تذكر قتال عرب العراق النصارى إلى جوار عرب شبه الجزيرة المسلمين، لا قبلها ولا بعدها فى حملات خالد وأبى عبيد والمثنى وسعد بن أبى وقاص، وهى لا تذكر أعدادهم حتى نقيّم وزنهم فى المعركة ونعلم إن كانوا قوات حقيقية أو قوات رمزية.

وقد ذكر ابن حجر العسقلانى أنس بن هلال النميرى وقال: «كان مما أمد به عمر بن الخطاب المثنى بن حارثة فى فتوح العراق واستشهد مع أخيه مسعود[2] بن حارثة. فهو بهذا ينفى عن أنس النصرانية ويثبت له الإسلام ثم نسبه إلى نمير وليس إلى نمر، فإن كانت نمر من تغلب وكانوا من نصارى العرب. فلقد كانت نمير من عامر بن صعصعة من هوازن وكانوا مسلمين، ومساكنهم شرقى مكة والمدينة، وقد أسلمت كافة شبه الجزيرة قبل الفتوح. وهناك نمير أخرى نذهب إلى أنها هى التى ينتسب إليها أنس بن هلال إذ أنها من بجيلة، ولقد أكدت الرواية التى ذكرت أنس بن هلال أنه كان تحت قيادة جرير بن عبدالله أمير بجيلة. وهذا يلقى شبهة ثقيلة على رواية اشتراك النصارى فى هذه المعركة بل تنفيها. ولنا عود لمناقشة هذا الموضوع حين نعرض لفصل «العصبية» من باب عوامل نجاح الفتح الإسلامى من الجزء الخامس إن شاء الله.

---

(١) استنتل من بين أصحابه: تقدمهم، استنتل للأمر استعد له - المنجد، واستوفز استعد.
(٢) الإصابة ٤٩١.

وامتطى المثنى فرسه الشموس[1]، وهو فرس مشهور، سمى بذلك من لين عريكته وطهارته. فكان إذا ركبه قاتل، وكان لا يركبه إلا لقتال ويودعه ما لم يكن قتال. وطاف المثنى فى صفوفه وهو فى درعه على فرسه تلك يعهد إلى المسلمين عهده. ووقف على الرايات راية راية، يحضضهم ويحرضهم ويأمرهم بأمره ويهز مشاعرهم بأحسن ما فيهم حثاً لهم. ولكل منهم يقول: «إنى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم. والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم». فيجيبونه بمثل ذلك. وأنصفهم فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد أن يعيب له قولاً ولا عملاً، رضى الله عنه وأرضاه.

ثم قال لهم: «إنى مكبر ثلاثاً فتهيؤوا ثم احملوا مع الرابعة. وكبر المثنى أول تكبيرة فبدأ الفرس زحفهم وعاجلوا المسلمين وأقبلوا نحوهم فى صفوف ثلاثة مع كل صف فيل ومشاتهم أمام فيلهم. ولم يكن الصف المذكور صفاً فردياً وإنما كان صفاً كثيفاً متعدد الأفراد. وجاؤوا ولهم هدير عال، وهو أسلوب متبع فى قتال الالتحام بالسلاح الأبيض «كالسونكى» إلى يومنا هذا، والمقصود به إلقاء الرهبة فى قلب الخصم. وأراد المثنى الرائع أن يبطل مفعول ذلك فقال للمسلمين:

«إن الذى تسمعون فشل، فالزموا الصمت وائتمروا همساً».

واقترب الفرس من المسلمين من جهة نهر بنى سليم[2]، وصفّ المسلمين فيما بين نهر بنى سليم وما وراءها.

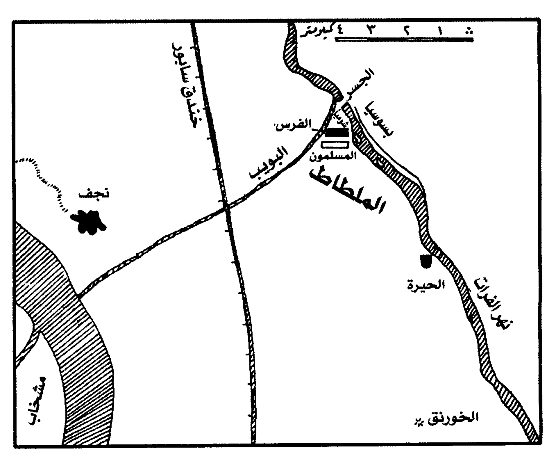
المعركة

والتقى الصفان بعد أول تكبيرة للمثنى وتجمد الموقف طويلاً وهم ملتحمون. ورأى المثنى خللاً فى بعض صفوف بنى عجل وكانوا يرونه يمد لحيته لما يرى منهم، فأرسل إليهم رجلاً، فقال لهم: «إن الأمير يقرأ علهكم السلام ويقول: «لا تفضحوا المسلمين اليوم». فقالوا «نعم» واعتدلوا واعتنوا بأمر لم يعن به أحد من المسلمين يومئذ وهو مراقبة المثنى، فرمقوه فرأوه يضحك فرحاً بعد أن استقام صفهم.

---

(١) فى مختار الصحاح - شمس الفرس منع ظهره فهو فرس شموس، ورجل شموس أى صعب الخلق. ونعتقد أنه كان يرفض غير المثنى أن يستوى على ظهره وبذلك استحق الاسم.

(٢) لم نهتد إلى مكان نهر بنى سليم على الخريطة ولعله كان موجوداً فى عصر الطبرى ولم يكن موجوداً فى زمن المعركة.



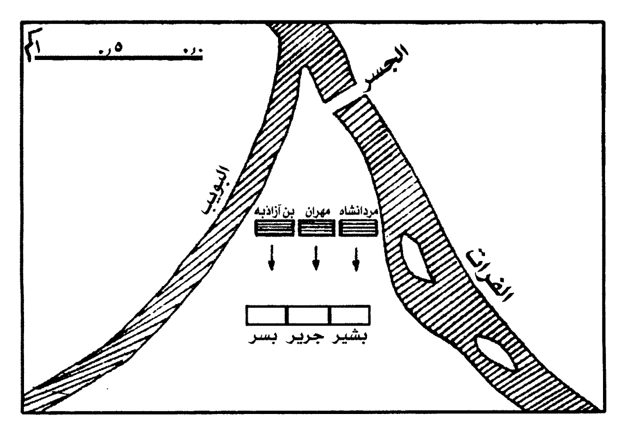
خريطة رقم (٢٩) البويب – ٢

فلما طال القتال واشتد قال لأنس بن هلال: «يا أنس إذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي»، وقال لأبن مردى الفهر مثل ذلك فأجابه ثم حمل المثنى على مهران فأزاله حتى أدخله في ميمنته واستمر المثنى يضغط على عدوه، فخالطوهم، واجتمع القلبان وارتفع الغبار، وكانت الأجناب أيضاً تقتتل بشدة، لا يستطيع المسلمون منهم، ولا المجوس أن يفرغوا لنصر أميرهم، والمثنى مازال يضغط على مهران. وقال مسعود بن حارثة قائد مشاة المسلمين لجنده: «إن رأيتمونا أُصبْنا فلا تدعوا ما أنتم فيه فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف. إلزموا مصافكم وأغنوا غناء من يليكم».

وأصيب مسعود وقواد من المسلمين. ورأى مسعود تضعضع من معه لإصابته وهو ضعيف قد ثقل من الجراح. فقال: «يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله، لا يهولنكم مصرعي». ويدرك المثنى كل شيء فيخاطب الناس بقوله: «يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخي فإن مصارع خياركم هكذا [١]. وقاتل أنس بن هلال النميرى حتى أصيب فحمله المثنى

---

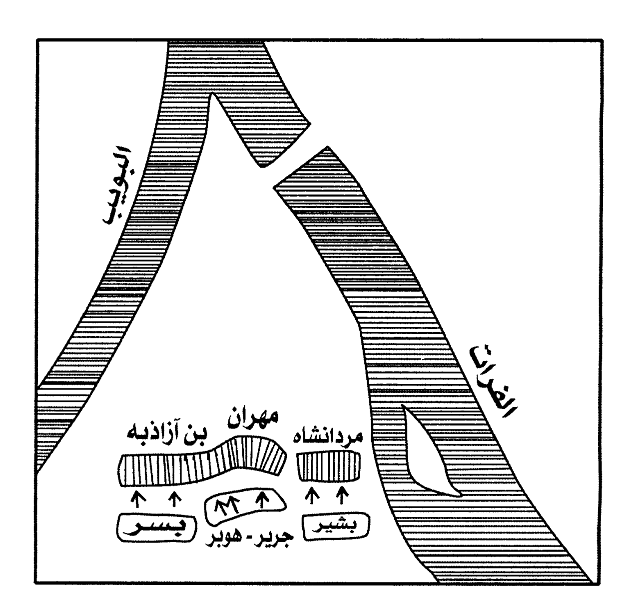
(١) الطبرى ٤ / ٧٥ س ش س، عن محمد وطلحة. فتوح البلدان ٦٣٠ عن عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن داود بن أبي هند عن الشعبي.



خريطة رقم (٣٠) - البويب ٣

وحمل أخاه مسعوداً وضمهما إليه، والقتال محتدم على طول الجبهة، ولكن القلب بدأ ينبعج فى غير صالح الفرس، وأوجع قلب المسلمين فى قلب المجوس وقد دق فيه المثنى إسفينه. وكان فيمن تقدم فى القلب جرير بن عبدالله ومعه بجير وابن الهوبر والمنذر بن حسان فيمن معهما من ضبة. وقَتَل جريرُ بن عبدالله والمنذرُ بنُ حسان مهرانَ، وكان على فرس ورد (أحمر) مجفف (مدرع) بتجفاف أصفر، بين عينيه هلال وعلى ذنبه أهلة من نحاس. وقاتل قُرْط بن جماح العبدى حتى تكسرت فى يده رماح وتكسرت أسياف وقتل شهربراز من دهاقين الفرس وقائد فرسانهم فى المعركة. واستمر القتال حتى أفنى المسلمون قلب المشركين وأوغلوا فيه. وبذلك انقسم جيش الفرس إلى قسمين وانفصلت ميمنته عن ميسرته وبدأت كلتاهما تهتز، وضغط قلب المسلمين على الأجناب الداخلية لمجنبات الفرس. وكان الغبار قد ثار حتى حجب الرؤية، فوقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر وانقشع وانكشفت الرؤية ورأت المجنبات ما صنع القلب، فقويت مجنبات المسلمين على مجنبات العجم وجعلوا يردونهم على أدبارهم. ووقف المثنى ومن معه فى القلب يبتهلون إلى الله وكان يرسل إليهم من يذمِّرهم (يحرضهم) ويقول لهم: «إن المثنى يقول لكم هكذا عاداتكم فى أمثالها. انصروا الله ينصركم». حتى هزموا وشرعوا نحو الفرار.

حينئذ سابقهم المثنى فيمن معه إلى الجسر حتى يمنع عبورهم ويقطع رجعتهم فسبقهم

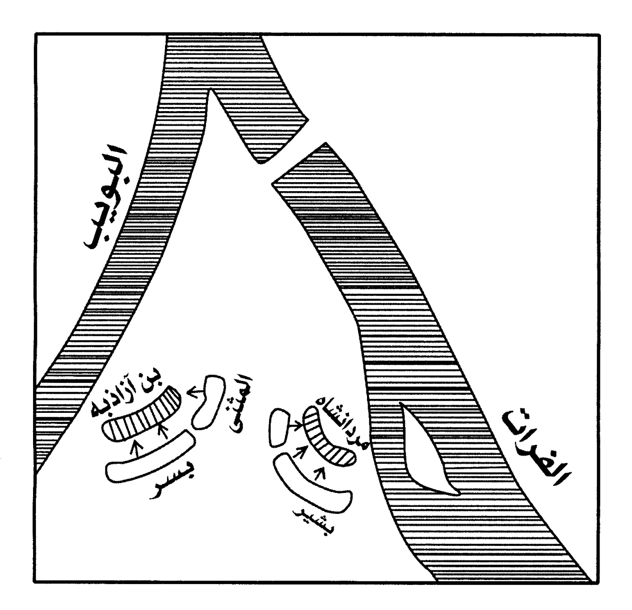


خريطة رقم (٣١) - البويب ٤

إليه. فافترقوا بشاطىء الفرات يمنة ويسرة مصعدين ومصوبين يلتمسون مهرباً للنجاة، وتداولتهم خيول المسلمين وتبعتهم إلى الليل ومن الغد إلى الليل حتى أبادوهم ثم جعلوهم جُثاً[١]. فما كانت بين العرب والعجم موقعة كانت أبقى رمة منها. يروى[٢] سيف عن أبى روق قال: «والله إن كنا لنأتى البويب فنرى موضع السكون وبنى سليم عظاماً بيضاً تلولاً تلوح من هامهم وأوصالهم يعتبر بها، وحدثنى بعض من شهدها أنهم كانوا يحزرونها (يقدرونها) مائة[٣] ألف، وما عُفى عليها حتى دفنها أدفان البيوت[٤].

---

(١) الجث: ميت الجراد والنمل - المنجد.
(٢) الطبرى ٤ / ٧٤ س ش س، عن أبى روق.
(٣) نرى فى هذا الرقم مبالغة.
(٤) ربما كان المعنى أنها دفنت تحت ما أقيم من بيوت.

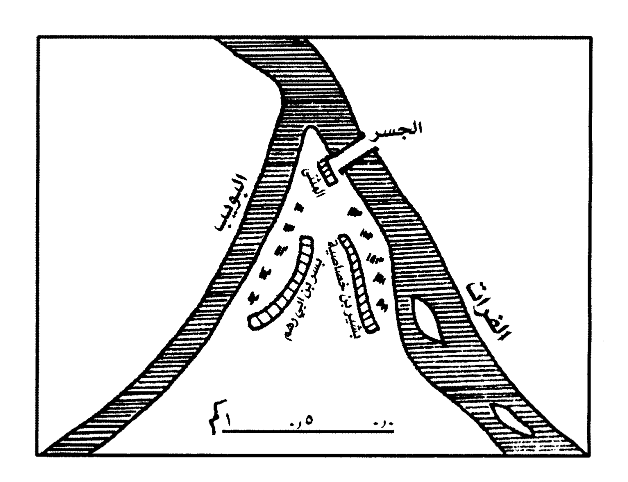


خريطة رقم (٣٢) - البويب ٥

وقال عطية بن الحارث[١] : «وأفعموا (ملؤوا) جنبتي البويب عظاماً حتى استوى، وما عفى عليها إلا التراب أزمان الفتنة، وما يثار هنالك شيء إلا وقعوا منها على شيء».

---

(١) الطبري ٤ / ٧٧ س ش س، عن عطية بن الحارث. فتوح البلدان ٦٣٠ عن سيف.



خريطة رقم (٣٣) - البويب ٦

مؤتمر بعد المعركة

سكن القتال ونظر المثنى والمسلمون إلى عشرات الألوف من الجثث وقد غطت الأرض دماؤها وأشلاؤها. ثم جلس مع جيشه يحدثهم ويحدثونه ويسألهم عما فعلوا، وكلما جاء رجل قال له المثنى: أخبرني عنك فيروون له أحاديث تصور لقطات من المعركة.

قال قرط بن جماح: «قتلت رجلاً فوجدت منه رائحة المسك، فقلت: إنه مهران، ورجوت أن يكون إياه، فإذا هو صاحب الخيل (قائدها) شهربراز فوالله ما رأيته شيئاً إذ لم يكن مهران»[1].

وقال المثنى: «قد قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد علىَّ من ألف من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد على من ألف من العجم، إن الله أذهب مصدوقتهم ووهَّن كيدهم، فلا يروعنكم زُهاء (منظر) ترونه ولا سواد

(١) كانت العرب تألف الطيب وتترك ذلك فى الحرب والصيد - الكامل ١ / ٢٦٥.

(كثرة) ولا قِسِيٌّ[1] فُجٌّ ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها ، كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » .

وقال ربعى وهو يحدث المثنى : « لما رأيت ركود الحرب واحتدامها قلت : تترسوا بالمجان فإنهم شادون عليكم ، فاصبروا لشدتين وأنا زعيم لكم بالظفر فى الثالثة فأجابونى والله ، فوفى الله كفالتى » .

وقال عبدالله بن ذى السهمين محدثاً : « قلت لأصحابى إنى سمعت الأمير يقرأ ويذكر فى قراءته الرعب ، فما ذكره إلا لفضل عنده ، اقتدوا برايتكم وليحم راجلكم خيلكم ثم احملوا ، فما لقول الله من خلف ، فأنجز الله وعده وكان كما رجوت » .

وقال عرفجة بن هرثمة محدثاً : « حُزْنا كتيبة منهم إلى الفرات ، ورجوت أن يكون الله تعالى قد أذن فى غرقهم وسلّى عنا بها مصيبة الجسر ، فلما دخلوا فى حد الإحراج كروا علينا ، فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى قال بعض قومى لو أخرت رايتك ، فقلت على إقدامها وحملت بها على حاميتهم فقتلته فولوا نحو الفرات فما بلغه أحد فيه الروح » .

وقال ربعى بن عامر بن خالد فيما بعد : « كنت مع أبى يوم البويب ، وسمى البويب يوم الأعشار ، أحصى مائة رجل ، قتل كل منهم عشرة فى المعركة يومئذ[2] . وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة ، وغالب فى بنى كنانة من أصحاب التسعة ، وعرفجة فى الأزد من أصحاب التسعة . وقُتل المشركون فيما بين السَّكون اليوم إلى شاطىء الفرات ضفة البويب الشرقية » . وأبلى شرحبيل بن السمط الكندى بلاء حسناً[3] .

وندم المثنى على قطعه خط الرجعة على الفرس ، وأخذه بالجسر من خلفهم فقال : « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر ، وقطعه حتى أحرجتهم فإنى غير عائد ، فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس ، فإنها كانت منى زلة . لا ينبغى إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع » . ورأى المثنى له وجاهته ، فإذا حصر عدو به رمق فى مأزق كهذا فليس أمامه إلا الاستماتة فى القتال ، وهذا معناه ضحايا أكثر من المهاجمين ، فى حين أنه لو خلى لهم

---

(١) القوس الفجاء التى بعد وترها عن كبدها - انظر الفصل الخاص بالقسى بالجزء الأول .

(٢) فى هذا ما يؤيد بالدليل الحسابى أن تقدير قتلى العجم بمائة ألف مبالغ فيه كثيراً ، فإذا كانوا قد أحصوا مائة ، قتل كل منهم عشرة ، فمعنى هذا أن سواهم (٧٩٠٠) لم يبلغ من قتله الواحد منهم عشرة ، ولو بلغوا ذلك جميعاً لما تجاوز القتلى ٨٠٠٠٠ وهو بعيد عن الحدوث ، فقد كان المسلمون ٨٠٠٠ .

(٣) فتوح البلدان ٦٣٠ .

سبيل الفرار والتفرق، فإن عمليات المطاردة كفيلة بحصدهم فى ظروف أفضل. أما إذا كان العدو فى حال لا يسمح له بالمقاومة والاستماتة فلا بأس من حصره وسحقه وإبادته.

وتنازع جرير بن عبدالله البجلي والمنذر بن حسان الضبى نزاعاً شديداً حول قتل مهران. وفى رواية للطبرى، أن غلاماً تغلبياً هو الذى قتله ثم استوى على فرس مهران وصاح: «أنا الغلام التغلبى أنا قتلت المرزبان»، فأتاه جرير وابن الهوبر فأخذا برجله فأنزلاه. وليس لهذا أى ذكر فى فتوح البلدان الذى أخذنا بروايته فى هذا الموضع[1]. وفى ذلك التنازع قال المنذر بن حسان الضبى يصف قتل مهران ويعتب على جرير:

ألم ترنى خالست مهران نفسه	بأسمر فيه كالخلال طريرُ[2]
فخر صريعاً والتقانى برجله	وبادر فى رأس الهمام جرير
فقال قتيلي والحوادث جمة	وكاد جرير للسرور يطير
وقال أبو عمرو قتيلى قتلته	ومثلى قليل، والرجال كثير
فأرسل يمينك أن رمحك ناله	وأكرم أن تُحلَفْ وأنت أمير

ومات أناس من الجرحى من أعلام المسلمين منهم: خالد بن هلال ومسعود ابن حارثة أخو المثنى. فصلى عليهم المثنى وقدمهم على الأسنان[3] والقران وقال: «والله أنه ليهون عليّ وجْدى أن شهدوا البويب. أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا، وإن كان فى الشهادة كفارة لتجوُّز الذنوب».

نوع من النساء

وكان المثنى[4] وعصمة وجرير قد أصابوا فى أيام البويب على الظهر (صحراء الكوفة) تموين مهران غنماً ودقيقاً وبقراً، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة بالقادسية وإلى

(١) فتوح البلدان ٦٣٠. وقال: ويقال إن الحصن بن معبد بن زرارة بن عُدس التميمى كان ممن قتله. وأورد الطبرى أيضاً رواية ٤ / ٧٤ س ش س، عن سعيد بن المرزبان أن جريراً والمنذر اشتركا فى قتل مهران. فتقاضيا إلى المثنى فجعل سلاحه بينهما ومنطقته وسواريه بينهما. وفى جمهرة أنساب العرب لابن حزم أن المثنى هو الذى قتل مهران.

(٢) الأسمر: الرمح - طرير: طويل.

(٣) أمثالهم وأقرانهم.

(٤) الطبرى ٤ / ٧٦ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد.

عيالات أهل الأيام قبلهم بالحيرة. واستخدم المسلمون عمرو بن عبدالمسيح بن بقيلة دليلاً للذين ذهبوا بنصيب العيالات بالقوادس، وكان النسير قائد الطلائع على هذه الخيل. فلما اقتربوا ورأى النسوة الخيل مقبلة حسبنها غارة، فتصايحن وقمن دون الصبيان بالحجارة والعُمد. فقال عمرو: «هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش». وبشروهن بالفتح. ثم أقام النسير فى خيله حامية لهم ورجع ابن عبدالمسيح فبات بالحيرة.

مطاردة

وقال المثنى يومئذ: «من يتبع الناس حتى ينتهى إلى السيب؟» والسيب على دجلة. فقام جرير بن عبدالله فى قومه فقال: «يا معشر بجيلة انكم وجميع من شهد هذا اليوم فى السابقة والفضيلة والبلاء سواء. وليس لأحد منهم فى هذا الخمس غداً من النفل مثل الذى لكم منه، ولكم ربع خُمسه نفلاً من أمير المؤمنين، فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ولا أشد عليه منكم للذى لكم منه، ونية إلى ما ترجون، فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين: الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة».

ومال المثنى على الذين أرادوا أن يستقتلوا من منهزمى يوم الجسر وقال: «أين المستبسل بالأمس وأصحابه؟ انتدبوا فى أثار هؤلاء القوم إلى السيب وابلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به، فهو خير لكم وأعظم أجراً واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم». فكان ذلك المستبسل وأصحابه أول من تطوع للمطاردة.

وأمر[1] المثنى بالجسر الذى قطعه فى المعركة فعقد لهم ثم أخرجهم فى آثار القوم، واتبعتهم بجيلة وخيول المسلمين تُغذ من كل فارس، فانطلقوا فى طلبهم حتى بلغوا السيب. ولم يبق فى العسكر جسرى إلا خرج فى الخيل، ومعنى هذا أن قوات المطاردة بلغت الستة آلاف على الأقل (٤٠٠٠ أهل الجسر و٢٠٠٠ بجيلة) فأصابوا من البقر والسبى وسائر الغنائم شيئاً كثيراً. فقسمه المثنى عليهم وفضل أهل البلاء من جميع القبائل. ونفّل بجيلة يومئذ ربع الخمس بينهم بالسوية وبعث بثلاثة أرباعه إلى عمر مع عكرمة[2].

وعلى قدر الهزيمة التى حاقت بالفرس أصاب الرعب قلوبهم. وكتب القواد الذين قادوا

---

(١) الطبرى ٤ / ٧٦ عن السرى عن شعيب عن سيف عن حمزة بن على بن محفز عن رجل من بكر بن وائل.
(٢) لا ندرى من عكرمة.

الناس في الطلب إلى المثنى، كتب عاصم وعصمة وجرير : «إن الله عز وجل قد سلم وكفى ووجه لنا ما رأيت، وليس دون القوم شيء، أفتأذن لنا في الإقدام؟» فأذن لهم، فأغاروا حتى بلغوا ساباط، وتحصن أهلها منهم في حصنهم فاستباحوا القرى من حولها، ثم اتجهوا إلى الحصن فرماهم أهل الحصن عن حصنهم، ثم كان أول من دخله ثلاثة قواد، عصمة وعاصم وجرير وتبعهم أوزاع الناس كلهم. واستمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة، فمخروها ما شاؤوا لا يخافون شيئاً ولا يلقون مانعاً وعادت إلى أيديهم مسالح العجم.

وقد أنشد الأعور العبدى الشَّنِّى يقول :

هاجت لأعورَ دارُ الحى أحْزانا	واستبدلت بعد عبدالقيس خَفَّانَا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع	إذ بالنخيلة قتلى جند مهراناً
أزمان سار المثنى بالخيول لهم	فقتَّل الزحف من فُرس وجِيلانا[1]
سما لمهران والجيش الذى معه	حتى أبادهم مثنى ووحدانا
ما أن رأينا أميراً بالعراق مضى	مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لا كذب	فى الحرب أشجع من ليث بخَفَّانَا

عادت قوات المطاردة إلى الحيرة فنظم المثنى حامياته فى أرض السواد. فاستخلف بشير بن الخصاصية على الحيرة.

وأرسل جرير بن عبدالله إلى ميسان (منطقة العمارة).

وأرسل هلال بن عُلَّفَة التيمى إلى دست ميسان (منطقة الأبلة والبصرة).

وأرسل مسالح إلى جهات أخرى عليها قادة من مثل عصمة بن فلان الضبى والكلج الضبى وعرفجة بن هرثمة البارقى وأمثالهم.

---

(١) جيلان اسم لبلاد كثيرة وراء طبرستان (فهرس فتوح البلدان) جنوبى بحر قزوين (صبح الأعشى ٢ / ٢٤٥) إلى الغرب من طهران تجاه دجلة.

رد اعتبار

أول ملامح البويب أنها كانت رد اعتبار ممتاز للمسلمين بعد ما أصابهم يوم الجسر بالمروحة. ولابد أن يكون الفرس قد أصيبوا بدوار شديد بعد أن ظنوا أن في إمكانهم أن يكسبوا من المسلمين معارك، فإذا المعركة التالية مباشرة بعد حوالى شهر من يوم الجسر، معركة مفجعة يفقدون فيها عشرات الألوف من فرسانهم. لقد استطاع المثنى يوم البويب أن يمنع يوم الجسر من أن يكون نقطة تحول فى خط سير النصر. بل جعلها على جسامتها حادثاً عرضياً مر وانتهى، وبانتهائه زال أثره. جعلها معركة ذهبت ولن تتكرر، وعاد المسلمون رغم قلة عددهم يمسكون بزمام الهجوم والمبادأة.

ثلاث أدوات للنصر

نستطيع أن نتبين ثلاث أدوات حقق بها المثنى نصر البويب:

١- **اختيار الأرض** التى جرت عليها المعركة. فقد اختار المثنى أرضاً مناسبة لأن تصلح كميناً لجيش كبير، وهو اختيار يدل على ما لهذا القائد العظيم من النظر الطبوغرافى السديد. فكما كان يجيد حروب الصحراء والأرض المفتوحة التى لا تحصرها عوائق أو ظواهر طبيعية ويعرف خواصها وما يصلح لها، كذلك كان يدرك خواص الأرض المحصورة والفوارق بين كل نوع من أنواع الأرض وأثر هذه الفوارق على المعارك. ولقد كانت أرض المعركة محصورة بين الفرات وبين البويب، ومن حيث كان البويب قناة تصريف لفيضان الفرات يلقى بالمياه الزائدة فى الجوف، ومن حيث دارت المعركة فى شهر نوفمبر (تشرين ثانى) حيث الفرات فى حالة تحاريق، فلم يكن حينئذ فيضان، نعتقد أن البويب كان جافاً أو شبه جاف أو على الأقل ضحلاً قليل المياه، وهو بهذه الصفة يكون حاجزاً، ولكن ليس حاجزاً تاماً. أما الفرات فقد كان مانعاً طبيعياً لا سيما بعد أن قطع المثنى الجسر المقام عليه.

٢- والثانية وضع **الخطة المناسبة** لهذه الأرض، فحيث تكون الأرض محصورة يكون لعنق الزجاجة كل الأهمية، ويتسنى للقوات القليلة نسبياً أن تكون ذات غناء وفاعلية، وتفقد

الكثرة العددية فاعليتها لاسيما إذا كان المخرج من هذه الأرض ليس فى يدها، إذ يصير المعول فى العدد على مقدار ما يتسع له خط المواجهة المحدود. وبطبيعة الحال فإن هذا الخط سوف يسمح بأعداد متكافئة من الطرفين بينما تظل الكثرة العددية خلف هذا الخط عاطلة أو شبه عاطلة، بل أنها فى هذه الحالة تصبح عبئاً وتشكل ثقلاً على جيشها ويعتبر وجودها خرقاً لمبدأ الاقتصاد فى القوى، ويعتبر تعريضها للخطر خرقاً لمبدأ الأمن. فى هذه الحالة ينحاز النصر إلى جانب التدريب الأعلى والمهارة فى الميدان، وقد كان ذلك للمسلمين على الفرس. يضاف إلى ذلك غفلة الفرس عن حماية مؤخرتهم وحراسة الجسر الذى كان يمثل خط الرجعة الوحيد من ذلك المأزق. لقد استطاع المثنى يوم المروحة أن يحمى خط رجعته حتى يعيد وصل الجسر ويعبر جيشه، ولكن الفرس فى البويب لم يستطيعوا ذلك لأن الجسر وإن كانت المعركة قد بدأت وهو فى أيديهم ووراء ظهورهم إلا أنهم فقدوه بعد ذلك باختراق المثنى لقلب جيشهم واستيلائه عليه فحرمهم من فرصة انسحاب منظم.

٣- أما الأداة الثالثة فكانت **المعنوية** التى لا تعرف الكلل التى ظهرت فى قبائل المسلمين يوم البويب، حتى لقد ظهر لكل قبيلة موقفها الذى تتحدث به بعد المعركة وتفاخر به. فى هذه الموقعة حرص أربعة آلاف ممن شهد المروحة أن يغسلوا هزيمة يومها ويثأروا لها، وحكاية المستبسل ومن معه مثال لذلك، وهم الذين لم يعرفوا الهزيمة قبل معركة المروحة قط. ولئن كان هذا المعنى ماثلاً فى كل نفس من نفوس المسلمين، فإن من اللفتات التى تستحق التأمل أننا لا نجد فيما تكلم به المثنى فى البويب قبل المعركة أى ذكر ليوم الجسر بالمروحة أو تذكير به. لقد كان المثنى يجيد اختيار الموضوع ويجيد توجيه كلماته حتى لكأنها منتقاة. ويبدو أنه كان حريصاً وهو على أبواب معركة كبرى أن لا يذكر لهم الهزيمة، بل إنه بعد أن حقق الله على يديه نصر البويب، لم يكن يذكر يوم المروحة إلا تلميحاً مثل قوله لأصحابها حين أرسلهم للمطاردة «.. وابلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به فهو خير لكم وأعظم أجراً، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم»، يشير بالاستغفار إشارة أرق من الحرير إلى فرارهم يومها. وكان يستطيع أن يفخر صادقاً بثباته يوم فروا ولكن إنكاره لذاته ومحبته لإخوانه كان فوق ذلك. وحرص ألفان من بجيلة أن يثبتوا وجودها كوحدة حربية، فهذه أولى معاركها، وهذه فرصتها الأولى لإثبات ذلك، وليعلم أمير المؤمنين عمر أن مساعى جرير لجمع بجيلة من أفناء العرب، لم تكن عبثاً وإنما لتساهم فى هذه الفتوح، وها هى ذى تفعل وقد بدأت فى البويب. كما كان الآخرون أشد حرصاً من هؤلاء وهؤلاء، إذ سبق أن ارتدوا فأرادوا أن يَغْسِلُوا عارها توبة إلى الله وإبراء

لذمتهم والله لا يغلق أبواب السماء في وجه تائب وهم الذين يقرؤون في كتاب الله[1] : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ .

فكان لكل منهم ، إلى جوار الحافز العام لإعلاء كلمة الله والحرص على الشهادة ، حافزه الخاص الذى يساهم فى تكوين معنويته وبنائها .

درس من الخطأ

كانت البويب استفادة من أخطاء معركة الجسر ، فليس الخطأ ولا خسران معركة فى الحرب عيباً ، والحرب سجال ودُوَل ، ولكن العيب أن يضيع الدرس والعبرة فلا يستفاد منه . وقد أثبتت تجربة البويب حين عادت المعركة فى ظروف مشابهة ، أن المسلمين استفادوا من الدرس بكفاءة عالية حتى أن المثنى استطاع أن يعيد معركة الجسر بالمروحة بحذافيرها مع تبادل الغالب والمغلوب أوضاعهما ، فضلاً عن أنه فى المروحة استطاع أن ينسحب بمن صاروا بعد ذلك نواة جيشه بل نصفه فى البويب ، فى حين لم ينجح الفرس فى سحب شىء من قوتهم فى البويب ، بل تبددت وأبيدت على ضخامة حجمها ، ومع فارق آخر ، أن الكثرة العددية الساحقة كانت مع الفرس حال انتصارهم وحال هزيمتهم .

المعركة مدرسة

لقد ظهر المثنى فى البويب ، إلى جوار كفاءته كقائد فى الميدان ، أستاذاً معلماً يجلس بين قواته بعد الموقعة لدراستها ونقدها فيسمع منهم ويجيب حتى يستفيدوا دروساً ومعرفة وكأنه يعطيهم «فرْقة» (اصطلاح مصرى بمعنى دورة تدريبية) حتى لا يكون المقاتل الذى معه مجرد آلة وإنما يتكون له فكره الحربى ولم يكن يضيره وهو فى أوج مجده الحربى وقمة انتصاراته الرائعة أن يكاشفهم بأنه أخطأ فى قطع الجسر ولكن الله وقى شر ذلك ، وأن ينقد نفسه دون أن ينقده أحد ، ويطلب منهم ألا يقتدوا به فيها . والمثنى بذلك يقدم مثلاً أخلاقياً من أخلاق الفرسان المسلمين النبلاء إلى جوار ما يقدم من أمثلة فى مجالات الكفاية الحربية . هذا فى الوقت الذى كان الحزن يعصر قلبه لفقد بطل من أحب الناس إلى قلبه وأقربهم منه دماً ، كان شريكه فى مواقعه كلها ولعلهما لم يفترقا يوماً ، أخيه البطل مسعود بن حارثة . لم ينسه هذا المصاب واجبه كاملاً فى كسب المعركة ، ثم فى المطاردة بعدها وليس هذا فحسب بل ومناقشتها وتحليلها ونقدها .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

إن لصفات القائد أهمية كبرى فى نجاح المعركة، إذ مهما توفرت شروط النصر من تدريب وتسليح وتنظيم لجيش من الجيوش، فقد يضيع ذلك كله هباء منثوراً إذا لم يوضع بين يدى قائد صالح، حتى إنه ليقال إن جيشاً ضعيفاً عليه قائد قوى خير من جيش قوى يقوده قائد ضعيف.

وإلى جوار ما تبدى لنا من عبقريات المثنى فقد شملت عبقريته عمقاً آخر فى فرع ثالث مما يتصل بالحرب وهو علم النفس العسكرى والتعامل مع إخوان الجهاد وزملاء السلاح. إنا لنجد روحاً من المحبة فياضة تربط المثنى بمن معه تشير إلى جانب عاطفى نحوهم، ويبرز هذا فى أحاديثه لهم وفى كلامهم عنه.

نرى هذا فى طوافه بفرسه الشموس على راياتهم راية راية، يحمسهم ويعطيهم توجيهاته ويحرك مشاعرهم بأحسن ما فيهم ويقول لهم: «والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم» فيجيبونه بمثل ذلك. يقول الرواة: «فلم يستطع أحد أن يعيّب له قولاً ولا عملاً». ولنتأمل هذا الأمر الذى أصدره إلى إحدى وحداته من بنى عجل لما اعوجّ صفهم، لنتأمله فى صيغته وفى مدلوله: «إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم». وهو إذ يرى صفوف العجم تهجم وقد علت صيحاتهم، يدرك ما لهذا من أثر فى قتال الإلتحام، لا سيما وذكر معركة الجسر بالمروحة غير بعيد، فتكون كلمة هادئة بسيطة رسول الثبات إلى نفوسهم لتبطل أثر تلك الهيعات فيقول فى هدوء يدعوا إلى الإعجاب: «إن الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت وائتمروا همساً».

ولقد كان المثنى وهو فى المعمعة لا يغفل عن ملاحظة أى اعتبار حتى معنويات جيشه، ولقد رأينا ما فعل حين أصيب أخوه مسعود إصابة قاتلة لما رأى أثر ذلك على المسلمين، وإن مقالته لتستحق أن تكتب بحروف من نور: «يا معشر المسلمين لا يَرُعْكم مصرع أخى، فإن مصارع خياركم هكذا» ولا يقل عن هذا قول مسعود نفسه وهو يجود بالنفس مستبشراً بالشهادة «.... ارفعوا راياتكم رفعكم الله، لا يهولنكم مصرعى».

وكما كان المثنى محباً لجنده عطوفاً عليهم متفقداً لكافة أحوالهم، فقد كان فى نفس الوقت حازماً حاسماً آخذا بما يطلق عليه العسكريون المحدثون «الضبط والربط»، رأى ذلك المستبسل وما يفعل فزجره وقرعه بالرمح وألزمه الصف، ومن قبل ذلك وجدناه فى المروحة يضرب عبدالله بن مرثد والمعركة تدور رحاها على المسلمين بسبب ما فعل.

وما أن تم نصر البويب حتى أراد أن يشفى صدور أهل المروحة بصفة خاصة وأن يرد إليهم اعتبارهم، فبعثهم فى مطاردة فلول المجوس، فكان هذا الاختيار أيضاً وضعاً للشيء فى مكانه ولمسة نفسية من لمسات المثنى.

وكما كان المثنى متعاطفاً مع جيشه فلقد كان الشعور متبادلاً تماماً. ونرى ذلك جلياً فى شعر المعركة الذى يجرى على ألسنة جنودها. فهذا الأعور الشنى يقول فى قلب أبياته التى ذكرناها:

ما أن رأينا أميراً بالعراق مضى ... مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لا كذب ... فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

فصاحب هذه الأبيات يفضل المثنى صراحة على خالد بن الوليد وعلى أبى عبيد الثقفى، ولقد كان الأعور من عبدالقيس، فهو لم يكن من بنى شيبان ولا من بكر بن وائل حتى يقال إنه متعصب لقومه. بل لقد وجدنا بعد المعركة الفاصلة بالقادسية عام ١٥هـ من يفضل المثنى على سعد وكان المثنى قد أفضى إلى ربه، فيقول لسعد بن أبى وقاص:

وعند أمير المؤمنين نوافل ... وعند المثنى فضة وحرير

ومن العجيب أننا لم نعثر فى شعر المعارك والفتوح فيما رجعنا إليه من مراجع على ما يشيد بخالد بن الوليد كما وجدنا الإشادة بالمثنى وامتداحه فى أكثر من موضع. ونعيد هنا ما ذكرنا عن خالد بحذافيره فما أشد التشابه.. نقول الحق: لقد كان المثنى قائداً عميقاً فى علم النفس العسكرى قبل أن يخط أى أستاذ متخصص حرفاً فى هذا العلم بقرون.

معنوية القاعدة

وإذا كانت معنوية المسلمين فى الميدان كما رأينا فلقد رأينا أيضاً أن معنويات نسائهم لم تكن بأقل من معنويات رجالهم، حتى أن خيل المسلمين التى اتجهت إليهم بالقادسية تحمل من الغنائم غنماً ودقيقاً وبقراً وحسبنها من خيل الأعاجم مقبلة فى غارة، قمن بالحجارة والعمد يدفعن عن أنفسهن وعن الصبيان.

آثار البويب

أدت هزيمة البويب إلى انفتاح أبواب العراق من جنوبه إلى شماله أمام قوات المسلمين تجوبه كيف شاءت، وهذا موضوع الباب التالى.

الباب الخامس عشر

عمليات الأسواق

وصف السائح الصينى هيون تسيانج الحياة فى البلاد الغربية التى زارها فى أوائل القرن السابع الميلادى، فقال عن منتجات الصناعة فى إيران: «تنتج البلاد الذهب والفضة والنحاس والبلور الصخرى والجواهر النادرة والمواد الثمينة المختلفة. وصنّاع إيران يجيدون نسج السندس الحريرى والأقمشة الصوفية والسجاد وغيرها»[1].

وكتب آمين مارسلن الضابط الرومانى الذى اتصل بالفرس فى حروب الروم مع سابور الثانى ٣٦٣م، فقال: «إنه كان يقام فى أول شهر سبتمبر (أيلول) من كل عام فى مدينة باتنة التى تقع غير بعيد من الشاطىء الشرقى لنهر الفرات سوق كبيرة ترد إليها البضائع من الهند والصين».

وفى ٤١٠م، كانت المدن المفتوحة للمعاملات التجارية بين الروم والإيرانيين هى: نصيبين على شاطىء دجلة وكالينيك على شاطىء الفرات وارتكزانا فى أرمينيا. وفى القرن السادس الميلادى، كان الحرير أهم أصناف تجارة الترانزيت عند الفرس. وكان يحجز بإيران مقدار كبير جداً من الحرير الخام المستورد من الصين لينسج بها، فنشأت بها صناعة الحرير. ولكن منذ القرن السادس نجح البيزنطيون فى زراعة أشجار التوت وتصنيع الحرير فى بلادهم، واستغنوا إلى حد ما عن استيراده من الخارج. وكان من البضائع الفارسية المطلوبة: الكحل الإيرانى المشهور والسجاجيد البابلية، كذلك كانوا يتاجرون فى الأحجار الثمينة السورية، طبيعية وصناعية، واللؤلؤ والمرجان، وأقمشة مصر والشام والمواد المخدرة الواردة من آسيا الوسطى.

وكان المثنى يعرف عن أسواق تقام فى شمالى العراق، ونستبعد ألا يكون له تفكير سابق بشأنها، فهو فى حاجة إلى ما فيه غناء للمسلمين يتقوون به على عدوهم. غير أن موسم الأسواق المذكورة قد سبق فى أول سبتمبر (أيلول) الذى وافق فى عام ٦٣٤م الثانى من رجب ١٣هـ. أين كان المثنى فى هذا اليوم؟ كان فى طريقه من المدينة إلى الحيرة، وكان عليه أن ينتظر أبا عبيد قبل أن يتحرك، ولم يكن حجم قواته حينذاك بالذى يسمح له بذلك، وقد

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ١١٦ - ١١٧.

وصله أبو عبيد بعد شهر، وإذن فقد فاتته الأسواق المذكورة. ولكنه كان يعرف أن هذه الأسواق الكبرى يتلوها أسواق فى مدن أخرى من نفس المنطقة، مرة فى كل عام. وسأل عنها المثنى فأخبره رجل من أهل الحيرة أن سوق الخنافس وسوق بغداد تنعقدان فى تلك الأيام. وبغداد قرية على الشاطىء الشرقى لدجلة شمالى المدائن بحوالى أربعين[1] كيلو متراً، وتبعد عن الحيرة بأكثر من ٢٥٠ كيلو متراً. وعلم أن الأموال تجتمع فى هذه الأسواق كبيت المال. فسأل: «كم بين مدائن كسرى وبينها؟» قيل: «بعض يوم أو عامة يوم». وعاد يسأل عن السبل إليها فأخبروه، فسأل عن السوقين: «أيتهما قبل صاحبتها» فقالوا: «بينهما أيام»، ولم يقنع بهذا الجواب المبهم، فعاد يسأل: «أيهما أعجل؟» قالوا: «سوق الخنافس، يتوافى إليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاعة يخفرونهم».

وبات المثنى يفكر فى الأمر ويدبر ويستعد له.

---

(١) فى الموضع الذى أقام العباسيون فيه عاصمتهم «بغداد» فيما بعد.

غارة على سوق الخنافس[1]

شوال ١٣هـ - ديسمبر (كانون أول) ٦٣٤م

رسم المثنى خطته على أن يسلك طريق الصحراء حتى ينتهي إلى الخنافس، وذلك حتى لا تسبقه الأخبار إلى أى جهات أخرى، حيث إنه طريق بعيد عن الأنظار، فهو ليس كأى طريق يسلك وسط السواد. فإذا بلغ الخنافس وفرغ من أمرها نزل على أهل الأنبار، فيأخذ الدهاقين بالأدلاء ويسير سواد ليلته من الأنبار حتى يغير على بغداد صبحاً.

خرج المثنى فى بنى شيبان وبنى عجل وكأنه بعض قوات المطاردة فى أنحاء سواد العراق. وإمعاناً فى التمويه مخر السواد من الحيرة متجهاً إلى أليس[2] جنوباً بشرق، ثم استدار منها غرباً إلى طريق الصحراء حيث اختفى فى جوفها عن الأعين وأسرع شمالاً نحو الخنافس. وفى نفس الحين كان المسلمون يمخرون السواد ويشنون الغارات فيما بين أسفل كسكر وأسفل الفرات وجسور مثقب إلى عين التمر وما والاها من أرض الفلاليج والعال. هذا والمثنى يجد السير فى الصحراء ومعه دليلان: أحدهما من الأنبار ليدله على الخنافس، والثانى من الحيرة ليدله على بغداد. وقد جعل على مقدمته حذيفة بن محصن الغلفانى وعلى ميمنته النعمان بن عوف بن النعمان الشيبانى وعلى ميسرته مطر الشيبانى، وذلك حتى عاد من رحلته تلك. حذيفة بن محصن هذا هو الذى كان قائد الجيش الثامن لقمع ردة الأزد[3] بعمان.

وبلغ المثنى الخنافس وقد أقَّت بلوغها أول ضوء النهار يوم سوقها. وكان يخفرها خيل من ربيعة عليهم السليل بن قيس، وخيل من قضاعة عليهم رُومَانس بن وَبَرَة، فأغار عليهم وانتسف السوق وما فيها، ثم سار مسرعاً حتى طرق دهاقين الأنبار فى أول النهار من نفس اليوم وهو يقول:

---

(١) الطبرى ٤ / ٧٨، عن السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد.

(٢) تقول الرواية: «إنه بدأ فنزل أليس من قرى الأنبار». نقول: «لم تكن أليس من قرى الأنبار ولكنها على صلب الفرات إلى الجنوب الشرقى من منطقة الحيرة، وهى التى هزم خالد فيها جابان فى طريقه إلى الحيرة».

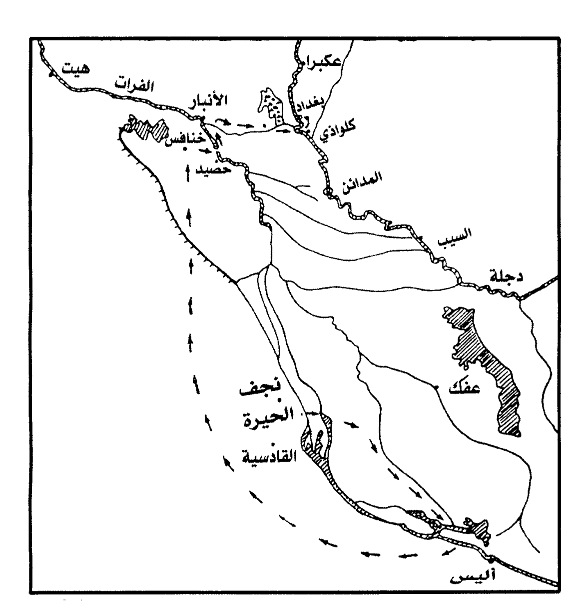
(٣) دعا مرتدى عمان إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً إلا أهل دبا. وقد ولاه أبو بكر عليهم، فتوفى أبو بكر وحذيفة عامله على عمان. - الإصابة ١٦٤٦ وقد ذكره ابن حجر باسم حذيفة بن محصن القلعائى.

صبحنا بالخنافس جمعَ بكرٍ ... وحياً من قضاعة غير ميل

بفتيان الوغى من كل حَيٍ ... تبارى فى الحوادث كل جيل

أبحنا دارهم والخيلُ تُردَى ... بكل سَمَيدَعٍ سامى التَّلِيل[1]

نسفنا سوقهم والخيل رودٌ ... من التطواف والشر البخيل[2]



خريطة رقم (٣٤) - مقياس: ١ : ٠٠٠ر٦٠٠ر٢

الإغارة على سوق الخنافس وعلى سوق بغداد

---

(١) فتوح البلدان ٦٢١ - والسميدع: السيد الموطأ الأكناف، والتليل: العنق (مختار الصحاح).

(٢) رود: تمشى على مهل - فى مختار الصحاح، فلان يمشى على رود: على مهل، وتصغيره رويد. يقال أرود فى السير أى رفق. والمقصود فى البيت كناية عن التمكن والأطمئنان حتى أنهم شنوا الغارة على مهل.

ولما أحس دهاقين الأنبار بالخيل تقترب وهم لا يدرون خيل من، دخلوا حصونهم وأغلقوها عليهم. فلما عرف دهقان الأنبار المثنى نزل إليه، فأطمعه المثنى وخَوَّفَهُ واستكتمه. وقال له: «إنى أريد أن أغير فابعث معى الأدلاء إلى بغداد حتى أغير منها إلى المدائن». ولم يطلع الدهقان على حقيقة مقصده. قال الدهقان: «أنا أجيء معك»، قال: «لا أريد أن تجيء معى، ولكن ابعث معى من هو أدل منك»، لقد كان مع المثنى دليل إلى بغداد منذ خرج من الحيرة وهو هنا فى الأنبار يطلب أدلاء أخر، ربما هدف إلى أن يكون معه أكثر من دليل حتى لا يبقى تحت رحمة دليل واحد إذا عن له أن يضلله أو يخدعه، أو ربما كان الدليل الأول خبيراً بطريق الحيرة - بغداد ولم يكن خبيراً بطريق الأنبار - بغداد. زود الدهقان المسلمين بالأعلاف والأطعمة وبعث معهم الأدلة.

وساروا حتى إذا كانوا بمنتصف الطريق سألهم المثنى: «كم بينى وبين هذه القرية؟»، قالوا: «أربعة أو خمسة فراسخ» (حوالى ٢٠ كيلو متراً) قال لأصحابه: «من ينتدب للحرس؟» فانتدب له قوم. فقال لهم: «أذكوا حرسكم» فأخذوا مواقع الحراسة. ونزل المثنى من على فرسه وقال: «أيها الناس أقيموا وأطعموا وتوضئوا وتهيئوا»، وبعث الطلائع فأقاموا على الطرق يمنعون الناس ويحبسونهم حتى لا تسبقه الأخبار. فلما تم له ذلك وأخذوا قسطهم من الراحة وحل الموعد الذى يجب أن يرحل فيه قام فى أصحابه آخر الليل، فعبروا دجلة وطلع على بغداد وسوقها مع أول ضوء النهار، فوضع فيهم السيف، فقتل منهم وأخذ وأصحابه ما شاؤوا. وكان أمر المثنى لهم: «لا تأخذوا إلا الذهب والفضة، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابته».

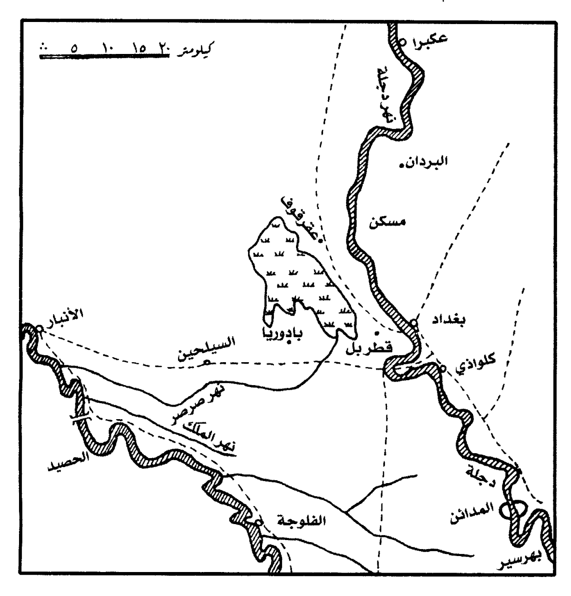
وهرب أهل الأسواق، وملأ المسلمون أيديهم من الذهب والفضة والحرُ من كل شيء. ثم كروا راجعين حتى إذا كانوا بنهر السيلحين على حوالى خمسة وثلاثين كيلو متراً من بغداد (ونعتقد أنه نهر صرصر) نزل وقال:

«أيها الناس انزلوا وقضوا أوطاركم وتأهبوا للسير واحمدوا الله وسلوه العافية ثم انكشفوا قبيضاً[1].

ففعلوا. لقد قطعوا نحواً من ستين كيلو متراً على ظهور الخيل تخللتها غارة، كل ذلك فى

(١) القبيض: الاسراع - مختار الصحاح.

مرحلة واحدة منذ قاموا فى آخر الليل إلى بغداد حتى عادوا، ورأى المثنى أنهم فى حاجة إلى استراحة وكذلك خيلهم.



خريطة رقم (٣٥) – سوق بغداد

وكان المسلمون يدركون عمق ما أوغلوا. وفيما المثنى يمر بينهم إذ سمع همساً. قال قائل منهم: «ما أسرع القوم فى طلبنا!» فقال المثنى: «تناجوا بالبر والتقوى ولا تتناجوا بالإثم والعدوان.. انظروا فى الأمور وقدروها (احسبوها) ثم تكلموا.. إنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم. إن للغارات روعات تنتشر عليها يوماً إلى الليل، ولو طلبكم المحامون من رأى العين ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب (الخيل الأصيلة) وهم على المقاريف[1] البطاء حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم! ولو أدركوكم

(١) المقرف: الذى دخل فى الفساد والعيث، وهو فى الأصل الهُجنة، يقال: فارس مُقرف إذا كان هجيناً. (الكامل للمبرد ١/ ٤٨).

لقاتلتهم لاثنتين، التماس الأجر ورجاء النصر، فثقوا بالله وأحسنوا به الظن، فقد نصركم الله في مواطن كثيرة وهم أَعَدّ منكم (أكثر عدداً)، وسأخبركم عني وعن انكماشي[١] والذي أريد بذلك. إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر أوصانا أن نُقْلل العَرْجَة (الإقامة) ونسرع الكرة في الغارات، ونسرع في غير ذلك الأوبة (الإياب)». هذا نموذج من مثنى المسلمين أستاذ الحروب، ذلك الرجل القمة، نشكر الرواة الذين حفظوا لنا هذه المقالة حتى تعلم الأجيال، أنه إنما كان يتحرك عن حساب محسوب وتخطيط مرسوم وإيمان عميق، ولم تكن تحركاته عن ارتجال أو مجرد شجاعة وقوة عضل. إن كل معركة سبقت كانت تضيف إلى ما يختزن في أعماقه دراية وتجربة وعلماً ومعرفة. وهي تكشف لنا أيضاً عن العبقرية الحربية النادرة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه التي استطاع المثنى أن يتتلمذ عليها ويفيد منها رغم أنه لم يلقه إلا أقل من القليل، وعلى وجه التحديد مرتين، يوم استأذنه في غزو العراق ويوم أدركه وهو يحتضر.

نهض المثنى وأمرهم بالركوب، وأقبل بهم ومعهم أدلاؤهم يقطعون بهم الصحارى والأنهار حتى انتهى بهم إلى الأنبار، فاستقبلهم الدهاقين بالإكرام واستبشروا بسلامته، وكان قد وعدهم الإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبون.

قال أحدهم[٢]:

وللمثنى بالعَال معركةٌ ... شاهدها من قبيلة بَشَرُ
كتيبة أفزعت بوقعتها ... كسرى وكاد الإيوان ينفطرُ
وشُجِّع المسلمون إذ حَذرُوا ... وفى صروف التجارب العِبَرُ
سَهَّل نهج السبيل فاقتفروا ... آثاره والأمور تُقْتَفَرُ

وغارة على الكباث[٣]

بعد أن رجع المثنى إلى الأنبار لم يشأ أن يرجع إلى الحيرة قبل أن يوسع نطاق غاراته على

(١) الانكماش: الجد في الأمر والسرعة في طلبه.
(٢) فتوح البلدان ٦٢١.
والعال هي الأنبار وقُطْرُبلٌ ومسكن وبادوريا، فأراد غارة سوق بغداد. (ابن خرداذبه ٧–وقدامة ٢٣٥)
تقتفر: تقتفى
(٣) قال ياقوت: «الكباث بالجزيرة لبني تغلب كانت تقام به سوق في الجاهلية» (معجم البلدان).

شمال العراق حتى يشمله من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه. فسرّح المضارب العجلى وزيداً إلى الكِباث، وكان على الكِباث فارس العناب التغلبى. ثم استخلف فى الأنبار فرات بن حيان العجلى وخرج فى آثارهم. وبلغ المضارب وزيد الكباث وقد انفض أهلها وأخلوها - وكانوا جميعاً من بنى تغلب - فركبوا يقتصون آثارهم حتى أدركوا أخرياتهم وفارس العناب يحمى ظهرهم وظل يحميهم ساعة، ثم هرب فانكشفت أخرياتهم فأكثر المسلمون القتل فيهم.

وغارة على صفين[1]

وعاد المثنى إلى الأنبار فبعث فرات بن حيان وعتيبة بن النهاس إلى صِفّين وأمرهما بالغارة على أحياء العرب من تغلب والنمر. ثم استخلف على الأنبار - التى اتخذها قاعدة متقدمة - عمرو بن أبى سلمى الهجيمى واتبعهما. فلما اقتربوا من صفين افترق المثنى عن فرات وعتيبة، وفر أهل صفين فعبروا الفرات إلى الجزيرة وتحصنوا بها، وكانوا من قبائل النمر وتغلب متساندين فاتبعهم فرات وعتيبة حتى رموا بطائفة منهم فى الماء فكانوا ينادونهم «الغرق الغرق»، وكان عتيبة وفرات يحضان الناس ويحرضانهم ويقولان: «تغريق بتحريق»، يذكرانهم يوماً من أيام الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل فى غيضة من الغياض. ثم رجعوا إلى المثنى وقد أغرقوهم فى الفرات. وبلغ خبر ذلك إلى عمر، فقد كانت له عيون فى كل جيش تكتب له، فطلب فرات بن حيان وعتيبة إلى المدينة وأجرى معهما تحقيقاً فى هذا، فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه أنه مثل ولم يفعلاه على وجه طلب ثأر الجاهلية. فاستحلفهما فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام، فصدقهما عمر وردهما إلى العراق فرجعا إليه مع حملة سعد بن أبى وقاص. (انظر موضع صفين فى الخريطة ١٨).

إن مراعاة الاعتبارات الإنسانية فى القتال مبدأ لم يعرف قبل الإسلام، وحتى بعد أن عرفه الغرب مؤخراً، فقد فشل فشلاً ذريعاً فى تطبيقه، وشواهد الحربين العالميتين والحروب الصغيرة التى تلتهما وخاصة فى فلسطين والجزائر وفيتنام مما يؤكد هذا، فقد كانت مجرد معرفة نظرية تمثلت فى مثل اتفاقية جنيف، وذلك بسبب فقدان الروح الانسانية والقيم الروحية عند الغرب.

---

(١) صفين على الجانب الغربى للفرات بين الرقة وبالس (الاصطخرى ٥٤).

ونفد[1] زاد المثنى وأصحابه بعد أن افترقوا عن فرات وعتيبة حتى أقبلوا على رواحلهم، إلا ما لابد منه، يأكلونها حتى أخفافها وعظامها وجلودها. وفي ظهيرة يوم أدركوا عيراً من أهل دبا وحوران فقتلوا العجم الذين معها وأسروا ثلاثة من بنى تغلب كانوا خفراء لها وأخذوا العير، وكانت ظهراً فاضلاً من أفضل المطايا.

وطلب منهم المثنى أن يدلوه فقال أحدهم: «آمنونى على أهلى ومالى وأدلكم على حى من تغلب غدوت من عندهم اليوم». فآمنه المثنى وسار معه يومه حتى إذا كان العشى هجم على القوم فإذا أنعامهم عائدة من الماء بعد أن شربت وروت، وإذا الناس جلوس بأفنية البيوت فأغار عليهم. فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الأموال ونظروا فيهم فإذا هم[2] بنو ذى الرويحلة. فاشترى من كان بين المسلمين من ربيعة السبايا بنصيبه من الفىء واعتقوا سبيهم إذ كانت ربيعة لا تسبى حين كان العرب يتسابَوْن فى الجاهلية.

وأتى النسير بن ديسم العجلى عُكبُرا فأمّن أهلها، وأخرجوا لمن معه طعاماً وعلفاً (انظر خريطة ٣٥) ثم مر بالبَرَدان فأقبل أهلها يعدون من بين أيدى المسلمين فقال لهم: «لا بأس» فكان ذلك أمانا. ثم أتى المُخَرَّم (ولم يكن ذلك اسمها يومها)، فعبر المسلمون جسراً كان معقوداً عند قصر سابور الذى عرف فيما بعد بقصر عيسى بن على، فخرج إليه خُرْزاد بن ما هبُنْداذ وكان موكلاً به فقاتلوه وهزموه، ثم لجَوا حتى أتوا عين التمر. وفى ذلك قال أحدهم:

وآل منا الفارسُى الحُذَرَة ... حين لقيناه دُوَيْن المَنْظرة
بكل قَبَّاء لحوق مُضمَرة ... بمثلها يُهزم جمع الكفرة[3]

(١) فى الأصل أرمل المثنى وأصحابه. وفى بلوغ الأرب ٣٧١، يقال أرمل الرجل إذا نفد زاده، وأرملت المرأة فهى أرملة للتى لا زوج لها لافتقارها إلى من ينفق عليها.

(٢) ينسب البلاذرى هذه الواقعة بدون تفاصيلها إلى النسير بن ديسم، وأن خالد بن الوليد هو الذى أرسله إليها. ولكننا نميل إلى الأخذ برواية الطبرى فهى أكثر دقة وتفصيلاً. ونرجح أن النسير كان مع المثنى، فهو عجلى من بكر بن وائل التى قامت بهذه الغارات. فتوح البلدان ٦٢٠ عن الحسين بن الأسود عن يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح عن أشعث عن الشعبى.

(٣) فتوح البلدان ٦٢١. ويعنى بالمنظرة تل عقرقوف.

القباء الضامرة البطن - مضمرة ضامرة خفيفة اللحم، مختار الصحاح. والمواقع كلها موضحة =

وأغار النسير فى هذه الغارة على قرى مسكن وقطربل، فغنم منها غنيمة حسنة.

وأحدثت هذه الغارات الكثيرة السريعة الخاطفة إلى هذه الأعماق أثرها فى أهل تلك البقاع، فبدأت حركة هجرة ولجوء إلى شرق دجلة. واتجهت قوافل اللاجئين شمالاً التماساً للنجاة بالبعد عن دائرة الغارات حتى يعبروا دجلة عند تكريت (انظر مكانها خريطة ٣٥) على حوالى مائة وخمسين كيلو متراً شمالى الأنبار. وجاءت أخبارهم إلى المثنى، وعلم أن جمهور من سلك البلاد نزلوا بشاطىء دجلة، فخرج فى آثارهم. ولم لا؟ ألم يقتل من العجم ما قدروه بمائة ألف فى البويب منذ أيام؟ فأين هم إلى أن يفيقوا من هذه المذبحة!!

خرج وقد سرّح أمامه مقدمته عليها حذيفة بن محصن وهو فى تعبئته التى كان عليها بعد البويب، ثم اتبعه فأدركوهم قبيل تكريت يعبرون دجلة، يخوضون الماء[1]، فأصابوا ما شاؤوا من النَّعَم حتى أصاب الرجل خمساً من الأنعام وخمساً من السبى.

وقسم المثنى الغنيمة وخمس المال وجاء به حتى ينزل على المسلمين بالأنبار.

=بالخريطة - من بغداد إلى البردان أربعة فراسخ ثم إلى عكبرا خمسة فراسخ (ابن خرداذبه ٩٣ وقدامة ٢١٤) ومن بغداد إلى البردان سكتان، ثم إلى عكبرا أربع سكك، ثم إلى سر من رأى سبع سكك (قدامة ٢٢٧) وطابقه ابن خرداذبه إلا فيما بين سر من رأى وعكبرا، فقد قال تسع سكك (ص٥٩) والسكة هى المحطة (أو المنزل).

(١) هذا يناسب التوقيت الذى ذهبنا إليه لهذه الغارات من أنها كانت فى ديسمبر (كانون أول) وهو وقت تحاريق لدجلة يمكن أن يخوضوه فيه.

وقال الاصطخرى: «من بغداد إلى سامرا ٣ مراحل ومن سامرا إلى تكريت مرحلتان» (ص٥٦) وقال ابن بطوطة: «ان تكريت على مرحلة من سر من رأى» (ص١٧٩).

استغلال نجاح (المطاردة)

١- لا شك أن الغارات على أسواق شمالي العراق كانت استغلالاً رائعاً للظفر الذى أحرزه المسلمون يوم البويب. لم يكن المثنى قد قرأ عن أصول الحرب ولا عن مبدأ المطاردة، ولكنه وضع هذا المبدأ لنفسه كقائد، وبذلك يعتبر المثنى من واضعى هذا المبدأ فى علم الحرب. وقد استطاع بكفاءته أن ينفذه فى قوة وعمق بلغ حوالى أربعمائة كيلو متراً أو يزيد شمالاً، خلاف ما تبحبحوا به شرقاً وجنوباً وغرباً على امتداد ذلك الخط. لقد فتح المثنى على العجم أبعاداً ثلاثة للحرب القائمة بينهما.

البعد الأول هو خط المواجهة.

والبعد الثانى هو ما امتد إليه هذا الخط فجعله يتسع ويستطيل حتى بلغ ميسان ودست ميسان، وذلك ليحقق الأهداف الثلاثة:

أ - الحصول على الأقوات (التموين) للقوات.

ب- تشتيت العدو وإرباكه.

حـ- الأثر النفسى على قياداته وشعبه.

ثم كان البعد الثالث وهو النفاذ العميق جداً وراء خط الجبهة وإلى ما أبعد من البعد الثانى بهذه الغارات السريعة الخاطفة المدروسة المحسوبة، وذلك بالاستخدام المزدوج للإبل والخيل.

المفاجأة

٢- أحسن المثنى إعداد الخطة مع توفير عنصر المفاجأة كاملاً، فوجه ضربة عنيفة وراء ضربة حيث لم يكن يتوقع عدوه أن يأتيه الضرب، لا سيما وقد كان اختيار الأهداف فى أماكن بعضها قريب من المدائن وبعضها تجاوز موضعها بكثير. هذه المفاجأة شلت الفرس عن أن يعملوا شيئاً على الإطلاق. ولقد كان إذكاء الحراس على طريق التقدم نحو سوق بغداد لستر أخبار التقدم عن المدائن تصرفاً يطابق إلى أبعد الحدود عمليات التشويش على الرادار

في تكتيكات الحرب في العصر الحديث، كلاهما يهدف إلى تعمية العدو وصم أذنيه عن حقيقة ما يحدث حتى تتم العملية وتعود القوات المغيرة منها.

حساب وتوقيت

٣- كانت عمليات الغارات ولا سيما غارة سوق بغداد على أعلى درجات التخطيط وحساب التوقيت. وقد أوضحت بما لا يدع مجالاً لشك، أن المسلمين قد توافرت لهم في الميدان القيادة الممتازة والجندية الممتازة. وقد أوضحت لنا غارة بغداد - كما وضح ذلك من قبل في موقعة البويب - أن المثنى كان يتحين الفرص لمجالسة جنوده ومناقشة المعركة وأن يشرح لهم تخطيطها وحساباتها وأسرارها وخباياها كأستاذ ومحاضر ممتاز. وفي هذا قال شاعرهم:

سَهَّل نَهْج السبيل فاقتفروا   آثاره والأمور تُقْتَفَرُ

كذلك اشتملت على أعلى درجات الجرأة المثالية في غير مغامرة خاسرة. قال نابليون: «لو اشتمل فن الحرب على مجرد تجنب المخاطر لدان المجد لذوي المواهب المتوسطة جداً».

أهداف مختارة

٤- عني المثنى أن يحس المسلمون مادياً بفوائد ملموسة لهذا الظفر، فاختار أهدافاً تعود عليهم بمغانم مجزية وبدون ضحايا رفعاً لمعنوياتهم ومكافأة لهم. وهو في نفس الوقت يستنزف من خصمه هذه الموارد ليستحوذ عليها هو. إن حرب الاستنزاف هي إحدى صور الاسراتيجية غير المباشرة Indirect Strategy، كما وأنها تدخل في دائرة الحرب الساخنة التقليدية المحددة بميادين قتال، فهي تستخدم القوة المسلحة جنباً إلى جنب مع وسائل الحرب النفسية أو القوة المسلحة في خدمة الحرب النفسية لتضع العدو تحت ضغط ظروف غير مناسبة ومستمرة من الضغط المادي والعصبي، مع استغلال جميع وسائل المناورة والضغط سواء المادية أو المعنوية. ويكون هدف حرب الاستنزاف هو التأثير على:

- جنود العدو في الميدان.
- ومواطنيه في المؤخرة.

بالإضافة إلى ذلك فقد استخدمها المثنى إيجابياً لتغطية واستغلال فترة الإعداد والتحضير للمعركة الكبيرة بما يمهد لتلك المعركة الرئيسية، ويهز كيان العدو هزاً عنيفاً ويرفع كفاءة

المسلمين القتالية والمعنوية . إن حرب الاستنزاف تهيء أنسب الظروف للحرب الحاسمة ، فهى تشكل للعدو مشكلة من مشاكل الأمن الداخلى وتستنزف معنوياته أسوة بمادياته .

شعب منهزم

٥- عرفت الحروب نوعين أساسيين من الدفاع :

الدفاع المتحرك Static Deffence

والدفاع الثابت Fixed Deffence

فالدفاع المتحرك يعتمد أساساً على قوات متحركة معدة إعداداً جيداً لمقابلة الجيوش المهاجمة . والدفاع الثابت يعتمد أساساً على قلاع وحصون ومواقع محصنة معدة على مهل إعداداً جيداً تستعصى على الجيوش المهاجمة . وظلت ميادين القتال منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث تعتور هذين النوعين وتتردد بينهما ، حتى وجدنا فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩- ١٩٤٥ سيطرة الدفاع الثابت بخطوط دفاعية مجهزة سلفاً فى زمن السلم بعناية وعمق . فكان خط ماجينو فى فرنسا ، وخط سيجفريد فى ألمانيا ، وخط مانرهايم فى فنلندا وخط ماريت فى تونس . ثم أقام هتلر بحذاء بحر الشمال ما اشتهر باسم جدار الأطلنطى At-lantic Wall . وكانت النتيجة فشل جميع تلك الخطوط فى تحقيق ما أنشئت من أجله ، لأن المهاجم لم يكن ليهاجمها بالمواجهة العريضة وإنما كان يعمد إلى الالتفاف حول أجنابها أو حشد أكبر قدر من قواته أمام نقطة محدودة من الخط لاختراقه ثم الانتشار خلفه . ومن هنا أسفرت الحرب العالمية الثانية - وهى أكبر حرب شهدها كوكبنا - عن نتيجة ، هى أنه قد ينهار الدفاع المتحرك أو الدفاع الثابت ، ولكن تحصيل الحاصل والرجوع إلى الأصل الذى لا محيص عنه فى أى دفاع أن يكون على طريقة الصفحة .

والمقصود بدفاع الصفحة أن تكون كل نقطة وكل بقعة على صفحة الوطن مقاومة ودفاعاً ، بأن يهب كل فرد فى الأمة لدفع الغازى وعرقلة تقدمه ومهاجمة مواصلاته ومؤخرته ومخازنه ودورياته وأفراد قواته ، بل ومعسكراته ، بمعنى أن تنتشر المقاومة فى كل مكان على اتساع الرقعة المحتلة ، فيدخل فى ذلك مفهوم الدفاع الوطنى وحرب العصابات وجيوش التحرير والجمعيات السرية وانتفاضة الحجارة .. إلخ . وهو كفاح مرير يقابله الغزاة بكل قمع مستطاع ، ولكنه يقض مضاجعهم ويضيع مكاسبهم ويجعل من انتصارهم هزيمة ، ومن استمرار الاحتلال أمراً شاقاً مستحيلاً . حدث ذلك فى معركة المنصورة ضد لويس التاسع فى

الحروب الصليبية، وحدث لنابليون فى روسيا، وحدث فى معركة رشيد فى مواجهة الغزو الإنجليزى، وحدث لقوات ألمانيا الهتلرية فى فرنسا وفى يوغوسلافيا وفى اليونان وفى النرويج، وحدث لقوات الاستعمار الفرنسى بالجزائر ولقوات الاحتلال البريطانى فى عدن، وكانت المقاومة السلبية التى تزعمها غاندى فى الهند ضرباً من هذا النوع. وعلى هذه النظرية بنت إسرائيل كيانها ووجودها بإقامة مئات من المستعمرات الدفاعية المسلحة المنتشرة على أرض فلسطين فى كل مكان فيها تجعل لزاماً على أى جيش يتقدم خلال هذه الأرض أن يقف أمام كل مستعمرة فى معركة ضارية.

هذه النظرية فى المقاومة والدفاع تستند أساساً على الشعب الحى المتوثب الإيجابى المتحرك، ولا يمكن أن تتواجد المقاومة إلا بتواجده، فيهب للدفاع عن نفسه إذا انهارت قواته النظامية فى الجبهة. ولكن الذى لا شك فيه، أن شعب فارس الذى سكن العراق، لم يكن يحمل هذه المعنوية بين أجنابه، ولم يكن ينطوى على حيوية وارتباط وتجاوب مع السلطة الحاكمة التى أمضته وأذاقته مر الاضطهاد والعذاب، وساسته بالسجن والسياط، وحكمته بأشد أنواع الاستبداد ظلماً وعسفاً، وفرضت عليه ألواناً من التأبيد يبديها، ومن الهدايا يزجيها إلى الحكام فى كل عيد.

فإذا انتصرت هذه القوات القليلة العدد من المسلمين فى الميدان وكسرت جيش الدولة الذى اعترضها، فقد انفتح لها ما وراءه، واكتسحت الأراضى والقفار والمنازل والديار، ولم تجد من الشعب المنكسر الذليل مقاومة أو دفاعاً. لم يكن من سبيل إلى مدافعة الغزاة الفاتحين بعد هزيمة الجيش الفارسى إلا بجماهير شعب فارس، ولكن الحقيقة أن تلك الجماهير كانت قد سبقت جيشها إلى الهزيمة.

الحرب الخاطفة

٦- طبَّق المثنى استراتيجية وتكتيكات الحرب الخاطفة Blitz Kreig فى عملياته تلك، طبقها وفق أحدث مفاهيم تعبير «الحرب الخاطفة». ولنترك للجنرال هاينز جودريل القائد الألمانى الشهير الذى يعتبر استاذ تطبيق هذا النوع من الحروب فى القرن العشرين، والذى أذهل العالم بتطبيقه فاكتسح به فرنسا عام ١٩٤٠، لنتركه يشرح لنا بأسلوبه مفهومه لهذه الحرب. قال: «الحرب الخاطفة هى أن تستعمل مقدرة الحركة العسكرية السريعة كسلاح نفسى. لا تتحرك لكى تقتل، ولكن تحرك لكى تتقدم.

لا تتقدم لاحتلال مواقع، ولكن تقدم لكى تثير الخوف والرعب، لكى تصيب عدوك بالذهول. لا تأسره، ولكن اتركه أسيراً للارتباك والتوتر والشك لكى تصبح خطوطه الخلفية فوضى شاملة تمزقها الإشاعات وتفترسها التهويلات.. إن الذعر سوف يتحول إلى وحش تجرى أمامه رعباً فلول عدوك وتنهار قيادته وتصاب بالشلل حكومته.

وقبل أن يتبين أحد ماذا جرى تكون قد انتصرت!»

كأن هاينز جودريل كان يصف عمليات المثنى أو خالد بعباراته تلك.

والقوات الإسرائيلية بنت خطتها فى حرب ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ على هذا الأساس. قالت الصحافة[١] فى ذلك:

«إن أسوأ ما يمكن أن يسجله التاريخ على أمة مقاتلة أنها عاشت أيامها الخطيرة كلها مأخوذة بالمفاجآت.. كل خطوة خطتها - أو لم تخطها - أوقعتها فى كمين. ونصف الطريق إلى انتصار أى طرف فى صراع، أن لا يفاجئه تصرف يقوم به عدوه».

آثار داخلية

٧- لا شك أن هذه العمليات قد وجهت إلى السلطة الحاكمة فى المدائن أكبر إهانة أمام شعبها، وأضعفت الثقة فى قدرتها على القيام بالدفاع ضد هجمات قوم كان الفرس حتى وقتها ينظرون إليهم نظرة ملؤها الزراية والازدراء. وفى هذا ما فيه للضغط على الفرس ليرضخوا لشروط المسلمين أو أن يواصلوا حرباً ميؤوساً منها حيث لا يأمن أى مواطن فارسى على نفسه وماله فى أى مكان كان، كما وأنها قد أثارت الشعور العام الداخلى فى فارس إثارة حادة.

رد فعل

لم تكن أحداث كالتى وقعت لتمر دون أن يكون لها رد فعلها فى الدوائر الحاكمة فى فارس، فقالوا لرستم ولفيرزان:

«أين يذهب بكما؟[٢] لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم

(١) محمد حسنين هيكل عن مقال بصراحة - الأهرام ٣٠/١/١٩٧٠.

(٢) الطبرى ٤/٨١ س ش س، عن محمد بن عبدالله بن سواد بن نويرة عن عزيز بن مكنف التميمى ثم الأسيدى.
وطلحة بن الأعلم الحنفى عن المغيرة بن عتيبة بن النهاس العجلى.
وزياد بن سرجس الأحمرى عن عبدالرحمن بن ساباط الأحمرى.
س ش س، عن عبيد الله بن محفز عن أبيه.

عدوهم. والله ما جر هذا الوهن علينا غيركم يا معاشر القواد. لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم، وإنه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأى وأن تعرضاها للهلكة. ما تنتظرون والله إلا أن ينزل بنا ونهلك. ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن. والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت. والله لولا أن فى قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك، وقد اشتفينا منكم».

لم تذكر لنا المصادر من الذى قال ونعتقد أنهم كانوا من كبار الأساورة.

تولية يزدجرد

وذهب(١) رستم وفيرزان إلى بوران فقالا لها:

«اكتبى لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم».

ففعلت وأخرجت لهم ذلك فى كتاب. فأرسلوا فى طلبهن فأتوا بهن جميعاً فسلموهن إلى رجال يعذبونهن ويستدلونهن على ذَكَر من أبناء كسرى، فلم يوجد عندهن منهم أحد، ولكن إحداهن ذكرت أنه لم يبق إلا غلام يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادوريا. فأرسلوا إليها وأخذوها به يطلبونه منها، وكانت حين جمعهن عمه شيرويه فى القصر الأبيض وقتل ذكور آل كسرى - وهم إخوته السبعة عشر - حتى لا ينافسه أحد على عرش فارس، قد هرّبته فى زِبْيل وأخفته عند أخواله فى إصطخر، وكان شيرويه قد قتل فيمن قتل أخاه شهريار بن كسرى برويز من زوجته المفضلة شيرين وهو والد يزدجرد هذا. ضغطوا على أم يزدجرد فدلتهم عليه، فأرسلوا إليه فجاءوا به باعتباره الذكر الوحيد الباقى من بنى ساسان، فملكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة، واجتمعوا عليه واطمأن جميع الفرس لذلك، فتباروا فى طاعته ومعونته، ورأوا فى ذلك مخرجاً مما كانوا فيه.

انسحاب

بدأ يزدجرد الثالث يزاول سلطاته بمعونة رستم وفيرزان. فجدد المسالح والثغور التى كانت لكسرى، وُخصص جنداً لكل مسلحة فسمى جند الحيرة والأنبار وجند الأبلة. وبلغت هذه الأخبار المثنى فكتب بها وبما يتوقع من هجوم مضاد قوى إلى عمر. وصدق تقدير المثنى، فلم يصل كتابه إلى عمر حتى كفر أهل السواد وانتقضوا وتنكروا للمسلمين، من كان له

(١) الطبرى ٤ / ٨١ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد.

منهم عهد ومن لم يكن له، وعاجلهم الفرس فزاحفوهم مع ثورة أهل الذمة. من ذلك أن خرج أنوشجان بن هربذ من سواد البصرة يريد مهاجمة أهل غُضَيَ فاعترضته[1] أفناء من تميم والرباب عليهم أربعة أمراء.

فكان على الرباب المستورد ويسانده عبدالله بن زيد.

وكان جَزْء بن معاوية على بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ويسانده ابن النابغة.

وكان الحسن بن نيار على بنى عمرو بن تميم ويسانده الأعور بن بشامة.

وكان الحصين بن معبد على بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم يسانده الشبه. فقتلوه دونهم.

فلما رأى المثنى ذلك كان يدرك أنه أحرز من التقدم والاكتساح أكثر مما تسمح قوته (٨٠٠٠) الاحتفاظ به، ومن شأن هذا ألا يدوم، فخرج فى حاميته حتى نزل بذى قار وأنزل الناس بالطف فى عسكر واحد. وكان عمر أكثر حذراً فجاءهم كتابه[2].

«أما بعد، فاخرجوا من بين ظهرى الأعاجم وتنحَّ إلى البر وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم وادع من يليك. ولا تدعوا فى ربيعة أحداً، ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات، ولا فارساً إلا اجتلبتموه. فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجد إذ جد العجم. فلتلقوا جدهم بجدكم وأقم منهم قريباً على حدود أرضك وأرضهم حتى يأتيك أمرى». وبهذا عين أمير المؤمنين الجهاد فجعله فرض عين، وقد كان فرض كفاية حتى حينذاك.

ونزل المثنى بذى قار ووزع المسلمين بالجُل وشراف إلى غضى - وغُضَيّ جبل تجاه البصرة - فكان جرير بن عبدالله البجلى فى غضى وسَبْرَةَ[3] بن عمرو العنبرى ومن معه إلى سلمان. فتفرقوا فى المياه من أول صحراء العراق إلى آخرها، من غضى[4] إلى القطقطانة مسالح ينظر بعضهم إلى بعض ويغيث بعضهم بعضاً إن حدث شىء، فى حالة ترقب وانتظار لحشد جديد،

---

(١) الطبرى ٤ / ٩٦ عن السرى عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الشعبى.

(٢) الطبرى ٤ / ٨٤ عن شعيب عن سيف عن خليد بن زفر عن أبيه.

(٣) كان من وفد بنى تميم إلى النبى مع الأقرع بن حابس والقعقاع بن معبد وقيس بن عاصم ومالك بن عمرو. وقد استعمله خالد بن الوليد لما توجه إلى العراق، فكان من جيش خالد. (الاستيعاب ٢ / ٧٤، الإصابة ٣٠٨٣).

(٤) غضى جبال البصرة - معجم البلدان.

بينما عادت مسالح كسرى وثغوره واستقر أمر فارس وهم متهيبون مشفقون والمسلمون متدفقون فى ضراوة كالأسد ينازع فريسته ثم يعاود الكر، وأمراؤهم يُكَفْكِفُونَهُمْ عملاً بكتاب عمر وانتظاراً للمدد.

كان ذلك فى أواخر ذى القعدة ١٣هـ، يناير (كانون ثانى) ٦٣٥م.

وقال عمر[١]: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب». ثم كان أول[٢] ما عمل أن كتب إلى عماله على الكور والقبائل وذلك فى ذى الحجة ١٣هـ، مع مخرج الحجاج إلى الحج. فجاءته أوائل القبائل التى طرقها على مكة والمدينة ومن كان على طريق العراق وهو إلى المدينة أقرب، توافوا إليه بالمدينة مع رجوع الحج وأخبروه عمن وراءهم أنهم يجدّون فى أثرهم. أما من كان إلى العراق أقرب فقد لحقوا بالمثنى. فلم يدع عمر رئيساً ولا ذا رأى ولا ذا شرف ولا ذا سطوة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغُرَرِهم.

---

(١) الطبرى ٤ / ٨٧ س ش س، عن طلحة عن ماهان.

(٢) الطبرى ٤ / ٨٢ س ش س، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

كتب عمر إلى عماله بطلب الأمداد فى ذى الحجة مع خروج الناس إلى الحج. ومن حيث أن وقفة عرفات فى تاسع ذى الحجة، فنقدر أن كتب عمر كانت فى أول ذى الحجة، وكان فى عجلة ظاهرة تجعلنا نعتقد أنه كتب بمجرد بلوغ أخبار العراق إليه، وإذاً يكون ذلك فى أواخر ذى القعدة ويكون المثنى كتب له بها فى حوالى منتصفه، وذلك بعد إجراءات رستم وفيرزان وبوران لتنصيب يزدجرد التى نقدر أنها لم تستغرق بأى حال أقل من أسبوعين، يعنى أنها بدأت قبل أول ذى القعدة. ومن حيث كانت البويب فى رمضان، إذاً نستطيع أن نؤقت غارات الشمال بأنها وقعت فى شوال ١٣هـ - ديسمبر (كانون أول) ٦٣٤، ولعلها أن تكون قد استغرقته من أوله إلى آخره من خروج المثنى من الحيرة حتى رجوعه إليها.

القادسية في التاريخ

المعارك الحاسمة

يترك الإنسان بصماته على ما يضع أصابعه عليه من أشياء، فتبقى هذه البصمات كثيراً أو قليلاً حتى يزيلها الناس أو يعفى عليها الزمن. ومن المعارك ما يضع بصماته على سطح الأرض فتبقى آثارها على التاريخ ما بقى كوكبنا، لأنها لم تكن ذات أثر محدود يذوب مع الزمن، أو لم تكن فعلاً ينقضه رد فعل في الأجل المناسب، وإنما كانت فعلاً اكتسب من استطراده المحتوم ما استحال معه إيقافه أو إزالة آثاره.

وعلى ذلك يعتبرون معركة واترلو من المعارك الحاسمة في تاريخ العالم، فلو ظل نابليون بونابرت يوالى انتصاراته لما استطاع أحد أن يتصور خريطة العالم اليوم. ويعتبرون معركة ستالينجراد معركة حاسمة استطاعت عندها روسيا البلشفية أن توقف تقدم هتلر، ولولا ذاك لتم له غزو روسيا ولبادت الشيوعية، وارتفعت على أنقاضها النازية. ويعتبرون معركة العلمين من المعارك الحاسمة، فلولا أن انتصر الإنجليز فيها لدخلت القوات الألمانية مصر، واخترقت الشرق الأوسط وانقلب ميزان الموارد والقوى في الحرب العالمية الثانية لصالح ألمانيا. ولا يعتبرون سقوط فرنسا وباريس تحت أقدام هتلر من المعارك الحاسمة لأنها لم يكن لها ذلك الأثر الممتد مع التاريخ.

وليس أغنى من التاريخ الإسلامي بالمعارك الحاسمة، ليس فقط بعدد تلك المعارك على مداه، ولكن بمقدار ما صاحبها من أثر وحسم. وليس على سبيل الحصر أن نذكر أن صلاح الدين استطاع في حطين أن يضع نهاية للنفوذ الصليبي في الشرق الأوسط فتعود الموجات الصليبية من حيث أتت وتستمر الحضارة الإسلامية تؤدى دورها لقرون أخرى. واستطاع قطز أن يقهر التتار في عين جالوت فيوقف المد المغولي المخرب بعد أن اكتسح الشرق كله حتى بلغ حدود مصر الشرقية، ثم يرتد مرة أخرى من حيث جاء في هزائم متلاحقة.

القادسية معركة حاسمة

ولا شك أن القادسية - وتقاربها اليرموك - تقع على قمة قائمة المعارك الحاسمة في تاريخ

العالم، فهى التى انفتحت على آثارها أبواب العراق، ومن وراء العراق فارس كلها، وهى التى من عندها استطرد نصر المسلمين، فاستطرد معه السقوط الساسانى من الناحيتين الحربية والسياسية، والسقوط المجوسى من الناحية الدينية العقائدية. ومن هنا انساح دين الإسلام فى العالم شرقاً وغرباً، ولولا ذلك لظل محصوراً فى جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة فى صحاريها وحواضرها القليلة. كان الإسلام جديداً، فهو مازال فى فتوته، فإن لم يكسب المسلمون إنجازاتهم حينذاك، ودينهم حى فى قلوبهم يصرف أعمالهم أدرك أمتهم الهرم والشيخوخة، ولظلت السيطرة على العالم لجيرانهم من الفرس والروم من دونهم، ولأمكن حينذاك - ولو من الناحية التصورية البحتة للتاريخ - أن ينحسر ظل الإسلام فيضمر حيث حصره أصحابه، لولا أن الإسلام يفرض على المسلمين مجاهدة أعدائهم ومناجزتهم حتى يتم النصر عليهم.

فى القادسية كسر المسلمون شوكة المجوس كسراً لم ينجبر بعدها أبداً. فيها ألقى الفرس بكل طاقاتهم من سلاح وعتاد وأفيال كثيرة، وأعداد ضخمة من الجند، وبقيادة تمثلت فى أحكم رجالهم وأشهرهم فى الحرب والسياسة. وألقى المسلمون أيضاً بكل إمكانياتهم من وجوه المسلمين وغررهم، وبقيادة تمثلت فى صحابى رسول الله ﷺ، وواحد من السابقين الأوائل إلى الإسلام، وأحد الستة المرشحين للخلافة بعد عمر، سعد بن أبى وقاص، كما نزلوا إلى مواجهة أعداد الفرس وأفيالهم وعدتهم بسلاحهم الذى اختصوا به على عدوهم... الإيمان بكل ما يفرغه على أصحابه من صلابة وصبر وكفاءة.

بهذا استحقت القادسية مكانها، بل مكانتها على قمة المعارك الحاسمة فى تاريخ البشر. وستكون القادسية، إن شاء الله، المعركة الأولى التى سنتناولها بالبحث فى الكتاب الثانى من سلسلة كتب استراتيجية الفتوحات الإسلامية.

أحمد عادل كمال
١٠ ش إسماعيل المازنى
بجوار الكلية الحربية
مصر الجديدة - القاهرة

ترجمة مشاهير قادة الفتح[1]

الأقرع بن حابس

اسمه فراس، واشتهر بالأقرع لقرع كان برأسه. ومع هذا الداء الذى من شأنه أن ينفر الناس من صاحبه، كان الرجل شريفاً فى الجاهلية عظيماً فى الإسلام، فلا غرو إن دلنا داؤه على ارتفاع قدره ومزاياه ارتفاعاً يثقل به وزنه عند أهل زمانه، فإن قيل شجاع فلابد أن كانت شجاعته فوق شجاعة الشجعان، وإن قيل فارس فلابد أن كانت فروسيته فوق مستوى أقرانه وهكذا، وإلا لحط داؤه من شأنه.

وهو ابن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك ابن حنظلة من قبيلة تميم. كان من حكام بنى تميم بل ومن حكام العرب، ومرجعهم فى واقعاتهم ومنافراتهم فى الجاهلية، وقد وفد على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، مما نقف منه على مستوى علاقاته العامة. وكان الأقرع مجوسياً قبل أن يسلم وهو ما يدلنا على أنه كان يحاول أن يفكر. وكان له ذكر كثير فى الجاهلية وفى أيام العرب المشهورة. من ذلك يوم نجران، وقد انتصرت فيه تميم يقودهم الأقرع على أخلاط من أهل اليمن فيهم فارسهم الأشعث بن قيس وأخوه، (بلوغ الأرب ٢ / ٦٩). ويوم زبالة، وكان لبنى بكر بن وائل وخاصة بنى شيبان وبنى تيم الله يقودهم بسطام، فانتصروا على بنى تميم يقودهم الأقرع، ووقع الأقرع وأخوه فى الأسر، ولكن بسطاماً استنقذهما بعد أن حكم عمران بن مرة بفدية مقدارها مائة ناقة (بلوغ الأرب ٢ / ٧١).

وقد كانت سوق عكاظ موسماً معروفاً للعرب، وهو نخل فى واد بين نخلة والطائف، وهو إلى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال، وكانوا يجتمعون فيها فيتبايعون ويتفاخرون وينشدون الشعر ويخطبون، وفيها علقت المعلقات السبع، فكان يتوافى شريف كل قوم، فمن كان له أسير سعى فى فدائه ومن كانت له حكومة ارتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة، فكان الأقرع بن حابس يقوم بأمر هذه الحكومة فى أناس من تميم (بلوغ الأرب ١ / ٢٦٧)،

---

(١) نورد هنا تراجم مشاهير القادة الذين وردت أسماؤهم خلال الكتاب، ووجدنا أنه من الأفضل ذكر تراجمهم مجتمعة فى آخر الكتاب لسهولة الرجوع إليها، وتحاشياً لتشويش القارئ بين النص والحواشى.

وكان الأقرع هو الحكم فى المنافرة المشهورة التى جرت بين جرير بن عبدالله البجلى وخالد بن أرطأة.

أسلم الأقرع قبل أن يفد وفد تميم على النبى ﷺ ، ثم قدم مع هذا الوفد، فلما دخلوا المسجد نادوا النبى من وراء حجرته أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك من صياحهم النبى، فخرج إليهم فقالوا: «يا محمد جئنا نفاخرك»، وقال قائلهم للنبى: «إن مدحى زين وذمى شين». فقال رسول الله ﷺ : «ذلكم الله». قيل إن ذلك القائل كان الأقرع، وقيل كان شاعراً لهم غير الأقرع. ونستبعد أن يكون الأقرع قائلها، فقد كان مسلماً من قبل ولا يتأتى ذلك مع إسلامه. ونزل فى هذا الوفد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الحجرات ٤). هذه الواقعة والواقعة التالية تدلنا على أنه كان فى طباعه جفاء وغلظة.

فقد قسم النبى ﷺ سبى هوازن على الناس، ثم جاء وفد هوازن يعلن إسلامهم ويطلبون المنّ على السبى، فردّ عليهم ما كان له ولبنى عبدالمطلب ثم سأل الناس أن تطيب نفوسهم برد سبى هوازن، فقبلوا جميعاً إلا الأقرع وبنو تميم وعيينة بن حصن وبنو فزارة، ففدى النبى منهم السبى بست نيق، ثلاثاً استكملت الثالثة من عمرها وثلاثاً استكملت الرابعة.

ولما أصاب عيينة بن حصن من بنى العنبر من تميم قدم وفدهم على النبى وكان الأقرع بالمدينة قبل قدوم السبى، فكلم النبى فيه ونازعه عيينة بن حصن وفى ذلك يقول الفرزدق يفخر بعمه الأقرع:

وعند رسول الله قام ابن حابس	بخطة أسوار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التى فى قيودها	مغللة أعناقها فى الشكائم

وشهد الأقرع فتح مكة وغزوة الطائف عام ٨هـ، وكان من المؤلفة قلوبهم، فأعطاه النبى مائة بعير. وقدم وفد نصارى نجران على النبى ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً، ونزلت آية المباهلة فأبوا أن يباهلوه ثم صالحوه على الجزية، وكتب لهم بذلك كتاباً كتبه عبدالله بن أبى بكر، وشهد فيه أشراف العرب، أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو الثقفى ومالك بن عوف النصرى والأقرع بن حابس والمغيرة بن شعبة (بلوغ الأرب ١ / ٢٦٧). وشهد الأقرع مع شرحبيل بن حسنة دومة الجندل. وشهد مع خالد حرب اليمامة، فكان من فرسان المسلمين الثابتين حين ارتد الناس.

روى البخارى فى تاريخه الصغير أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس استقطعا أبا بكر أرضاً فكتب لهما بها، فقال لهما عمر: «إنما كان النبى ﷺ يتألفكما على الإسلام، فأما الآن فاجهدا جهدكما» وقطع الكتاب.

وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى، قال: «بعث على إلى النبى ﷺ بذهيبة من اليمن فقسمها بين أربعة، أحدهم الأقرع بن حابس». وفيهما من حديث أبى هريرة قال: «أبصر الأقرع بن حابس رسول الله ﷺ يقبل الحسن».

استعمله عبدالله بن عامر على جيش سيّره إلى خراسان فأصيب بالجوزجان هو والجيش، وذلك فى عهد عثمان بن عفان. ونستبعد ما قيل من أنه قتل باليرموك فى عشرة من بنيه.

بشير بن سعد الأنصارى

كان بشير بن سعد الأنصارى من كبار الصحابة، ومن أبطال المسلمين، شهد بدراً. وبعثه النبى ﷺ فى سرية إلى بنى مرة بفدك فى شعبان ٧هـ، فى ثلاثين رجلاً، فأصيب أصحابه وجرح هو وعاد إلى المدينة (فتوح البلدان ٦٢٠ الطبرى ٣ / ٩٩)، ثم بعثه فى شوال من نفس السنة إلى يُمْن وجناب نحو وادى القرى. وكان حسيل بن نويرة الأشجعى دليل رسول الله إلى خيبر وقدم عليه فقال له النبى: «ما وراءك؟» قال: «تركت جمعاً من غطفان بالجناب قد بعث إليهم عيينة بن حصن ليسيروا إليكم». فدعا رسول الله بشير بن سعد وخرج معه حسيل كدليل، فأصابوا نعما وشاء ولقيهم عبد لعيينة بن حصن فقتلوه ثم لقوا جمع عيينة فانهزم. وفى عام ٧هـ، أيضاً خرج رسول الله إلى عمرة القضاء وساق ستين بدنة وحمل السلاح والبيض والرماح وقاد مائة فرس واستعمل على السلاح بشير بن سعد وعلى الخيل محمد بن مسلمة (الطبرى ٣ / ١٠١) وكان بشير بن سعد أول من بايع أبا بكر من الأنصار (الإصابة ٦٩٤). وقد استشهد بشير بن سعد بعين التمر واستشهد معه عمير بن رئاب ابن مُهَشّم بن سعيد بن سهم بن عمرو من السابقين الأولين إلى الإسلام ومن الذين هاجروا إلى الحبشة ثم المدينة وهو القائل من أبيات:

نحن بنو زيد الأغـــر ومـــثلنا   يحامى على الأحساب عند الحقائق

وزيد هو جده الأعلى، سابق أخاه فسمته أمه سهما لسرعته، فاشتهر بها (الاستيعاب ٢ / ٤٧٩ - الإصابة ٦٠٣٤).

جرير بن عبدالله البجلي

هو جرير بن عبدالله بن جابر (وهو الشليل) بن مالك بن نضرة بن ثعلبة بن جُشم بن عوف بن خزيمة بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر (وهو مالك) بن عبقر بن أنمار بن أراسن بن عمرو بن الغوث. واختلف في أنمار فقيل إنه بن نزار وهو على هذا يكون من العدنانية وقيل: «إنه بن أراسن، وهو ما أخذنا به فيكون من القحطانية حيث كانت مساكنهم في اليمن. ولم يختلف النسابة في أن بجيلة أمهم نسبوا إليها، وهي بجيلة بنت صعب بن علي بن سعد العشيرة، كانت زوجاً لأنمار. وكان خثعم أيضاً من أبناء أنمار ولكنه لم يكن من أبناء بجيلة.

ولجرير ذكر ذائع قبل الإسلام، وكان بينه وبين خالد بن أرطاة الكلبي منافرة في الجاهلية. والمنافرة احتكام إلى حكم يرضاه الطرفان إذا ادعى كل منهما أنه أعز من صاحبه. فقد أصابت كلب رجلاً من بجيلة يقال له مالك بن عتبة من بني عادية بن عامر بن قداد، فوافوا به عكاظاً، فمر مالك بابن عم له اسمه القاسم بن عقيل يأكل تمراً فتناول من ذلك التمر شيئاً، فجذبه الكلبي فقال له القاسم: «إنه رجل من عشيرتي»، فقال: «لو كانت له عشيرة منعته». فانطلق القاسم إلى بني عمه بني زيد بن الغوث فاستتبعهم، فقالوا: «كلما طارت وبرة من بني زيد في أيدي العرب أردنا أن نتبعها!» فانطلق إلى جرير فكلمه. يقول القاسم: «إن أول يوم أُريتُ فيه الثياب المصبغة والقباب الحمر اليوم الذي جئت فيه جريراً في قَسْر (قومه) وكان سيد بني مالك بن سعد بن زيد ابن قسر وهم بنو أبيه، فدعاهم في انتزاع العادي من كلب فتبعوه. فخرج يمشي بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ، فانتزع منهم مالك بن عتبة العادي وقامت كلب دونه. قال جرير: «زعمتم أن قومه لا يمنعونه»، فقالت كلب: «إن رجالنا خلوف» (يعني متخلفون غائبون). قال جرير: «لو كانوا لم يدفعوا عنكم» فقالوا «كأنك تستطيل على قضاعة؟! إن شئت قايسناكم المجد». وزعيم قضاعة يومئذ خالد بن أرطاة، قال: «ميعادنا من قابل سوق عكاظ».

فجمعت كلب وجمعت قسر وتوافوا بعكاظ في العام التالي، فحكموا الأقرع بن حابس، ووضعوا الرهون على يدي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من أشراف قريش. وكان في الرهن من قسر الأصرم بن عوف بن عويف، ومن أحمر حازم بن أبي حازم وصخر بن العلية، ومن بني زيد بن الغوث بن أنمار رجل. ثم قام خالد بن أرطاة فقال لجرير: «ما تجعل؟» قال: «الخطر

في يدك». قال «ألف ناقة حمراء في ألف ناقة حمراء» فقال جرير: «ألف قينة عذراء في ألف قينة عذراء. وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء». قال: «من لي بالوفاء؟» قال: «كفيلك اللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق وذو الخُلَصَة ونَسْر (أسماء أصنامهم) فمن عليك بالوفاء؟» قال خالد: «ود ومناة وقلس ورضا». قال جرير: «لك بالوفاء سبعون غلاماً مُعَمّاً مُخْولا يوضعون على أيدى الأكفاء من أهل الله». فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على أيدى من سمينا من قريش.

قال الأقرع «ما عندك يا جرير؟»

قال: «نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر. نخيف ولا نخاف ونطعم ولا نستطعم. ونحن حى لَقاح نطعم ما هبت الرياح، نطعم الشهر ونضمن الدهر ونحن الملوك لقسر».

فقال الأقرع: «واللات والعزى، لو فاخرت قيصر ملك الروم وكسرى عظيم فارس والنعمان ملك العرب لنفَرتُك عليهم».

هذه القصة بطولها ذكرناها (مختصرة عن الأصل) لما فيها من دلالة على ما ذكرنا فى الجزء الأول من أن القبيلة كانت ضرورة اجتماعية بين العرب، وللدلالة على مركز بجيلة وحالتها قبل أن يجمعها جرير، وللدلالة على ما كان من منزلة جرير عند بجيلة.

أسلم جرير فى السنة التى قبض فيها النبى ﷺ - ١٠هـ - وقد وفد عليه فقال: «ما جاء بك؟» قال: «جئت لأسلم». فألقى إليه النبى كساءه (أو وسادة) فجلس جرير على الأرض فقال النبى: «أشهد أنك لا تبغى علواً فى الأرض ولا فساداً وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». عن قيس بن أبى حازم قال: قال جرير: ما حجبنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآنى إلا تبسم فى وجهى (بلوغ الأرب ١ / ٣٠٢ - أسد الغابة ٧٣٠ - سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٨١) وقال إلا ضحك، وقال الترمذى حديث حسن صحيح.

وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب يعبدونها ولهم فيه من السنة موسم وعيد. فقال النبى ﷺ لجرير: «ألا تريحنى من ذى الخلصة؟» فقلت: يا رسول الله إنى رجل لا أثبت على الخيل، فصك فى صدرى وقال: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً. قال جرير: فنفرت فى مائة وخمسين راكباً فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته، فدعا لنا ولأحمس. وفى رواية أنه قال له: «والذى بعثك بالحق ما جئتها حتى تركتها كأنها جمل أجرب». قال: فبارك فى خيل أحمس ورجالها خمس مرات (بلوغ الأرب ١ / ٣٤٦ -

أسد الغابة) . وقد شهد جرير حجة الوداع ، وفي الصحيحين أن النبى ﷺ قال له : فى حجة الوداع «استنصت لى الناس» .

وكان ذو الكلاع من ملوك اليمن مطاعاً فى قومه ، فكتب إليه النبى مع جرير ، فأسلم ذو الكلاع وأعتق أربعة آلاف عبد احتفالاً بإسلامه ، وخرج مع جرير إلى النبى ﷺ ، ومعه ذو عمر . قال جرير : «فأقبلت أحدوهما إلى رسول الله ﷺ ، فقال ذو عمر : يا جرير إن كان الذى تذكر فقد أتى عليه أجله ، فقلت نسأل ، فرفع لنا ركب فسألتهم ، فقالوا قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر . فقالا لى أقرئ صاحبك السلام ولعلنا سنعود» . وكان صادقاً فلقد هاجر بقومه إلى المدينة فى أيام أبى بكر ثم نزحوا إلى حمص فسكنوها .

وكان جرير جميلاً وسيما مليح الصورة إلى الغاية عملاقاً . قال عمر : «جرير يوسف هذه الأمة وهو سيد قومه» ، وقال جرير رآنى عمر متجرداً فقال : ما أرى أحداً من الناس صور صورة هذا إلا ما ذكر من يوسف . وكان طول جرير ستة أذرع (حوالى ثلاثة أمتار) يصل إلى سنام البعير وكان يخضب بالصفرة ، وصفه رسول الله فقال : «على وجهه مسحة ملك» (سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٨١) .

وخرج جرير فى جيش أسامة بن زيد فوجهه أسامة هو والأقرع بن عبدالله الحميرى رسلاً ، فرجعوا إليه بخبر أهل الردة (الطبرى - الإصابة ٢٧٣) وفى حروب الردة طلب خالد بن الوليد المدد من أبى بكر وهو مقدم على مسيلمة فأمده بجرير ، ولكن خالداً التحم بمسيلمة قبل أن يصل إليه فلقيه منصرفاً من اليمامة . واستعمله أبو بكر على نجران . قال الشاعر :

لولا جـــرير هلكت بجـــيلة نعم الفـتى وبئْـسَت القـبـيلة

فقال عمر ما مدح من هجا قومه . وكان جرير فى مجلس فوجد عمر رائحة من بعض جلسائه فقال : عزمت على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ . فقال جرير علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزم . فقال عمر عليكم كلكم عزمت يا جرير ، مازلت سيداً فى الجاهلية والإسلام (أو : نعم السيد كنت فى الجاهلية ونعم السيد أنت فى الإسلام) (سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٨٣) . ومما أثر عن جرير قوله : الخرس خير من الخلابة والبكم خير من البذاء . وقد أقطعه عمر كما أقطع طلحة والربيل بن عمرو (العواصم من القواصم ١٠١) كذلك أقطعه عثمان بن عفان أرضه على شاطىء الفرات ، فيما أقطع من صوافى كسرى وما كان من أرض الجالية . وقد روى عن جرير من الصحابة أنس بن مالك ، وقال : كان جرير يخدمنى وهو أكبر

منى (اخرجه الشيخان). كما روى عنه قيس بن أبى حازم وهمام بن الحارث والشعبى، وزياد بن علاقة وحفيده أبو زرعة بن عمرو بن جرير وبنوه عبيد الله والمنذر وإبراهيم. ومما رواه عنه قيس بن حازم قوله: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون فى رؤيته. (أسد الغابة ٧٣٠) وكان جرير رسول علىّ إلى معاوية بدمشق بعد موقعة الجمل، يدعوه إلى طاعته، فحبسه مدة طويلة ثم رده برق مطبوع غير مكتوب وبعث معه من يخبر بمنابذته فى خبر طويل مشهور. ونزل جرير الكوفة وابتنى بها داراً فى بجيلة ثم سكن قرقيسياء حتى مات سنة إحدى أو أربع وأربعين، وقيل مات بالسراة. (أسد الغابة ٧٣٠). وذكر الذهبى أن وفاته كانت عام ٥١هـ بالسراة فى ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة، وكانت هذه الولاية سنتين ونصف بعد زياد بن أبى سفيان (سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٨٤) وابن سعد).

الحارث بن حسان

الحارث بن حسان من بنى ذهل من بكر بن وائل. كان يسكن البادية، ووفد على النبى ﷺ أيام بعث عمرو بن العاص فى غزوة السلاسل. وروى له أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة أحاديث. روى الطبرانى عن سماك بن حرب قال: تزوج الحارث بن حسان وكانت له صحبة، وكان الرجل إذا عرّس تخدر أياماً (لزم الخدر) فقيل له فى ذلك، فقال والله إن امرأة تمنعنى صلاة الغداة فى جمع لامرأة سوء. ولما فتح الأحنف خراسان بعث الحارث بن حسان إلى سرخس. (الإصابة ١٣٩٥).

عبدالله بن أبى أوفى الأسلمى

اسم أبى أوفى علقمة بن خالد، له ولأبيه صحبة، شهد الحديبية وكان من أصحاب الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكانت أسلم - قوم عبدالله - ثُمن المهاجرين يومئذ - وشهد خيبر وما بعدها من المشاهد مع النبى ﷺ. عن يزيد بن إسماعيل قال: رأيت على ساعد عبدالله بن أبى أوفى ضربة، فقال: ضربتها يوم حنين، فقلت: أشهدت حنيناً؟ قال نعم وقبل ذلك. وفى الصحيح عنه قال: غزوت مع النبى ﷺ ست غزوات (أو سبع غزوات) نأكل الجراد. ولم يزل بالمدينة حتى قبض رسول الله فخرج فى الفتوح ثم تحول بعد ذلك إلى الكوفة فأقام بها وابتنى بها داراً فى أسلم حتى توفى بين سنة سبع وثمانين أو ثمانين هجرية وقد ذهب بصره. (الاستيعاب ٢ / ٢٥٥، الإصابة ٤٥٥٥، أسد الغابة ٢٨٢٨، الطبقات الكبرى ٤ / ٣٦).

عدى بن حاتم الطائى

عدى بن حاتم الطائى من أبطال حروب الردة والفتوح. هو عدى بن حاتم بن عبدالله بن سعد بن حشرج بن امرئ القيس بن عدى بن أخزم بن أبى أخزم بن ربيعة بن جَرْوَل بن ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيء بن أدد ابن زيد بن كهلان. ويكنى أبو طريف، وقيل أبو وهب، وأبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود والكرم الذى يضرب به المثل. أسلم سنة ٩هـ، وتوفى سنة ٦٨، كان سيداً شريفاً فى قومه، خطيباً حاضر الجواب فاضلاً كريماً معظماً عند قومه وعند غيرهم. وجه رسول الله علياً لهدم الفلس صنم طيء، ففر عدى إلى الشام وأُسِرت أخته سفّانة بنت حاتم، فأتى بها على إلى النبى ﷺ. فقالت له: «يا محمد، هلك الوالد وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب، فإن أبى سيد قومه، كان يفك العانى ويحمى الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشى السلام، ولم يطلب إليه طالب قط حاجة فرده، أنا ابنة حاتم الطائى». فقال النبى: «يا جارية هذه صفة المؤمن. لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه. خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق» (بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١ / ٧٣) وأكرمها النبى ووصلها، فغادرت المدينة وأتت عدياً فحسنت له أن يسلم فأتى المدينة فى شعبان سنة سبع أو تسع أو عشر وكان نصرانياً.

قال عدى: «أتيت النبى ﷺ فى المسجد فقال الناس: هذا عدى بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب. وكان قبل ذلك قال: إنى لأرجو الله أن يجعل يده فى يدى، فقام فأخذ بيدى، فلقيته امرأة وصبى معها فقالا إن لنا إليك حاجة، فقام معها حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدى حتى أتى داره فألقت إليه الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه. فقال: «هل تعلم من إله سوى الله؟» قلت: لا. ثم قال: «هل تعلم شيئاً أكبر من الله؟» قلت: لا. قال: «فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون». (رواه أحمد والترمذى عن عباد بن حبيش الكوفى عن عدى).

وفى حديث آخر قال: «لما بعث النبى ﷺ كرهته كراهية شديدة فانطلقت حتى كنت فى أقصى الأرض مما يلى الروم، فكرهت مكانى أشد من كراهته فقلت: لو أتيته فإن كان كاذباً لم يخف على وإن كان صادقاً أتبعه. فأقبلت فلما قدمت المدينة استشرفنى الناس فقالوا: عدى بن حاتم. فأتيته فقال لى: «يا عدى أسلم تسلم» قلت إن لى ديناً. قال: «أنا أعلم بدينك منك» قلت: «أنت أعلم بدينى منى؟» قال نعم مرتين أو ثلاثة، قال: «ألست ترأس قومك؟» قلت

بلى. قال: «ألست تأكل المرباع؟» (المرباع ربع غنيمة الحرب كان يأخذها رئيس القوم لنفسه) قلت بلى. قال: «فإن ذلك لا يحل لك فى دينك» قال: فنضنضت (حركت لسانى فى فمى). ثم قال: «أسلم تسلم. قد أظن أنه إنما يمنعك غضاضة تراها ممن حولى وأنك ترى الناس علينا إلباً واحداً». ثم قال: «هل أتيت الحيرة»؟ قلت لم آتها وقد علمت مكانها. قال: «يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز». فقلت كسرى بن هرمز؟! قال: «نعم، وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته». قال عدى: فرأيت اثنتين، الظعينة، وكنت فى أول خيل أغارت على كنوز كسرى وأحلف بالله لتجيئن الثالثة». (أحمد والبغوى فى معجمه وغيرهما).

وأخرج الحديث من وجه آخر قال عدى: «بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. فقال: يا عدى هل رأيت الحيرة؟ قلت لم أرها وقد أنبئت عنها. قال فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. فقلت - فيما بينى وبين نفسى - فأين دُعَّار طىء الذين قد سعروا البلاد». (البخارى - شرح الكرمانى ٢ / ١٧٨).

أقطعه عثمان بن عفان الروحاء مما كان من صوافى كسرى أو من أرض الجالية (فتوح البلدان ٣٣٦) وقد نزل الكوفة وابتنى بها داراً فى طىء. ولم يزل مع على بن أبى طالب، وشهد معه الجمل وصفين، ففقئت عينه يوم الجمل، ثم شهد معه النهروان. ومات بالكوفة زمن المختار بين عام ٦٧ و ٦٩ وهو ابن مائة وعشرين عاماً. وإذن فقد كان فيما بين الثانية والستين والرابعة والستين، حين خرج مع خالد لفتح العراق.

لما كان زمن عمر بن الخطاب قدم عليه عدى، فلما دخل عليه كأنه رأى منه شيئاً أو جفاء فقال: «يا أمير المؤمنين ما أظنك تعرفنى» قال: «كيف لا أعرفك، أكرمك الله بأحسن المعرفة. وأول صدقة بيضت وجه أصحاب رسول الله صدقة طىء؟ أعرفك والله. آمنت إذ كفروا وأقبلت إذ أدبروا ووفيت إذ غدروا» فقال: حسبى يا أمير المؤمنين حسبى. وعن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: أربعة سادة فى الإسلام، بشر بن هلال العبدى وعدى بن حاتم وسراقة بن مالك المدلجى وعروة بن مسعود الثقفى. وقال عدى: ما دخلت وقت صلاة حتى أشتاق إليها. وقال: ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء. ولما أسنَّ استأذن قومه فى وطاء يجلس عليه فى ناديهم وقال: أكره أن يظن أحدكم أنى أرى لى عليه فضلاً، ولكنى قد كبرت ورق عظمى (الذهبى). ولما سكن الكوفة أرسل الأشعث بن قيس إلى عدى يستعير

منه قدور حاتم، فملأها وحملها الرجال إليه، فأرسل إليه الأشعث: إنما أردناها فارغة! فأرسل إليه عدى: إنا لا نعيرها فارغة. وكان عدى يفت الخبز للنمل ويقول إنهن جارات ولهن حق. (أسد الغابة ٤٤٤ و٣٦٠٥ - الاستيعاب ٣ / ١٤٠ و٢ / ٤٥٨ - الإصابة ٥٤٧٧ - ٢٤٣٣ - سير أعلام النبلاء)، (وللمؤلف كتاب عن عدى بن حاتم).

عمير بن سعد الأنصارى

هو عمير بن سعد بن عبيد الأوسى الأنصارى اشترك فى الفتوح، وله ذكر فى غزوة تبوك، وكان مع المسلمين فى الغزوة طائفة من المنافقين، منهم: الجلاس بن سويد الصامت زوج أم عمير بن سعد، فقال الجلاس فى بعض حديثه: «والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير» فقال له عمير وكان يتيماً فى حجره: «فأنت شر من الحمير ورسول الله ﷺ الصادق وأنت الكاذب» فقال له الجلاس: «اكتمها علىّ يا بنى» فقال: «لا والله» ونمى بها إلى رسول الله ولم يكتمها، وكان لعمير كالأب ينفق عليه. ودعا رسول الله الجلاس فعرفه بما قال عمير، فحلف الجلاس أنه ما قال، فنزلت فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ.. إلى قوله.. فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ﴾. فأخذ النبى بأذن عمير وقال: «وفت أذنك يا غلام وصدقك ربك». فقال الجلاس: «أتوب إلى الله». استتب لى ربى فإنى أتوب إلى الله وأشهد لقد صدق» وراجع النفقة عليه توبة منه، فما زال عمير منها فى علياء بعد وما سمع من الجلاس شيئاً يكرهه. وكان يقال لعمير نسيج وحده، غلب ذلك عليه وعرف به. وكان من الزهاد الصالحين. كان عمر يقول: «وددت لو أن لى رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال المسلمين». شهد فتوح الشام واستعمله عمر على حمص إلى أن مات، وتوفى فى خلافة عمر أو عثمان أو معاوية. قال ابن عمر لعبدالرحمن بن عمير بن سعد: «ما كان بالشام أفضل من أبيك». وروى الحديث عن النبى ﷺ. (الاستيعاب ٢ / ٤٧٩ - الإصابة ٦٠٣٨).

عياض بن غنم

عياض بن غنم بن زهير بن أبى شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر وهو قريش. أسلم قبل الحديبية وشهدها، وهاجر إلى المدينة فكان من الصحابة المهاجرين. وهو ابن عم أمين الأمة أبى عبيدة عامر ابن الجراح، ويقال: إنه كان ابن امرأته. وكان عياض شريفاً فى قومه، ذكره ابن الرقيات فيمن ذكر من أشراف قريش وقال:

عـيـاض ومـا عـيـاض بـن غـنـم كـان مـن خـيـر مـن أجـن النسـاء

وكان صالحاً سمحاً، يقال له زاد الراكب لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده، وإذا كان مسافراً آثرهم بزاده فإن نفد نحر لهم جمله.

فى العام السادس من الهجرة نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (سورة الممتحنة، الآية: ١٠) وكانت زوجته كافرة فطلقها.

وقد انتقل عياض من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد وشهد اليرموك قائداً لكردوس من كراديس الميسرة. ثم استمر فى فتوح الشام، فتح أبو عبيدة بن الجراح حلب، وكان عياض قائد مقدمته، وطلب أهل حلب الصلح، فكان عياض الذى صالحهم بالأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذى بها، باستثناء موضع المسجد، فأنفذ أبو عبيدة صلحه. (فتوح البلدان ٣٩٤). وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدمته عياض، فتلقاه راهب من رهبانها يطلب الصلح عن أهلها فبعث به إلى أبى عبيدة وهو بين جبرين وتل إعزاز فصالحه. وأتى أبو عبيدة حلب الساجور وقدّم عياضاً إلى مَنْبج ثم لحقه، وقد صالح أهلها على مثل صلح انطاكية، فأنفذ أبو عبيدة ذلك، ثم بعث عياضاً إلى ناحية دُلُوك ورعَبْان فصالحه أهلها على مثل صلح منبج، واشترط عليهم أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكاتبوا بها المسلمين، (فتوح البلدان ٤٠٣).

وروى البخارى، أنه لما توفى أبو عبيدة بن الجراح استخلف ابن خاله أو ابن عمه عياض بن غنم أحد بنى الحارث بن فهر فأقره عمر وقال: «ما أنا بمبدل أميراً أمّره أبو عبيدة».

ثم أمّر عمر يزيد بن أبى سفيان على الشام ثم معاوية من بعده حين أمر عياضاً بغزو الجزيرة، فالجزيرة كلها فتوح عياض. وبعض الرُّواة يذهب إلى أن عياضاً خرج إليها من الشام وبعضهم يذهب إلى أن ذلك كان من العراق. فتح عياض الرُّها فصالحوه على أن لهم هيكلهم وما حوله وعلى ألا يحدثوا كنيسة إلا ما كان لهم، وعلى معونة المسلمين على عدوهم، فإن تركوا شيئاً مما شرط عليهم فلا ذمة لهم. ثم دخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها. وفى رواية الواقدى، أنه سار إلى الجزيرة يوم الخميس للنصف من شعبان ١٨هـ فى خمسة آلاف، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسى، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحى وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمى. وبلغت طليعة عياض إلى الرقة فأغاروا على حاضر كان حولها للعرب وعلى قوم من الفلاحين، فأصابوا مغنماً وهرب من نجا منهم فدخلوا مدينة

الرقة. واقبل عياض حتى نزل باب الرها وهو أحد أبوابها فى تعبئة، فرمى أهلها المسلمين ساعة حتى جرح بعضهم فتأخر عنها لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم، وركب فطاف حول المدينة ووضع على أبوابها روابط ثم رجع إلى عسكره، وبث السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة وكانت الزروع مستحصدة، ومضت خمسة أيام أو ستة وهم على ذلك ثم ارسل بطريق المدينة إلى عياض يطلب الأمان، فصالحه عليه لجميع أهلها وأموالهم ومدينتهم وعلى أن الأرض للمسلمين، فأقرها عياض فى أيدى أهلها على الخراج، ودفع منها ما لم يرده أهل الذمة ورفضوه إلى المسلمين على العشر ووضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل فى كل سنة، وأخرج النساء والصبيان وجعل مع الدينار اقفزة من قمح وشيئاً من زيت وخل وعسل. ثم فتحوا أبواب المدينة وأقاموا للمسلمين سوقاً على باب الرها وكتب لهم كتاباً وختمه بختمه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، لا تخرب ولا تسكن إذا اعطوا الجزية التى عليهم ولم يحدثوا مغيلة. وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً. شهد الله وكفى بالله شهيداً».

واستمر عياض سائراً فى فتوحه حتى أتم فتح الجزيرة. وقال بعضهم: إنه مات بالشام سنة عشرين وهو ابن ستين سنة، يعنى أنه قد كان جاوز الخمسين بعامين فى عام ١٢هـ. وقال الطبرى: كانت عنده أم الحكم بنت أبى سفيان.

غالب بن عبدالله

هو غالب بن عبدالله بن مسعر الليثى من بنى كنانة إخوة قريش. كانت منازلهم إلى الغرب من يثرب، بينها وبين البحر. وكان من كبار الصحابة الذين اعتمد عليهم رسول الله ﷺ فى عملياته الحربية. بعثه فى بعث فى العام الثانى للهجرة. وفى السنة السابعة، قال يسار مولى رسول الله: «يا رسول الله إنى أعلم غرة من بنى عبد بن ثعلبة، فأرسل معه غالب بن عبدالله فى مائة وثلاثين رجلاً حتى أغاروا على بنى عبد، فاستاقوا النعم والشاء وحدروها إلى المدينة» (الطبرى ٣ / ٩٩).

وفى صفر من العام الثامن أرسله فى سرية إلى الكديد فى بضعة عشر رجلاً حتى إذا كانوا بقديد لقوا الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء الليثى - من قوم غالب - فأخذوه. قال: «إنما

جئت لأسلم. قال غالب: إن كنت إنما جئت مسلماً فلن يضرك رباط يوم وليلة، وإن كنت على غير ذلك استوثقنا منك، فأوثقه رباطاً وخلف عليه رويجلاً أسود وقال له: امكث معه حتى نمر عليك، فإن نازعك فاحتز رأسه. ثم مضوا حتى اتوا بطن الكديد فنزلوا بعد العصر، فلما ذهبت عتمة من الليل شنوا عليهم الغارة فقتلوا واستاقوا النعم وخرج صريخهم يطلب الغوث، وعاد غالب وسريته إلى الحارث وصاحبه فأخذوهما معهما. ثم ادركهم ما لا قبل لهم به من غياث الناس، حتى إذا لم يكن بينهم إلا بطن الوادى من قديد جاء سيل شديد فحال بينهم، والقوم ينظرون إلى غالب يذهب بما غنم. وكان شعارهم فى تلك الليلة أمت أمت (الطبرى ٣ / ١٠١). وفى نفس الشهر أرسله النبى فى سرية على مائتى رجل إلى بنى مرة، فبعث الطلائع فأعلموه خبرهم، فأغار عليهم وقتل مقاتلتهم وساق النعم والشاء والسبى، فكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل أو عدل ذلك من الغنم كل جزور بعشرة وقدموا المدينة. وكان معه أسامة بن زيد فأصاب مرداس بن نهيك حليفاً لهم من الحرقة من جهينة. قال أسامة: لما غشيناه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فلم ننزع عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول الله اخبرناه فقال: يا أسامة من لك بلا إله إلا الله (الطبرى ٣ / ٩٩). كذلك خرج غالب على سرية من عشرين إلى العرنيين. (الاستيعاب ٢ / ٣٦١ - الإصابة ٣٦٠٠ - ٦٩٠٦ - ٧٨٩٤).

فرات بن حيان العجلى

هو فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبدالعزى بن حبيب بن حيَّة بن ربيعة ابن صعب بن عجل من بكر بن وائل. كانت منازلهم من البحرين إلى صحراء الأبلة إلى صحراء الحيرة إلى الأنبار إلى هيت من صحراء العراق، فكانوا رُحَّلاً بين ذلك. وكان حليفاً لبنى سهم من قريش، وكان عيناً لأبى سفيان فى حروبه كما كان دليلاً لتجارات قريش. قال ابن حبان: «كان فرات من أهدى الناس بالطريق». وهذا يعنى دقة ملاحظته وشدة ذاكرته واستيعابه ولياقته البدنية لذلك الترحال الطويل. ولما وقعت وقعة بدر خافت قريش بعدها أن تسلك طريقها التى كانت تسلك إلى الشام والتى كانت تمر قريباً من المدينة. قالت قريش: «قد عَوَّر علينا محمد متجرنا وهو على طريقنا». وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية: «إن أقمنا بمكة أكلنا رءوس أموالنا». فقال زمعة بن الأسود: «أنا أدلكم على رجل يسلك بكم (الطريق) النجدية، لو سلكها مغمض العينين لاهتدى». قال صفوان: «من هو؟ حاجتنا إلى الماء قليل إنما نحن شاتون» قال:

«فرات بن حيان». فدعواه فاستأجراه، فخرج بهم فى الشتاء فسلك بهم على ذات عرق، ثم خرج بهم على غمرة. وانتهى خبر العير إلى النبى ﷺ، وفيها مال كثير وآنية من فضة حملها صفوان. فبعث النبى زيد بن حارثة فى سرية فاعترض القافلة وظفر بالعير وأفلت أعيان القوم، فكان مقدار الخمس عشرين ألفاً، فأخذه رسول الله وقسم الأربعة أخماس على السرية وأتى بفرات بن حيان أسيراً. فقيل له إن أسلمت لم يقتلك رسول الله ﷺ. فلما دعى به إلى رسول الله أسلم فأرسله (الطبرى ٣ / ٥).

ويبدو أن فراتاً رحل عن المدينة، إذ نجد له ذكراً آخر أنه أتى به إلى النبى ﷺ يوم الخندق وكان عيناً للمشركين فأمر بقتله فقال: «إنى مسلم» فقال: «إن منكم من نتألفه على الإسلام، وإن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان» (أبو داود والبخارى فى التاريخ). وكان فرات ممن هجا النبى ثم مدحه فقبل مدحه.

ثم نجد فراتاً فى جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة دليلاً لسرية زيد بن حارثة لاعتراض تجارة قريش إلى العراق بمكان يسمى العيص على أربع ليلال من المدينة. وقد هاجر فرات إلى النبى ﷺ وحسن إسلامه. ويروى عدى ابن حاتم الطائى، أن رسول الله ﷺ أقطع فرات بن حيان أرضاً باليمامة تغل أربعة آلاف ومائتين (فتوح البلدان ٢٧٥) وأنه حسن إسلامه وفقه فى الدين.

وذكر سيف فى الفتوح عن أحمد بن فرات بن حيان قال: خرج أبو هريرة وفرات بن حيان والرَّجَّال بن عنفوة من عند النبى ﷺ فقال: «لضرس أحدهم فى النار أعظم من أُحُد وإن معه لقفا غادر». قال فبلغنا ذلك فما آمنا حتى صنع الرجال ما صنع ثم قتل، فخر أبو هريرة وفرات بن حيان ساجدين شكراً لله عز وجل - وكان الرجال ارتد وافتتن بمسيلمة وقتل معه كافراً. (الاستيعاب ٣ / ١٩٧ - الإصابة ٦٩٦٦). وقد بعث النبى فراتاً إلى ثمامة بن اثال فى قتل مسيلمة وقتاله عام ١١هـ. ويمر بنا ذكر كثير لفرات فى فتوح العراق. وقد نزل الكوفة وابتنى بها داراً فى بنى عجل وكان له بها عقب، وأقطع أرضاً بالبحرين.

القعقاع بن عمرو التميمى

للقعقاع بن عمرو التميمى فى فتوح العراق والشام تاريخ زاهر وصفحات مشرفة، (أسلم سنة ٩هـ). وقد اعتمد عليه أبو بكر فى حروب الردة، فأرسله على سرية للقضاء على ردة بنى كعب، وكانت مع هوازن وسليم وعامر، فقال له: «يا قعقاع، سر حتى تغير على علقمة

بن علاثة لعلك أن تأخذه لى أو تقتله ، واعلم أن شفاء النفس الخوض فاصنع ما عندك » . فخرج فى تلك السرية حتى أغار على الماء الذى عليه علقمة ، وكان لا يبرح أن يكون على رِجْل فسابقهم على فرسه فسبقهم مراكضة وأسلم أهله وولده ، فانتسف القعقاع امرأته وبناته ونساءه ومن أقام من الرجال ، فاتقوه بالإسلام . فقدم بهم على أبى بكر ، فجحد ولده وزوجته أن يكونوا مالأوا علقمة ، وكانوا مقيمين فى الدار فلم يبلغه إلا ذلك ، وقالوا ما ذنبنا فيما صنع علقمة من ذلك ، فأرسلهم . ثم أسلم علقمة فقبل منه أبو بكر .

وكان القعقاع أحد فرسان العرب وشعرائهم . قال : «قال لى رسول الله ﷺ : «ما أعددت للجهاد ؟» قلت : طاعة الله ورسوله والخيل . قال : «تلك الغاية» . وفى رواية عن سيف يضعفها أهل الحديث ، أنه شهد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . وأنشد سيف من شعر القعقاع قوله :

ولقد شهدت البرق برق تهامة   يهدى المناقب راكباً لعيار
فى جند سيف الله سيف محمد   والسابقين لسُنَّة الأحرار

وكان ممن خرج من العراق مع خالد إلى الشام وشهد اليرموك وفيها يقول :

يدعون قعقاعاً لكل كريهة   فيجيب قعقاع دعاء الهاتف

وكان القعقاع قد أسلم حين أسلمت قبيلته تميم ، وقدم وفدها على النبى عام ٩هـ بعد غزوة تبوك .

وفى فتح دمشق كان من الأبطال المعدودين الذين تسلقوا أسوار دمشق مع خالد بن الوليد على أحبال أعدوها لذلك ، ونزل معه إلى داخل الحصن فقاتلوا حراس أبوابه حتى فتحوها للمسلمين . وعاد القعقاع من الشام إلى العراق فأدرك القادسية وله فيها من الأثر ما سوف نعرض له فى بحثنا تلك الموقعة ، ثم كان له دوره فى فتح المدائن والفتوح بعدها . وكما كان للقعقاع تاريخه الناصع فى ميادين الحرب كذلك كان له ماضيه فى ميادين السياسة . فكان له جهده إبان الفتنة الكبرى لتهدئتها . فبعد وصول على بن أبى طالب إلى ذى قار عام ٣٦هـ فى جمادى الآخرة ، قام القعقاع بمساع للتفاهم بينه وبين معسكر عائشة واستجاب أصحاب الجمل للقعقاع وأذعن علىّ لذلك ، وكان القعقاع قد انتبه إلى وجود قتلة عثمان فى معسكر على وأنهم لما صاروا فى العراق صاروا فى معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم ، وأن قتلهم يفتح باباً لا يستطيع علىّ سده بعد ذلك . وتحدث القعقاع بذلك إلى أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ، فعذروا علياً ووافقوا على التفاهم معه على ما يخرجهم من هذه الفتنة ، فكان

القعقاع يرى أن موقف على موقف ضرورة. وفى عهد معاوية أخرج من الكوفة المستغربين فى أمر على، فأخرج القعقاع بن عمرو إلى ايلياء بفلسطين، وتوفى عام ٤٠هـ - ٦٦٠م (الطبرى ٢٣٢ و ٢٤٠ - الإصابة ٧١٢٩ - الاستيعاب ٣ / ٢٥٢).

محمد بن مسلمة

ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة، وقد أسلم مبكراً قبل سعد بن معاذ على يدى مصعب بن عمير، وآخى النبى بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح. وصحب النبى أولاده جعفر وعبدالله وسعد وعبدالرحمن وعمرو، وله غيرهم محمود. شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وكان محمد بن مسلمة اسمر شديد السمرة، طويلاً معتدلا، أصلع ذا جثة. وكان من فضلاء الصحابة وهو من الذين اغتالوا كعب بن الأشرف اليهودى فى حصنه فى عملية فدائية جريئة مشهورة عام ٣هـ. وقد استخلفه النبى ﷺ على المدينة فى بعض غزواته، قيل فى غزوة قرقرة الكدر وقيل فى عام تبوك.

وفى فتح خيبر رمى مرحب اليهودى محموداً أخا محمد بن مسلمة برحى من فوق حصن ناعم فندرت عيناه وأصابت رأسه فهشمت البيضة رأسه وسقطت جلدة جبينه على وجهه، فردها رسول الله وعصبها، فمكث ثلاثة أيام ثم مات. فقال النبى لابن مسلمة: «غداً يقتل قاتل أخيك»، فكان كذلك، قتله على بن أبى طالب. وفى عام ٧هـ خرج رسول الله إلى عمرة القضاء وساق ستين بدنة وحمل السلاح والبيض والرماح واستعمل عليه بشير بن سعد، وقاد مائة فرس وجعل على الخيل محمد بن مسلمة.

ولما رجع جيش أسامة وخرج أبو بكر إلى ذى قصة ومعه المهاجرون والأنصار وقد عقد اللواء لخالد بن الوليد، ترك محمد بن مسلمة بالمدينة ليستحث الناس حتى يتلاحقوا من خلفه.

وقصة شهادته فى قضية الشيماء بنت نفيلة الأسدية التى مرت بنا فى الصفحة ٢٠٩ تكشف لنا عن وجوده فى جيش خالد فى العراق.

ولاه عمر بن الخطاب على صدقات جهينة. وكان يستعمله دائماً للأمور المعضلة فى البلاد، فكان إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما يريد بعث محمد بن مسلمة، فكان رسوله فى الكشف عن سعد بن أبى وقاص حين بنى القصر بالكوفة، فلما وصل إلى الباب أخرج زنده فاستورى ناراً ثم أحرق الباب. وهو الذى أرسله عمر إلى عمرو بن العاص بمصر فقاسمه ماله.

وكان من الذين تسلقوا حصن بابليون مع الزبير بن العوام فى فتح مصر .

اعتزل الفتنة واتخذ سيفاً من خشب وجعله فى جفن ، وقال : «أعطانى رسول الله ﷺ سيفاً ، فقال : قاتل به المشركين ما قاتلوا ، فإذا رأيت أمتى يضرب بعضهم بعضاً فائت به أحداً (الجبل) فاضرب به حتى ينكسر ثم أجلس فى بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية» . ففعل ، ولم يشهد الجمل ولا صفين وأقام بالربذة بعد مقتل عثمان ، وكان الذين اعتزلوا مثله فى الفتنة سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمرو ، وأسامة بن زيد . لم يستوطن غير المدينة ومات بها عام ثلاث وأربعين عن سبع وسبعين عاماً ، وكان له من الولد عشرة ذكور وست إناث . وقيل قتله أهل الشام ، دخل عليه رجل من أهل الأردن وهو فى داره فقتله .



مراجع البحث

الإعلام بالحروب الواقعة فى صدر الإسلام، — البياسى.
إمتاع الأسماع (طبعة ١٩٤١) — المقريزى - لجنة التأليف والترجمة.
الأخبار الطوال، — الدينورى - مكتبة المثنى - بغداد.
الاستيعاب فى أسماء الأصحاب (١٩٣٩) — يوسف بن عبدالله القرطبى - التجارية
الإصابة فى تمييز الصحابة (١٩٣٩) — ابن حجر العسقلانى - التجارية
أسد الغابة فى معرفة الصحابة — ابن الأثير. دار الشعب بالقاهرة.
أنساب الأشراف — البلاذرى - دار المعارف بمصر.
أنباء الغمر بأبناء العمر — الحافظ ابن حجر.
الآثار الباقية عن القرون الخالية — البيرونى - أبو ريحان محمد بن أحمد.
آثار البلاد وأخبار العباد — القزوينى - دار صادر - بيروت.
أحسن التقاسيم — المقدسى - مطبعة بريل - ليدن.
إيران فى عهد الساسانيين (مترجم) — آرثر كريستنسن
أيام العرب فى الجاهلية — محمد أبو الفضل إبراهيم - الحلبى.
الأغانى — أبو الفرج الأصفهانى - دار الشعب
الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه — عبدالقادر عودة - دار الكتاب العربى.
البلدان — اليعقوبى - بريل، ليدن ١٨٩١.
البلدان — عمرو بن بحر الجاحظ
البلدان — ابن الفقيه الهمدانى
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب — محمود شكرى الألوسى - دار الكتب العلمية.
البداية والنهاية فى التاريخ — أبو الفداء ابن كثير
البيان والتبيين — الجاحظ - الخانجى بمصر والمثنى
تاريخ الأمم والملوك — الطبرى - المطبعة الحسينية
تاريخ اليعقوبى — اليعقوبى - دار صادر
تاريخ مختصر الدول — ابن العبرى
تاريخ حمزة الأصفهانى — حمزة الأصفهانى
تجارب الأمم والملوك — ابن مسكوية
التاريخ الكبير — ابن واضح

التاج	الجاحظ ـ الشركة اللبنانية للكتاب
تذكرة الحفاظ	الذهبى
تحفة النظار وعجائب الأسفار	ابن بطوطة – بولاق ١٩٣٨
تاريخ الأقباط (موسوعة)	زكى شنودة
تاريخ الجيوش (ترجمة. كمال دسوقى)	جورج كاستلان – الألف كتاب
تاريخ العرب القدامى	محمد فخر الدين
تاريخ الدول العربية من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية	يوليوس فنهوزن ـ إدارة الثقافة العامة.
تاريخ الأسطول العربى	ياسين الحموى
تاريخ نصارى العراق	روفائيل أبو اسحق
تاريخ مدن العراق	يوسف رزق الله غنيم
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى ـ دار الكتاب العربي، بيروت
تاريخ مدينة دمشق	ابن عساكر.
تاريخ الكوفة	السيد حسين بن أحمد العراقى
تاريخ العرب	فيليب حتى
التاريخ السياسى للدولة العربية	د. عبدالمنعم ماجد.
تاريخ العرب العسكرى	محمود الدرة.
تفسير القرآن العظيم	ابن كثير – الحلبى بمصر ١٩٤٨
الجغرافية التاريخية الإسلامية	محمد أحمد حسونة ـ منشأة المعارف ـ الإسكندرية
جغرافيا العراق الطبيعية	جاسم محمد الخلف
جغرافية العراق الحديث	هاشم السعدى
الجغرافيا العسكرية	الفريق طه الأشمى
جزيرة العرب	أنور الرفاعى وبسام كردى على
جزيرة العرب	حافظ وهبة
جغرافية شبه جزيرة العرب	عمر رضا كحالة.
الجامع لأحكام القرآن	القرطبى – دار الكتب المصرية
الجزية والخراج فى الإسلام	دانيث كنيث ـ دار الكتب المصرية
حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول	د. شكرى فيصل
خالد بن الوليد	الفريق طه باشا الهاشمى

خالد بن الوليد	صادق عرجون
الخراج	أبو يوسف
الخراج فى الدولة الإسلامية	محمد ضياء الدين الريس ـ مكتبة التراث .
الخراج وصنعة الكتابة	قدامة بن جعفر – Brill1889
خريطة العراق الأثرية	مديرية الآثار العراقية ببغداد
خريطة قضاء النجف	« « « خريطة خاصة
خريطة العالم العربى	مصلحة المساحة المصرية ١٩٤٥
خلاصة تذهيب تهذيب الكمال	الصفى الخزرجى ـ مكتبة المطبوعات الإسلامية . بيروت
الخلفاء الراشدون	عبدالوهاب النجار
الخنساء	د . محمد جابر عبدالعال الحينى
الدرر فى اختصار المغازى والسير	ابن عبدالبر –المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
ديوان الشماخ بن ضرار	ـ دار المعارف .
الرحلة	ابن جبير ـ دار التحرير للطبع والنشر ، دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت
رسالة الجهاد	حسن البنا – دار الكتاب العربى
الرسول القائد	حسن البنا – دار الفكر الإسلامى .
السلام فى الإسلام	عبدالوهاب خلاف – المطبعة السلفية
السياسة الشرعية	عبدالرحمن تاج – دار التأليف
السياسة الشرعية والفقه الإسلامى	لواء محمود شيث خطاب ـ دار مكتبة الحياة ـ بغداد .
سير أعلام النبلاء	الذهبى . سلسلة ذخائر العرب-١٩ ـ دار المعارف .
سيف الله خالد	محمد فرج – دار الفكر العربى
شرح السير الكبير (١٩٥٧)	السرخسى – جامعة الدول العربية
الشاهنامة	الفردوسى
الشماخ بن ضرار	دار المعارف
شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام	النعمان عبدالمتعال القاضى – القومية
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا	القلقشندى ـ تراثنا .
صحيح البخارى	شرح الكرمانى – المطبعة المصرية
الصديق أبو بكر	محمد حسين هيكل – مطبعة مصر
الطبقات الكبرى	ابن سعد ـ مطبعة بريل . ليدن .

الكتاب	المؤلف
الطبرى	محمد أحمد الحوفى – أعلام العرب ١٣
طليحة بن خويلد	أحمد عادل كمال
العبر وديوان المبتدأ والخبر	ابن خلدون – دار الكتاب اللبنانى
عيون الأخبار	ابن قتيبة الدينورى – دار الكتب المصرية
عيون الأنباء	ابن أبى أصيبعة ـ دار الثقافة . بيروت .
عبقرية خالد	عباس محمود العقاد ـ دار الهلال .
عدى بن حاتم الطائى	أحمد عادل كمال
العقد الفريد	ابن عبدربه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
عشائر العراق القديمة–البدوية والحاضرة	عباس الفراوى
غرر أخبار ملوك الفرس	الثعالبى
الفاروق عمر	محمد حسين هيكل
الفاروق القائد (عمر بن الخطاب)	لواء محمود شيت خطاب – دار الشعب
الفتح العربى للعراق وفارس	محمد فرج – دار الفكر العربى
فتوح البلدان	البلاذرى–نشر د . صلاح الدين المنجد
الفتوح الإسلامية بعد عهد الفتوحات النبوية	أحمد بن زينى دحلان
الفروسية العربية فى العصر الجاهلى	سيد حنفى – سلسلة اقرأ رقم ٢١١
الفهرست	ابن النديم ـ دار المعرفة ـ بيروت .
فوات الوفيات	الكتبى
الفن الحربى فى صدر الإسلام	عبدالرؤوف عون – دار المعارف
قادة الفتح العربى للعراق وفارس	لواء محمود شيت خطاب – دار القلم
القاموس المحيط	
القبائل	أبو عمر يوسف بن عبدالله
قلب العراق	أمين الريحانى
قلب جزيرة العرب	فؤاد حمزة
القرآن الكريم	
الكامل فى التاريخ	ابن الأثير
الكامل فى الأدب	المبرّد – مطبعة التقدم العلمية
لسان الميزان	الحافظ ابن حجر ـ مؤسسة الأعلمى ـ بيروت .
مروج الذهب	المسعودى – المكتبة التجارية

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار	المقريزى ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت .
المغازى	موسى بن عقبة الأسدى
ميزان الاعتدال	الذهبى
المسالك والممالك	ابن خرداذبة – عبدالله Brill1889
المسالك والممالك	الاصطخرى – سلسلة تراثنا
المسالك والممالك	أبو عبدالبكرى الأندلسى
معجم البلدان	ياقوت الحموى ـ دار صادر
المغرب	ابن سعيد المغربى
معجم الأدباء	ياقوت الحموى
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة	محمد رضا كحالة ـ دار العلم للملايين.
معارك الشرق الأوسط	محمود صبحى وأحمد شوقى عبدالرحمن ـ مطبعة مصر .
موجز تاريخ الشرق الأوسط	جورج كيرك George Kirk
محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية	محمد الخضرى – المكتبة التجارية
المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول	د. شكرى فيصل
المثنى بن حارثة الشيبانى	محمد فرج – أعلام العرب ٣١
المحلى	ابن حزم الأندلسى – مطبعة الإمام
مفصل جغرافية العراق	طه الهاشمى.
نهاية الأرب فى أخبار الفرس والعرب	مؤلف مجهول من القرن ١١
نسب الخيل	ابن هشام الكلبى.
النقود العربية.	د. عبد الرحمن فهمى محمد، سلسلة م.الثقافية١٠٣
الوثائق التاريخية فى عصر النبوة والخلافة الراشدة	د. محمد حميد الله الحيدر ابادى
وفيات الأعيان	ابن خلكان
الوافى بالوفيات	الصفدى
The Arabs in History.	B. Lewis
The Arabs.	Edward Atiaoh
Strategy of the Indirect Approach.	Liddell Hart
The Arab Conquest in Central Asia.	Grill
Oxford Atlas.	
The University Atlas.	



فهرس الخرائط والأشكال

ثانيًا: الأشكال

فهرس الأعلام[1]

أ - المسلمون

(١) عندما ترد هذه الإشارة (-) بين رقمين تعني أن العلم مكرر في الصفحات ما بين الرقمين.

ب - الأعاجم

محتويات الكتاب

المؤلف فى سطور

- مصرى من مواليد القاهرة ١٩٢٦ .
- بكالوريوس تجارة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٦ .
- البنك الأهلى المصرى ١٩٤٦-١٩٧٩ ، مدير عام .
- بنك فيصل الإسلامى المصرى حتى أغسطس ١٩٨٧ ، نائب المحافظ .
- المصرف الإسلامى الدولى حتى فبراير ١٩٨٩ ، عضو مجلس الإدارة والعضو المنتدب .
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٧٩ .
- عضو نادى الأهرام للكتاب .

كتب أخرى للمؤلف

- علوم القرآن .
- حجر رشيد والهيروغليفية .
- النعمان ابن مقرن المزنى - من أعلام الفتوح الإسلامية .
- طليحة بن خويلد الأسدى - من أعلام الفتوح الإسلامية .
- محمد ابن مسلمة الأنصارى - من أعلام الفتوح الإسلامية .
- عُدى ابن حاتم الطائى - من أعلام الفتوح الإسلامية .
- أطلس تاريخ القاهرة .
- أطلس الفتوح الإسلامية .
- النقط فوق الحروف .
- التقويم الهجرى والميلادى لسنى الفتح .
- الكويت من جزيرة العرب .